الباب الثالث

الإيمان ببقية أركان الإيمان

وفيه فصول:

الفصل الأول:

الإيمان بالملائكة

الفصل الثاني:

الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين

الفصل الثالث:

الإيمان بالرسل (النبوات)

الفصل الرابع:

الإيمان باليوم الآخر

الفصل الخامس:

الإيمان بالقدر خيره وشره

الفصل الأول
الإيمان بالملائكة

وفيه مبحثان:

المبحث الأول:

أصناف الملائكة

المبحث الثاني:

المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المبحث الأول

أصناف الملائكة

الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، وهم خلق كريم خُلق من نور[1]، وكَّلهم الله بكثير من شئون العالم العلوي والسفلي، وقد عرض الشارح لقضية الإيمان بهم من خلال نصوص الإمام الطحاوي رحمه الله في عدة مواطن، كما رد على منكري الملائكة من الفلاسفة وغيرهم من القائلين بأن الملائكة هي القوى العقلية، ولا وجود لهم حقيقة، وفيما يلي بيان لأهم ما ذكره في ذلك.

قال: (ص٣٣٥)

أما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝﴾ [النازعات: ٥]. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝﴾ [الذاريات: ٤]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل.

وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم[2].

---

(١) أخرج مسلم في الزهد باب في أحاديث متفرقة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم»، (٤/ ٢٢٩٤ ـ ح٢٩٩٦)، وأخرجه كذلك أحمد في المسند (٦/ ١٥٣، ١٦٨).

(٢) واتفق المفسرون على تفسير المدبرات أمراً بأنها الملائكة مع اختلافهم في نحو =

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكّل بالجبال ملائكة(١)، ووكّل بالسحاب والمطر ملائكة(٢)، ووكّل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها(٣)، ثم وكّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكّل بالموت ملائكة(٤)، ووكّل بالسؤال في القبر

قوله(والنازعات غرقاً الناشطات نشطاً...) الآيات من سورة النازعات، ومن سورة الذاريات، ومن سورة الصافات ويأتي قريباً شيء من ذلك.

قال ابن كثير (٤٤٦/٤) في تفسير قوله (فالمدبرات أمراً): قال علي ومجاهد وعطاء وأبوصالح والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي: هي الملائكة، قال: ولم يختلفوا في هذا. اهـ.

(١) كما في حديث عائشة المتفق عليه في عرض النبي ﷺ الإسلام على أهل الطائف وفيه قال جبريل للنبي ﷺ: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم...» الحديث أخرجه البخاري في بدء الخلق باب إذا قال أحدكم آمين (٣١٢/٦، ٣١٣ ـ ح٣٢٣١)، وأخرجه مسلم في الجهاد باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٤٢٠/٣ ـ ح١٧٩٥).

(٢) كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢﴾ [الصافات: ٢] فقد فسرها ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وطائفة من السلف أنها الملائكة. انظر تفسير ابن كثير (٢/٤)، وأخرج مسلم في الزهد باب الصدقة على المساكين (٢٢٨٨/٤ ـ ح٢٩٨٤) حديث الرجل الذي سمع صوتاً في السماء يقول: (اسق حديقة فلان)... الحديث، وسيأتي أن ميكائيل عليه السلام موكّل بالمطر.

(٣) أخرج البخاري في القدر فاتحته عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «وكّل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟، فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه» (٤٧٧/١١ ـ ح٦٥٩٥).

(٤) يأتي الكلام على الحفظة والكتبة وملك الموت بعد ذلك حيث ذكره المصنف رحمه الله تعالىٰ.

ملائكة[1]، ووكَّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكَّل بالشمس والقمر ملائكة، ووكَّل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة[2]، ووكَّل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة[3].

فالملائكة أعظم جنود الله ومنهم: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ①﴾[4]، ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ②﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③﴾[5] ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④﴾[6]

---

(١) وهما منكر ونكير كما جاء مصرحاً باسميهما في أحاديث، منها: ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة في الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (٣/٣٨٣ ـ ح١٠٧١) وقال حسن غريب، قال الحافظ في الفتح (٣/٢٣٧): (وذكر بعض الفقهاء أن اسم الذين يسألان المذنب: منكر ونكير، وأن اسم الذين يسألان المطيع: مبشر وبشير). اهـ، ولم يتعقبه الحافظ، إلا أن مثل هذا يحتاج إلى دليل، والحديث المتقدم هام في ذلك والله أعلم.

(٢) وهم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر: ٧١]، وفي قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧﴾ [الملك: ٨]، ومنهم مالك المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ⑰⑰﴾ [الزخرف: ٧٧].

(٣) ومنهم خزنتها المذكورين في قوله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ⑰③﴾ [الزمر: ٧٣].

(٤) قيل المرسلات هي الملائكة وقيل الرمل وقيل الريح واستظهره الحافظ ابن كثير في تفسيره كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، قال: وهكذا العاصفات هي الرياح... وكذا الناشرات هي الرياح... انظر تفسير ابن كثير (٤/٤٥٩).

(٥) قيل الناشرات هي الملائكة وقيل الرياح واستظهره ابن كثير كما سبق قريباً، قال: (التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل). اهـ من الموضع السابق.

(٦) في المطبوع (المكتب الإسلامي والتركي) جاءت (والفارقات فرقاً)، (والملقيات ذكراً) =

﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ ﴾[1].

ومنهم ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ ﴾ ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ ﴾[2] ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ ﴾[3].

ومنهم ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ ﴾[4]. ومعنى جمع التأنيث في ذلك كلّه: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: «فرقة» و «طائفة» و «جماعة»[5].

بالواو وأثبت هنا الموافق للمصحف وكذا فعل بشير عيون في تحقيقه، وإن كان الشارح لم يرد الآيات وإنما أراد الاقتباس، لذا وجب التنويه.

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/٤٥٩): (وقوله تعالىٰ: (فالفارقات فرقًا فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً) يعني الملائكة، قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي والثوري، ولا خلاف ههنا، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقى إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الحق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره). اهـ.

(٢) قيل في النازعات والناشطات: الملائكة حين تنزع أرواح بني آدم فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط وهو قوله: (والناشطات نشطاً)، وقيل: هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار، وقيل: النجوم، وقيل: العسر في القتال قال ابن كثير (٤/٤٦٦): والصحيح الأول وعليه الأكثرون.

(٣) قيل في السابحات: هي الملائكة، وقيل: الموت، وقيل : النجوم، وقيل غير ذلك. وقيل في السابقات نحو ذلك. انظر تفسير ابن كثير (٤/٤٦٦).

(٤) قيل في الصافات: الملائكة صفوف في السماء، وفي الزاجرات: الملائكة تزجر السحاب، وقيل: مازجر الله تعالىٰ عنه في القرآن، والتاليات: الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله. انظر تفسير ابن كثير (٤/٢) .

(٥) وإنما احترز الشارح بذلك لأن المشركين كانوا يقولون: الملائكة إناث بنات الله، ورد الله عليهم في غير موضع من القرآن كقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩]، وفي قوله: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ =

ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب[1]، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش[2]، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس[3]، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ «المَلَك» يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله للواحد القهار، هم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٧]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠].

فهم عباد مكرَمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم[4]، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به، ولا يقصر عنه،

= وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ [النجم: ٢١]، وفي قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠﴾ [الصافات: ١٥٠]، وغير ذلك.

(١) ويدل على ذلك حديث الرجل الذي قتل (٩٩ نفساً) ثم قتل الراهب فأتم المائة وفي آخره: (فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب)، وأخرجه البخاري في كتاب الأنبياء آخر أبوابه (٦/٥١٢ ـ ح٣٤٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وأخرجه مسلم في التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله من حديث أبي سعيد (٤/٢١١٨ ـ ح٢٧٦٦)، وفي حديث أبي هريرة عند النسائي وفيه (إذا حُضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة... وإن الكافر إذا حضر أتته ملائكة العذاب) أخرجه في الجنائز باب ما يلقى المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (٤/٨ ـ ح١٨٣٣).

(٢) قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾ [الحاقة: ١٧].

(٣) وفيه حديث (أطت السماء) وسيذكره الشارح قريباً.

(٤) قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦]، وأخرج مسلم في المساجد في فاتحته من حديث حذيفة =

ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل(١)، الموكلون بالحياة، فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم(٢).

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزِّلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السموات بهم، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله(٣)، ويدخل البيتَ المعمور منهم كل يوم سبعون ألفا لا يعودون

= مرفوعًا وفيه (جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) (١/ ٣٧١ ـ ح٥٢٢).

(١) أخرج مسلم في المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤ ـ ح٧٧٠) من حديث عائشة أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه في قيام الليل: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل..) وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة: ٩٨]، فلولا مزيتهم لما أفردوا بعد العام.

(٢) أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالرحمن بن سابط قال: (يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر). اهـ. كذا بالدر (٨/ ٤٠٥)، وانظر البداية والنهاية (١/ ٤١)، والفتح (٦/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٣) أخرج الترمذي في الزهد باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم..» من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن السماء أطت، وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله...» وقال: حديث حسن غريب (٤/ ٤٨٢ ـ ح٢٣١٢)، وأخرجه ابن ماجه في الزهد باب الحزن والبكاء من حديث أبي ذر =

إليه آخر ما عليهم[1].

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعا اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف.

وتارة يذكر حفَّهم بالعرش وحملهم له، ومراتبهم من الدنو[2].

وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والق والإخلاص. قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البق ٢٨٥]. ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزا ٤٣]. ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]. ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ [الزمر: ٧٥]. ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. ﴿فَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ [فصلت: ٣٨]. ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١١]. ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦.

= (٢/ ١٤٠٢ ـ ح٤١٩٠)، وأخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، وصححه الأرناؤوط بشواهده تعليقه على شرح الطحاوية (ص٤٠٩).

(١) في حديث الإسراء الذي أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ذكر الملائكة من حد مالك بن صعصعة قال ﷺ: «ثم رفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا الب المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما علي (٦/ ٣٠٢، ٣٠٣ ـ ح٣٢٠٧)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب الإسراء من حديث أ وحديث مالك بن صعصعة (١/ ١٤٥، ١٤٩ ـ ح١٦٢، ١٦٤).

(٢) في طبعة التركي والأرناؤوط وبشير عيون (وبراءتهم من الذنوب)، وأشارت ط المكتب الإسلامي أن ذلك في الأصل.

﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المطففين: ٢١]. ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾ [الصافات: ٨].

وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم. فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحدَ الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان(١).

وعند شرحه رحمه الله لجملة (ونؤمن بالكرام الكاتبين..)

قال الشارح: (ص٤٣٨ـ٤٤١)

قوله: ونُؤْمِنُ بِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ، فَإِنَّ الله قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار ١٠ـ١٢].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس: ٢١].

---

(١) وانظر في الإيمان بالملائكة ماجمعه الحافظ ابن كثير في أول تاريخه البداية والنهاية في باب ذكر خلق الملائكة وصفاتهم (١/٣٥ ـ ٤٩) وفي كتاب العظمة لأبي الشيخ جملة من ذلك، وقد أحال عليه الحافظ في الفتح عند شرحه لباب ذكر الملائكة في كتاب بدء الخلق (٦/٣٠٨).

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهارِ، ويجتمعون في صلاة الصُّبح وصلاةِ العصر، فيصعدُ إليه الذين كانوا فيكم، فيسألُهم، وهُوَ أعلمُ بهم: كيفَ تركتُم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وفارقناهم وهم يصلون»[1].

وفي الحديث الآخر: «إنَّ معكم من لا يُفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماعِ، فاستحيوهم، وأكرموهم»[2].

جاءَ في التفسير: اثنان عن اليمين وعن الشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه، وواحد أمامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، بدَلاً، حافظان وكاتبان[3].

وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدَر الله خلَّوا عنه[4].

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه فأخرجه في المواقيت باب فضل صلاة العصر (٢/ ٣٣ ـ ح٥٥٥)، وأخرجه في بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٦/ ٣٠٦ ـ ح٣٢٢٣)، وأخرجه كذلك في التوحيد باب (تعرج الملائكة والروح إليه)، وباب كلام الرب مع جبريل (١٣/ ٤١٥ ـ ح٧٤٢٩)، وأخرجه مسلم في المساجد باب فضل صلاة الصبح والعصر (١/ ٤٣٩ ـ ح٦٣٢). وقوله: (هو أعلم بهم) لفظ الصحيحين لذا أثبته، والموجود بالطبعات والنسخ اختلاف يسير عن ذلك.

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب باب ما جاء في الاستتار عند الجماع (٥/ ١٠٤ ـ ح٢٨٠٠)، وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وضعفه الشيخ الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية، وفي الضعيفة (٢٢٤١).

(٣) جاء هذا بلفظه في تفسير ابن كثير في تفسير آية الرعد (٢/ ٥٠٣).

(٤) أخرجه الطبري من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس (٧/ ٣٥١ ـ ٢٠٢١٦، ٢٠٢١٧) ط. دار الكتب العلمية، ورواية سماك عن عكرمة مضطربة كما قاله

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقدْ وُكِّل به قَرينُه من الجنِّ، وقرينُه من الملائكةِ»، قالوا: وإياك يارسول الله؟ قال: «وإيَّاي، إلا أنَّ الله أعانَني عليه فأسلمَ، فلا يأمُرُني إلا بخير»[1]. الرواية بفتح الميم من «فأسلمَ» ومن رواه «فأسلمُ» برفع الميم فقد حرَّف لفظه. ومعنى فأسلم، أي: فاستسلم وانقاد لي، في أصح القولين، ولهذا قال: «فلا يأمرني إلا بخير»، ومن قال: إن الشيطان صار مؤمنًا فقد حرَّف معناه، فإن الشيطان لا يكون مؤمنًا[2].

= في التقريب في ترجمة سماك (١/ ٣٣٢).

(١) أخرجه مسلم في المنافقين باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه (٤/ ٢١٦٧ - ٢٨١٤) من حديث ابن مسعود، وأخرجه كذلك أحمد (١/ ٣٨٥). ولفظه عند أحمد (ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق).

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر: والخلاف في ضبط الميم من «فأسلم» - خلاف قديم. والراجح فيها الفتح: كما قال الشارح، ولكن المعنى الذي رجحه غير راجح. فقال القاضي عياض في مشارق الأنوار (٢/ ٢١٨): «رويناه بالضم والفتح. فمن ضم رد ذلك إلى النبي ﷺ أي: فأنا أسلم منه. ومن فتح رده إلى القرين أي: أسلم من الإسلام. وقد روي في غير هذه الأمهات: فاستسلم. يريد بالأمهات: (الموطأ والصحيحين)، والتي بنى عليها كتابه، وإن كان هذا الحديث لم يروه مالك ولا البخاري.
وقال النووي في شرح مسلم: «هما روايتان مشهورتان. واختلفوا في الأرجح منهما، فقال الخطابي: الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض الفتح.
وأما الحافظ ابن حبان، فإنه روى الحديث في صحيحه (٢/ ٢٨٣، من المخطوطة المصورة)، وجزم برواية فتح الميم، وقال: «في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى لم يكن يأمره إلا بخير، لا أنه كان يسلم منه وإن كان كافراً». وهذا هو الصحيح الذي ترجحه الدلائل. وادعاء الشارح أن هذا تحريف للمعنى. «فإن الشيطان لا يكون مؤمناً» انتقال نظر. فأولاً: إن اللفظ في الحديث «قرينه من الجن»، ولم يقل: «شيطانه». وثانياً: إن الجن فيهم المؤمن والكافر =

ومعنى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] قيل: حفظهم له من أمر الله، أي الله أمرهم بذلك، يشهد لذلك قراءة من قرأ: يحفظونه بأمر الله[1].

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل. وكذلك النية، لأنها فعل القلب[2]، فدخلت في عموم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٢].

ويشهد لذلك قوله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا همَّ عبدي بسيئة فلاتكتبُوها عليه، فإن عمِلها فاكتبُوها عليه سيئةً، وإذا هم عبدِي بحسنةٍ فلمْ يعمَلْها فاكتبُوها له حسنةً، فإن عمِلها فاكتبُوها عشراً»[3].

= والشياطين هم كفارهم، فمن آمن منهم لم يسم شيطاناً. اهـ. (من تعليق الشيخ الألباني ص٤٣٩، ٤٤٠) ونقله كذلك في طبعة الرسالة ص٥٦٠.

(١) جاء في تفسير ابن كثير (٢/٥٠٤): (قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي، وقال قتادة: (يحفظونه من أمر الله) قال: وفي بعض القراءات: يحفظونه بأمر الله) أهـ.

(٢) راجع في ذلك مجموع الفتاوى (٤/٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب (يريدون أن يبدلوا كلام الله) (١٣/٤٦٥ ـ ح٧٥٠١) من حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت (١/١١٧ ـ ح١٢٨)، وأخرجه البخاري عن ابن عباس في الرقاق باب من هم بحسنة أو سيئة (١١/٣٢٣ ح٦٤٩١) ولفظه: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»، وأخرجه مسلم من حديث ابن عباس في الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت (١/١١٨ ـ ح١٣١).

وقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: ذاك عبد يريد أن يعمل سيئةً، وهو أبصَرُ به، فقال: ارقُبُوه فإنْ عمِلَها فاكتبُوها بمثلِها، وإن تركها فاكتبُوها له حسنةً، إنَّما تركها مِنْ جَرَّاي»[1]، خرجاهما في «الصحيحين» واللفظ لمسلم.

قوله: وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ المَوْتِ، المُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ العَالَمِينَ.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الم السجدة: ١١]. ولا تعارض هذه الآية قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] لأن ملَك الموت يتولى قبضَها واستخراجها، ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، ويتولَّونها بعدَه[2]، كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره، وحُكمه وأمره، فصحَّتْ إضافَةُ التوفي إلى كلٍ بحسبه.

---

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ، وليس في البخاري لفظ (من جراي) من حديث أبي هريرة أو ابن عباس، وقد أخرجه مسلم في الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١/١١٨ ح١٢٩)، وقوله (من جراي) أي: من أجلي بالقصر وأيضاً بالمد (جرائي).

٢) كما في حديث البراء الطويل في سؤال القبر وسيأتي بتمامه في فصل (الإيمان باليوم الآخر).

المبحث الثاني

المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر

هذه المسألة على الرغم من أن الشارح أطال فيها الكلام إلا أنه نصَّ على قلة ثمرتها وأنها قريب مما لا يعنى، ثم اعتذر عن الإطالة لأنه رأى بعض الجاهلين يجعل الملائكة خُدّاماً لبنى آدم فأراد أن يبين أن هذا تفضيل مجانب للأدب، فقد يكون الملك أفضل، لذا أورد النصوص، والأدلة وناقشها.

وقد بدأ بذكر الأقوال فقال: (ص٣٣٧):

وقد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، ويُنسب إلى أهل السنة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة وإلى المعتزلة تفضيل الملائكة.

وأتباع الأشعري على قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولاً. وحكي عن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة وحكى ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية.

وقالت الشيعة: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة. ومن الناس من فضَّل تفضيلاً آخر(١).

---

(١) منهم شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه ذهب إلى أن الملائكة أفضل في الحال وصالحو بني آدم أفضل في المآل، وهو مذهب دقيق لما له من الأدلة التي هي خلاصة أدلة الفريقين ووجه الجمع بينها، وسيأتي الإشارة لشيء من ذلك قريباً وانظر مجموع الفتاوى =

ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر: إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض[1].

مذهب الشارح

قال: (ص٣٣٨)

وكنتُ ترددت في الكلام على هذه المسألة، لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لايَعني و«من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه»[2].

والشيخ رحمه الله لم يتعرض إلى هذه المسألة بنفي ولا إثبات، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصداً، فإن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه وقف في الجواب عنها على ما ذكره في «مآل الفتاوى»، فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب، وعدَّ منها: التفضيل بين الملائكة والأنبياء وهذا هو

= (٤/٣٤٣ - ٣٩٢)، (١٠/٣٠٠).

(١) هذا احتراز جيد، وفيه الرد على متأخري الصوفية الذين يجعلون أفضل المخلوقات نبينا محمد ﷺ، ثم يجعلون المفاضلة بين سائر الأنبياء غيره وبين الملائكة، وسيحتاج الشارح إلى هذا الاحتراز عند مناقشة بعض الأدلة.
والإطلاق الذي يذكره هؤلاء يحتاج إلى نص صريح، فالخلاف في الملائكة هنا يدل على عدم وجود النص الصريح، وكذلك فضل العرش عظيم ولا يقدر عظم العرش إلا الله، ونبينا محمد ﷺ هو سيد ولد آدم، وهو أهل أن يكون سيد المخلوقات، إلا أن الشأن في ثبوت ذلك عقيدة، ولا يكون إلا بالنص الصريح فإن ثبت قلنا به، والله أعلم.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٤/٤٨٣ - ح٢٣١٧) من حديث أبي هريرة وقال غريب، وابن ماجه في الفتن باب كف اللسان في الفتنة (٢/٣١٥ - ح٣٩٧٦) من حديثه، وصححه الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية (ص٢٩١)، والأرناؤوط بشواهده في تعليقه على شرح الطحاوية (ص٣٤٢).

الحق[1]، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل، فإن هذا لو كان من الواجب لبُيّن لنا نصاً. وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤].

وفي «الصحيح»: «إن الله فرضَ فرائضَ فلا تُضيعوها، وحدَّ حُدوداً فلا تعتَدوها، وحرَّمَ أشياءَ فلا تنتهكُوها، وسكتَ عن أشياءَ ـ رحمةً بكُمْ غيرَ نسيانٍ ـ فلا تسألُوا عنها»[2].

فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة نفياً وإثباتاً والحالة هذه أولى.

ولا يقال: إن هذه المسألة نظيرُ غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة، لأن الأدلة هنا متكافئة، على ما أشيرُ إليه، إن شاء الله تعالى. وحملني على بسط الكلام هنا: أن بعض الجاهلين يُسيئون الأدب

---

(١) أشار في طبعة مؤسسة الرسالة إلى أن قوله (وهذا هو الحق) لم ترد في إحدى النسخ، وضرب عليها بالحذف في نسخة أخرى، وهي بنسختين ثالثة ورابعة، والسياق لا يمنعها بل تتعلق بها الجملة بعدها فيما أظن والله أعلم.

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٤)، والحاكم (٤/ ١١٥) من حديث أبي ثعلبة الخشني وسكت عنه، وله شاهد ذكره في مجمع الزاوئد (٧/ ٥٥)، قال: أخرجه البزار ورجاله ثقات. اهـ، وذلك من حديث أبي الدرداء بنحوه، وله شاهد من حديث سلمان عند الترمذي (٤/ ١٩٢ ـ ح١٧٢٦)، وقال غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، ثم نقل عن البخاري أنه قال: ما أراه محفوظاً، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه على شرح الطحاوية بشواهده.

والحديث إن ثبت يدلُّ على (سكوت) الرب تعالىٰ، إلا أن السكوت قد يُراد به تارة عن إظهار الكلام وإعلامه، وقد يراد به السكوت عن التكلم، وهذان المعنيان المعروفان في السكوت لا يصحان على قول من قال بأن كلام الله معنى واحد قائم بذاته كما تقوله الكلابية ومن وافقهم وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٦/ ١٧٩).

بقولهم: كان الملَك خادماً للنبي ﷺ! أو: أن بعض الملائكة خدَّام بني آدم!! يعنون الملائكة الموكَّلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع، المجانبة للأدب.

والتفضيل إذا كان على وجه التنقص أو الحمية والعصبية للجنس لا شكّ في رده، وليس هذه المسألة نظير المفاضلة بين الأنبياء، فإن تلك قد وُجد فيها نصٌّ، ، وهو قوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: ٥٥] وقد تقدم الكلام في ذلك عند قول الشيخ: (وسيد المرسلين)، يعنى النبي ﷺ[1].

والمعتبر رجحانُ الدليل، ولا يُهجر القول لأن بعض أهل الأهواء وافق عليه، بعد أن تكون المسألة مختلفاً فيها بين أهل السنة.

وقد كان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول أولاً بتفضيل الملائكة على البشر، ثم قال بعكسه، والظاهر أن القول بالتوقف أحد أقواله.

والأدلة في هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل، لا على الأفضلية، ولا نزاع في ذلك.

وللشيخ تاج الدين الفزاري رحمه الله مصنف سماه «الإشارة في البشارة» في تفضيل البشر على الملك، قال في آخره: اعلم أن هذه المسألة من بِدَع علم الكلام، التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبيرٌ من المقاصد.

---

(١) وبترتيب هذا الكتاب يأتي هذا الكلام في فصل النبوات بعد الإيمان بالملائكة.

ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع من الكلام فيها جماعةٌ من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه، لم يخلُ كلامه عن ضعف واضطراب. انتهى.

الأدلة والمناقشة:

فمما استُدل به على تفضيل الأنبياء على الملائكة: أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، وذلك دليل على تفضيله عليهم، ولذلك امتنع إبليس واستكبر وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الآخرون: إن سجود الملائكة كان امتثالاً لأمر ربهم، وعبادةً وانقياداً وطاعةً له، وتكريماً لآدم وتعظيماً، ولا يَلْزَمُ من ذلك الأفضلية، كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام تفضيل ابنه عليه، ولا تفضيل الكعبة على بني آدم بسجودهم إليها امتثالاً لأمر ربهم[(١)].

وأما امتناع إبليس، فإنه عارَض النص برأيه وقياسه الفاسد بأنه خير منه[(٢)]، وهذه المقدمة الصغرى، والكبرى محذوفة، تقديرها: والفاضل لايسجد للمفضول! وكلتا المقدمتين فاسدة:

أما الأُولى: فإن التراب يفوق النار في أكثر صفاته، ولهذا خان إبليسَ عنصُره، فأبىٰ واستكبر، فإن من صفات النار طلب العلوّ والخفةَ، والطيش

(١) هناك فرق بين السجود (للكعبة)، والسجود (إلى الكعبة) قال شيخ الإسلام: «والساجد للشيء يخضع له بقلبه، ويخشع له بفؤاده، وأما الساجد إليه فإنما يولي وجهه وبدنه إليه ظاهرًا». اهـ. انظر مجموع الفتاوى (٤/٣٥٨).

(٢) وانظر في الرد على حجة إبليس هذه: مجموع الفتاوى (١٥/٥،٦)، ومختصر الصواعق المرسلة (١/٦٤).

والرعونة، وإفساد ما تصل إليه ومحقه وإهلاكه وإحراقه، ونَفَعَ آدمَ عنصرُه في التوبة والاستكانة، والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب المغفرة، فإن من صفات التراب الثبات والسكون والرصانة، والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل، وما دنا منه ينبتُ ويزكو، وينمو ويبارك فيه، ضد النار.

وأما المقدمة الثانية، وهي: أن الفاضل لايسجد للمفضول؛ فباطلة، فإن السجود طاعة لله وامتثال لأمره، ولو أمر الله عباده أن يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضلُ من الساجد، وإن كان فيه تكريمه وتعظيمه، وإنما يدل على فضله. قالوا: وقد يكون قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، بعد طرده لامتناعه عن السجود له، لا قبله لينتفي الاستدلال به.

ومنه: أن الملائكة لهم عقول وليست لهم شهوات، والأنبياء لهم عقول وشهوات، فلما نهَوا أنفسهم عن الهوى، ومنعوها عما تميل إليه الطباع، كانوا بذلك أفضل.

وقال الآخرون: يجوز أن يقع من الملائكة من مداومة الطاعة وتحمل العبادة وترك الوني والفتور فيها، ما يفي بتجنب الأنبياء شهواتهم، مع طول مدة عبادة الملائكة.

ومنه: أن الله تعالى جعل الملائكة رسلاً إلى الأنبياء، وسفراء بينه وبينهم. وهذا الكلام قد اعتلَّ به من قال: إن الملائكة أفضل، واستدلالهم به أقوى، فإن الأنبياء المرسلين، إن ثبت تفضيلهم على المرسَل إليهم بالرسالة، ثبت تفضيل الرسل من الملائكة إليهم عليهم، فإن الرسول لمَلَكي يكون رسولاً إلى الرسول البشري.

ومنه: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، الآيات.

قال الآخرون: وهذا دليل على الفضل لا على التفضيل، وآدم والملائكة لا يعلمون إلا ما علَّمهم الله، وليس الخَضِرُ أفضلَ من موسى، بكونه علم ما لم يعلمه موسى، وقد سافر موسى وفتاه في طلب العلم إلى الخَضِر، وتزوّد لذلك، وطلب موسى منه العلم صريحاً، وقال له الخَضِر: إنك على علم من علم الله، إلى آخر كلامه(١).

ولا الهدهد أفضلَ من سليمان عليه السلام، بكونه أحاط بما لم يحط به سليمان عليه السلام علماً.

ومنه: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

قال الآخرون: هذا دليل الفضل لا الأفضلية، وإلا يلزم تفضيله على محمد ﷺ. فإن قُلْتُم: هو من ذريته؟ فالجواب فمن ذريته البرُ والفاجر، بل يوم القيامة إذا قيل لآدم: «ابعَث من ذريتك بعثاً إلى النّار»، «يبعثُ من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النّار، وواحداً إلى الجنَّة»(٢). فما بال هذا التفضيل سرى إلى هذا الواحد من الألف فقط.

ومنه: قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: «ما خَلَقَ الله خلقاً أكرمُ عليه من محمدٍ ﷺ»، الحديث(٣)، فالشأنُ في ثبوته وإن صح عنه فالشأن في ثبوته في نفسه، فإنه يحتمل أن يكون من الإسرائيليات.

---

(١) أخرجه البخاري مطولاً في تفسير الكهف (٨/ ٤٠٩ ـ ح٤٧٢٥).

(٢) وأخرجه البخاري في الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج (٦/ ٣٨٢ ـ ح٣٣٤٨)، وأخرجه بأرقام(٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) أيضاً، وأخرجه مسلم في الإيمان باب قوله (يقول الله لآدم أخرج بعث النار...) (١/ ٢٠١ ـ ح٢٢٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، وصححه الذهبي، وصحح الألباني إسناده، وصححه كذلك الأرناؤوط، وقد يكون هذا اجتهاداً من عبدالله بن سلام رضي الله عنه، وقد يكون من الإسرائيليات كما أشار إليه الشارح رحمه الله.

ومنه: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الملائكة قالت: ياربنًا، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نُسبحُ بحمدكَ، ولا نأكلُ ولا نشربُ ولا نلهُو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة؟ قال: لا أجعلُ صالحَ ذريةِ من خلقتُ بيدي كمن قلت له: كن فكان»** أخرجه الطبراني(١).

وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رُوَيم أنه قال: أخبرني الأنصاري، عن النبي ﷺ: **«أن الملائكة قالوا»**، الحديث، وفيه: **«ويناموْنَ ويستريحون، فقال الله تعالى: لا، فأعادوا القولَ ثلاثَ مرات، كل ذلكَ يقولُ: لا»**(٢).

والشأن في ثبوتهما، فإن في سنديهما مقالاً، وفي متنهما شيئاً، فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة؟ وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون؟ وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم، متشوفون إلى ما سواها من شهوات بني آدم؟ والنوم أخو الموت، فكيف يغبطونهم به؟ وكيف يظن بهم أنهم يغبطونهم باللهو، وهو من الباطل؟.

قالوا: بل الأمر بالعكس، فإن إبليس إنما. وسوس إلى آدم ودلّاه

---

(١) عزاه للطبراني في مجمع الزوائد (١/ ٨٢) قال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه إبراهيم بن عبدالله بن خالد المصيصي، وهو كذاب متروك، وفي إسناد (الأوسط): طلحة بن زيد، وهو كذاب أيضاً. اهـ. وقد بحث الشيخ الألباني تضعيف للحديث والذي يليه في بحث جيد في تعليقه على شرح الطحاوية فليراجع (ص٣٤٢ ـ ٣٤٥).

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في كتاب السنة (ص١٦٨ ـ ح٩٠٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٣١٦ ـ ٣١٧)، وضعفه الألباني كما تقدم وكذلك الأرناؤوط في تعليقه على شرح الطحاوية (ص٤١٨) لجهالة الأنصاري أحد رواته.

بغرور، إذ أطمعه في أن يكون مَلَكاً بقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٢٠]. فدلّ أن أفضلية الملك أمر معلوم مستقرّ في الفطرة، يشهد لذلك قوله تعالى، حكاية عن النسوة اللاتي قطّعن أيديهن عند رؤية يوسف ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝﴾ [يوسف ٣١]. وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

قال الأولون: إن هذا إنما كان لما هو مركوز في النفس: أن الملائكة خلْق جميل عظيم، مقتدرٌ على الأفعال الهائلة، خصوصاً العرب، فان الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قالوا إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ومنه قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [آل عمران: ٣٣].

قال الآخرون: قد يُذكر «العالمون»، ولايقصد به العموم المطلق، بل في كل مكان بحسبه، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ١]. ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الحجر: ٧٠]. ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الشعراء: ١٦٥]

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الدخان: ٣٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝﴾ [البينة: ٧] والبرية: مشتقة من البَرْء، بمعنى الخلق، فثبت أن صالحي البشر خير الخلق.

قال الآخرون: إنما صاروا خيرَ البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة في هذا الوصف أكمل، فإنهم لا يسأمون ولا يفترون، فلا يلزم أن يكونوا خيراً من الملائكة. هذا على قراءة من قرأ «البريئة»،

بالهمز[1] وعلى قراءة من قرأ بالياء، إن قلنا: إنها مخففة من الهمزة، وإن قلنا: إنها نسبة إلى البَرَى وهو التراب، كما قاله الفراء[2] فيما نقله عنه الجوهري في «الصحاح»، يكون المعنى: أنهم خير من خلق من التراب، فلا عموم فيها، إذاً لغير من خلق من التراب.

قال الأولون: إنما تكلمنا في تفضيل صالحي البشر إذا كملوا، ووصلوا إلى غايتهم وأقصى نهايتهم، وذلك إنما يكون اذا دخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلى، وحباهم الرحمن بمزيد قربه، وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم.

وقال الآخرون: الشأن في أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها؟ فإن كان قد ثبت لهم أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سُلِّم المدعَى، وإلا فلا[3].

ومما استُدل به على تفضيل الملائكة على البشر: قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، لأنه لايجوز أن يقال: لن يستنكف الوزير أن يكون خادماً للملك، ولا الشرطي أو الحارس! وإنما يقال: لن يستنكف الشرطي أن

---

(١) قرأ بذلك نافع وابن عامر، من قولهم برأ الله الخلق، وهي قراءة ابن ذكوان انظر الوافي (ص٣٨١)، وتفسير البغوي (٨/٤٩٧).

(٢) انظر معاني القرآن (٣/٢٨٢) للفراء، وكتاب معاني القرآن يعتمد فيه كثيراً على اللغة دون الرجوع في كثير من المواطن إلى تفسير السلف، ولذا قال الإمام أحمد: (كنت أحسب الفراء رجلاً صالحاً حتى رأيت كتابه في معاني القرآن) انظر مجموع الفتاوى (١٦/١٥٥، ١٥٩).

(٣) ولعل هذا مأخذ من قال: إنهم أفضل في المآل كما تقدمت الإشارة إليه في أول المبحث عن شيخ الإسلام ابن تيمية.

يكون خادماً للملك ولا الوزير. ففي مثل هذا التركيب يُترقى من الأدنى إلى الأعلى.

فإذا ثبت تفضيلهم على عيسى عليه السلام ثبت في حق غيره إذ لم يقل أحد إنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض.

أجاب الآخرون بأجوبة، أحسنها، أو من أحسنها: أنه لا نزاع في فضل قوة المَلَك وقدرته وشدته وعظم خلقه، وفي العبودية خضوع وذل وانقياد، وعيسى عليه السلام لايستنكف عنها ولا مَن هو أقدرُ منه وأقوى وأعظم خَلقاً، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠]. ومثل هذا يقال بمعنى: إني لو قلت ذلك لادعيتُ فوق منزلتي، ولست ممن يدعى ذلك.

أجاب الآخرون: أن الكفار كانوا قد قالوا: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] فأُمر أن يقول لهم: إني بشر مثلكم أحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب، لستُ من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجةً إلى الطعام والشراب، فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة.

ومنه ما روى مسلم بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ»**[1] ومعلوم أن قوة البشر لا تداني قوة الملك ولا تقاربها.

قال الآخرون: الظاهر أن المراد المؤمن من البشر ـ والله أعلم ـ

---

(١) أخرجه مسلم في القدر باب الأمر بالقوة وترك العجز (٤/٢٠٥٢ ـ ح٢٦٦٤).

فلا تدخل الملائكة في هذا العموم.

ومنه ما ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: **«يقولُ الله تعالى: أنا عندَ ظَن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرَني، فإن ذكرَني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرَني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهُم»** الحديث[1]. وهذا نص في الأفضلية.

قال الآخرون: يحتمل أن يكون المراد خيرًا منه للمذكور لا الخيرية المطلقة[2].

ومنه ما رواه إمام الأئمة محمد بن خزيمة، بسنده في كتاب «التوحيد» عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بيْنا أنا جالسٌ إذ جاء جبريلُ، فوكز بين كتفي، فقمت إلى شجرة مثل وكْرَي الطير، فقعدَ في إحدَاها، وقعدتُ في الأخرى، فَسَمَتْ وارتفعت حتى سدَّت الخافقين، وأنا أُقلِّبُ بصري، ولو شئتُ أن أمسّ السماء مسستُ، فنظرت إلى جبريلَ كأنَّه حِلسٌ لاطيء، فعرفتُ فضلَ علمِهِ بالله عليَّ»**، الحديث[3].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب «ويحذركم الله نفسه» (١٣/ ٣٨٤ ـ ح٧٤٠٥)، وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله تعالىٰ (٤/ ٢٠٦١ ـ ح٢٦٧٥/ ٢).

(٢) ويحتمل أن تكون الخيرية حصلت للمجموع على المجموع، فالجانب الذي فيه رب العزة خيراً من الجانب الذي ليس هو فيه بلا ارتياب، وقواه في الفتح (١٣/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (ص٢٠٩ ـ ٢١٠)، وفي إسناده الحارث بن عبيد الإيادي وهو ضعيف، وأخرجه البزار كما بالكشف (١/ ٤٧ ـ ح٥٨) وقال: وهذا لا نعلم رواه إلا أنس، ولا رواه عن أبي عمران إلا الحارث وكان بصرياً مشهوراً، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٧٥): ورجاله رجال الصحيح، وقد ضعف الحديث الشيخ الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية، وضعف الأرناؤوط إسناده أيضاً في تعليقه =

قال الآخرون: في سنده مقال فلا نسلم الاحتجاج به إلا بعد ثبوته.

وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل. ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة رضي الله عنه في الجواب عنها، كما تقدم. والله أعلم بالصواب.

= على شرح الطحاوية، والحلس: ما يوضع تحت السرج على الدابة، واللاطيء: المنثني الذي لزق طرفاه، وانظر في هذه المسألة أيضاً ما أورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٤٩)، وما أورده الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٨٦وما بعدها)، وما جاء في تفسير القرطبي (١/ ٢٨٩)، والرازي (٢/ ٢١٥ ـ ٢٣٥)، حول ذلك في تفسير آية النساء (رقم١٧٢)، وذكر الزمخشري أدلة تفضيل الملائكة إلا أنه استخدم عبارات غير لائقة في حق النبي ﷺ، قال في الفتح (١٢/ ٣٨٨): «وقد أفرط الزمخشري في سوء الأدب هنا، وقال كلاماً يستلزم تنقيص المقام المحمدي، وبالغ الأئمة في الرد عليه في ذلك وهو من زلاته الشنيعة». اهـ.

الفصل الثاني
الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول:

تقرير اعتقاد أهل السنة

المبحث الثاني:

أقوال الناس في (كلام الله)

المبحث الثالث:

الرد على من زعم أن القرآن مخلوق

المبحث الرابع:

الرد على من زعم أن الكلام معنى
واحد قائم بذات الله تعالى

المبحث الخامس:

القراءات السبع

المبحث الأول

تقرير اعتقاد أهل السنة

أولاً: الإيمان بجملة الكتب

قال الشارح: (ص٣٥٠)

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بما سمّى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءَها وعددَها: إلا الله تعالى[1].

ثانيًا: الإيمان بالقرآن وأنه كلام الله تعالىٰ غير مخلوق

قال الشارح: (٣٥١):

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب. فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء. قال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة: ١٣٦]. إلى قوله: ﴿ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ١-٢]. ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥ ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝١٨٤ ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها، وأنها نزلت من عنده. وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو[1]. وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]. ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧]. ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]. ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨] وأمثال ذلك في القرآن كثيرة.

وقال أيضا: (ص١٧٩):

قوله: وإنَّ القُرآن كَلامُ اللهِ[2]، مِنْهُ بَدا بلا كَيْفِيَّةٍ قَوْلاً، وأنْزَلَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَحْياً، وصَدَّقَهُ المُؤْمِنُونَ علىٰ ذلكَ حقاً، وأيْقَنُوا أنَّه كلامُ اللهِ تعالىٰ بالحَقيقَة، لَيْسَ بمَخْلوقٍ كَكَلام البَرِيَّةِ. فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أنَّهُ كَلامُ البَشرِ فَقَدْ كفَرَ، وقَدْ ذَمَّهُ اللهُ وعَابَهُ وأوْعَدَهُ بسَقَرَ، حَيْثُ قال تعالىٰ: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المدثر: ٢٦]، فلمَّا أوْعَدَ اللهُ بسَقَرَ لِمَنْ قال: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر: ٢٥]، عَلِمْنا وأيقنَّا أنه قَولُ خَالِقِ البَشر، ولا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَر[3].

---

(١) راجع الكلام على العلو في المبحث الخامس من فصل (الأسماء والصفات).

(٢) قال الشارح (ص١٨٠):

«وقول الشيخ رحمه الله: (وإن القرآن كلام الله)، إن: بكسر الهمزة، عطف على قوله: (إن الله واحد لا شريك له)، ثم قال: (وإن محمداً عبده المصطفى)، وكسر همزة إن في المواضع الثلاثة لأنها معمول القول، أعني قوله في أول كلامه: نقول في توحيد الله». اهـ.

(٣) وقد اعتمد شيخ الإسلام هذه الجملة في بيان أنها اعتقاد أبي حنيفة رحمه الله حيث أن الطحاوي ذكر في أول عقيدته أن ذلك اعتقاد الإمام. انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٠٧).

هذه قاعدة شريفة، وأصل كبير من أصول الدين، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس، وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

الأدلة على أن الله يتكلم

وقال: (١٨٢ ـ ١٨٣)

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم. قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨ ﴾ [يس: ٥٨].

فعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا أبصارهم، فإذا الرب جلَّ جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم ياأهل الجنة، وهو قول الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨ ﴾ [يس: ٥٨]، قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم، ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، وتبقى بركته ونوره عليهم في ديارهم». رواه ابن ماجه وغيره[1]. ففي هذا الحديث إثبات صفة الكلام، وإثبات الرؤية، وإثبات العلو، وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معني واحدًا[2]، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٥، ٦٦ ـ ح١٨٤)، وأخرجه البزار (٣/ ٦٧ ح ٢٢٥٣ كشف) عن جابر أيضًا، قال البوصيري: هذا إسناد ضعيف لضعف الرقاشي، انظر الزوائد (ص٥٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩٨): رواه البزار وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي وهو ضعيف وضعفه الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية (١٨٢).

(٢) يشير إلى الرد على الكلابية ومن وافقهم، وسيأتي بيان شبهتهم والرد عليهم في المبحث الرابع من هذا الفصل إن شاء الله تعالىٰ.

﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فأهانهم بترك تكليمهم، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم، وهو الصحيح، إذ قد أخبر في الآية الأخرى أنه يقول لهم في النار: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين، لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواء، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدةٌ أصلاً.

وقال البخاري في «صحيحه»: باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة، وساق فيه عدة أحاديث(١). فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم. فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة. وأعلى نعيمها وأفضله الذي ما طابت لأهلها إلا به(٢).

قال: (ص١٨١)

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]. فكان عبادُ العجل ـ مع كفرهم ـ أعرَف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضاً. وقال تعالى عن العجل أيضاً ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩]. فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل.

---

(١) ذكر البخاري في هذا الموضع حديث أبي سعيد قال النبي ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة هل رضيتم...» الحديث، وذكر حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يوماً يحدث وعنده رجل من أهل البادية ـ «أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال: أولست فيما شئت...» الحديث، انظر كتاب التوحيد (١٣/ ٤٨٧ ـ فتح الباري).

(٢) راجع مبحث الرؤية في الباب الأول فصل (الأسماء والصفات)

المبحث الثاني

أقوال الناس في الكلام

اختلفتْ أقوالُ الناسِ في كلام الربِّ سبحانَهُ بسببِ اختلافِهم في أصلين

الأولُ: تعلق الكلام بالمشيئة والقدرة

الثاني: قيامُهُ بالذات

فالأصلُ الأول: اختلفَ الناسُ فيه، فمنهُم من قال إنَّ الكلامَ يتعلقُ بمشيئتهِ سبحانه ومنهم من قال إنه لايتعلق بالمشيئة.

فالذين قالوا إنهُ لا يتعلقُ بالقدرةِ والمشيئةِ فهمْ طائفتانِ الأشاعرة، والاقترانيةُ وكلاهما جعلهُ قائما بذات الله منْ جهة المعْنى ولكنَّ الأشاعرة نفوا قيام اللفظ بذات الرب، والاقترانية جعلوا الألفاظ قديمة مرتبة بوجودها لا ذاتها.

وأما الذين قالوا إنه متعلق بالمشيئة والإرادة فهم طائفتان طائفة قالت إنه غير قائم بذات الرب بل منفصل عنه وهم الجهمية والمعتزلة المتأخرون وطائفة قالت إنه بمشيئته وإردادته وقائم بذاته وافترقوا إلى طائفتين:

الطائفة الأولى: من نفى قدم النوع وقال إنه حادث في نوعه مبدوء به، وهم الكرامية.

الطائفة الثانية: من أثبت كمال الرب قالوا: ولم يكن ربنا في وقت ما مسلوبًا هذا الكمال فلا يزال يتكلم إذا شاء كيف شاء متى شاء وهو قول أهل السنة.

وهناك أقوال أخرى في مسألة الكلام فمن ذلك مذهب ابن حزم هناك أربعة أنواع من القرآن. ويأتي الإشارة إليه في مبحث مراتب الوجود[1].

---

(١) في المبحث الرابع من هذا الفصل.

وأيضًا هناك مذهب الفلاسفة وسبق عرض مجمل مذهبهم في القرآن عند عرض أقوالهم في أركان الإيمان(١).

وهناك أيضًا مذهب الاتحادية وسبق بيان أصولهم في مبحث توحيد الربوبية وقد عرض له الشارح في الرد على المعتزلة(٢). وغير ذلك من الأقوال ويمكن أن تتداخل(٣).

وقد جمع الشارح هذه الأقوال في شرحه فقال: (ص١٧٩-١٨٠)

وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال:

أحدها: أنَّ كلامَ اللهِ هو ما يفيض على النفوس من المعاني، إما من العقل الفعَّال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة(٤) والمتفلسفة.

هو الفايض من العقل الفعال على النفوس من المعاني

---

(١) في الباب الأول.

(٢) في المبحث الثالث الشبهة العقلية الثانية.

(٣) وقد أشار الشارح أيضاً إلى قول القرامطة فقال: (٣٥٤):
[وقوله: «فعلَّمه سيد المرسلين، صريح بتعليم جبرائيل إياه، إبطالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه [إلهاماً]».
وانظر في ذلك أيضاً العقل والنقل (١٠/ ٢٠٤ - ٢٠٦)، وانظر في اختلاف الناس في مسألة الكلام ومبناها على الأصلين المذكورين: مختصر الصواعق (٢/ ٣٢٩)، وشرح النونية (١/ ٢٧٨) وما بعدها حيث يقول ابن القيم رحمه الله:

وإذا أردت مجامع الطرق التي ... فيها افتراق الناس في القرآن
فمدارها أصلان قام عليهما ... هذا الخلاف هما له ركنان
هل قوله بمشيئة أم لا وهل ... في ذاته أم خارج هذان
أصل اختلاف جميع أهل الأرض في الـ ... قرآن فاطلب مقتضى البرهان اهـ.

ثم ذكر أقوال الطوائف، فلله دره فقد أتى بذلك منظوماً وقد عجز عنه غيره منثوراً.

٤) الصابئون: فلاسفة من عبدة الكواكب ويقولون بالعقول والنفوس كالكلدانيين والكنعانيين واليونانيين ويطلق أيضًا على طائفة آمنت بالله واليوم الآخر وهم أقدم في الزمان من النصارى وفيهم نزل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المائدة: ٦٩] وأيضًا ذكرهم الله في موضعين آخريين في آية البقرة: ٦٢، وآية الحج: ١٧ بالنصب (والصابئين)، وقد =

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عُبّر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عُبّر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعري وغيره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث(١).

وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا قول الكرَّامية وغيرهم(٢).

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يُحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في «المطالب العالية»(٣).

= أشار شيخ الإسلام إلى توجيه آية المائدة بالرفع (الصابئون) فقال: «ورفع اللفظ ليكون عطفًا على المحل، فإن المعطوف على المحل مرتبته التأخير ليشعر أنهم مؤخرون في المرتبة وإن قدموا في الزمن». اهـ من كتاب الصفدية (٢/ ٣٠٤).

(١) وهو مذهب الاقترانية، ومنهم ابن الزاغوني، انظر شرح النونية (١/ ٢٨٧) وقد جاء في طبعة مؤسسة الرسالة استبعاد أن يكون من أهل الحديث من يقول بهذا القول الذي لا أصل له في الكتاب والسنة، وقد يكون الحامل لصاحب هذا القول على ما قال هو أنه أراد إثبات الحرف والصوت في كلام الله، ولم يستطع الرد على شبهة (حدوث الكلام وقدمه)، فأثبته قديمًا بصوت وحرف، وقد ذكر شيخ الإسلام: «أن هذا قول السالمية وغيرهم ممن هو من أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف وأنهم وافقوا المعتزلة في قولهم أنه حروف وأصوات، ووفقوا الكلابية في قولهم إنه قديم وأحدثوا قولاً مبتدعًا» انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يراجع في ذلك مسألة حوادث لا أول لها في الباب الأول فصل (الأسماء والصفات)، وانظر مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٨٣).

(٣) وهذا في حقيقته نفي لكلام الرب تعالىٰ، فهو عندهم ما يخلق الله في نفس المخلوق كموسى، يقولون إن الله خلق في موسى علماً سمع به كلامه، فالرب لم يتكلم ولم =

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي[1].

= يسمع موسى الكلام، وإنما يرجع الجميع إلى ما يحدثه الله من العلم به فحسب، انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ١٣٢)، ويقولون في الرؤية ما يقولونه في الكلام انظر العقل والنقل (٢/ ٣٠٦)، وصاحب المعتبر أبو البركات بن ملكا يميل لقول الفلاسفة، وقد نقل عنه شيخ الإسلام قوله في العقل والنقل في غير ما موضع ورد عليه انظر مجموع الفتاوى (٢/ ١٦٤ ـ ١٧٢).

(١) وقول الماتريدية هو قول الكلابية والأشعرية إلا أننا يمكن أن ندرك فرقين

الأول: أن الماتريدية يمنعون سماع كلام الله، وإنما يسمع ما هو عبارة عنه، فموسى عندهم إنما سمع صوتًا وحروفًا خلقها الله دالة على كلامه.

أما الأشعرية فعندهم سماع الكلام جائز، وإن ما سمعه موسى هو الكلام النفسي وذلك بخلق إدراك في المستمع، وهذا حاصل مذهب الرازي المتقدم.

الثاني: أن العبارة المخلوقة ـ عندهم ـ إنما حدثت بفعل للرب قائم به قديم غير حادث ففعل الرب غير مفعوله عندهم، إلا أنهم جعلوه قديما.

قال ابن القيم في النونية (١/ ٣٤٥)

سموه قديمًا قاله أتباع شيخ العالم النعمان
وخصومهم لم ينصفوا في رده بل كابروهم ما أتوا ببيان

ويشير بقوله (وخصومهم) إلى الأشعرية والكلابية فإن الفعل عندهم هو المفعول لا غير.

وانظر في المسائل المختلف فيها بين الأشعرية والماتريدية اتحاف السادة المتقين للزبيدي (٢/ ١٦ ـ ١٨) ورسالة موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/ ٤٨٧ وما بعدها)، ورسالة الماتريدية دراسة وتقويمًا للحربي (ص٤٩٤)، ويلاحظ أن الحجة هنا مع الماتريدية على الأشعرية لأنهم ألزموهم بقولهم في الإرادة، لأن الأشعرية تجعلها إرادة واحدة قديمة ويتأخر المراد، فكذا قال الماتريدية بتكوين قديم ويتأخر المخلوق إلا أن هذا لا يلزم أهل الحديث القائلين: بالقدم النوعي للإرادة، وأن لكل فعل إرادة تخصه، فالقديم عزم، والحادث قصد، أما على قولهم فالإرادة أو التكوين تكون قديمة ثم بعد ذلك بما لا يتناهى من تقدير الأوقات يوجد مراد المخلوق من غير سبب، =

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه[١].

✓ **وتاسعها**: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة[٢].

= وهذا معلوم البطلان في بداءة العقول فإن الإرادة أو الخلق (التكوين) كان موجوداً مع القدرة، فإن كان هذا مؤثراً تاماً استلزم وجود الأثر عقبه لا معه في الزمان كما تقول الفلاسفة، ولا متراخياً عنه كما زعمه أكثر المتكلمين، وهذا كقول العقلاء: قطعته فانقطع، وكسرته فانكسر، فالانكسار والانقطاع يقعان عقب الكسر والقطع لا يتراخى الأثر ولا يقارن، وهكذا إذا وجد الخلق (التكوين) لزم وجود المخلوق عقبه، ليس قديمًا بالتكوين ولا متراخيًا وهذا واضح بحمد الله. وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٧٨ ـ ٣٨٢)، وانظر في مسألة التكوين أيضًا: منهاج السنة (٢/ ٣٩١).

(١) وإنما قال بذلك فراراً من إلزامات خصوم الأشعرية لهم عندما ردوا مسألة أن الكلام يطلق على المعنى عند الإطلاق، ولكن هذا الفرار نقض عليهم أصلهم في ردهم على المعتزلة. قال في شرح النونية(١/ ٢٨٤) في رده على الدواني: «وألزم السلفُ وأصحابُك المعتزلة أن الكلام لا يكون إلا لمن قام به الكلام، ثم نقض من نقض من أصحابك هذا الإلزام، وقالوا: يطلق على المعنى واللفظ بالاشتراك، فانهدم أصلهم الذي ردوا به على المعتزلة» اهـ. وقد بين شيخ الإسلام كيفية انهدام أصلهم فقال: «لأن أصل قولهم: إن الكلام لا يقوم إلا بالمتكلم لا يقوم بغيره، فلو جوزوا أن يكون لله ما هو كلام له، وهو مخلوق منفصل عنه، بطل هذا الأصل» اهـ. انظر مجموع الفتاوى (١٧/ ١٤٨)، وانظر أيضًا(١٧/ ٧٠).
وسيأتي الكلام على مسمى الكلام عند الإطلاق في المبحث الرابع من هذا الفصل إن شاء الله تعالىٰ.

(٢) راجع لمعرفة أقوال الناس في الكلام: منهاج السنة (٢/ ٣٥٨ ـ ٣٦٣)، وقد نقله الشارح هنا بلفظه تقريباً مع اختصار، ومجموع الفتاوى (١٢/ ٤٢ ـ ٥٢)، (١٢/ ١٦٣ ـ ١٧٣)، (٩/ ٢٨٣)، (١٧/ ١٦٥ ـ ١٦٦)، ودرء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٠٥)، ومختصر الصواعق (٢/ ٢٨٦ ـ ٢٩٣)، والصفدية (٢/ ٨٤ وما بعدها).

ولما كان مذهب المعتزلة والجهمية هو المذهب الذي انفرد بالقول أن كلام الرب غير قائم بذاته لذا قال الشارح: (ص١٨٨)

وبالجملة، فأهل السنة كلهم، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف، متفقون على أن كلام الله غير مخلوق. ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات[1]، أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً[2]، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وأن نوع الكلام قديم[3].

وقال: في موضع آخر (ص٣٥٤)

وقوله: ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين.

تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق.

وقرّر الشارح أن كلام الطحاوي هو مذهب أهل السنة فقال: (ص١٨٩)

والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء، وأن نوع كلامه قديم. وكذلك ظاهر كلام الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر، فإنه قال: والقرآن في المصاحف

---

(١) وهو مذهب الأشعرية والماتريدية ومن قبلهم الكلابية ويأتي نقضه في المبحث الرابع.

(٢) وهو مذهب الكرامية، وسبق الرد عليهم في مسألة تسلسل الحوادث في الزمن الماضي في الباب الأول (فصل الأسماء والصفات).

(٣) وهو مذهب أهل السنة وعبارة (لم يزل متكلمًا إذا شاء وكيف شاء) هي المنقولة عن ابن المبارك وأحمد وغيرهما انظر النبوات (١٣٦)، وسبق أيضًا تقرير مسألة دوام فاعلية الرب تعالىٰ في الباب الأول (فصل الأسماء والصفات)، وانظر في معنى الحادث منهاج السنة (٢/ ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨١).

مكتوب، وفي القلوب محفوظ، على الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ منزَّل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، والقرآن غير مخلوق[1]، وما ذكر الله

---

(١) الذي في الفقه الأكبر (ولفظنا بالقرآن مخلوق، وكتابتنا له مخلوقة، وقراءتنا له مخلوقة، والقرآن غير مخلوق)، ومسألة اللفظ من المسائل المشهورة فقد جاء عن الإمام أحمد أن من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، وذلك لأن قوله (لفظي) يحتمل المصدر، ويحتمل اسم المفعول الذي هو القرآن، فالأول المراد به فعل العبد، والثاني كلام الرب، فلا يصح إطلاق لفظ المخلوق عليهما معًا ولا النفي كذلك، بل الواجب التفصيل فأفعال العباد مخلوقة لله، والقرآن كلام الله غير مخلوق، ولهذا احترز الإمام أبوحنيفة بعد قوله: (ولفظنا بالقرآن مخلوق) فقال: (والقرآن غير مخلوق)، فعلم أنه أراد باللفظ فعل العبد انظر في مسألة اللفظ مجموع الفتاوى (١٢/ ١٧٠، ٤٣٠، ٤٣١)، (٧/ ٦٥٥ ـ ٦٦٢)، (١٦/ ٣٩٠، ٣٩١)، (١٧/ ٣٤ ـ ٣٧)، والعقل والنقل (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦٦)، مختصر الصواعق(٢/ ٣٠٦، ٣٠٧)، كما نبه شيخ الإسلام على أن هذه الكلمة (اللفظ) في الأصل تدل على الطرح والرمي فلا ينبغي أطلاقها على القرآن كما بالعقل والنقل (١/ ٢٦٨).

وقال ابن القيم رحمه الله في النونية (١/ ٣٢٥):

وتـلاوة القـرآن فـي تعـريفهـا ... بـالـلام قـد يعنـى بهـا شيئـان
يعنـى بهـا المتلـو فهـو كـلامـه ... هـو غيـر مخلـوق كـذى الأكـوان
ويـراد أفعـال العبـاد كصوتهـم ... وأدائهـم وكـلاهمـا خلقـان
هـذا الـذي نصت عليـه أئمـة الـ ... إسـلام أهـل العلـم والعـرفـان
وهـو الـذي قصـد البخـاري الرضـى ... لكـن تقـاصـر قـاصـر الأذهـان
عن فهمـه كتقـاصـر الأفهـام عن ... قـول الإمـام الأعظـم الشيبـاني
في اللفظ لما أن نفي الضدين عنـ ... ـه واهتـدى للنفـي ذو عـرفـان
فـاللفـظ يصلـح مصدراً هـو فعلنـا ... كتلفـظ بتـلاوة القـرآن
وكـذاك يصلـح نفـس ملفـوظ بـه ... وهـو القـران فـذان محتمـلان
فلـذاك أنكـر أحمـد الإطـلاق فـي ... نفـي وإثبـات بـلا فـرقـان اهـ.

وقد ذكر البخاري أن من تكلم بإثبات أو بنفي لهذه المسألة واحتج بقول الإمام =

في القرآن عن موسى عليه السلام وغيره، وعن فرعون وإبليس ـ فإن ذلك كله كلام الله إخباراً عنهم، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله لا كلامهم، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويتكلم لا ككلامنا انتهى[(١)].

فقوله: «ولما كلّم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته» يُعلم منه أنه حين جاء كلمه ـ لا أنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً يقول ياموسى[(٢)] ـ كما يفهم ذلك[(٣)] من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ففهم منه الرد على من يقول من أصحابه إنه معنى واحد قائم بالنفس لايتصور أن يسمع، وإنما يخلق الله الصوت في الهواء، كما قال أبو منصور الماتريدي وغيره.

وقوله: «الذي هو من صفاته لم يزل» ردٌ على من يقول إنه حدث له

= أحمد بن حنبل، لم يفهم مراده لدقة معناه، انظر خلق أفعال العباد للبخاري (ص٦٢) تحقيق محمد السعيد بسيوني ط.مكتبة التراث ـ مصر، وانظر العقل والنقل (٢٦٦/١)، ومختصر الصواعق (٣١١/٢ ـ ٣١٣).

(١) انظر شرح الفقه الأكبر (ص٥٠).

(٢) وهو قول من قال: إن الله إذا تكلم بشيء أثبته، وكذا الأفعال عنده، وأن الحادث يستمر قيامه بذات الله إلى الأبد ولا يتعلق إعدامه بقدرته ومشيئته تعالىٰ، وهو قول الكرامية وقولهم هذا مما يعرف فساده بالبديهة كما يقوله شيخ الإسلام وانظر في شبهتهم والرد عليها في مجموع الفتاوى (١٥٤/١٣ ـ ١٥٧)، (٣٨٣/١٦، ٤٥٧)، (١٦٣/٦، ٢٩٣).

(٣) قوله (كما يفهم ذلك. . .الخ) متعلق بقوله: «يُعلم منه أنه حين جاء كلمه والجملة الاحترازية معترضة فلينتبه.

وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلما[١].

وقال: (ص١٩٤-١٩٥)

وكلام الطحاوي رحمه الله يرد قول من قال: إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه، وأن المسموع المنزَّل المقروء والمكتوب ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عنه. فإن الطحاوي رحمه الله يقول: كلام الله منه بدا.

وكذلك قال غيره من السلف، ويقولون: منه بدا، وإليه يعود. وإنما قالوا: منه بدا، لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون إنه خلق الكلام في محل، فبدأ الكلام من ذلك المحل، فقال السلف: «منه بدا» أي هو المتكلم به، فمنه بدا، لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]. ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]. ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

ومعنى قولهم: وإليه يعود: يرفع من الصدور والمصاحف، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف . كما جاء ذلك في عدة آثار[٢].

---

(١) وهو قول الكرامية، وعندهم فعل الله وكلامه حادث النوع والآحاد فرارًا من القول بحوادث لا أول لها، وسبق بيان المسألة في الباب الأول (فصل الأسماء والصفات)، وانظر مجموع الفتاوى (١٢/ ١٩١).

(٢) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٧٤)،(١٨/ ٣٠٤)،(٣/ ١٧٤)،(١٧/ ٨٣)، وقد نقل هذا الفقرة علي القاري في شرح الفقه الأكبر (ص٤٩) مصرحاً بنسبته للشارح، وقيل: يعود إليه أي صفة قائمة به لا منفصلة عنه. انظر شرح العقيدة الواسطية لهراس (ص٩٠) ط. دار الثقافة بمكة.

وأما الآثار التي أشار إليها المصنف فمنها ما أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن باب ذهاب القرآن والعلم عن حذيفة بن اليمان قال رسول الله ﷺ: «يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله عز وجل فلا يبقى في الأرض منه آية...» الحديث (٢/ ١٣٤٤، ١٣٤٥) =

وقوله بلا كيفية: أي: لا تعرف كيفية تكلمه به، **قولا**: ليس بالمجاز.

وقال: (ص١٩٦)

وقوله: وَصَدَّقَهُ المُؤْمِنُون علىٰ ذلكَ حَقّاً.

الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وإنزاله، أي هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهم السلف الصالح، وأن هذا حق وصدق.

وقوله: وأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلامُ اللهِ تَعالىٰ بالحَقِيقَةِ لَيْسَ بمَخْلُوقٍ كَكَلامِ البَرِيَّةِ.

رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر. وفي قوله: **بالحقيقة** رد على من قال: إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وإنما هو الكلام النفساني لأنه لايقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به أن هذا كلام حقيقة(١).

وقال: (ص١٩٠)

وبالجملة: فكل ما تحتج به المعتزلة مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته، وأنه يتكلم إذا شاء، وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء(٢)، فهو حق يجب قبوله.

وما يقوله من يقول: إن كلام الله قائم بذاته، وأنه صفة له، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف فهو حق يجب قبوله والقول به. فيجب الأخذ بما في قول كل من الطائفتين من الصواب، والعدول عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما(٣).

= ـ ح٤٠٤٩)، وقال في الزوائد (٥٢٣): إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٣) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(١) ويأتي زيادة بيان لذلك في المبحث الرابع في الرد على من قال إنه معنى واحد قائم بالله.

(٢) وهذا الحدوث غير مخلوق وانظر مجموع الفتاوى (٦/ ٣٢٠ ـ ٣٢٦).

(٣) نقل ذلك علي القاري في شرح الفقه الأكبر وعزاه لشارح عقيدة الطحاوي (ص٤٨).

المبحث الثالث

المعتزلة والجهمية

الرد على من زعم أن القرآن مخلوق

الجهمية ومتأخرو المعتزلة قالوا: إن القرآن مخلوق وخالفوا إجماع المسلمين وقد حاولوا الاستدلال بالمعقول والمنقول على ذلك بأدلة هي في الحقيقة تحمل الرد عليهم، وقد يحاول البعض منهم مصانعة جمهور المؤمنين بألفاظ مجملة لئلا ينالهم الأذى وقد فند الشارح شبه هؤلاء جميعًا وفيما يلي بيان ذلك:

قال رحمه الله مبينًا سبب ضلال المعتزلة وأنه هو الإعراض عن الهدي المتلقى من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة:

قال: (ص١٨٨، ١٨٩)

وقد يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنه غير مخلوق ومرادهم أنه غير مختلق مفترى مكذوب، بل هو حق وصدق[١]، ولا ريب أن هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين.

والنزاع بين أهل القبلة إنما هو في كونه مخلوقاً خلقه الله، أو هو كلامه الذي تكلم به وقام بذاته؟ وأهل السنة[٢] إنما سئلوا عن هذا، وإلا كونه

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٧٢)، منهاج السنة(٢/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) ومن هنا كانت استدلالات أهل السنة كالإمام أحمد على مخالفيهم من القرآن والسنة، وقد بين الإمام أحمد بذلك طريقة المناظرة الصحيحة التي ينبغي الالتزام بها مع أمثال هؤلاء، إلا أنه إن كان المخاطب ممن لا يرعوي بالشرع كالفلاسفة، فمناظرته تكون بفساد قوله في صريح العقل، وبيان تناقضه ونحو ذلك. انظر في ذلك العقل والنقل لشيخ الإسلام (١/ ٢٣١).

مكذوباً مفترى مما لا ينازع مسلم في بطلانه. ولاشك أن مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع - معترفون بأن اعتقادهم في التوحيد والصفات والقدَر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة، ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما يزعمون أن عقلهم دلهم عليه، وإنما يزعمون أنهم تلقوا من الأئمة الشرائع.

ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزاع ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطه، فرّق بها بينهم. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقال: (ص١٨٠)

وقوله: كَلَامَ اللهِ مِنْهُ بَدَا بِلا كَيْفِيةٍ قَوْلاً.

رد على المعتزلة وغيرهم فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يَبْدُ منه، كما تقدم حكاية قولهم.

الشُبَه العقليَة

١ـ شبهة التجسيم والتشبيه

قال: (ص١٨١ـ١٨٢)

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم؟ فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفتْ شبهتهم.

ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس: ٦٥] فنحن نؤمن أنها تتكلم، ولا نعلم كيف تتكلم.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١]، وكذلك تسبيح الحصا(١)

---

(١) حديث تسبيح الحصى أخرجه البزار عن أبي ذر قال: «كنت أتبع خلوات رسول الله ﷺ وأتعلم منه، فذهبت يومًا، فإذا هو قد خرج فاتبعته، فجلس في موضع فجلست عنده، فقال: يا أباذر ما جاء بك، قال: قلت: الله ورسوله، قال: فجاء أبوبكر فسلم وجلس عن يمين النبي ﷺ فقال له: ما جاء بك يا أبابكر، قال: الله ورسوله، قال: فجاء عمر فجلس عن يمين أبي بكر فقال: يا عمر ما جاء بك، قال: الله ورسوله، ثم جاء عثمان فجلس عن يمين عمر فقال: يا عثمان ما جاء بك، قال: الله ورسوله، قال: فتناول النبي ﷺ سبع حصيات أو تسع حصيات فسبحن في يده حتى سمع لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن» وأخرجه البزار كما في كشف الأستار في كتاب علامات النبوة (٣/ ١٣٥، ١٣٦ ـ ح٢٤١٣، ٢٤١٤)، وأخرجه الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين (٦/ ١٥٢ ـ ح٣٥٢٠، ٣٥٢١) وصحح المحقق سنده وقال رجاله ثقات، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩٩): «رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات» =

والطعام[1] وسلام الحجر[2]، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من الرئة المعتمد على مقاطع الحروف.

وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله بقوله: منه بدا بلا كيفية قولا، أي: ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به[3]. وأكَّد هذا المعنى بقوله «قولاً» أتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت للحقيقة النافي للمجاز في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء ـ أحد القراء السبعة[4] أريد أن

= وفي بعضهم ضعف» أهـ. وقال أيضًا (٥/١٧٩): رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أبي حميد وهو ضعيف، وله طرق أحسن من هذا في علامات النبوة، وإسناده صحيح. أهـ (يشير إلى طريق البزار آنفة الذكر)، والحديث تكلم عليه البيهقي في الدلائل (٦/٦٥)، والحافظ ابن حجر في الفتح (٦/٥٩٢) وقواه بطرقه الأرناؤوط في تعليقه على شرح الطحاوية (ص١٧٥، ١٧٦)، وقال الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم (١١٤٦): صحيح.

(١) أخرج البخاري في المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٦/٥٨٧ ـ ح٣٥٧٩) عن ابن مسعود قال: «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ، أي بين يدي رسول الله ﷺ»، وأخرجه الترمذي في المناقب باب في آيات نبوة النبي ﷺ (٥/٥٥٧ ـ ح٣٦٣٣) وقال حسن صحيح.

(٢) أخرج مسلم في الفضائل باب فضل النبي وتسليم الحجر عليه (٤/١٧٨٢ ـ ح٢٢٧٧) عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»**، وأخرجه الترمذي في المناقب باب إثبات نبوة النبي ﷺ (٥/٥٥٣ ـ ح٣٦٢٤).

(٣) انظر مجموع الفتاوى (١٢/٤٠، ٢٧٤، ٥١٧).

(٤) أبو عمرو بن العلاء هو زبان بن العلاء بن عمار أبو عمرو التميمي البصري المتوفى سنة١٥٤هـ انظر شرح الشاطبية لعبدالفتاح القاضي (ص١٨) توزيع مكتبة السوادي بجدة.

قرأ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ﴾، بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله! فقال أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فبُهت المعتزلي!

وقال أيضًا في موضع آخر (ص١٩١)

وإن زعموا أنهم فروا من ذلك حذراً من التشبيه، فلا يثبتوا صفة غيره، فإنهم إذا قالوا: يعلم لا كعلمنا، قلنا: ويتكلم لا كتكلمنا، وكذلك سائر الصفات. وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة، أو حي لا تقوم به الحياة؟ وقد قال ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[(١)]، فهل يقول عاقل إنه ﷺ عاذ بمخلوق؟ بل هذا كقوله: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك»[(٢)]. وكقوله: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[(٣)] وكقوله: «وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتنا»[(٤)]. كل هذه من صفات الله تعالى. وهذه المعاني مبسوطة في مواضعها، وإنما أشير إليها هنا إشارة.

٧ـ إضافة القرآن إلى الرب تعالى

قالت المعتزلة: إضافة القرآن للرب تعالى يدل على أنه مخلوق لأن الإضافة إضافة تشريف مثل بيت الله وناقة الله وهذا تلبيس لأن البيت

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤١٩) وصحح الألباني والأرناؤوط إسناده في تخريجهما للشرح.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٢ ـ ح٤٨٦).

(٣) أخرجه مسلم في السلام باب استحباب وضع يده على موضع الألم (٤/١٧٢٨ ـ ح٢٢٠٢).

(٤) أخرجه أبوداود في الأدب باب ما يقول إذا أصبح (٤/٣١٩ ـ ح٥٠٧٤)، وأخرجه النسائي في الاستعاذة باب الاستعاذة من الخسف (٨/٢٨٢ ـ ح٥٥٢٩، ٥٥٣٠)، وأخرجه ابن ماجه في الدعاء باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح (٢/١٢٧٣ ـ ح٣٨٧١)، وصححه الحاكم (١/٥١٨) ووافقه الذهبي وصححه الألباني في تخريجه.

والناقة أعيان قائمة بنفسها بينما الكلام معنى وصفة لايقوم بنفسه، وقد بين الشارح ذلك في غير ما موضع ومن ذلك ما ذكره الشارح في معرض حكاية كلام المعتزلة.

قال: (ص١٨٠، ١٨١)

قالوا: وإضافته إليه إضافة تشريف، كبيت الله وناقة الله، يحرفون الكلام عن مواضعه! وقولهم باطل، فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهي مخلوقة له، كبيت الله وناقة الله، بخلاف إضافة المعاني، كعلم الله، وقدرته، وعزته، وجلاله، وكبريائه، وكلامه، وحياته، وعلوه، وقهره - فإن هذا كله من صفاته، لايمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً[1].

وقال: أيضاً (ص٤٤٢)

فينبغي أن يُعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان: صفاتٌ، لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفاتٌ له، وكذا وجهه ويدُه سبحانه.

والثاني: إضافةُ أعيان منفصلة عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول

---

(١) قال ابن القيم في النونية (٣١٧/١):

فإضافة الأوصاف ثابتة لمن ... قامت به كإرادة الرحمن
وإضافة الأعيان ثابتة له ... ملكًا وخلقًا ما هما سيان
فانظر إلى بيت الإله وعلمه ... لما أضيفا كيف يفترقان
وكلامه كحياته وكعلمه ... في ذي الإضافة إذ هما وصفان
لكن ناقته وبيت إلهنا ... فكعبده أيضاً هما ذاتان
فانظر إلى الجهمي لما فاته الـ ... ـحق المبين واضح الفرقان
كان الجميع لديه باباً واحداً ... والصبح لاح لمن له عينان

والروح، فهذه إضافةُ مخلوق إلى خالقه، لكن إضافةٌ تقتضي تخصيصاً وتشريفاً، يتميز بها المضاف عن غيره[١].

وقال: أيضاً (١٨٤)

وكيف يصح أن يكون متكلماً بكلام يقوم بغيره؟ ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامَه! وكذلك أيضاً ما خلقه في الحيوانات[٢]، ولا يفرَّق حينئذ بين نَطق وأنطَق. وإنما قالت الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١]، ولم تقل: نطق الله[٣]، بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه في غيره، زوراً كان أو كذباً أو كفراً أو هذياناً!! تعالىٰ الله عن ذلك.

وقد قرر ذلك الاتحادية، فقال ابن عربي:

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه!![٤]

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامتْ بغيره لصح أن يقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصيراً لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره! ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٣٤، ٤٣٥)، (٤/ ٢٢٠).

(٢) لعله قدَّم الكلام على الجمادات لأن كلام الجمادات (كالطعام والحصى والحجر) بغير إرادة فلا ينازع المعتزلة فيه منازعتهم في المتكلم بإرادته من الحيوانات، فيجعلونه مخلوقاً له لا لله والله أعلم.

(٣) يعني إذا كان كلام الله هو ماخلقه في غيره، فالجلود خلق فيها الكلام فيكون كلامه وعليه تقول (نطق الله)، ولما كان ذلك غير صحيح، وأن كلام الجلود المخلوق قائم بها لذا جاءت الآية (أنطقنا الله)، وانظر العقل والنقل (٢/ ٢٥٢)، مجموع الفتاوى (٦/ ٣١٦)، (١٨/ ١٥٣).

(٤) انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٥١١)، والعقل والنقل (٢/ ٢٥٢)، والبيت في الفتوحات المكية بنحوه (٤/ ١٤١).

التي خلقها في غيره، من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك[1].

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبد العزيز المكي بشراً المريسي بين يدي المأمون، بعد أن تكلم معه ملتزماً أن لايخرج عن نص التنزيل، وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين، ليدع مطالبتي بنص التنزيل، ويناظرني بغيره، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه، ويقر بخلق القرآن الساعة وإلا فدمي حلال. قال عبد العزيز: تسألني أم أسألك؟ فقال بشر: اسأل أنت، وطمع فيَّ فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن، وهو عندي أنا كلامه ـ في نفسه، أو خلقه قائماً بذاته ونفسه، أو خلقه في غيره؟ قال أقول خلقه كما خلق الأشياء كلها. وحاد عن الجواب. فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة، ودع بشراً فقد انقطع. فقال عبد العزيز: إن قال خلق كلامه في نفسه، فهذا محال، لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة، ولا يكون فيه شيء مخلوق، وإن قال خلقه في غيره فيلزمه في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره فهو كلامه، فهو محال أيضاً، لأنه يُلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره ـ هو كلام الله! وإن قال خلقه قائماً بنفسه وذاته، فهذا محال: لا يكون الكلام إلا من متكلم كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ولا العلم إلا من عالم ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته. فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً. علم أنه صفة لله. هذا مختصر من كلام الإمام عبد العزيز في «الحيدة»[2].

---

(١) قال ابن القيم في النونية (١/٣٤١):

ونظير ذا أخوان هذا مبصر ... وأخوه معدود من العميان
سميتم الأعمى بصيرًا إذ أخو ... ه مبصر وبعكسه في الثاني

(٢) المقصود هنا بيان وجه الاستدلال على المعتزلة ـ وهو صحيح ـ سواء أكان كتاب =

٣ـ شبهة قيام الحوادث بذات الرب تعالىٰ . نشكري بن محمد محمود

سبق أن عمدة عامة المتكلمين في إثبات العالم هو دليل الجواهر والأعراض الذي لا يسلم إلا بعد إنكار قيام الحوادث بالرب لأنه ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث كما زعموا وسبق الرد على هذا التخليط.

وقد أشار الشارح إلى ذلك فقال: (ص١٩٠)

فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به(١): قلنا: هذا

الحيدة ثابتًا في نفسه، أو كان موضوعاً على عبدالعزيز المكي وضعه محمد بن الحسن بن أزهر الدعَّاء كما ذكر ذلك الذهبي في الميزان (٢/٦٣٩)،(٣/٤٤)، وانظر في ذلك طبقات الشافعية لابن السبكي (٢/١٤٥)، وقد نقل شيخ الإسلام كلام عبدالعزيز في هذا الاستدلال بطوله في العقل والنقل (٢/٢٤٥ ـ ٢٤٩) وعلق عليه بتعليق نفيس قال في أوله: «والمقصود هنا أن عبدالعزيز احتج بتقسيم حاصر معقول، فإن الله تعالىٰ إذا خلق شيئاً فإما أن يخلقه في نفسه، أو في غيره، أو يخلقه قائماً بنفسه، وقد أبطل الأقسام الثلاثة. . .إلخ » كلامه فليراجع، وانظر أيضًا مجموع الفتاوى (٦/١٦٦ ـ ١٦٨، ٣١٥وما بعدها).

(١) وهي شبهة للمعتزلة أيضًا بل لعامة المتكلمين خلا الكرامية والهشامية، وإن كانوا وافقوا المتكلمين في قولهم إن القديم يخلو عن الحوادث (مسألة حوادث لا أول لها)، انظر مجموع الفتاوى (١٢/١٤٠وما بعدها).
والكرامية عندهم أن الحوادث تقوم بالرب، ولا تزول لأنها إن قامت به ثم زالت كان قابلاً لها ولضدها، وما كان قابلاً للأعراض أو ضدها، لم تخل منه الحوادث وما لا يخلو منه الحوادث فهو حادث، ولذلك فهم يقولون إن كلام الله حادث وينازعون في كونه محدثًا، لأن الإحداث يلزم منه (عندهم) ما سبق.
والحق أن هذا كله مما لا دليل عليه، وقد وصف الله تعالىٰ الذكر بأنه محدث فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، ولذا كان الصحيح أن يقال أحدثه في ذاته ذكره شيخ الإسلام بمجموع الفتاوى (٦/٣٢٨)، وسبق الكلام على مسألة أفعال الله الاختيارية في مبحث الصفات في رد الشبه حول حلول الحوادث، إلا أنه ينبغي التنبيه أن الإمام أحمد أنكر على من أطلق أن =

القول مجمل، ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك، ونصوص الأئمة أيضاً، مع صريح العقل.

ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول، لم يُفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه، بل الذي أفهموهم إياه: أن الله نفسه هو الذي تكلم، والكلام قائم به لا بغيره، وأنه هو الذي تكلم به وقاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: «ولشأني في نفسي كان أحقرَ من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يُتلى»[1]. ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز[2]. ولا يعرف في لغة ولا عقل قائلٌ متكلمٌ لا يقوم به القول والكلام، وإنما قام الكلام بغيره!!.

الشبه النقلية

استدلت المعتزلة والجهمية على مذهبهم بعدة آيات من القرآن، وقد فند الشارح شبهتهم في أربع آيات جمع في خلال رده أصول الرد على كل شبههم تقريبًا، وفيما يلي بيان ذلك:

= القرآن محدث وهذا حق لأن الإطلاق قد يراد به المحدث أي المخلوق، أو أنه تكلم بعد أن لم يكن متكلمًا فإن الحدوث يراد به المنفصل كما هو قول المعتزلة، في رواية حدوث النوع كما هو قول الكرامية، كما يراد به حدوث الأفراد مع قدم النوع كما يقوله أصحاب الحديث أهل السنة، وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٦/ ١٦٠، ١٦١)، منهاج السنة (٢/ ٣٧١).

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة النور باب قول الله تعالىٰ (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) الحديث بطوله (٨/ ٤٥٢ ـ ح٤٧٥٠)، وأخرجه مسلم في التوبة باب في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف (٤/ ٢١٢٩ ـ ح٢٧٧٠).

(٢) انظر في هذه المسألة منهاج السنة (٢/ ٣٧٣).

١ـ آية ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

قال: (ص١٨٣)

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد: ١٦]،[الزمر: ٦٢]. والقرآن شيء، فيكون داخلاً في عموم «كل» فيكون مخلوقاً!!.

فمن أعجب العجب وذلك: أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعَها لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم «كل»، وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ففرّق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر والآخر بآخر، إلى مالا نهاية له، فليزم التسلسل، وهو باطل. وطرد باطلهم: أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقه كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء[1]، فيدخل ذلك في عموم كل، فيكون مخلوقاً بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقال: (١٨٥)

وعموم كل في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾[الأحقاف: ٢٥]

---

(١) بل والرب تعالىٰ يخبر عن نفسه أنه «شيء»، ترجم البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد بهذا فقال (١٣/٤٠٢): «باب: قل أي شيء أكبر شهادة قل الله» فسمى الله تعالىٰ نفسه شيئًا وسمى النبي ﷺ القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله ثم ساق حديث سهل وفيه قول النبي ﷺ لرجل: «أمعك من القرآن شيء...» الحديث، وانظر مجموع الفتاوى (١٢/٣٣١)، (١٦/٣٨٧).

ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح؟ وذلك لأ المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير.

وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣]، المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام. إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك، غير محتاجة إلى ما يكمل به أمر ملكها ولهذا نظائر كثيرة.

والمراد من قوله تعالى: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد: ١٦]، أي كل شيء مخلوق، وكل موجود[١] سوى الله فهو مخلوق فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال. وصفاته ملازمة لذاته المقدسة، ولا يُتصور انفصال صفاته عنه، كما تقدم الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله: ما زالَ بصفَاته قَديماً قَبلَ خَلْقِه[٢]. بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم. فإذا كان قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مخلوقاً، لايصح أن يكون دليلاً[٣].

٢ـ آية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، فما أفسده من استدلال! فإن «جعل» إذا كان بمعنى خَلَق يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ . ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ

---

(١) الجن وغير ذلك.

(٢) في فصل الإيمان بالأسماء والصفات.

(٣) لأنه يكون استدلالاً على الدعوى بنفس الدعوى وهو لا يصح.

جعل :

ذا تعدى إلى مفعول ١

بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾. ﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ ﴾ [الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٢].

وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ ﴾ [النحل: ٩١]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الحجر: ٩١]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الإسراء: ٣٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾ [الزخرف: ١٩]. ونظائره كثيرة فكذا قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ [الزخرف: ٣][1].

٣ـ آية النداء: ﴿ نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾

قال: (ص١٨٦ ـ ١٨٧)

وما أفسد استدلالهم بقوله تعالىٰ: ﴿ نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [القصص: ٣٠] على أن الكلام خلقه الله تعالىٰ في الشجرة فسمعه موسى منها!![2] وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ والنداء هو الكلام من بُعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي، ثم

---

(١) وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٨/٢٨، ٢٩).

(٢) وضلت الأشعرية أيضاً في معنى الآية وزعموا أنه سبحانه لم يزل مناجياً له منادياً له ولكن ذلك الوقت خلق فيه إدراك النداء القديم، ومنهم من يقول إن ذلك مجاز، وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٥/٤٦٣، ٤٦٤)، (١٢/٢٧٣)، مختصر الصواعق (٢/٢٧٧ وما بعدها).

قال: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما تقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم! ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة، لكانت الشجرة هي القائلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠] وهل قال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ غيرُ رب العالمين؟ ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤] صدقاً، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غيرُ الله![1] وقد فرقوا بين الكلامين على أصولهم الفاسدة: أن ذاك كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون!! فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله. وسيأتي الكلام على مسألة أفعال العباد، إن شاء الله تعالىٰ.[2]

٤ـ آية: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾

قال: (ص١٨٧ ـ ١٨٨)

فإن قيل: فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠]. وهذا يدل على أن الرسول أحدثه، إما جبرائيل أو محمد.

قيل: ذكرُ الرسول معرِّفٌ أنه مبلِّغ عن مرسلِه، لأنه لم يقل إنه قول ملك أو نبي، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به، لا أنه أنشأه من جهة نفسه.

وأيضاً: فالرسول في إحدى الآيتين جبريل، والأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر.

---

(١) وهذه حجة لازمة للكلابية أيضًا، بل ألصق بهم لأن جمهورهم لاينازع في خلق أفعال العباد. وانظر مجموع الفتاوى (١٢/٢٧٣)،(٦/٣١٧)، وانظر منهاج السنة(٢/٣٧٣).

(٢) في مبحث القدر في آخر الكتاب.

وأيضاً: فقوله رسول أمين[1]، دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ولا يَنْقُص منه، بل هو أمين على ما أرسل به، يبلغه عن مرسله.

وأيضاً: فإن الله قد كفرَّ من جعله قول البشر، ومحمد ﷺ بشر، فمن جعله قول محمد، بمعنى أنه أنشأه، فقد كفر. ولا فرق بين أن يقول: إنه قول بشر، أو جني، أو ملك.[2]

وقال: (ص١٨٨)

والكلام كلام من قاله مبتدئاً، لا من قاله مبلغاً[3]، ومن سمع قائلاً يقول: قِفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل

قال: هذا شعر امرىء القيس[4].

ومن سمعه يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[5]. قال: هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ

---

(١) لو قال: (وأيضاً فوصف الرسول بأنه (أمين)... إلخ) كان أوجه وأجود كما قال الشيخ أحمد شاكر لأن القرآن فيه ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝﴾.

(٢) وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٢/ ١٣٥، ٢٦٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٥٢١، ٥٥٥) (٦/ ٥٤١، ٥٤٢).

(٣) انظر في بيان هذه القاعدة في مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٤١، ٢٦١، ٢٦٢، ٤٥٨، ٤٦٣)، (٣/ ١٧٦)، والعقل والنقل(١/ ٢٥٦).

(٤) وهو مطلع معلقته وتمامه: بسقط اللِّوى بين الدخول فحومل ، وسقط اللوى والدخول وحومل أسماء أمكنة في الجزيرة.

(٥) أخرجه البخاري في أول الصحيح في باب بدء الوحي باب كيفية كان بدء الوحي (١/ ١٥ ـ ح١)، وأخرجه في مواضع أخر (بأرقام ٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣)، وأخرجه مسلم في الإمارة باب قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنية) (٣/ ١٥١٥ ـ ح١٩٠٧).

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٥] قال: هذا كلام الله، إن كان عند خبر ذلك، وإلا قال: لا أدري كلام من هذا؟ ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذبه. ولهذا من سمع من غيره نظماً أونثراً، يقول له: هذا كلام من؟ هذا كلامك أو كلام غيرك؟

قال: (ص ٣٥٤)

قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٣]، هو جبريل عليه السلام، سمي رُوحاً لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين، وهو أمين حق أمين، صلوات الله عليه. قال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. وهذا وصف جبريل. بخلاف قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤١]، الآيات. فإن الرسول هنا هو محمد ﷺ.

٥ـ آيات (نزول القرآن)

ولأهل البدع أيضًا استدلال بآيات نزول القرآن بأنه مخلوق من باب قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ وكذلك إنزال المطر والأنعام، قالوا: أنزل بمعنى خلق، خلقه في مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان.

وقد تطرق الشارح إلى هذه القضية وبين بطلانها وإن النزول[١] المذكور هو النزول من علو إلى سفل، ثم إن القرآن مقيد أنه منزل من عند الله، وبقية المذكورات ليس فيها هذا التقييد.

قال (ص١٩٥ ـ ١٩٦) شارحاً قول الطحاوي (وأنزله على رسوله وَحياً):

وأنزله على رسوله وحيًا[١]، أي: أنزله إليه على لسان المَلك، فسمعه

---

(١) أما الكلابية فإنهم يفسرون النزول بتفسير مبتدع آخر فيجعلون نزول القرآن بمعنى =

الملك جبرائيل من الله، وسمعه الرسول محمد ﷺ من الملك، وقرأه على الناس. قال تعالىٰ: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقال تعالىٰ: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]. وفي ذلك إثبات صفة العلو لله تعالىٰ.

وقد أُوردَ على ذلك أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر، أو إنزال الحديد، وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام.

والجواب: أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله. قال تعالىٰ: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [غافر: ١ ـ ٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]. وقال تعالىٰ: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [حم السجدة: ٤٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٣ ـ ٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [القصص: ٤٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢].

وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء. قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨]. والسماء: العلوّ. وقد جاء في مكان آخر أنه

= الإعلام به وإفهامه للملك، أو نزول الملك بما فهمه وراجع في مسألة النزول هذه مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٤٦ ـ ٢٥٨) في رسالة التبيان في نزول القرآن له رحمه الله، وانظر كذلك مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢٠).

منزل من المُزن، والمُزن: السحاب. وفي مكان آخر أنه منزل من المعصرات.

وإنزال الحديد والأنعام مطلق، فكيف يشبّه هذا الإنزال بهذا الإنزال؟! فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض، وقد قيل: إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود.

والأنعام تُخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يُقال: أنزل ولم يُقل: نزّل. ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض. ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولُها إناثَها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علوٍ إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علوٍ إلى سفل.

وعلى هذا فيحتمل قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦]: وجهين: أحدهما: أن تكون «من» لبيان الجنس. الثاني: أن تكون «من» لابتداء الغاية. وهذان وجهان يحتملان في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى: ١١].

المبحث الرابع

الأشاعرة

الرد على من زعم أن الكلام معنى واحد قائم بذات الله

بقي أن أعرض شبهة هؤلاء وهم من الكلابية والأشعرية والماتريدية اللذين قالوا: إن الكلام معنى واحد وذلك هربًا من وصفه بالتعدد والتجزؤ المستلزم للتركيب المنفي عندهم وقالوا: إن اللفظ حكاية أو عبارة عن المعنى الذي هو القديم، وبذلك فإن اللفظ يكون مخلوقًا حادثًا لا يقوم بالرب، وإنما افترقوا عن المعتزلة بإثبات المعنى القديم القائم بالذات.

ولأجل أن يكون الرد على هذا المذهب دقيقًا أُقسِّم الرد على فقرات قولهم كالآتي:

١ـ مسمى الكلام يشمل اللفظ والمعنى عند الاطلاق

٢ـ الرد على قولهم: (معنى واحد)

٣ـ الرد على قولهم: (عبارة أو حكاية عن كلام الله)

٤ـ دفع الشبه التي ذكروها.

١ـ مسمى الكلام والقول عند الإطلاق

إن الكلام يطلق على اللفظ والمعنى، وعليه فلا يمكن أن يكون المعنى هو الكلام دون اللفظ كما ادعت الكلابية ومن وافقهم

كما لايصح أن يكون اللفظ دون المعنى كما ادعاه من ادعاه من المعتزلة، فإذا أطلق(كلام الله) فإنه يشمل المعنى ويشمل كذلك اللفظ الذي هو حروف وأصوات في نظم

قال الشارح: (ص١٩٧)

وللناس في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق: أربعة أقوال:

أحدها: أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعا، كما يتناول لفظ الإنسان الروح والبدن معاً، وهذا قول السلف.

الثاني: أنه اسم اللفظ فقط، والمعنى ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه، وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم.

الثالث: أنه اسم «للمعنى» فقط، وإطلاقه على اللفظ مجاز، لأنه دالٌّ عليه، وهذاقول ابن كلاب ومن اتبعه. ← الأشاعرة والماتريدية والكلابية (هم أهل الكلام)

الرابع: أنه مشترك بين اللفظ والمعنى، وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية.

ولهم قول خامس، يروى عن أبي الحسن، أنه مجاز في كلام الله، حقيقة في كلام الآدميين، لأن حروف الآدميين تقوم بهم، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم، بخلاف كلام الله، فإنه لا يقوم عنده بالله، فيمتنع أن يكون كلامه. وهذا مبسوط في موضعه.(1)

وقد استدل الشارح على مذهب السلف بعدة أدلة فمن ذلك:

١ـ لو كان الكلام هو المعنى لا اللفظ كما ذهب إليه أصحاب الكلام النفساني لكان الأخرس متكلماً

قال الشارح: (ص١٩٧)

لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به: إن هذا كلامٌ حقيقة، وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلماً(٢).

---

(١) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٥، ٦٧ ـ ٦٩، ٤٥٦، ٤٥٧)، (٦/ ٥٣٣)، وانظر كتاب الإيمان (٧/ ١٧٠، ١٧١) من مجموع الفتاوى، ودرء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٢٩)، (١٠/ ٢٢٢). ه

٢) يأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله في الرد على استدلالهم بالبيت المنسوب للأخطل.

٢ـ النصوص الواردة في ذلك

قال الشارح: (ص١٩٩)

ويرد قول من قال: بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس: قوله ﷺ: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»[١]. وقال: «إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلَّموا في الصلاة»[٢].

واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلتْ صلاته.

اتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب، من تصديق بأمور دنيوية وطلب ـ لا يُبطل الصلاة، وإنما يُبطلها التكلم بذلك. فعلم اتفاق المسلمين أن هذا ليس بكلام.

وأيضا: ففي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدَّثتْ به أنفسها، مالم تتكلم به أو تعمل به»[٣]. فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لايؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان، باتفاق العلماء. فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي في المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة (١/ ٣٨١ ـ ح٥٣٧).

(٢) أخرجه أبوداود في الصلاة باب رد السلام في الصلاة (١/ ٢٤٣ ـ ح٩٢٤)، وأخرجه النسائي في الصلاة باب الكلام في الصلاة (٣/ ١٩ ـ ح١٢٢١)، وأخرجه أحمد (١/ ٣٧٦) من حديث ابن مسعود، وقد علق البخاري عن ابن مسعود مجزومًا به في كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ (كل يوم هو في شأن) (١٣/ ٤٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في العتق باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه (٥/ ـ ح٢٥٢٨)، وأخرجه في الإيمان والنذور باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان (١١/ ٥٤٨، ٥٤٩ ـ ح٦٦٦٤) من حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة أيضًا في الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس (١/ ١١٦ ـ ح١٢٧).

وأيضا ففي «السنن»: أن معاذاً رضي الله عنه قال: يارسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: «وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم»[1]. فبين أن الكلام إنما هو باللسان.[2]

٣ـ الدليل من اللغة

قال: (ص١٩٩)

فلفظ «القول» «والكلام» وما تصرف منهما، من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل: إنما يُعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظاً ومعنى. ولم يكن في مسمى «الكلام» نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع، ثم انتشر.

ولا ريب أن مسمى الكلام والقول ونحوهما ـ ليس هو مما يُحتاج فيه إلى قول شاعر، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، وعرفوا معناه، كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك[3].

٢ـ الرد على قولهم: (معنى واحد)

مرادهم بمعنى واحد هو الهرب من التبعض والتجزؤ خشية التركيب، فهم لما نفوا اللفظ (الصوت والحرف) وقالوا إن الكلام معنى قائم بالله، أرادوا الهرب من كونه يتبعض ويتجزأ فقالوا هو معنى واحد يعبر عنه بالاستفهام

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة (١٣/٥ ـ ح٢٦١٦) وقال حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٢٣١/٥)، وصححه بطرقه الأرناؤوط في تخريجه للشرح ص ٢٠٢.

(٢) انظر هذا المبحث بحروفه في مجموع الفتاوى (١٣٢/٧، ١٣٣).

(٣) انظر مجموع الفتاوى (١٣٤/٧)، وقد ردَّ عفيف الدين الإيجي ـ تلميذ الدواني شارح الصفدية ـ على الأشاعرة في دعواهم الكلام النفساني ردًا مليحًا قويًا لا يخرج في جملته عما ذكر هنا، كما نقله شارح النونية (٢٨٤/١، ٢٨٥).

والأمر والنهي والخبر.

ولذا ألزمهم العقلاء بأن هذا يلزم أن الأمر هو معنى النهي هو معنى الخبر أو الاستخبار واعترف الآمدي أنه لا خلاص لهم من ذلك.(1)

قال الشارح: (ص191)

وكثير من متأخري الحنفية على أنه معنى واحد(2)، والتعدد والتكثر والتجزؤ والتبعض حاصل في الدلالات، لا في المدلول. وهذه العبارات مخلوقة، وسميت «كلام الله» لدلالتها عليه وتأديه بها، فإن عبر بالعربية فهو قرآن، وإن عبر بالعبرانية فهو توراة، فاختلفت العبارات لا الكلام. قالوا: وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً.

وهذا كلام فاسد، فإن لازمه أن معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: 32]

---

(1) انظر ما نقله شيخ الإسلام عن الآمدي في ذلك والرد عليه في العقل والنقل (118/4، 119).

(2) جاء في المواقف (ص282) في بيان مذهب الأشعري في أن القدرة صفة واحدة قال معللاً ذلك:

«وإلا لاستندت إلى الذات إما بالقوة أو بالايجاب، وكلاهما باطل، أما الأول: فلأن القديم لا يستند إلى القوة، وأما الثاني فلأن نسبة الموجب إلى جميع الأعداد سواء، فليس صدور البعض عنه أولىٰ من صدور البعض، فلو تعددت لزم ثبوت قُدر غير متناهية، وهذا مصير أن الموجب لا يصدر عنه إلا الواحد...». اهـ.

وقد طردوا هذا المذهب في الإرادة والكلام، ثم إنهم رأو أن إثبات معاني للكلام متعددة تدلّ على تبعضه وتجزئه يلزم منه الحدوث، فإن الواحد عندهم هو الذي لا ينقسم ولا يتجزأ وليس بجسم، ويلزم من ذلك أن الكلام يقع شيئاً بعد شيء، وهذا كله يخالف أصلهم في نفي حلول الحوادث بذات الرب. كما أن اجتماع المعاني عندهم مثل قيام الحروف بذات الله، وذلك يلزم منه اجتماع المتضادات في شيء واحد كما توهم الآمدي فيما نقله عنه شيخ الإسلام وأبطله من وجوه. انظر العقل والنقل(4/ 110)، ولذا ألزمهم شيخ الإسلام بأن يجعلوا الحروف شيئاً واحداً (العقل والنقل 4/ 122).

هو معنى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدَّين! ومعنى سورة الاخلاص هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]. وكلما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فسادُه، وعلِم أنه مخالف لكلام السلف.

وقال: (ص١٩٧)

ويقال لمن قال إنه معنى واحد: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟.

فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله! وفساد هذا ظاهر.

وإن قال: بعضه، فقد قال يتبعض[1]. وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئا من كلامه.

ولما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ولما قال لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وأمثال ذلك. هل هذا جميع كلامه أو بعضه؟ فإن قال: إنه جميعه، فهذا مكابرة، وإن قال: بعضه، فقد اعترف بتعدده.

٣ـ الرد على قولهم: (عبارة أو حكاية عن كلام الله)

أصحاب الكلام النفساني يرون أن ما في المصحف ليس هو كلام الله وإنما حكايةٌ أو عبارة عنه[2]، وهذا يلزم منه أن ما بين أيدينا مخلوق، وهم

---

(١) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٦/ ٢٢٣).

(٢) الفرق بينهما أن الحكاية (وهي قول ابن كلاب) تقتضي المطابقة للمحكي، كما يقال: حكى فلان الكلام بلفظه، والقرآن عندهم ليس مطابقًا لكلام الله القائم بنفسه ومن ثم فالأولى عند الأشعرية أن يقال: (هو عبارة عن كلام الله)، لأن الكلام ليس من جنس العبارة

قال ابن القيم في النونية (١/ ٢٧٨ ـ شرح ابن عيسى):

وكذلك اختلفوا فقيل حكاية ... عنه وقيل عبارة لبيانِ
إذ كان ما يحكى كمحكي وهـ ... ـذا اللفظ والمعنى فمختلفانِ
ولذ يقال: حكى الحديث بعينه ... إذ كان أوله نظير الثاني =

لا يمنعون ذلك بل ادّعى بعض متأخريهم أن المعتزلة وأهل السنة اتفقوا على ذلك إلا بعض من اتبع أحمد بن حنبل[1]، وهذا غلط بيّن ظاهر.

قال الشارح ملزمًا لهم وموضحًا مذهبهم: (ص١٩٧)

ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله، كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى. وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد «أخرس» لكن عندهم أن الملَك فهم منه معنى قائماً بنفسه، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً، بل فهم معنى مجرداً، ثم عبر عنه، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي، أو أن الله خلق في بعض الأجسام هواءً هو الذي رَدّ في (في) الملك هذه العبارة[2].

وقال رحمه الله: (ص٢٠٠،٢٠١)

ولا شك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارىء حكاية كلام الله وهو مخلوق؛ فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر، فإن الله يقول: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]. أفتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما في نفسه أو إلى هذا المتلو المسموع؟ ولا شك أن الإشارة

= فلذاك قالوا لا نقول حكاية ونقول ذاك عبارة الفرقانِ
والآخرون يرون هذا البحث لفـ ـظياً وما فيه كبير معانِ

وانظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٧٢).

(١) انظر كبرى اليقينيات للدكتور البوطي (ص١٢٦).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢١) والعبارة الأخيرة تحرفت في النسخ المطبوعة وصححتها على حسب السياق.

إنما هي إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع.(1)

وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ [الإسراء: ٨٨]. أفتراه سبحانه يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه، ولا إلى الوقوف عليه.

فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا ـ فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء بمثله وشبهه، وهذا تصريح بأن صفات الله محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم؟!

ويكون التالي ـ في زعمهم ـ قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف(2). وليس القرآن إلا سوراً مسورة، وآيات مسطرة، في صحف مطهرة. قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. ﴿بَلْ هُوَ

---

(1) يقول ابن القيم في النونية (١/ ٢٦٤) بعد أن ذكر مقالة أحمد بن حنبل والبخاري قال:

هذى مقالة أحمد ومحمد ... وخصومهم من بعد طائفتان
إحداهما زعمت بأن كلامه ... خلق له ألفاظه ومعان
والآخرون أبوا وقالوا شطره ... خلق وشطر قام بالرحمن
زعموا القران عبارة وحكاية ... قلنا كما زعموه قرآنان
هذا الذي نتلوه مخلوق كما ... قال الوليد وبعده الفئتان

ومراده (بالوليد): الوليد بن المغيرة عندما قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[المدثر: ٢٥].

(2) انظر في الصوت والحرف: مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)،(٦/ ٥١٨)، وليس في طوائف المسلمين من أنكر أن الله يتكلم بصوت إلا ابن كلاب ومن تبعه كما أنه ليس في طوائف المسلمين من قال: إن الكلام معنى واحد قائم بالمتكلم إلا هو ومن اتبعه. انظر مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٨).

﴿ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٤٩﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٤]. ويكتب لمن قرأ بكل حرف عشر حسنات. قال ﷺ: «**أما إني لا أقول (الّم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**،»[١]. وهو المحفوظ في صدور الحافظين المسموع من ألسن التالين.

قال الشيخ حافظ الدين النسفي رحمه الله في «المنار»: إن القرآن اسم للنظم والمعنى. وكذا قال غيره من أهل الأصول. وما يُنسب إلى أبي حنيفة رحمه الله: أن من قرأ في الصلاة بالفارسية أجزأه ـ فقد رجع عنه، وقال: لا يجوز القراءة مع القدرة بغير العربية[٢]. وقالوا: لو قرأ بغير العربية إما أن يكون مجنوناً فيداوى، أو زنديقاً فيقتل، لأن الله تكلم به بهذه اللغة، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه.

وقال الشارح: (ص١٩٤)

وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله.[٣]

والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولم

---

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن (٥/ ١٦١ ـ ح٢٩١٠) وقال حسن صحيح غريب، وصححه الألباني (ص٢٠١)، والأرناؤوط (ص٢٠٤).

(٢) انظر شرح الهداية للعيني (٢/ ١٢٩، ١٣٠) فقد ذكر رجوع الإمام إلى قول أبي يوسف ومحمد بصيغة (يُروى)، ثم قال: «وعليه الاعتماد لتنزيله منزلة الإجماع، فإن القرآن اسم للنظم والمعنى جميعًا بالإجماع».

(٣) انظر في مجموع الفتاوى ما كتبه شيخ الإسلام حول الاستدلال بهذه الآية (١٢/ ٢٩٦ ـ ٣٢٣).

يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله. والأصل الحقيقة.

ومن قال: إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله، أو حكاية كلام الله، وليس فيها كلام الله: فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفي بذلك ضلالاً.

وقال أيضاً: (ص١٩٢)

ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله، لما حَرُم على الجنب والمحدث مسّه، ولو كان ما يقرأه القارىء ليس كلام الله لما حَرُم على الجنب قراءة القرآن[1].

بل كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، كما قال أبو حنيفة في «الفقه الأكبر». وهو في هذه المواضع كلها حقيقة.

٤ـ دفع الشبه التي ذكروها

١ـ الشبهة من اللغة

استدل هؤلاء ببيت ينسب للأخطل النصراني زعموا أنه يدل على أن الكلام اذا أطلق فالمراد منه الكلام النفساني لا اللفظ.

وقد أجاب الشارح عن هذه الشبهة فقال: (ص١٩٨)

وأما من قال: إنه معنى واحد، واستدل عليه بقول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فاستدلالٌ فاسد. ولو استدل مستدل بحديث في «الصحيحين» لقالوا هذا خبر واحد! ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل

(١) الأولىٰ أن يقال: (لما جرى الخلاف على الجنب والمحدث في قراءته) فإن الخلاف مشهور في ذلك.

به! فكيف وهذا البيت قد قيل إنه مصنوع منسوب إلى الأخطل، وليس هو في ديوانه؟

وقيل إنما قال: «إن البيان لفي الفؤاد» وهذا أقرب إلى الصحة.

وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحد اللاهوت بالناسوت! أي: شيء من الإله بشيء من الناس! أفيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب؟!.

وأيضاً: فمعناه غير صحيح، إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يُسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط في موضعه، وإنما أشير إليه إشارة.(1)

وهنا معنى عجيب، وهو: أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت! فإنهم يقولون: كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه، وأما النظم المسموع فمخلوق، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه!(2)

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

استدل بهذه الآية لمذهب القائلين بالعبارة أو الحكاية، لأنه إذا كان القرآن في زبر الأولين فهذا يدل على أن الكلام هوالمعنى الواحد، وإنما

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٧/١٣٨ ـ ١٤٠).

(٢) انظر التسعينية (ص٢٢٥،٣٣١)، ومجموع الفتاوى (٦/٢٩٦)،(١٢/٣٨٨،٣٩١)، وعيسى عليه السلام مكوّن بكلمة (كن)، وليس هو نفس الكلمة، وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٦/١٨)،(٨/٤١٨).

العبارة هي المختلفة وهذا فاسد لأن المراد بهذه الآية ذكر القرآن ووصفه والإخبار عنه لا أن المراد أنه مكتوب فيها.

وقد بين الشارح ذلك فقال: (ص١٩٣)

والفرق بين كونه في زبر، وبين كونه في رق منشور، أو لوح محفوظ، أو في كتاب مكنون واضح. فقوله عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦]، أي: ذكره ووصفه والإخبار عنه، كما أن محمدا مكتوب عندهم. إذ القرآن أنزله الله على محمد، لم ينزله على غيره أصلا، ولهذا قال في الزبر، ولم يقل في الصحف، ولا في الرق، لأن «الزبر» جمع «زبور» و«الزبر» هو: الكتابة والجمع، فقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦]. أي: مزبور الأولين، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبيّن المعنى المراد، ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس. وهذا مثل قوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي: ذكره(1)، بخلاف قوله: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الطور: ٣] أو ﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢٢] أو ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٨]، لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة، مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدر: مكتوب في كتاب، أو في رق. والكتاب: تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب. ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب، وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه ـ فإن تلك إنما يكتب ذكرها. وكلما تدبر الانسان هذا المعنى وضح له الفرق.(2)

---

(١) ولما كان للوجود مراتب في العين والعلم واللفظ الخط، كان القرآن في زبر الأولين من المرتبة الأولى في الرابعة، بخلاف قوله: (في رق منشور)، وقوله: (في كتاب مكنون) في المرتبة الثالثة في الرابعة، وانظر مختصر الصواعق (٢/ ٣٢٢).

(٢) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٨٩، ـ ٢٩٠، ٣٨٤، ٣٨٧).

٣ـ القرآن حروفه وكلماته من جنس كلام العرب وهي مخلوقة

وهذه الشبهة ناتجة من فهم غير صحيح للمجرد والموصوف، فإن أصحابها يقولون الحروف من حيث هي هي مخلوقة أو غير مخلوقة فإن قيل مخلوقة فالقرآن مؤلف من هذه الحروف، وإن قيل غير مخلوقة فكلام العرب غير مخلوق لأنه مؤلف منها.

ويقولون أيضا: القرآن إن كان هو كلام الله المعجز، فإن إعجازه إن كان بسبب لفظه حروفه وكلماته فلغة العرب حروف وكلمات، وإن كان إعجازه من جهة المعنى، ثبت المدعى وهو أن الكلام المعجز هو المعنى لا اللفظ.

وقد أجاب الشارح عن ذلك بأن إعجازه ليس من جهة الحروف والكلمات بل من جهة النظم والمعنى ولذا وقع الإعجاز «بحديث مثله» ثم «بعشر سور مفتريات» ثم «بسورة مثله» ولم يقل فأتوا بحرف أو كلمة ويجاب عن الشبهة الأولى أيضا بأنه لا توجد حروف من حيث هي هي (أي حروف مجردة عن الصفات) إلا في الذهن، أما خارج الذهن فإن الحرف لابد أن يتعلق إما بصوت أو رسم، فإن تعلق بخط آدمي فالمداد وحركة اليد مخلوقة، وإن تعلق بصوته فحركة فمه وأحباله الصوتية مخلوقة، وإن تكلم الله به كان غير مخلوق أينما تصرف[1].

فهو لا يشبه قول البشر هو أشرف وأفصح وأصدق.

---

(١) قال في العقل والنقل (١٢٨/٤):
«ومعلوم أن القسمة العقلية أربعة، لأن الحروف إما أن يمكن قدم أعيانه، وحينئذ يلزم إمكان اجتماعها، وإما أن لايمكن قدم أعيانها، بل قدم أنواعها، وإما أن لايمكن قدم أعيانها ولا أنواعها. وأما القسم الرابع، وهو قدم أعيانها لا أنواعها، فهذا لايقوله عاقل. وعلى التقريرين: فإما أن يمكن اجتماعها وإما أن لا يمكن، فهذه خمسة أقسام...» ثم شرع بشرحها. وانظر في الحرف المجرد وأنه بالذهن في مجموع الفتاوى (١٢/ ٧٠، ٧١، ٤٤٩، ٤٥٢)، وانظر في مسألة الأحرف في مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٧، ١١٦، ٤١٣، ٥٧١ ـ ٥٧٣)، وانظر في القدم النوعي للحروف (نوعها أو جنسها قديم) في مجموع الفتاوى (١٢/ ٥١، ٦٩، ١٥٨، ١٩١)، والصفدية (٢/ ٧٣)، ومختصر الصواعق(٢/ ٣٠٤ وما بعدها).

قال الشارح: (ص٢٠٢)

وقوله: ولا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَرِ.

يعني أنه أشرف وأفصح وأصدق. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧] وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]. الآية. وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]. فلما عجزوا وهم فصحاء العرب، مع شدة العداوة عن الإتيان بسورة مثله، تبين صدق الرسول ﷺ أنه من عند الله.

ثم تكلم عن إعجازه فقال: (ص٢٠٢ـ٢٠٣)

وإعجازه من جهة نظمه ومعناه، لا من جهة أحدهما فقط. هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين، أي بلغة العربية. فنفى المشابهة من حيث التكلم، ومن حيث النظم والمعنى، لا من حيث الكلمات والحروف . وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور، أي أنه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يتخاطبون بها. ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن؟ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١ـ٢]. ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١ـ٣] الآية. ﴿الٓمٓصٓ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ـ٢]، الآية. ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]. وكذلك الباقي، ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه، بل خاطبكم بلسانكم[1]

---

(١) قال ابن القيم في النونية (١/ ٣٠٦):

وانظر إلى السور التى افتتحت بأحـ ... ـرفها ترى سراً عظيم الشانِ

لم يأت قط بسورة إلا أتى ... في إثرها خبر عن القرآن

ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفي تكلم الله به، وسماع جبرائيل منه، كما يتذرعون بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] إلى نفي الصفات. وفي الآية ما يرد عليهم قولهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] ما يرد على من ينفي الحرف، فإنه قال: (فأتوا بسورة)، ولم يقل فأتوا بحرف، أو بكلمة وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات. ولهذا قال أبو يوسف ومحمد: إن أدنى ما يجزىء في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة، لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك. والله أعلم[1].

تعلق القرآن بخط وصوت العبد.

اشتبه على الكثيرين كون القرآن كلام الله، مع أن العبد يكتبه ويتلفظ به، وكذا باقي الكتب السماوية، لذا ذهبوا إلى القول بحدوث الألفاظ والحروف، ولأنهم مافهموا مراتب الوجود أو أعرضوا عنها، لذا ظنوا أن من قال بالصوت يلزمه قدم الصوت والحرف بل قدم الجلد والغلاف

وقد قال أبو المعالي: (وذهب الحشوية المنتمون إلى الظاهر أن كلام الله تعالى قديم أزلي، ثم زعموا أنه حروف وأصوات، وقطعوا بأن المسموع من أصوات القراء ونغماتهم عين كلام الله تعالى، وأطلق الرعاع منهم القول بأن المسموع صوت الله، تعالى عن قولهم، وهذا قياس جهالاتهم، ثم قالوا: إذا كتب كلام الله بجسم من الأجسام رقومًا ورسومًا وأسطرًا

= إذ كان إخبارًا به عنها وفي ... هذا الشفاء لطالب الإيمان
ويدل أن كلامه هو نفسها ... لا غيرها والحق ذو تبيان
فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها ... الأعراف ثم كذا إلى لقمان
مع تلوها أيضًا ومع (حم) مع ... (يسٓ) وافهم مقتضى الإيمان

(١) انظر في كون السورة معجزة مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٨٢).

وكلمات، فهي بأعيانها كلام الله القديم، فقد كان إذ كان: جسمًا حادثا، ثم انقلب قديمًا، ثم قضوا بأن المرئي من الأسطر هو الكلام القديم الذي هو حرف وصوت، وأصلهم أن الأصوات على تقطيعها وتواليها كانت ثابتة في الأزل قائمة بذات الباري تعالى، وقواعد مذهبهم مبنية على دفع الضرورات.) انتهى كلامه.

قال شيخ الإسلام بعد أن حكى هذا الكلام عن أبي المعالي:

ومعلوم أن هذا القول لا يقوله عاقل يتصور ما يقول، ولا نعرف هذا القول عن معروف بالعلم من المسلمين، ولا رأينا هذا في شيء من كتب المسلمين، ولا سمعناه من أحد منهم، فما سمعنا من أحد، ولا رأينا في كتاب أحد أن المداد الحادث انقلب قديماً، ولا أن المداد الذي يكتب به القرآن قديم، بل رأينا عامة المصنفين من أصحاب أحمد وغيرهم، ينكرون هذا القول، وينسبون ناقله عن بعضهم إلى الكذب.

وأبو المعالي وأمثاله أجل من أن يقول الكذب، لكن القول المحكي قد يسمع من قائل لم يضبطه، وقد يكون القائل نفسه لم يخبر قولهم، بل يذكر كلامًا مجملاً يتناول النقيضين، ولا يميز فيه بين لوازم أحدهما ولوازم آخر.. إلخ)[1] اهـ. وهذه النقول تبين مدى الاضطراب الحاصل بسبب هذه المسألة، ولذا فإن الشارح رحمه الله بيّن مراتب الوجود، وفرّق بين ما هو من صفات العبد، وبين كلام الرب في مراتب الوجود المختلفة.

مراتب الوجود:

قَدْ قَرَّر الشارحُ أولاً أنَّ كُلاًّ مِن القرآنِ والتوراةِ والإنجيلِ والزبورِ هيَ مِنْ كَلامِ اللهِ، وَبَيَّنَ أنَّ كلامَ اللهِ جنسٌ يشملُ كلَّ هذهِ الكتبِ بلْ وغَيرِها، وأنَّ كلماتِ الربِّ لانهايةَ لها

---

(١) انظر العقل والنقل (٢/٣١١)، شرح النونية (١/٢٨٢)، وانظر في هذا المعنى أيضاً مجموع الفتاوى (١٢/٢٦٧، ٢٣٨)، وانظر في مسألة تكلم العباد بالقرآن مختصر الصواعق (٢/٢٩٨).

قالَ: (ص١٩٢)

والحق: أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى، فإنه لم يزل يتكلم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك. قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان: ٢٧].

ثم بين الشارح أن مراتب الوجود أربعة:

الوجودُ العلميّ، الوجودُ اللفظيّ، الوجودُ الرسميّ، الوجود العينيّ وأنَّ القرآنَ حقٌ وصِدْقٌ في كلِّ مرتبةٍ مِنْ هذهِ المراتِب، وأنه عندما يقرأ القاريء أو يكتب الكاتب فإنه كلام الله حقيقة، وفعل العبد قائم به حقيقة، ولا تنفي إحداهما الأخرى.(١)

---

(١) وقد تنبه ابن حزم رحمه الله لذلك إلا أنه لم يتنبه لمذهب أهل السنة بدقائقه.
قال ابن القيم في النونية (١/ ٣١٩):

وأتى ابنُ حزمٍ بعدَ ذاكَ فقالَ ما ... للنّاسِ قرآنٌ ولا اثنانِ
بل أربعٌ كلٌّ يسمّىٰ بالقرآ ... ن وذاك قول بيّن البطلانِ
هذا الذي يتلى وآخر ثابت ... في الرسم يدعى المصحف العثمانِ
والثالث المحفوظ بين صدورنا ... هذى الثلاث خليقة الرحمنِ
والرابع المعنى القديم كعلمه ... كل يعبر عنه بالقرآنِ
وأظنه قد رام شيئًا لم يجد ... عنه عبارة ناطق ببيانِ
إن المعين ذو مراتب أربع ... عقلت فلا تخفى على إنسانِ
في العين ثم الذهن ثم اللفظ ثـ ... ـم الرسم حين تخطه ببنانِ
وعلى الجميع الاسم يطلق لكن الـ ... أولى به الموجود في الأعيانِ
بخلاف قول ابن الخطيب فإنه ... قد قال إن الوضع للأذهانِ
فالشيء شيء واحد لا أربع ... فدهى ابن حزم قلةُ العرفانِ

قال: (ص١٩٢)

وإذا قيل: فيه خط فلانٍ وكتابته: فُهِم مِنه معنى صحيح حقيقيّ وإذا قيل: فيه مداد قد كُتِب به: فُهِمَ مِنهُ معنى صحيح حقيقيّ، وإذا قيل: المداد في المصحف: كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السموات والارض، وفيه محمد وعيسى، ونحو ذلك. وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه خط فلان الكاتب وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل: فيه كلام الله. ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعاني ضل ولم يهتد للصواب. وكذلك الفرق بين القراءة التي هي فعل القاريء: والمقروء الذي هو قول الباري، من لم يهتد له فهو ضال أيضا، ولو أن إنسانا وجد في ورقة مكتوبا «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1] من خط كاتب معروف لقال هذا من كلام لبيد حقيقة، وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كل شيء حقيقة، وهذا حبر حقيقة، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى.[2]

وقال: (ص١٩٣)

والقرآن في الأصل: مصدرٌ، فتارةً يذكر ويراد به القراءة، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨].
وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[3]. وتارة يذكر ويراد به المقروء،

بالقراءة

---

(١) وتمام البيت: (وكل نعيم لا محالة زائل)، وهو في ديوانه ص٢٥٤، وفي صحيح البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٣، ٧٤، ٢٤٢، ٢٨٣ وما بعدها، ٥٣٤ وما بعدها، وانظر أيضاً في مراتب الوجود: مجموع الفتاوى (٦/ ٦٢ ـ ٦٥).

(٣) أخرجه أبوداود في الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة (٢/ ٧٤ ـ ح١٤٦٨) عن البراء بن عازب، والنسائي في الافتتاح باب تزيين القرآن بالصوت (٢/ ١٧٩، ١٨٠ ـ =

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل: ٩٨]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقال ﷺ: «إنَّ هذا القرآنَ أُنْزِلَ على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[(١)]. إلى غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ والأحاديثِ الدالةِ على كلٍّ مِنَ المعنيينِ المذكورين. فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي، ولكنَّ الأعيانَ تُعلمُ، ثم تُذكَرُ، ثم تُكتَبُ. فكتابتها في المصحف هي المرتبة الرابعة. وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة، بل هو الذي يكتب بلا واسطة ولا لسان.[(٢)]

وقال: (ص١٩٤)

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية: هي ما يسمعُ منهُ أو مِنّ المبلغ عنهُ، فإذا سَمِعَهُ السامعُ عَلِمَهُ وحفظهِ. فكلام الله مسموع له معلومٌ محفوظٌ، فإذا قالَهُ السامعُ فهو مقروءٌ له متلوٌّ، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم، وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه، والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال: ليس في المصحف كلام الله، ولا: ما قرأ القاريء كلام الله، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].[(٣)]

ح١٠١٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة باب في حسن الصوت بالقرآن (١/ ١٣٤٢ ـ ح١٣٤٢)، وأحمد (٤/ ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤)، وصححه الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية (١٩٣)، وحسنه الأرناؤوط (١٩٢).

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها في كتاب فضائل القرآن (٩/ ٢٣ ـ ح٤٩٩٢)، وأخرجه مسلم في المسافرين باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف من حديث عمر بن الخطاب (١/ ٥٦٠ ـ ح٨١٨).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٨٥)، [فالأعيان في المصحف هي المرتبة الأولى في الرابعة، وأما الكلام في المصحف هو المرتبة الثالثة في الرابعة]، وانظر في هذا المعنى أيضًا مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٣٩، ٣٠٣، ٤٦٣، ٥٦٥)، مختصر الصواعق (٢/ ٣٢٢).

(٣) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٥٣).

(خاتمة)

بعد عرض أقوال الطوائف، أذكر خلاصة ما فيها من مقالة منكرة، وقول أهل السنة المخالف لها، وذلك فيما جاء في مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٩٤، ٢٩٥) حيث قال رحمه الله بعد كلام له:

«إن المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور فإذا زالت لم يبق منكراً.

(أحدها): من يقول إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد والله خلقه في غيره.

(الثاني): قول من يقول إن كلام الله ليس إلا معنى واحدًا هو الأمر والنهي والخبر وإن الكتب الإلهية تختلف باختلاف العبارات لا باختلاف المعاني فيجعل معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحدًا، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي، كمن يقول إن معاني أسماء الله الحسنى بمعنى واحد فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته.

(الثالث): قول من يقول إن ما بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله وإن القرآن كلام التالين لا كلام رب العالمين. فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها.

وأما قول من قال: إن القرآن العربي كلام الله بلغه عنه رسول الله ﷺ، وأنه تارة يسمع من الله، وتارة يسمع من رسله مبلغين عنه، وهو كلام الله حيث تصرف، وكلام الله تكلم به لم يخلقه في غيره، ولا يكون كلام الله مخلوقًا، ولو قرأه الناس وكتبوه وسمعوه. وقال مع ذلك: إن أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه، وإذا نفى الحلول وأراد به إن صفة الموصوف لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فقد أصاب في هذا المعنى؛ لكن عليه مع ذلك أن يؤمن أن القرآن العربي كلام الله تعالى، وليس هو ولا شيء منه كلاماً لغيره، ولكن بلغته عنه رسله، وإذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه، ومع العلم بأن شيئاً من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا في كلام الخالق أولىٰ وأظهر والله أعلم.»

وقال أيضاً في جواب سؤال عن بيان ما يجب على الإنسان أن يعتقده، ويصير به مسلماً حول كلام الله.

فأجاب(٢٣٥، ٢٣٦):

«الذي يجب على الإنسان اعتقاده في ذلك وغيره؛ ما دل عليه كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، واتفق عليه سلف المؤمنين، الذين أثنى الله تعالىٰ عليهم وعلى من اتبعهم، وذم من اتبع غير سبيلهم، وهو أن القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله كلام الله تعالىٰ، وأنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنه (قرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون)، وأنه (قرآن مجيد. في لوح محفوظ)، وأنه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [الزخرف: ٤]، وأنه في الصدور، كما قال النبي ﷺ: «استذكروا القرآن فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم في عقلها»[١]، وقال النبي ﷺ: «الجَوْف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب»[٢]، وأن ما بين لوحي المصحف الذي كتبته الصحابة رضي الله عليهم كلام الله، كما قال النبي ﷺ: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن تناله أيديهم»[٣].

فهذه «الجملة» تكفي المسلم في هذا الباب.

وأما تَفصيلُ ما وَقع في ذلكَ مِنَ النزاع فكثيرٌ، منهُ يكونُ كلا الإطلاقينِ خطأ، ويكون الحق في التفصيل، ومنه ما يكون مع كل من المتنازعين نوع من الحق، ويكون كل منهما ينكر حق صاحبه». اهـ.

---

(١) أخرَجَهُ البخاريُّ في فضائلِ القرآنِ بابُ استذكارِ القرآنِ وتعاهُدِه من حديثِ ابنِ مسعود (٩/ ٧٩ ـ ح٥٠٣٢)، وأخرَجَهُ مسلمٌ في صلاةِ المسافرينَ بابُ فضائلِ القرآنِ وما يتعلقُ بهِ (١/ ٥٤٤ ـ ح٧٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن من حديث ابن عباس وقال حسن صحيح (٥/ ١٦٢ ـ ح٢٩١٣).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد عن ابن عمر بلفظ (نهى) في باب كراهية السفر بالمصحف إلى أرض العدو (٦/ ١٣٣ ـ ح٢٩٩٠)، وأخرجه مسلم في الإمارة باب النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار (٣/ ١٤٩٠، ١٤٩١ ـ ح١٨٦٩) بألفاظه.

المبحث الخامس

القراءات السبع

أخرج البخاري بسنده أن عمر رضي الله عنه قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلّم، فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: **«أرسله، اقرأ ياهشام**، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال: **كذلك أنزلت**، ثم قال: **اقرأ ياعمر**، فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ: **كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ماتيسر منه»**[1]. اهـ. وهذا الحديث يدل على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وكون هشام وعمر بن الخطاب كلاهما قرشي، فهو يدل على أن الأحرف ليست هي فقط لهجات العرب - كما اشتهر - وأيًا كان معنى الأحرف هل هي لهجات، أو أوجه في الأداء، أو مجموعهما، أو سوى ذلك فإن القراءة بهذه الأحرف كانت سنة وكان عمر رضي الله عنه يقرأ بها لأنه تلقاها من النبي ﷺ، وكان هشام يقرأ بحرف

---

١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب أنزل القرآن أنزل على سبعة أحرف (٩/ ٢٣ - ح٤٩٩٢)، وأخرجه مسلم في المسافرين باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف (١/ ٥٦٠ - ح٨١٨).

تلقاه من النبي ﷺ، ولما سأل أبو الدرداء علقمة عن قراءة ابن مسعود (والذكر والأنثى) وأن علقمة ذكر أنه هكذا تلقاها من ابن مسعود، فذكر له أبو الدرداء أنه هكذا أخذها من (في) رسول الله ﷺ[1] وعليه فهذه النصوص كلها تبين أنه لابد أن يكون هناك التلقي بالإسناد مشافهة لا القراءة بالمعنى، أو بالحرف الثابت دون تلقي، بل وليس بالقراءة الثابتة دون التلقي، فالتلقي من أفواه الأثبات متسلسلاً متصلاً للنبي ﷺ هو الواجب، وعليه فليس هناك مشكلة أن تكون القراءات السبع هي حرف واحد أو بعض الأحرف لأنه لابد من التلقي حتى في القراءات الثابتة، فلا ينبغي أن يقرأ المؤمن بقراءة وجدها مكتوبة حتى لو صح إسنادها إلى صاحب الكتاب مالم يكن هناك تلقي من الأفواه أو ما في معناه، وقد أورد صاحب الكتاب كذلك قول ابن مسعود في القراءات وفي آخره (فاقرؤا كما عُلِّمتم) وهو يؤكد ما سبق.

قال الشارح: (ص٣٥٢-٣٥٣):

قوله: ولا نُجَادِلُ في القرآنِ، ونَشْهَدُ أَنَّهُ كَلامُ ربِّ العَالَمينَ، نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ، فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ المُرْسَلِينَ مُحمَّدًا ﷺ . وهُوَ كَلامُ اللهِ تَعالىٰ، لا يُساوِيه شَيْءٌ مِنْ كَلامِ المَخْلوقِينَ، ولا نَقُولُ بخَلْقِهِ، ولا نُخَالِفُ جَماعَةَ المُسْلِمِينَ.

فقوله ولا نجادل في القرآن، يحتمل أنه أراد: أنا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: إنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، إلى آخر كلامه.

ويحتمل أنه أراد: أنا لانجادل في القراءات الثابتة، بل نقرؤه بكل

---

(١) انظر هذا الأثر في تفسير ابن جرير (١٢/ ٦١٠ - ح٣٧٤٢٩). ط. دار الكتب العلمية المرقمة، وأخرجه البخاري أيضاً في صحيحه بنحوه في تفسير الآية من سورة الليل (٨/ ٧٠٧ - ح٤٩٤٤).

ما ثبت وصح. وكل من المعنيين حق.[1]

يشهد بصحة المعنى الثاني، ماروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: سمعت رجلا قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهة، وقال: «كلاكما محسن، ولا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» رواه مسلم[2]، نهى رسول الله ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق، لأن كلا القارئين كان محسنا فيما قرأه، وعلَّل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا.

ولهذا قال حذيفة رضي الله عنه، لعثمان رضي الله عنه: «أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم»[3]. فجمعَ الناس على حرف واحد اجتماعًا سائغًا. وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة، ولم يكن في ذلك تركٌ لواجب، ولا فعل لمحظور، إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزةٌ لا واجبة رخصة من الله تعالى، وقد جعل الاختيار إليهم في

---

(١) ونحو ذلك حديث (المراء في القرآن كفر) أخرجه أحمد (٢/٢٨٦) وغيره، وقد قيل في توجيهه نحو ذلك أيضًا، انظر شرح السنة (١/٢٦١، ٢٦٢) ط. المكتب الإسلامي.

(٢) أخرجه البخاري في الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة (٥/ ـ ح٢٤١٠)، وأخرجه في الأنبياء (٦/٥١٣، ٥١٤ ـ ح٣٤٧٦)، أخرجه أحمد (١/٣٩٣، ٤١٢، ٤٥٦)، قال الألباني حفظه الله (ص٣٥٢): «ولم يروه مسلم بل تفرد به البخاري دونه... ومن الغريب تصدير الشارح إياه بقوله: «روي»، المشعر بضعفه في اصطلاح المحدثين، وهذا أمر تساهل فيه أكثر المتأخرين كما نبه عليه النووي وغيره» اهـ.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب جمع القرآن (٩/١١ ـ ح٤٩٨٧)، وفيه قصة فتح أرمينية وأذربيجان وجمع عثمان الناس على المصحف.

ى حرف اختاروه[1]. كما أن ترتيب السور لم يكن واجبا عليهم صوصا. ولهذا كانت ترتيب. مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف العثماني، وكذلك مصحف غيره.

وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه، فلم يكن لهم أن دموا آية على آية، بخلاف السور. فلما رأي الصحابة أن الأمة تفترق نختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد ـ جمعهم الصحابة عليه. ذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء. قاله ابن جرير وغيره: ومنهم ن يقول: إن الترخص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام، لما في محافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولا، فلما تذللت ألسنتهم لقراءة، وكان اتفاقُهم على حَرْفٍ واحدٍ يسيراً عليهم، وهوَ أوْفَقَ لهُم: جمعوا على الحرف الذي كان في العَرْضة الأخيرة. وذهب طوائفُ من لفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف مشتمل على الأحرف السبعة لأنه يجوز أن يهمل شيء من الأحرف السبعة وقد اتفقوا على نقل المصحف عثماني. وترك ما سواه. وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب، وهو: أن لك كان جائزًا لا واجبا، أو أنه صار منسوخا.

وأما من قال عن ابن مسعود إنه كان يجوّز القراءة بالمعنى! فقد كذب ليه، وإنما قال: قد نظرتُ إلى القَرَأَةِ فرأيتُ قراءتهم متقاربة، وإنما هو نول أحدكم: هلم، وأقبِل، وتعال، فاقرؤوا كما عُلِّمتم. أو كما قال.[2]

) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٩٥،٣٩٦،٤٠١،٤٠٣).

) انظر مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٩٧)، والأثر أخرجه ابن جرير في مقدمة التفسير في القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب (١/ ٤٤،٤٥ ـ ح٤٨)، وأخرجه الطبراني في الكبير (ح٨٦٨٠).

وقال الشارح: (ص٣٥٤)

وقوله: وَنَشْهدُ أَنَّه كَلامُ ربِّ العَالَمِينَ.

تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله: وإن القرآن كلام الله منه بدا با
كيفية قولا.(١)

---

(١) وهو في المبحث الثاني من هذا الفصل (ص٢٧)، ومن هذه المسائل المتعلقة أيض
بالقرآن: تفضيل كلام الله على غيره، وأن بعضه أفضل من بعض كالفاتحة أفض
سورة، وآية الكرسي أفضل آية، وهذا كله على ظاهره وأن (قل هو الله أحد) تعد
ثلث القرآن، حيث أن القرآن أحكام، ووعد ووعيد، وتوحيد وصفات، وأن سو
الصمد شملت القسم الثالث، كما هو مقتضى قول ابن سريج رحمه الله، وانظ
مجموع الفتاوى (١٧/١٣)، (١٧/١٠٣، ١٣٤).

الفصل الثالث
الإيمان بالرسل(النـبـوات)

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول:

تقرير الإيمان بالنبوات.

المبحث الثاني:

الفرق بين النبي والرسول.

المبحث الثالث:

طرق إثبات النبوة.

المبحث الرابع:

الإيمان بنبوة سيد ولد آدم محمد ﷺ.

المبحث الخامس:

المفاضلة بين الأنبياء.

المبحث السادس:

وجوب الاتباع والتزكية.

المبحث السابع:

الصحابة.

النبـوات

الإيمان بالرسل يشمل الإيمان بالأنبياء جملة، والإيمان بالمذكورين في القرآن الكريم، ومعرفة قدرهم وأنهم خير البشر وصفوة بني آدم، وأفضلهم هم أولو العزم، وأفضل أولي العزم الخليلان، وأن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم، وكذلك الإيمان بنبوة محمد ﷺ على التفصيل الشامل للإيمان بالشرع الذي أوحى إليه، وبوجوب تحكيم قوله وسنته والتسليم له، وبأنه أرسل للجن والإنس والأحمر والأصفر، ورسالته عامة، وخاتمة للرسالات، ولا نبي بعده.

ويتفرع من ذلك: معرفة وسطية الإسلام بين الآراء والأهواء، ووسطية أهل السنة بين الفرق، والفرق بين تناول أهل السنة للنصوص وتناول المبتدعة لها.

ويتبع ذلك: تزكية القلوب بالشرع الذي جاء به هذا الرسول الكريم ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم، ثم كيف تجسد هذا كله الاتباع والتزكية في جيل الصحابة ومن سار على منهجهم، وقد تناول الشارح كل هذه القضايا ودلل عليها وبين أصولها ورد على المخالفين في ثنايا هذا الشرح المبارك، ويكاد يكون هذا الفصل ومعه فصل الإيمان بالقدر من أكثر الفصول تشتتا في كلام المؤلف، تبعا للأصل الذي يشرحه وقد بيّن الشارح عظم هذا الباب، وأنه من أعظم نعم الله على خلقه، فالإيمان به ركن ركين من أركان الإيمان، ويحسن أن أبدأ الفصول بكلامه حول هذا

قال: (ص١٦٧ـ ١٦٨)

وإرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه، وخصوصا محمد ﷺ، [ك]ما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ [ء]َايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ

مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧](1).

---

(١) والنبوة من النعم العظيمة التي يعلم بالعقل ثبوتها كما يعلم بالشرع، وانظر مجموع الفتاوى (١٦/٤٩٨)، (١٧/٣٣٠)، ومع ذلك فقد أنكرها الفلاسفة كما تقدم وانظر في ذلك أيضًا مجموع الفتاوى (٢/٨٦)، وانظر في نزاع المتكلمين في الأصول التي يتوقف إثبات النبوة عليها في مجموع الفتاوى (٢/٢١، ٣/٨٨).

المبحث الأول

تقرير الإيمان بالنبوات

قال: (٣٤٩)

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمّى الله تعالى في كتابه ن رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، لا يعلم سماءَهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة، أنه لم يأت في عددهم نصّ. وقد قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ ن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. علينا الإيمان بأنهم بلّغوا جميعَ ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم نوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه. قال عالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٥﴾ [النحل: ٣٥]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ لْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢﴾ [النحل: ٨٢]. ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾ لنور: ٥٤]. ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ لْمُبِينُ ۝١٢﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل. فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله بغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، عيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال[1]: وهم المذكورون في

) انظر تفسير البغوي في تفسير الأحقاف (٧/ ٢٧٢)، وقد حكى البغوي عن ابن زيد =

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد ﷺ، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً.

وقال: (ص٤١٦)

قوله: وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بذلكَ كُلِّهِ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلىٰ مَا جَاؤُوا بِهِ.

الإشارة بذلك إلى ما تقدم، مما يجب الإيمان به تفصيلاً، وقوله: لا نُفرق بين أحد من رسله، إلى آخر كلامه ـ أي: لا نُفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض، كافر بالكل، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ـ١٥١]. فإن المعنى الذي لأجله آمن بمن آمن به منهم ـ موجود في الذي لم يؤمن به، وذلك الرسول الذي آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافراً بمن في زعمه أنه مؤمن به، لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين

= أنهم «كل الرسل»، وحكي عن قوم أنهم نجباء الرسل المذكورون في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وعددهم (١٨)، وعن الكلبي: هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشفة مع أعداء الدين، وقيل: الستة المذكورون على نسق في الأعراف والشعراء: (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى)، وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٢) في تفسير الأحقاف، وزاد المسير (٧/ ٣٩٢، ٣٩٣).

كلهم[1]، فكان كافراً حقاً، وهو يظن أنه مؤمن، فكان من الأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.[2]

---

(١) وانظر مجموع الفتاوى (٣/ ٩٣،٩٤).

(٢) ويذكر أهل العلم في هذا الباب مسألة أن النبوة لا تكون في النساء لقوله تعالىٰ: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً. . .﴾ الآية، وذهب بعض أهل العلم كابن حزم ومن وافقه إلى جواز ذلك ومثلوا بمريم عليها السلام وأم موسى، والجمهور على منع ذلك، بل نقل الإجماع على خلاف قوله، بل قال شيخ الإسلام إنه: «قول لا يعرف عن أحد من السلف والأئمة» ثم احتج على بطلانه بحديث «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم» البخاري (٦/ ٤٤٦ ـ ح٣٤١١)، فالأنبياء أفضل من غيرهم، فلو كانت أم موسى نبية لكان غير النبي أفضل منه، لأن آسية ليست بنبية، وكذا خديجة، أو يكون غير الكامل أفضل من الكامل، انظر الفصل لابن حزم (٥/ ١٢ ـ ١٤)، والصفدية(١/ ١٩٨)، ومجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٥،٣٩٦).

المبحث الثاني

الفرق بين النبي والرسول

ولما كان الأنبياء مذكورين في القرآن بلفظ النبوة وبعضهم بلفظ الرسالة كان من المناسب أن يذكر الشارح الفرق بين النبي والرسول.

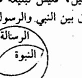
فقال: (١٦٧)

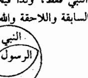
وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها: أن من نبّأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره، فهو نبي وليس برسول. فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس. فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها.

ويمكن أن يكون مراد المصنف أن الرسول من أرسل بشرع جديد والنبي من بعث بشريعة سابقة[1]، وقد يستدل لهذا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ

---

(١) الظاهر أن مقصود الشارح هو التبليغ بالشريعة الجديدة، لأن الشرع السابق يستوي في وجوب تبليغه آحاد المؤمنين، فليس تبليغه قاصراً على النبي فقط، ولذا فيحتمل أن يكون مراد المصنف التفريق بين النبي والرسول بالشريعة السابقة واللاحقة والله أعلم ويمكن الاستعانة بالرسم التوضيحي لبيان ذلك.





﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]. أو يقال إن الرسول من الإرسال فلا بد أن يرسل إلى قوم سواء كان بشرع جديد أو بشريعة سابقة أو يجمع بينهما فيقال: هو من أرسل إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة الله بشريعة جديدة وهذا أقرب وأدق والله أعلم.[1]

---

(١) قال شيخ الإسلام في كتابه النبوات:
«فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبيء بما أنبأ الله به، فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالةً من الله إليه، فهو رسول، وإما إذا كان يَعْمَلُ بالشريعة قَبْله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالته، فهو نبي وليس برسول...»إلخ، ثم بين بطلان من اشترط الشريعة الجديدة فقط، بأن يوسف كان رسولاً وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة. انظر النبوات (ص١٧٢،ص١٧٣ ـ ١٧٥)، كما بين أن النبي قد يوصف بالإرسال المقيد كما في مثل قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ... ﴾ [الحج: ٥٢]، وانظر مجموع الفتاوى (٧/١٨).

المبحث الثالث

طرق إثبات النبوة

بيّن الشارح عدةَ طرق يتوصل بها إلى إثبات النبوة، وذَكر منها دليل المعجزات إلا أنه لم يجعله الدليل الوحيد كما زعم بعض المتكلمين والتزموا لأجل هذا لوازم باطلة، كإنكار الخوارق، بل أدلة إثبات النبوة متعددة، وفيما يلي بيان ذلك:

١ـ دليل المعجزات

قال: (ص١٥٨)

والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر، تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة[1]، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر، ونحو ذلك.

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات.[2]

---

(١) ومن ذلك تناقضهم في إثبات المعجزة مع نفي حكمة الله تعالىٰ، فهم جعلوا المعجزات تدل على صدق النبي إما للعلم الضروري الحاصل بتلك المعجزة، وإما لكونه لو لم تدل المعجزة على صدق النبي لزم العجز، وهو نقص منفي، وهذا صحيح إلا أن المعجزات إنما تدل على صدق الأنبياء إذا كان الفاعل يقصد إظهارها ليُدل بها على صدقهم، فإذا قال المتكلمون: إنه لا يفعل شيئًا لشيء تناقضوا. وانظر مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٥٦،٣٥٧)، وانظر فيما يعرف به صدق النبي: مجموع الفتاوى (١٤/ ١٨٨).

(٢) ولا يشترط أن تكون المعجزة حسية، فإن معجزة هود عليه السلام كانت بالتحدي فقد =

قال: (ص١٦٧)

ولذكر دلائل نبوة محمد ﷺ من المعجزات وبسطها موضع آخر، وقد أفردها الناس بمصنفات، كالبيهقي وغيره.(١)

٢ـ دليل الصدق والكذب

التقابل بين الصدق والكذب لا يحتاج إلى خارق حتى يتميز هذا من هذا فإن التقابل ليس بين أمرين متقاربين بحيث يشتبه هذا بهذا، فإنه إن كان للصدق درجات وللكذب دركات فإن النبي الصادق يكون أصدق الصادقين أي في أعلى درجات الصدق، ومدعي النبوة الكذاب يكون أكذب الكاذبين لأنه كذب على الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، وبذلك يكون المتنبي الكذاب في أسفل دركات الكذب فهل يمكن بذلك أن يلتبس حال هذا من حال هذا إلا على من كان له الغاية في الجهل والغباء ولذا فإن حال النبي وقرائن حاله تبين صدقه، وتقضيَ به وإن لم يكن ثم معجزة.(٢)

قال الشارح موضحاً ذلك: (ص١٥٨)

فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين. بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرفُ بهما والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فيكف بدعوة النبوة؟.

= تحدى قومه كلهم أن يكيدوه وعجزوا أن يكيدوه بشيء كما قال تعالىٰ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم...﴾ [هود: ٥٥،٥٦]، وراجع فصل (الربوبية) من الباب الأول ص ، وانظر العقل والنقل (٩/ ٤٠،٥٢)، والنبوات (ص٥١،٢٥٣)، وشرح الأصفهانية (ص١٥٦)، ومجموع الفتاوى (١٣/ ٩٠).

(١) كتاب البيهقي هو: (دلائل النبوة) مطبوع وهناك (دلائل النبوة) للأصبهاني مطبوع وغير ذلك كثير.

(٢) انظر الفرق بين آيات الأنبياء وغيرها في النبوات (ص١٢٧).

وما أحسن ما قال حسان رضي الله عنه

لـو لـم يكـن فيـه آيـات مبيِّـنة كـانـت بـديهتُـه تـأتيـك بـالخبـر[1]

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين، إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ـ ما ظهر لمن له أدنى تمييز. فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولابد أن يفعل أمورا يبين بها صدقه[2]. والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه ومايفعله ما يبَيّن به كذبه من وجوه كثيرة والصادق ضده. بل كل شخصين ادعيا أمرًا: أحدهما صادق والآخر كاذب ـ لابد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، إذ الصدق مستلزم للبر، والكذب مستلزم للفجور، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق، فان الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذاباً**».[3] ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا

---

(١) هذا يروى عن حسان كما بالكامل (ص٩ـ ١٠)، والروض الأنف (١/١٨٧)، ونسبه لعبدالله بن رواحة ابن حجر في الإصابة (ترجمة ٤٦٦٧) فالله أعلم.

(٢) انظر في ذلك الجواب الصحيح (١/١٢٧) تحقيق د.علي بن حسين بن ناصر، د.أحمد الحمدان ط.دار العاصمة.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٤/٢٠١٢ ـ ح٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود، وأخرجه البخاري مختصراً في الأدب باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] (١٠/ ـ ح٦٠٩٤).

يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٦]. فالكهان ونحوهم، وإن كانوا أحياناً يخبرون بشيء من الغيبيات، ويكون صدقاً ـ فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن ملَك، وليسوا بأنبياء[1]. ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صَيّاد: «قد خبأت لك خبأ، فقال: هو الدُّخُّ» ـ قال له النبي ﷺ: «اخسأ، فلن تعدو قدرك»[2]. يعني: إنما أنت كاهن. وقد قال للنبي ﷺ: «يأتيني صادق وكاذب»[3] وقال: «أري عرشاً على الماء»[4]، وذلك هو عرش الشيطان[5]. وبين أن الشعراء يتبعهم الغاوون، والغاوي:

---

(١) انظر في كذب المدعي للنبوة غير الصادق: النبوات (ص١٠٤، ١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (٣/ ٢١٨ ـ ح١٣٥٤) من حديث ابن عمر، وأخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب ذكر ابن صياد (٤/ ٢٢٤٤ ـ ح٢٩٣٠) من حديثه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد باب كيف يعرض الإسلام على الصبي (٦/ ١٧٢ ـ ح٣٠٥٥) من حديث ابن عمر، وأخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب ذكر ابن صياد (٤/ ٢٢٤٤ ـ ح٢٩٣٠) من حديثه.

(٤) أخرجه مسلم في الموضع السابق (٤/ ٢٢٤١ ـ ح٢٩٢٥) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٥) وهو مابينه النبي ﷺ كما في حديث أبي سعيد المشار إليه قريباً، وقد اختلف أهل العلم في ابن صياد، واسمه صاف، هل هو الدجال الأكبر، أو هو من الكهان والدجاجلة دونه واحتج من رأى أنه ليس الدجال الأكبر بإسلامه ودخوله المدينتين بعد موت النبي ﷺ وبحديث الجساسة، واحتج من رأى أنه الدجال الأكبر بأن عمر حلف أمام النبي ﷺ بذلك ولم ينكر عليه النبي ﷺ، ثم قد ولد ليهوديين بقيا (٣٠سنه) لا يولد لهما وأمه فرضاخية، وهذا وصف ما جاء في الحديث عن الدجال الأكبر، وبأن عينه اليمنى ذهبت كما في حديث ابن عمر، وأنه ذهب يوم الحرة فلا يدرى أين هو؟! وأجابوا عن دخوله مكة والمدينة بأن ذلك قبل أن يخرج آخر الزمان، وإنما منع من دخولهما إذ ذاك، وكذا إسلامه، فإن كفره مرتبط بخروجه، كما أجابوا عن حديث الجساسة أن الذي رآه تميم الداري هو الدجال وابن صياد شيطانه، ولو كان هذا قاطعاً للنزاع بمجرده لما استمر شك الصحابة في ابن صياد بعد موت النبي ﷺ... إلى آخر =

الذي يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضراً له في العاقبة.

فمن عرف الرسول وصِدْقَه ووفاءَه ومطابقة قوله لعمله ـ علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن.

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة، حتى في المدعى للصناعات والمقالات، كمن يدعى الفلاحه والنساجة والكتابة، وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك. والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لابد ان يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم وأشرف الاعمال. فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب؟ ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري[1]، كما يعرف الرجل رضى الرجل وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه، بأمور تظهر على وجهه، قد لا يمكن التعبير عنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وقد قيل: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه[2]. فإذا كان صدق المخبر وكذبه يُعلم بما يقترن من القرائن، فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله، كيف يخفى صدق هذا من كذبه؟ وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة؟

ما ذكره أهل العلم، فقد يكون ذلك أو غيره فالله أعلم. وانظر فتح الباري (١٣/٣٢٥ ـ ٣٢٩).

(١) انظر في إفادة خبر الواحد المحتف بالقرائن العلم مجموع الفتاوى (١٨/٤٨ ـ ٥٠)، (٢٠/٢٥٧ ـ ٢٥٩).

(٢) هذا الأثر عن عثمان بن عفان ورد في تفسير قوله تعالىٰ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] كما في تفسير ابن كثير (٤/ ١٨٠)، وقد أورده شيخ الإسلام ونسبه إلى عثمان ثم قال عن الآية: «فمعرفة المنافق في لحن القول لابد منها وأما معرفته بالسيما فموقوفة على المشيئة». اهـ. انظر مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٠).

٣ـ شهادة عقلاء عصره ﷺ له بالصدق وأدلتهم على ذلك:

وقد شهد عقلاء عصر النبي ﷺ له بالصدق واستدلوا على ذلك بأحواله وأموره وهذا الدليل يصلح أن يندرج في الدليل الذي قبله (دليل الصدق) إلا أنه لأهميته أفردته بعنوان.[1]

وقد ذكر الشارح أربعاً من عقلاء ذلك العصر وهم خديجة وورقة والنجاشي وهرقل.

قال: (ص١٦٠ـ١٦٤)

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار، قال لها لما جاءه الوحي: «إني قد خشيت على نفسي» فقالت: كلا ـ والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقرى الضيف، وتكسِب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»[2]. فهو لم يخف من تعمد الكذب، فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء، وهو المقام الثاني، فذكرت خديجة ما ينفي هذا، وهو ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وقد عُلم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه[3].

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن

---

(١) انظر النبوات لشيخ الإسلام (ص٢٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١/ ٣٠ ـ ح٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه في مواضع أخر.
وتكسب المعدوم: بفتح التاء وضمها، أي تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من مال وأخلاق ومكارم وغير ذلك، وقد يصح أن يكون (المعدوم) صفة لمحذوف أي تكسب غيرك المال المعدوم بالنسبة له. وانظر فتح الباري (١/ ٣٣، ٣٤).

(٣) انظر فتح الباري (١/ ٣٣).

فقرأوا عليه: «إن هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة»[1]. وكذلك ورقة ابن نوفل، لما أخبره النبي ﷺ بما رآه، وكان ورقة قد تنصر، وكان يكتب الإنجيل بالعربية، فقالت له خديجة: «أي: عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبي ﷺ بما رأى، فقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى»[2]، وكذلك هرقل ملك الروم، فإن النبي ﷺ لما كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، طلب من كان هناك

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٧)، وهو في المسند (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣)، (٥/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢) من حديث أم سلمة رضي الله عنها. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤، ٢٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. وانظر في قصة النجاشي: الجواب الصحيح (١/ ٢٤٧ ـ ٢٦٥).

(٢) وهو في حديث عائشة المتقدم في البخاري وفيه: (هذا الناموس الذي نزل الله على موسى)، والناموس: صاحب السر والمراد به جبريل عليه السلام، وقد ذكر الحافظ لطيفة في ذكره موسى دون عيسى مع أنه تنصر فقال: (١/ ٣٥): «وقوله: (على موسى)، ولم يقل (على عيسى) مع كونه نصرانيًا لأن كتاب موسى عليه السلام مشتمل على أكثر الأحكام بخلاف عيسى، وكذلك النبي ﷺ. أو لأن موسى بعث بالنقمة على فرعون ومن معه بخلاف عيسى، كذلك وقعت النقمة على يد النبي ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو أبوجهل بن هشام ومن معه ببدر. أو قاله تحقيقاً للرسالة، لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب، بخلاف عيسى فإن كثيراً من اليهود ينكرون نبوته». اهـ.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن كلاً من القرآن والتوراة أصل مستقل، وهذا قريب من الوجه الأول عند الحافظ، وانظر مجموع الفتاوى (١٩/ ١٨٣، ١٨٤)، وذكر ابن كثير هذا الوجه في تفسير الأحقاف (٤/ ١٧٠).

وقول خديجة رضي الله عنها: (اسمع من ابن أخيك) لأن كلا من النبي ﷺ وورقة يجتمعان في عدد من النسب إلى قصي بن كلاب، أو قالته على سبيل التوقير لسنه، كذا بالفتح (١/ ٣٤)، وانظر في قصة ورقة هذه ما كتبه شيخ الإسلام في الجواب الصحيح (١/ ٢٦٦ وما بعدها).

من العرب، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبي ﷺ، فسأل أبا سفيان، وأمر الباقين إن كذب أن يكذبوه، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الإخبار.

سألهم: هل كان في آبائه من ملك؟ فقالوا: لا.

قال: هل قال هذا القول أحدٌ قبله؟ فقالوا: لا.

وسألهم: أهو ذو نسب فيكم؟ فقالوا: نعم.

وسألهم: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا: لا، ما جربنا عليه كذباً.

وسألهم: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه؟

وسألهم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا أنهم يزيدون.

وسألهم: هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقالوا: لا.

وسألهم: هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم.

وسألهم عن الحرب بينهم وبينه؟ فقالوا: يُدال علينا مرة ونُدال عليه أخرى.[1]

وسألهم: هل يغدر؟ فذكروا أنه لايغدر.

سألهم: بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

وهذه أكثر من عشر مسائل، ثم بين لهم ما في هذه المسائل من الأدلة،

---

(١) الإدالة: الغلبة، انظر النهاية (٢/١٤١).

فقال:

سألتكم هل كان في آبائه من ملك؟ فقلتم: لا، قلت: لو كان في آبائه من ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتكم هل قال هذا القول فيكم أحد قبله؟ فقلتم: لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله لقلت: رجل ائتم بقول قيل قبله.

وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلتم لا، فقلت: قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله تعالى.

وسألتكم أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم؟ فقلتم: ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، يعنى في أول أمرهم.

ثم قال: وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون؟ قلتم: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقلتم: لا، وكذلك الإيمان، إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

وهذا من أعظم علامات الصدق والحق، فإن الكذب والباطل لابد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه، ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلا قليلاً ثم ينكشف.

وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه؟ فقلتم: إنها دول، وكذلك الرسل تُبتلى وتكون العاقبة لها.

قال: وسألتكم هل يغدر؟ فقلتم: لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون ـ علم أن هذه علامات الرسل، وأن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء، لينالوا درجة الشكر والصبر.

كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له». [1]

والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أُحد من الحكمة فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ [آل عمران: ١٣٩]، الآيات. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ١-٢]، الآيات. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته في خلقه وحكمته التي بهرت العقول.

قال: وسألتكم عما يأمركم به؟ فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، وهذه صفة نبي، وقد كنت أعلم أن نبيا يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقا فسيملك موضع قدميَّ هاتين. وكان المخاطب بذلك أبو سفيان بن حرب، وهو حينئذ كافر من أشد الناس بغضا وعداوة للنبي ﷺ، قال أبو سفيان بن حرب، فقلت لأصحابي ونحن خروج، لقد أَمِر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليعظمه ملك بني الأصفر، وما زلت موقناً بأن أمر النبي ﷺ سيظهر، حتى أدخل الله عليَّ الإسلام وأنا كاره. [2]

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير (٤/ ٢٢٩٥ ـ ح٢٩٩٩) من حديث صهيب، وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٣٢)،(٦/ ١٥، ١٦)، ولأحمد بنحوه عن سعد بن أبي وقاص (١/ ١٧٣).

(٢) أخرجه البخاري بطوله في بدء الوحي (١/ ٤٢ ـ ح٧)، وله تتمة عنده، وانظر الكلام على قصة هرقل وما فيها من الفوائد كتاب الجواب الصحيح (١/ ٢٦٨ ـ ٣٠٠).

٤ـ استمرار علو شأن النبي ﷺ حتى وفاته، وبعدها.

وهذا الدليل يمكن أن يندرج تحته عدة دلائل فيما يلي تفصيلها

أ ـ تزايد الصدق حتى العلم به

قال الشارح: (ص١٦٤)

ومما ينبغي أن يعرف: أن ما يحصل في القلب بمجموع أمور، قد لا يستقل بعضها به، بل ما يحصل للإنسان من شبع وري وشكر وفرح وغم ـ بأمور مجتمعة، لايحصل ببعضها، لكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر.

وكذلك العلم بخبر من الأخبار، فان خبر الواحد يحصِّل للقلب نوع ظن، ثم الآخر يقويه، إلى أن ينتهي إلى العلم، حتى يتزايد ويقوى وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك.(١)

وبذلك يكون الصدق قد وصل إلى حد العلم في نفوس صحابته ﷺ ومن بلغهم خبره فإنه كان ينبئهم ببعض الغيب، وبما سيكون ونحو ذلك وكل ذلك يزيد من صدقه في نفوسهم، ولذا تكرر في الأحاديث أنه كلما نبأهم بأمر سيكون فكان فكانوا يجددون الشهادة له بأنه الرسول ﷺ كما روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قيل له: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان فقال ﷺ: «هو من أهل النار فقال رجل: أنا صاحبه أبدًا» الحديث وفيه أن الرجل قتل نفسه فجاء صاحبه وقال أشهد أنك رسول الله... الحديث(٢)

= وقوله (أَمِرَ أمر ابن أبي كبشة): أي عظم، وأبوكبشة: اسم أحد أجداد النبي ﷺ أو أبوه من الرضاعة الحارث بن عبدالعزى، أو أحد أجداده من جهة أمه، أو غير ذلك انظر الفتح (١/ ٥٣).

(١) انظر في قابلية العلم للتفاوت، وفي تزايد الخبر حتى وصوله للعلم، واستفادة العلم من كثرة المخبرين، أو من صفاتهم، أو من إدراك المخبر له، أو من الأمر المخبر به ونحو ذلك في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٥٨، ٢٥٩)، وانظر في إفادة العلم عن كثرة المخبرين مجموع الفتاوى (١٨/ ٥٠ ـ ٥١، ٦٩ ـ ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في القدر باب العمل بالخواتيم (١١/ ٤٩٩ ـ ح٦٠٠٧)، وأخرجه =

بل ويستمر ذلك حتى بعد وفاته ووقوع إخباره بسقوط دولتي كسرى وقيصر (فارس والروم) وأن سراقة بن مالك بن جعشم يلبس سواري كسرى، وبخروج نار في أرض الحجاز، وبما يكون من أشراط الساعة. . . إلخ[1]

ب ـ العاقبة للأنبياء والمتقين.

العلم بوجود أنبياء لله في الأرض جاءوا بالزبر والكتاب المنير من الأمور المتواترة التي لا مجال للشك فيها، وكذلك كون العاقبة لهم على مكذبيهم

وقد بين الشارح ذلك فقال: (ص١٦٤-١٦٥)

وبالجملة: فالعلم بأنه كان في الارض من يقول إنه رسول الله، وأن أقواما اتبعوهم، وأن أقواما خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم ـ: هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها. ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك وعلماء الطب، كبقراط وجالينوس[2] وبطليموس[3] وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه.[4]

وقال: (ص١٦٤)

وأيضاً: فإن الله سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، كثبوت الطوفان،

= مسلم في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١/١٠٦ ـ ح١١٢).

(١) وهذا مشهور في الصحاح والسنن والمسانيد.

(٢) بقراط وجالينوس من مشاهير الأطباء اليونانيين.

(٣) من مشاهير الفلكيين في القرن الثاني بعد الميلاد.

(٤) وهؤلاء من الفلاسفة الإلهيين وأرسطو تلميذ لأفلاطون، وأفلاطون تلميذ سقراط، وأتباع أرسطو اعتنوا بالمنطق الأرسطي ونشروه، وانظر آراءهم في الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ٨٣ ـ ٨٤، ٨٨ ـ ٩٥، ١١٩ ـ ١٣٧).

وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيًا بعد نبي، في سورة الشعراء، كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده، يقول في آخر كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الشعراء: ١٧٤ ـ ١٧٥] ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم ـ علمنا يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة: منها: أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم. ومنها: ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عرف الوجه الذي حصل عليه، ـ كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم ـ عُرف صدق الرسل.

جـ ـ حكمة الرب تؤيد الرسول لا الدعي

ومن الدلائل الدالة على صدق الأنبياء أيضا والتي تدخل تحت استمرار علو شأنهم حتى الوفاة وبعدها، أنهم لو لم يكونوا صادقين لم ينصرهم الله، ولأخذ منهم باليمين، وقطع منهم الوتين، فهذه حكمة الرب تعالىٰ مع من يكذب عليه.

قال الشارح: (ص١٦٥)

بل إنكار رسالته ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى، ونسبته إلى الظلم والسفه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل جحدٌ للرب بالكلية وإنكار.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق، بل ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري على الله ويتقول عليه، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق، ويسبى نساءهم ويغنم أموالهم وذراريهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به ومحبته له، والرب تعالى

يشاهده[1] وهو يفعل بأهل الحق، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويُعلي أمره، ويمكِّن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره، هذا وهو عندهم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فانه لا أظلم ممن كذب على الله وأبطل شرائع أنبيائه وبدلها وقتل أولياءه، واستمرت نصرته عليهم دائما، والله تعالى يقره على ذلك، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع منه الوتين فيلزمهم أن يقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان له مدبر قدير حكيم، لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالا للصالحين. إذ لا يليق بالملوك غير ذلك، فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين؟.

ولا ريب أن الله تعالى قد رَفع له ذكرَه، وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رؤوس الأشهاد في سائر البلاد، ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام في الوجود، وظهرت له شوكة ولكن لم يتم أمره، ولم تطل مدته، بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم، وقطعوا دابره واستأصلوه. هذه سنة الله التي قد خلت من قبل، حتى إن الكفار يعلمون ذلك. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور: ٣٠-٣١]. أفلا تراه يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقوَّل عليه بعض الأقاويل، بل لابد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]. وهنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبرًا

---

(١) لعل هذا من باب الإخبار، وهو أوسع من باب الصفات، فإن الله تعالى موصوف بأنه يرى ويبصر، أما يشاهد فإن أريد به أن الله (شهيد) فهو حق، وإلا لو قال: (يراه) لكان أولى، ولا سيما أن المفاعلة تقتضي مشاركة والله أعلم.

جازمًا غير معلق: أنه يمحو الباطل ويحق الحق. وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فأخبر سبحانه أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره.(١)

وقال أيضاً: (ص٤١٢)

«بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً ومصلحة للعباد، كالمطر العام وكإرسال رسول عام، وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بها الصادقين، فإن هذا شرٌّ عام للناس يضلهم فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم، وليس هذا كالملك الظالم والعدو، فإن الملك الظالم لابد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه، وقد قيل ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام، وإذا قدر كثرة ظلمه، فذاك خير في الدين، كالمصائب، تكون كفارة لذنوبهم ويثابون على الصبر عليه، ويرجعون فيه إلى الله، ويستغفرونه ويتوبون إليه، وكذلك ما يسلط عيهم من العدو.

ولهذا قد يمكّن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة، وأما المتنبئون الكذابون فلا يطيل تمكينهم، بل لابد أن يهلكهم، لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

٥ـ الشرع الحكيم دليل نبوة من جاء به

وهذا من أعظم أنواع الأدلة، وهو دليل حي متجدد على مر العصور إذ في كل يوم يزيد إيضاحا بوضوح المصالح التي جاء بها، وفي كل يوم يتبين للناس أنه شرع حكيم لا يمكن أن يكون رجلا أمياً إلى سن الأربعين قد

(١) انظر في ذلك منهاج السنة (٤١٩/٢)، والنبوات (ص١٦٦، ص٢٢٥ وما بعدها، ص٢٢٨، ٢٣٠ وما بعدها، ص٢٤٧)، وانظر مختصر الصواعق (٥٧/١، ٥٨).

انفرد به، بل لو اجتمع الناس كل الناس لم يأتوا بحديث مثله فكيف برجل لم يتعلم، ولم يتلق، ولم يعلمه ذلك بشرا![1]

قال الشارح: (ص١٦٧)

ومنها: أن من عَرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها، تبين له أنهم أعلم الخلق، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأن فيما جاؤوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ـ ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بَرٍّ يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق.[2]

---

(١) انظر في هذا المعنى كتاب محمد رشيد رضا رحمه الله المسمى بـ(الوحي المحمدي).
(٢) وانظر في الرد على منكري النبوات مجموع الفتاوى (٦/ ١٣١).

المبحث الرابع

الإيمان بنبوة سيد ولد آدم محمد ﷺ

الإيمان بنبوة سيد ولد آدم محمد ﷺ يشمل الإيمان به نبيًا[1] وإمامًا ورسولاً وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين وخاتم النبيين، وقدْ أكرمه الله بأنواع التفضيل التي منها الإسراء به والمعراج، ويستلزم كذلك طاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، وتحكيم شريعته، والاحتكام لسنته وتزكية القلوب بطريقته، ولا ولايه لله ولا طريق إلى الله إلا من خلال شرعه وسنته. وقد بين الشارح رحمه الله كل هذه الأمور

فضل نبينا ﷺ.

قال: (١٥٧)

قوله: وإنَّ محمداً عَبْدُهُ المُصْطَفىٰ، ونَبِيُّهُ المُجْتَبىٰ، ورَسُولُه المُرْتَضىٰ.

وقوله: «وإن محمداً» بكسر الهمزة، عطفاً على قوله: «إن الله واحد لا شريك له». لأن الكل معمول القول، أعني: قوله «نقول في توحيد الله» [و] الاصطفاء والاجتباء والارتضاء: متقارب المعنى

وقال: (ص١٦٩)

قوله: وإمام الأتقياء.

ﷺ: الإمام الذي يؤتم به، أي: يقتدون به. والنبي ﷺ إنما بعث

---

(١) انظر في ثبوت نبوة سيد ولد آدم محمد ﷺ والرد على النصارى واليهود في أول الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، والرسالة القبرصية، ومجموع الفتاوى (٤/٢٠١ ـ ٢٠٩، ٢١٠ ـ ٢١٥).

للاقتداء به، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]. وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء.

وقال: (ص١٦٩)

قوله: سَيِّدُ المُرْسَلِين.

قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشفَّع**». رواه مسلم[(١)]. وفي أول حديث الشفاعة: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[(٢)]. وروى مسلم والترمذي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**»[(٣)].

وقال: (ص١٧٤)

قوله: وحَبِيبُ رَبِّ العَالَمِين.

ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة، وهي الخُلة.

عموم الرسالة:

قال: (ص١٧٦ـ ١٧٩)

قوله: وهُوَ المَبْعُوثُ إلىٰ عَامَّةِ الجِنِّ وكَافَّةِ الوَرى، بِالحَقِّ والهُدىٰ،

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل باب نسب النبي ﷺ (١٧٨٢/٤ ـ ح٢٢٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء باب قول الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ [هود: ٢٥] (٣٧١/٦ ـ ح٣٣٤٠)، وأخرجه في تفسير الإسراء باب ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ٣] (٣٩٥/٨ ـ ح٤٧١٢).

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل باب تفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الخلائق (١٧٨٢/٤ ـ ح٢٢٧٦)، وأخرجه الترمذي في المناقب باب في فضل النبي ﷺ (٥٤٤/٥ ـ ح٣٦٠٥) وقال حسن صحيح.

وَبِالنُّورِ والضِيَاءِ.

أما كونه مبعوثا إلى عامة الجن[1]، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٣١]، الآية. وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضا. قال مقاتل: «لم يبعث الله رسولا إلى الإنس والجن قبله»[2]، وهذا قول بعيد. فقد قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، الآية والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف[3]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر[4]. وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، الآية تدل على أن موسى مرسلٌ إليهم أيضاً. والله أعلم.

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلا، واحتج بهذه الآية الكريمة[5]. وفي الاستدلال بها على ذلك نظر[6] لأنها

---

(١) والإيمان بعموم رسالته واجب على كل مسلم انظر مجموع الفتاوى (١٩/ ٩ ـ ١٢) في رسالة (إيضاح الدلالة في عموم الرسالة).

(٢) ذكره البغوي في تفسير الأحقاف (٧/ ٢٧٠)، والقرطبي في تفسيرها (١٦/ ٢١٧).

(٣) ذكره البغوي عن مجاهد في تفسير سورة الأنعام (٣/ ١٩٠)، وذكره ابن كثير عن ابن جريج أيضًا (٢/ ١٧٧).

(٤) ذكره ابن كثير (٢/ ١٧٧) عن ابن عباس، وهذا البحث من تفسيره.

(٥) تفسير ابن جرير (٥/ ٣٤٥ ـ ث١٣٨٩٩).

(٦) قال ابن كثير رحمه الله (٤/ ١٧٠)في تفسير قوله تعالىٰ ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩]: «وقد استدل بهذه الآية على أن في الجن نذر، وليس فيهم رسل، ولاشك أن الجن لم يبعث الله تعالىٰ منهم رسولاً، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن =

محتملة وليست بصريحة، وهي ـ والله أعلم ـ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝﴾ [الرحمن: ٢٢] والمراد: من أحدهما.(١)

وأما كونه مبعوثاً إلى كافة الورى، فقد قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. أي: وأنذر من بلغه. وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾ [النساء: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، الآية. وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ١]. وقد قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحلَّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(٢)أخرجاه في

= إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته.
فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝﴾ أي: أحدهما» اهـ، وانظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٤).

(١) وانظر تفسير ابن جرير (١٢/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في التيمم في فاتحته (١/ ٥١٩ ـ ح٣٣٥) من حديث جابر، وأخرجه =

الصحيحين. وقال ﷺ: «لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»، رواه مسلم[1]، وكونه ﷺ مبعوثا إلى الناس كافة معلومٌ من دين الإسلام بالضرورة.[2]

وأما قول بعض النصارى إنه رسول إلى العرب خاصة: فظاهر البطلان، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به. وقد قال إنه رسول الله إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتما، فقد أرسل رسله وبث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الأطراف، يدعو إلى الإسلام.

وقوله: وكافة الورى في جر كافة نظر، فإنهم قالوا: لم تستعمل «كافة» في كلام العرب إلا حالاً، واختلفوا في إعرابها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨] - على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها حالٌ من الكاف في «أرسلناك» وهي اسم فاعل والتاء فيها للمبالغة[3]، أي: إلا كافًّا للناس عن الباطل، وقيل: هي مصدر كف[4]، فهي بمعنى كفًّا أي: إلا أن تكفَّ الناس كفًّا، ووقوع المصدر حالاً كثير.

= مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، فاتحته (١/ ٣٧٠ - ح٥٢١) من حديث جابر.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (١/ ١٣٤ - ح١٥٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر الجواب الصحيح (١/ ١٦٢) تحقيق العسكر وآخرين، ومجموع الفتاوى (٤/ ٢٠٣ - ٣٠٨) وعموم الرسالة واجب على كل إنسان أن يؤمن به. انظر مجموع الفتاوى (١٩/ ٩ - ١٢).

(٣) أي وما أرسلناك إلا حالة كونك (كاثفاً) للناس، ثم سهلت الهمزة وأدغمت فصارت كاف للناس، ثم جاءت التاء للمبالغة كالعلامة والراوية فصارت (كافة).

(٤) وهو المسمى عندهم بالمفعول المطلق، ثم يقع حالاً وهو كثير كما قاله الشارح.

الثاني: أنها حال من «الناس». واعترض بأن حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور، وأجيب بأنه قد جاء عن العرب كثيراً فوجب قبوله، وهو اختيار ابن مالك رحمه الله، أي: وما أرسلناك إلا للناس كافة[1].

الثالث: أنها صفة لمصدر محذوف، أي: إرسالة كافة. واعتُرض بما تقدم أنها لم تستعمل إلا حالاً[2].

وقوله: بالحق والهدى وبالنور والضياء. هذه أوصاف ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلة. والضياء: أكمل من النور، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]

ختم الرسالات.

وقال: (ص١٦٨)
قوله: وإِنَّهُ خَاتَمُ الأَنْبِيَاء.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال ﷺ: **«مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه، وتُرك منه موضع لبنة، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه، إلا موضع تلك اللبنة، لا يعيبون سواها، فكنت أنا سددت موضع تلك اللبنة، ختم بي البنيان وختم بي الرسل»**، خرجاه في الصحيحين[3] وقال ﷺ: **«إن لي أسماء: أنا محمد،**

---

(١) وهذا الوجه هو الذي يؤيد عموم رسالته ﷺ فهو بمعنى وما أرسلناك إلا للناس حالة كونهم مجتمعين كافة.
وقد قال ابن مالك:
وسَبْقَ حالٍ ما بحرفٍ جُرَّ قَدْ أبَوْا ولا أمنعه فقد وَرَدْ
وصححه أبوحيان كذلك في البحر المحيط (٢٨١/٧).
(٢) وجاء في شرح القاموس ما يفيد أنها استعملت مجرورة في لغة قليلة فالله أعلم.
(٣) أخرجه البخاري في المناقب باب خاتم النبيين (٥٥٨/٦ ـ ح٣٥٣٥) من حديث =

وأنا أحمد، وأنا الماحي، يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي»[1] **وفي** صحيح مسلم عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: **«وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي»**، الحديث[2]. ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: **«فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»**[3].

وقال: (ص١٧٦)

قوله: وَكُلُّ دَعْوىٰ النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ فَغيٌّ وهَوَىٰ.

لما ثبت أنه خاتم النبيين، علم أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب.

أبي هريرة، وأخرجه مسلم في الفضائل باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٤/ ١٧٩٠ ـ ح٢٢٨٦) من حديثه، وأخرجه البخاري أيضاً عن جابر في الموضع السابق (ح٣٥٣٤)، وأخرجه مسلم عن جابر في الفضائل الموضع السابق (٤/ ١٧٩١ ـ ح٢٢٨٧) ؛ وقد نبه الشيخ الألباني وتابعه الأرناؤوط على أن اللفظ الذي ذكره المصنف إنما هو لابن عساكر في تاريخه عن أبي هريرة كما في الجامع الكبير للسيوطي.

(١) أخرجه البخاري من حديث جبير بن مطعم في المناقب باب ماجاء في أسماء رسول الله ﷺ (٦/ ٥٥٤ ـ ح٣٥٣٢)، وأخرجه أيضًا برقم (٤٨٩٦)، وأخرجه مسلم من حديث في الفضائل باب في أسمائه ﷺ (٤/ ١٨٢٨، ١٨ ـ ح٢٣٥٤).

(٢) أخرجه أبوداود في أول كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن (٤/ ٩٧ ـ ح١٤٢٥٢)، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وصحح الأرناؤوط سنده (ص١٥٧)، وأخرج أصل الحديث الإمام مسلم في كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٤/ ٢٢١٥ ـ ح٢٨٨٩).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، فاتحته (١/ ٣٧١ ـ ح٥٢٣) من حديث أبي هريرة.

ولا يقال: فلو جاء المدعى للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يُقال بتكذيبه؟ لأنَّا نقول: هذا لا يتصور أن يوجد، وهو من باب فرض المحال، لأنَّ الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين، فمن المحال أن يأتي مدَّعٍ يدعى النبوة ولا تظهر أمارة كذبه في دعواه. والغيّ: ضد الرشاد. والهوى: عبارة عن شهوة النفس. أي: أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس لا عن دليل، فتكون باطلة[1].

الإسراء والمعراج.

وقال: (ص٢٤٥ ـ ٢٤٩)

قوله: والمِعْراجُ حَقٌّ، وقَدْ أُسْرِيَ بالنَّبي ﷺ وعُرِجَ بِشَخْصِه في اليَقَظَةِ، إلى السمَاء، ثُم إلى حَيثُ شَاء اللهُ مِنَ العُلا، وأكْرَمَهُ اللهُ بمَا شَاءَ، وأوْحىٰ إليه مَا أوْحىٰ، مَا كَذَبَ الفُؤادُ مَا رَأى. فَصَلَّى الله عَليهِ وسَلَّم في الآخرةِ والأُولىٰ.

«المعراج»: مفعال، من العروج، أي الآلة التي يعرج فيها، أي يُصعد، وهو بمنزلة السُّلَّم، لكن لا نعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيَّبات، نؤمِن به ولا نشتغل بكيفيته.

وقوله: وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة

اختلف الناس في الإسراء.

فقيل: كان الإسراء بروحه ولم يُفقد جسده. نقله ابن إسحاق عن عائشة ومعاويه رضي الله عنهما، ونقل عن الحسن البصري نحوه[2]. لكن ينبغي أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناما، وبين أن يقال: كان

---

(١) وانظر مجموع الفتاوى (١١/١٦٩).
(٢) انظر زاد المعاد (٣/٤٠).

بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم . فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا كان مناماً، وإنما قالا: أسري بروحه ولم يُفقد جسده، وفرق ما بين الأمرين: إذ مايراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج إلى السماء، وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال. فما أرادا أن الإسراء كان مناماً، وانما أرادا أن الروح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيرَه لاتنال ذاتُ روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت(١).

وقيل: كان الإسراء مرتين، مرة يقظة، ومرة مناماً. وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: «ثم استيقظتُ»، وبين سائر الروايات(٢). وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين، مرة قبل الوحي، ومرة بعده، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي، ومرتين بعده، وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة، للتوفيق!! وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث وإلا فالذي عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة، بعد البعثة(٣)، قبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر(٤).

---

(١) وأيضاً لو كان مناماً لما كذبته قريش انظر الفتح (٥٤٨/١)، وقد ذكر الشيخ الألباني في تعليقه أن ماروي عن معاوية وعن عائشة لم يصح، فهو في غنية عن التأويل فالحمد لله، وانظر الروض الأنف (٢٤٣/١).

(٢) وهناك وجه آخر للجمع ذكره القرطبي، وهو أنه يحتمل أن يكون استيقاظاً من نومة نامها بعد الإسراء، لأن إسراءه لم يكن طول ليلته، وإنما كان في بعضها، ويحتمل أن يكون المعنى (أفقت مما كنت فيه) أي: ما خامره من مشاهدة الملأ الأعلى. انظر الفتح (٤٨٧/١٣)، شرح الغنيمان لكتاب التوحيد (٤٤٦/٢).

(٣) انظر زاد المعاد (٤٢/٣).

(٤) ونقله عنه الحافظ في الفتح، وذكر بحثاً قيماً في اختلاف أهل العلم في وقت الإسراء فليراجع (٢٤٢/١٠ ـ ٢٤٣ط. الريان).

قال شمس الدين ابن القيم: ياعجباً لهؤلاء الذي زعموا أنه كان مراراً! وكيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، فيقول: «أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي» ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها إلى خمس؟! وقد غلط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه، ثم قال: « فقدَّم وأخرَّ وزاد ونقص». ولم يسرد الحديث. فأجاد رحمه الله. انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله[1].

وكان حديث الإسراء: أنه ﷺ أسري بجسده في اليقظة، على الصحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، راكباً على البراق[2]، صحبة جبرائيل عليه السلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد. وقد قيل: إنه نزل بيت لحم وصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك ألبتة[3]. ثم عرج من بين المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبرائيل، ففُتح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر[4]،

---

(١) انظر زاد المعاد (٣/٤٣)، وجملة ما انتقد على شريك في حديث الإسراء أكثر من عشرة أوهام: ذكرها الحافظ في الفتح شرح الحديث من كتاب التوحيد (١٣/ ٤٨٥، ٤٨٦).

(٢) وورد في صفته في حديث مالك بن صعصعة أنه دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يضع خَطوَه عند أقصى طرفه. انظر باب المعراج في مناقب الأنصار (١٠/ ٢٤١ - ح٣٨٨٧ الفتح ط. الريان).

(٣) ورد ذلك في حديث شداد بن أوس عند البزار والطبراني، وفيه أيضًا أنه صلى بيثرب طيبة ثم صلى بمدين، ثم عند شجرة موسى، ثم صلى ببيت لحم. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧٤): «رواه البزار والطبراني في الكبير وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء، وثقه يحي بن معين وضعفه النسائي» اهـ.

(٤) قال شيخ الإسلام: «وأما رؤيته ورؤية غيره من الأنبياء ليلة المعراج إلى =

فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقرّ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثانية. فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم، فلقيهما، فسلم عليهما، فردَّا عليه السلام، ورحبا به وأقرَّا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقِي فيها موسى فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي. ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقى فيها إبراهيم، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته، ثم رُفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عُرج به إلى الجبَّار، جل جلاله وتقدست أسماؤه، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى[1]، فأوحى إلى

= السماء... فهذا رأى أرواحهم مصورة في صور أبدانهم. وقد قال بعض الناس: لعله رأى نفس الأجساد المدفونة في القبور، وهذا ليس بشيء، لكن (عيسى) صعد إلى السماء بروحه وجسده، وكذلك قد قيل في إدريس، وأما إبراهيم وموسى وغيرهما فهم مدفونون في الأرض. »اهـ من مجموع الفتاوى (٤/٣٢٨،٣٢٩)، والقائل بأنه ﷺ رأى الأجساد يلزمه خروج الأجساد من القبور قبل النشور وقد قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝﴾ [طه: ٥٥]، وورد في كون إدريس بجسده في السماء - كما أشار إليه الشيخ - آثار إسرائيلية وموقوفات في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝﴾ [مريم:٥٧]، ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (١/٩٣)، واستنكر بعضها فليراجع.

(١) هذا اللفظ يثبت قرب الله تعالى، وهو مما جاء في النصوص الصحيحة في غير هذا الحديث كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝﴾ [ق: ١٦]، وكذلك دنو الرب من عباده عشية عرفة وغير ذلك من النصوص ولا يستلزم ذلك خلو العرش من الرب =

عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة فرجع حتى مر على موسى، فقال: بمَ أُمِرت،؟ قال: بخمسين صلاة، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار أن: نعم، إن شئت، فعلا به جبرائيل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى وهو في مكانه ـ هذا لفظ البخاري في صحيحه[1] وفي بعض الطرق فوضع عنه عشراً، ثم نزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى، حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي ولكن أرضى وأسلم، فلما نفذ، نادى مناد: قد أمضيتُ فريضتي وخففت عن عبادي[2].

= تعالىٰ، بل هو فوق عرشه ويقرب من خلقه كيف يشاء فدنوه وقربه على مايليق به تعالىٰ، ولذا فلا محذور في إثبات ذلك سواء قلنا بثبوت حديث شريك، أو قلنا إنه وَهِم في هذه اللفظة، علماً أن الحافظ في الفتح ذكر لها شواهد (١٣/٤٨٤)، وانظر مجموع الفتاوى (٥/٤٦٣ ـ ٤٦٦)، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (٢/٤٥٥ ـ ٤٦٤).

(١) في حديث شريك في كتاب التوحيد باب ما جاء في قوله عز وجل (وكلم الله موسى تكليماً) (١٣/٤٧٨ ـ ح٧٥١٧)، وليس في الحديث إضافة المكان إلى الله حتى يحتاج إلى تأويل، وقد حمله الخطابي على مكان النبي ﷺ أي في مقامه الأول الذي قام فيه قبل هبوطه، قال الحافظ وهذا متعين، وقد ذكره الشيخ الغنيمان في شرحه كذلك جازمًا به، انظر الفتح (١٣/ ٤٨٤) ، شرح الغنيمان (٢/ ٤٦١) ولفظ الصحيح: (فعلا به ـ يعني جبريل ـ إلى الجبَّار، فقال وهو في مكانه: ياربّ خفف عنا. . .)إلخ. وأما على اللفظ الذي نسبه الشارح للبخاري وهو (فعلا به جبرائيل حتى أتى به إلى الجبار تبارك وتعالىٰ وهو في مكانه)، فهذا اللفظ يحتمل أن الضمير عائد على جبرائيل، فقد علا بالنبي ﷺ وهو في مكانه، ويكون هذا مما يوضح عظم خلق جبريل والله تعالىٰ أعلم.

(٢) انظر في روايات حديث الإسراء أيضًا ما أخرجه البخاري من طريق مالك بن صعصعة =

ومما يدل على أن الإسراء بجسده في اليقظة، قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. والعبد عبارةٌ عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، وهذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح[١]. فيكون الإسراء بهذا المجموع[٢]، ولا يمتنع ذلك عقلا، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهو كفر.

فإن قيل: فما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولا؟ فالجواب ـ والله أعلم: أن ذلك كان إظهارا لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج حين

= في بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٦/٣٠٢ ـ ح٣٢٠٧)، وما أخرجه في مناقب الأنصار باب المعراج (٧/٢٤١ ح٣٨٨٧)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١/١٤٩ ـ ح١٦٤)، وأما رواية شريك فقد قيل بتفردها كما أشار إليه الشارح نقلاً عن ابن القيم، وكذا البيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٤٠ ـ ٤٤٢)، وقد لخص ذلك الحافظ في الفتح وأجاب عن الإشكالات الواردة على حديث شريك وقال(١٣/٤٨٥): «والجواب عنها إما بدفع تفرده وإما بتأويله على وفاق الجماعة» اهـ، وانظر أيضًا في ذلك ما كتبه الشيخ الغنيمان حول هذا الحديث في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/٤٤٣ ـ ٤٦٤).

(١) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٤/٢٢٢)، وسبق في مبحث (كلام الله) نظير ذلك أيضًا في مسمى الكلام عند الإطلاق.

(٢) وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فالمقصود الرؤيا البصرية، لأن الرؤيا المنامية لا تكون مصدر فتنة، فإن الإنسان يرى في المنام خوارق لو أخبر بها الناس لما استبعدوه منامًا، ولما حصل لهم به الفتنة، فلو كان الإسراء منامًا لما كذبوه. وانظر فتح الباري (٧/٢٥٩ ط.الريان)، وانظر الملحق التعليمي.

سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم وأخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

المبحث الخامس

المفاضلة بين الأنبياء

أثبتت النصوص أن أولي العزم من الرسل أفضل من غيرهم، وأن الله اتخذ إبراهيم ومحمدًا خليلين، وأن محمداً هو سيد ولد آدم.
ولكن جاءت بعض النصوص تنهى عن المفاضلة بين الأنبياء، فبين الشارح وجهها وأنها جاءت في قصة كان التفضيل فيها على وجه الحمية والعصبية التي تؤدي إلى تنقص المَفضول، وعليه فليست يُنهى عنها مطلقًا، كيف وقد ثبت التفضيل في غير ما دليل، ولأجل أن يكون البحث في المفاضلة مرتباً لذا سأوضحه من خلال النقاط الآتية إن شاء الله:

١ـ تعريف المحبة ومراتبها لتحديد مرتبة الخلة فيها.
٢ـ الأدلة على أن الله اتخذ محمدًا وإبراهيم خليلين.
٣ـ فضل بيت إبراهيم والصلاة عليه.
٤ـ النهي عن المفاضلة خاص بصور معينة.
٥ـ الأنبياء أفضل من الأولياء.

وهذا الأخير هو من فروع هذه القضية لأنه قد يظن إنسان أن الأنبياء لما عوتب بعضهم في القرآن، فالأولياء أفضل كما ظنه من ظنه من جهلة الصوفية، لذا ألحقته به والله ولي التوفيق.

١ـ تعريف المحبة ومراتبها

قال الشارح: (ص١٧٦)
وقد اختلف في تحديد المحبة على أقوال، نحو ثلاثين قولاً. ولا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً. وهذه

الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد، كالماء والهواء والتراب والجوع والشبع ونحو ذلك.

وقال: (ص١٧٥)

والمحبة مراتب:

أولها: العلاقة، وهي تعلق القلب بالمحبوب.

والثانية: الإرادة، وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: الصبابة، وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

الرابعة: الغرام، وهي الحب اللازم للقلب، ومنه الغريم، لملازمته، ومنه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة: المودة، والود، وهي صفو المحبة وخالصها ولبُّها، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦].

السادسة: الشغف[١]، وهي وصول المحبة إلى شغاف القلب.

السابعة: العشق: وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه، ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا العبد في محبة ربه، وإن كان قد أطلقه بعضهم. واختلف في سبب المنع، فقيل: عدم التوقيف، وقيل غير ذلك. ولعل امتناع اطلاقه: أن العشق محبة مع شهوة[٢].

الثامنة: التَّيم وهو بمعنى التعبد[٣].

---

(١) ومنه قوله تعالى ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠].

(٢) وانظر في المنع من إطلاق لفظ العشق في محبة الرب أو في وصفه بذلك في مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣١).

(٣) فرّق ابن القيم بين التعبد والتيم، وجعل التعبد فوق التتيم، وجعل محبة العبودية أشرف أنواع المحبة وهي خالص حق الله على عباده كما بالمدارج (٣/ ٣١)، وروضة المحبين (ص٥٢).

التاسعة: التعبد.

العاشرة: الخلة، وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه.

وقيل في ترتيبها غير ذلك. وهذا الترتيب تقريب حسن، يعرف حسنه بالتأمل في معانيه[1].

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، كسائر صفاته تعالى، وإنما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود[2] والمحبة والخلة، حسبما ورد النص.

٢ـ الأدلة على اصطفاء الخليلين:

قال الشارح: (٣٢٨)

قوله: وَنَقُولُ: إِنَّ اللهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وكَلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً، إِيْمَاناً وتَصْدِيقاً وتَسْلِيماً.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤].

الخلة: كمال المحبة. وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين، زعما منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدَث توجب المحبة[3]! وكذلك أنكروا حقيقة

---

(١) وهو ترتيب ابن القيم في المدارج (٣/٢٩ وما بعدها)، وروضة المحبين (ص٤٧ وما بعدها)، وانظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٠، ١٥٣).

(٢) ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٤]، والودود تصلح هنا أن تكون بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول، فهو الوادّ لأوليائه ويودونه فهو مودود تعالىٰ، كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

(٣) إن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما توالد فهذا حق، وإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بينهما مثل ما بين الآكل والمأكول أو نحو ذلك فهذا أيضًا حق، وإن أرادوا أنه =

التكليم، كما تقدم، وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم، في أوائل المائة الثانية فضحَّى به خالد بن عبدالله القسري أميرُ العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس ضَحُّوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مُضَحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه. وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم، فجزاه الله عن الدين وأهله خيرا[1].

وأخذ هذا المذهبَ عن الجعد ـ الجهمُ بن صفوان، فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قوله: «الجهمية». فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون، حتى امتُحن أئمة الإسلام، ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك. وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلاً وموسى كليماً، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب،

= لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محباً عابداً، والآخر معبوداً محبوباً فهذا رأس المسألة والاحتجاج به مصادرة على المطلوب كما عرف ذلك في موضعه من علم الجدل، وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٤)،(٦/ ١١٤).

(١) قال ابن القيم في النونية (١/ ٥٠،٥١) في الكلام على عقائد الجهمية:

وكذاك قالوا ماله من خلقه ... أحدٌ يكون خليلَه النفسانِ
وخليله المحتاج عندهم وفي ... ذا الوصف يدخل عابدوا الأوثانِ
فالكل مفتقر إليه لذاته ... في أسر قبضته ذليل عانِ
ولأجل ذا ضحى بجعدٍ خالد القسـ ... ـري يوم ذبائح القربانِ
إذ قال إبراهيم ليس خليلَه ... كلا ولا موسى الكليم الدانِ
شكر الضحيةَ كلُ صاحب سنة ... لله درك من أخي قربانِ اهـ.

وانظر منهاج السنة (١/٣٠٩).

كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ولـذا سُمي الخليل خليلاً[1]

ولكن محبة الله وخلته كما يليق به تعالى، كسائر صفاته.

ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «**لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذتُ أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله**»[2] يعنى نفسه. وفي رواية: «**إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً**»[3].

وفي رواية: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»[4].

وقال: (ص١٧٤ ـ ١٧٥)

ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة، وهي الخلة، كما صح عنه ﷺ أنه

---

(١) انظر روضة المحبين لابن القيم (ص٤٧ ـ ٤٩)، ومدارج السالكين (٣/٣٣)، ومجموع الفتاوى (٨/١٤٢).

(٢) هذا لفظ ابن أبي شيبة في المصنف (١١/٤٧٣)، وأخرجه البخاري عن أبي سعيد في فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: «سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر» (٧/١٥ ـ ح٣٦٥٤ ط.الريان)، وكذلك أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٤/١٨٥٤ ـ ح٢٣٨٢) عنه ولفظه «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبابكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته».

(٣) أخرجه مسلم في المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٧ ـ ح٥٣٢) من حديث جندب رضي الله عنه.

(٤) هو جزء من حديث جندب السابق فإن حديث جندب لفظه عند مسلم هكذا «سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالىٰ قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك».

قال: «إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا». وقال: «لو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»[1] والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، فإبراهيم خليل الله ومحمد حبيبه. وفي الصحيح أيضا: «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته». والمحبة قد ثبتت لغيره. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. فبطل قول من خص الخُلة بإبراهيم والمحبة بمحمد، بل الخُلة خاصة بهما والمحبة عامة. وحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه: «إن إبراهيم خليل الله، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر»: لم يثبت[2].

وقال: (ص٣٢٩)

فبين ﷺ أنه لايصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق. مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً، كقوله لمعاذ: «والله إني لأحبك»[3]، وكذلك قوله

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه(٤/١٨٥٦ ـ ح٧/٢٣٨٣) من حديث ابن مسعود بلفظ (خليل الله).

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب باب فضل النبي ﷺ (٥/٥٤٨ ـ ح٣٦١٦) وقال: غريب، وفي سنده زمعة بن صالح، وسلمة بن وهرام وهما ضعيفان، وضعفه الألباني (ص١٧٥)، والأرناؤوط (ص١٦٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٥/٢٤٥،٢٤٧)، وأخرجه أبوداود في الصلاة باب في الاستغفار(٢/٨٦ ـ ح١٥٢٢)، وأخرجه النسائي في كتاب السهو في أبواب الدعاء بعد الذكر (٣/٥٣ ـ ح١٣٠٣)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/٢٧٣) وصححه ووافقه الذهبي من حديث معاذ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: يا معاذ والله إني لأحبك =

للأنصار[1]. وكان زيد بن حارثة حِبَّ رسول الله ﷺ، وابنه أسامة حِبّه. وأمثال ذلك. وقال له عمرو بن العاص: أي الناس أحبّ إليك؟ قال: «عائشة»، قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»[2].

فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة، والمحبوب بها لكمالها يكون محبا لذاته، لا لشي آخر، إذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير[3]، ومن كمالها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة، لتخلل المحبة، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب[4].

ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكان إبراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه، فغار

= فقال: أوصيك يا معاذ لاتدعن في دبر كل صلاة أن تقول: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». وصححه الألباني (٣٣٠)، والأرناؤوط (٣٩٧).

(١) ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن أنس قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبي لها فكلمها رسول الله ﷺ، فقال: والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليَّ (مرتين)، وأخرجه البخاري في مناقب الأنصاري باب قول النبي ﷺ للأنصار: أنتم أحب الناس إليَّ (١٤٢/٧ ـ ح٣٧٨٦) ط.الريان، وبنحوه عن أنس في الباب نفسه برقم (٣٧٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٢٢/٧ ـ ح٣٦٦٢) ط.الريان من حديث عمرو بن العاص، وأخرجه في المغازي باب غزوة ذات السلاسل وهي غزوة لخم وجذام (٦٧٣/٧ ـ ح٤٣٥٨) ط.الريان من حديثه، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (١٨٥٦/٤ ـ ح٢٣٨٤) من حديثه أيضاً.

(٣) فعندما يقال: أحببت فلاناً لعلمه، فقد أحببت العلم أولاً ثم المتصف به بعد ذلك متأخرًا.

(٤) من أول هذا المطلب إلى هذا الموضع منقول بلفظه من التحفة العراقية من مجموع الفتاوى (٦٦/١٠ وما بعدها) وتصرفه يسير.

الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره[1]، فامتحنه بذبحه، ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه، وعزم على فعله، فظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد إيثاراً لمحبة خليله على محبته، نسخ الله ذلك عنه، وفداه بالذِّبح العظيم، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أُمِر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسدة، فنسخ في حقه، وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة.

وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبراهيم صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبيناﷺ كما تقدم، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ، كما ثبت ذلك في حديث الإسراء.

٣ـ فضل بيت إبراهيم عليه السلام وخصائصه:

قال الشارح: (ص٣٣٢)

ولما كان بيتِ إبراهيم عليه السلام أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله بخصائص: منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته[2]. ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون

---

(١) الرب تعالىٰ موصوف بالغيرة على ما يليق به كما في الحديث: «تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير مني، ومن أجل ذلك حرم الفواحش ..» الحديث أخرجه البخاري في التوحيد باب قول النبي ﷺ: «لا شخص أغير من الله (١٣/ ٣٩٩ ـ ح٧٤١٦)؛ إلا أن هذا الكلام الذي أورده الشارح قد يقال إنه يفتقر إلى الدليل، فإن ثبت فالحمد لله والله أعلم، وهو بنحوه في المدارج (٣/ ٣٣)، وانظر في قصة الذبح مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٠٣).

(٢) كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي أرسله الله، =

بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم[1]. ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين، كما تقدم ذكره. ومنها: أنه جعل صاحب هذا البيت إماماً للناس. قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]. ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قياماً للناس ومثابة وأمنا، وجعله قبلة لهم وحجاً، فكان ظهور هذا البيت في الأكرمين. ومنها: أنه أمر عباده أن يصلُّوا على أهل البيت. إلى غير ذلك من الخصائص.

وإذا علم أن محمداً ﷺ هو أفضل آل إبراهيم علم من ذلك أنه إذا صُلي عليه في الصلاة بلفظ «كما صليت على آل إبراهيم» دخل هو وغيره في آل إبراهيم وقد عرض الشارح لهذا في صورة سؤال ثم أجاب عليه.

فقال: (ص٣٣١-٣٣٢)

وهنا سؤال مشهور، وهو: أن النبي ﷺ أفضل من إبراهيم ﷺ، فكيف طلب له من الصلاة مثل مالإبراهيم، مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه؟ وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين؟

وقد أجاب عنه العلماء بأجوبة عديدة[2]، يضيق هذا المكان عن بسطها.

وأحسنها: أن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي ﷺ ولآله من الصلاة مثل مالإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء،

= وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه. وانظر تفسير ابن كثير (١/١٦٧).

(١) وانظر مجموع الفتاوى (١٧/٤٨٣).

(٢) انظر في ذلك ما كتبه ابن القيم في جلاء الأفهام ص١٦١ - ١٧٠ تحقيق طه شاهين نشر دار الكتب العلمية.

حصل لآل محمد ما يليق بهم لأنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد ﷺ، فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره.

وأحسن من هذا: أن النبي ﷺ من آل إبراهيم، بل هو أفضل آل إبراهيم، فيكون قولنا: «كما صليت على آل إبراهيم» - متناولاً الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم وهو متناول لإبراهيم أيضا. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣]. فإبراهيم وعمران دخلا في آل إبراهيم وآل عمران، وكما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٣٤]. فإن لوطا داخل في آل لوط، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] وقوله: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦] فإن فرعون داخل في آل فرعون. ولهذا والله أعلم، أكثر روايات حديث الصلاة على النبي ﷺ إنما فيها كما صليت على آل إبراهيم. وفي كثير منها: كما صليت على إبراهيم ولم يرد: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إلا في قليل من الروايات[1] وما ذلك إلا لأن في قوله: كما صليت على إبراهيم، يدخل آله تبعا. وفي قوله: كما صليت على آل إبراهيم، هو داخل في آل إبراهيم، وكذلك لما جاء أبو أوفى رضي الله عنه بصدقة إلى النبي ﷺ دعا له النبي ﷺ وقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[2].

---

(١) ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري بالجمع بينهما في كتاب التفسير باب (إن الله وملائكته يصلون على النبي) (٨/ ٥٣٢ ـ ح٤٧٩٨)، وفي الدعوات باب الصلاة على النبي ﷺ (١١/ ١٥٢ ـ ح٦٣٥٨)، وما أخرجه أحمد عن كعب بن عجرة (٤/ ٢٤٤)، وما أخرجه النسائي عن طلحة بن عبيدالله في كتاب السهو باب كيف الصلاة على النبي ﷺ (٣/ ٤٨ ـ ح١٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في مواضع منها ما أخرجه في الزكاة باب صلاة الإمام ودعائه =

٤ـ النهي عن المفاضلة خاصٌ بصور معينة

بعد أن تبين من الأدلة، أفضلية بعض الأنبياء على بعض وكما قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فهنا يرد سؤال عن وجه الحديث الذي فيه النهي عن المفاضلة، وقد بين الشارح أن هذا النهي له قضية خاصة، أو يمكن حمله على صورٍ معينة، فبعد أن دلل على أفضلية محمد ﷺ.

قال: (ص١٦٩ـ١٧٣)

فإن قيل: يشكل على هذا قوله ﷺ: **«لا تفضلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بساق العرش فلا أدري هل أفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله؟»** خرجاه في الصحيحين[(١)]، فيكف يجمع بين هذا وبين قوله **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»**[(٢)].

فالجواب: أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودي: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم، وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه، فقال النبي ﷺ هذا، لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان

= لصاحب الصدقة (٣/ ٣٦١ ـ ح١٤٩٧)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى ، وأخرجه مسلم من حديثه في الزكاة باب الدعاء لمن أتى بصدقته (٢/ ٧٥٦ ـ ح١٠٧٨).

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها ما أخرجه في الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة (٥/ ٨٥ ـ ح٢٤١١) ط. الريان من حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم في الفضائل باب من فضائل موسى ﷺ (٤/ ١٨٤٤ ـ ح٢٣٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢) من حديث أبي سعيد الخدري، وأخرجه الترمذي في المناقب باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٤٨ ـ ح٣٦١٥) وقال حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في الزهد باب ذكر الشفاعة (٢/ ١٤٤٠ ـ ح٤٣٠٨)، وله شواهد بعضها في الصحيح وبها صححه الشيخ الألباني (ص١٧٠)، والأرناؤوط (ص١٥٩).

مذموماً، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموماً، فإنّ الله حرم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص بالمفضول. وعلى هذا يحمل أيضا قوله ﷺ: «لا تفضلوا بين الأنبياء»[(١)]، إن كان ثابتا، فان هذا قد روى في نفس حديث موسى، وهو في البخاري وغيره. لكن بعض الناس يقول: إن فيه علة، بخلاف حديث موسى، فانه صحيح لا علة فيه باتفاقهم.

وقد أجاب بعضهم بجواب آخر، وهو أن قوله ﷺ: «لاتفضلوني على موسى» وقوله: «لاتفضلوا بين الأنبياء» نهي عن التفضيل الخاص، أي: لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه، بخلاف قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» فإنه تفضيل عام فلا يمنع منه. وهذا كما لو قيل: فلان أفضل أهل البلد، لا يصعب على أفرادهم، بخلاف ما لو قيل لأحدهم: فلان أفضل منك. ثم إني رأيت الطحاوي رحمه الله قد أجاب بهذا الجواب في «شرح معاني الآثار»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب (وإن يونس لمن المرسلين) (٦/ ٤٥٠ ـ ح٣٤١٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب من فضائل موسى ﷺ (٤/ ١٨٤٣ ـ ح٢٣٧٣/ ١٥٩) من حديث أبي هريرة، وله شاهد من حديث أبي سعيد أخرجه البخاري في الخصومات باب مايذكر في الأشخاص والملازمة ولفظه فيه «لا تخيروا بين الأنبياء» (٥/ ٨٥ ـ ح٢٤١٢) ط. الريان، وأخرجه مسلم في الفضائل باب من فضائل موسى عليه الصلاة والسلام (٤/ ١٨٤٥ ـ ح٢٣٧٤) من حديث أبي سعيد أيضاً ولفظه «لا تخيروا بين الأنبياء» قال الشيخ الألباني في تعليقه (ص١٧١): وقد غمز الشارح في صحته، ولا أعلم له علة، ولم يتكلم عليه الحافظ في الفتح.

(٢) شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٥، ٣١٦)، وانظر مزيداً من أوجه الجمع في الفتح (٦/ ٤٤٦).

وأما ما يروى أن النبي ﷺ قال: «لاتفضلوني على يونس بن متي» وأن بعض الشيوخ قال: لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يعطى مالا جزيلا، فلما أعطوه فسره بأن قرب يونس من الله وهو في بطن الحوت كقربي من الله ليلة المعراج وعدوا هذا تفسيراً عظيماً[1]. وهذا يدل على جهلهم بكلام

---

(١) ذكر القرطبي في التذكرة قال: فصل: قوله ﷺ: «ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» للعلماء فيه تأويلات، ثم ذكر عن ابن العربي أن أبا المعالي الجويني سئل هل الباري في جهة؟ فقال: لا هو يتعالىٰ عن ذلك. قيل له: فما الدليل عليه؟ قال: الدليل عليه قول النبي ﷺ: «لاتفضلوني على يونس بن متى»، فقيل له: ما وجه الدليل من هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها ديناً، فقام رجلان فقالا: هي علينا، فقال: لا يتبع بها اثنان، لأنه يشق عليه، فقال واحد هي علي، فقال: «إن يونس بن متى ﷺ رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، وصار في قعر البحر في ظلمات ثلاثة، ونادى ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، كما أخبر الله، ولم يكن محمد حين جلس على الرفرف الأخضر، وارتقى به صعداً حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجى به، وأوحى إليه ما أوحى، بأقرب إلى الله من يونس في ظلمة البحر... اهـ.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله في النونية (١/ ١٨٧)

«وقد وجدت لفاضل منهم مقا	ماً قامه في الناس منذ زمان
قال اسمعوا ياقوم إن نبيكم	قد قال قولاً واضح البرهان
لا تحكموا بالفضل لي أصلاً على	ذي النون يونس ذلك الغضبان
هذا يرد على المجسم على قوله	الله فوق العرش والأكوان
ويدل أن إلهنا سبحانه	وبحمده يلقى بكل مكان
قالوا له بين لنا هذا فلم	يفعل فأعطوه من الأثمان
ألفاً من الذهب اعتيق فقال في	تبيانه فاسمع لذا التبيان
قد كان يونس في قرار البحر تحـ	ـت الماء في قبر من الحيتان
ومحمد صعد السماء وجاوز السبـ	ـع الطباق وجاز كل عنان

الله وبكلام رسوله لفظا ومعنى، فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها[1]، وإنما اللفظ الذي في الصحيح «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متي». وفي رواية: «من قال إني خير من يونس ابن متى فقد كذب»[2]. ·وهذا اللفظ يدل على العموم،

= وكلاهما في قربه من ربه ... سبحانه إذ ذاك مستويان
فالعلو والسفل اللذان كلاهما ... في بعده من ضده طرفان
إن ينسبا لله نزه عنهما ... بالاختصاص بلى هما سيان
في قرب من أضحى مقيماً فيهما ... من ربه فكلاهما مثلان
فلأجل هذا خص يونس دونهم ... بالذكر تحقيقاً لهذا الشان
فأتى الثناء عليه من أصحابه ... من كل ناحية بلا حسبان
فاحمد إلهك أيها السني إذ ... عافاك من تحريف ذي بهتان
والله ما يرضى بهذا خائف ... من ربه أمسى على الإيمان
هذا هو الإلحاد حقاً بل هو الـ ... تحريف محضاً أبرد الهذيان
والله ما بلى المجسم قط ذي الـ ... بلوى ولا أمسى بذي الخذلان
أمثال ذا التأويل أفسد هذه الـ ... أديان حين سرى إلى الأديان
والله لولا الله حافظ دينه ... لتهدمت منه قوى الأركان.اهـ

وانظر أيضاً مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٤).

(١) قال الشيخ الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية (ص١٧٢): لا أعرف له أصلاً بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء باب قوله تعالىٰ: (وإن يونس لمن المرسلين) (٦/ ٤٥٠ ـ ح٣٤١٥، ٣٤١٦) من حديث أبي هريرة، وأخرجه من حديث ابن عباس في نفس الموضع (٦/ ٤٥٠ ـ ح٣٤١٣)، وأخرجه مسلم في الفضائل باب في ذكر يونس عليه السلام (٤/ ١٨٤٦ ـ ح٢٣٧٦) من حديث ابن عباس، وأخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ (من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) في كتاب التفسير باب (إنا أوحينا إليك ـ إلى قوله: ويونس وهارون وسليمان) (٨/ ٢٦٧ ـ ح٤٦٠٤)، وأخرجه عنه ولفظه «ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى» (٦/ ٤٥١ ـ ح٣٤١٤)، وأخرجه البخاري عن ابن مسعود في الأنبياء باب قوله تعالىٰ: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ (٦/ ٤٥٠ ـ ح٣٤٢١).

أي: «لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متي»، ليس فيه نهي المسلمين أن يفضلوا محمدا على يونس[1]، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهو مليم، أي: فاعل ما يُلام عليه. وقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام، اذ لا يفعل ما يلام عليه. ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس أن: ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾، كما قال أول الأنبياء وآخرهم.

فأولهم: آدم قد قال: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وآخرهم وأفضلهم وخاتمهم وسيدهم: محمد ﷺ، قال في الحديث الصحيح، حديث الاستفتاح، من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، بعد قوله «وجهت وجهي» آخره: «**اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفس، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت**»[2]، إلى آخر الحديث.

وكذا قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦]. وأيضا فيونس ﷺ لما قيل فيه: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨]، فنهى نبينا ﷺ عن التشبه بـه،

---

(١) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٣، ٢٢٤).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤ - ح٧٧١)، وأخرجه أحمد (١/ ٩٤، ٩٥).

وأمره بالتشبه بأولي العزم حيث قيل له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فقد يقول من يقول: «أنا خير من يونس»: فليس للأفضل أن يفخر على من دونه، فكيف إذا لم يكن أفضل، فإن الله لا يحب كل مختال فخور. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[1]. فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين، فكيف على نبي كريم؟ فلهذا قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متي». فهذا نهي عام لكل أحد أن يتفضل ويفتخر على يونس.

وقوله: «من قال إني خير من يونس بن متي فقد كذب»، فإنه لو قدر أنه كان أفضل[2]، فهذا الكلام يصير أنقص، فيكون كاذبا، وهذا لا يقوله نبي كريم، بل هو تقدير مطلق، أي: من قال هذا فهو كاذب، وإن كان لا يقوله نبي، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وإن كان ﷺ معصوماً من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال[3].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/٢١٩٨ ـ ح٢٨٦٥/٦٤) من حديث عياض بن حمار المجاشعي.

(٢) يعني باعتبار أن المتكلم يدخل في عموم خطابه (من قال)، وهذا الوجه تُوَجَّهُ به أيضاً رواية الطبراني (لاينبغي لنبي أن يقول...إلخ) والتي أوردها الحافظ في الفتح (٦/٤٥١)، وانظر في دخول المتكلم في عموم خطابه شرح الكوكب المنير (٣/٢٥٢ وما بعدها).

(٣) هذه من القواعد العظيمة التي تجتمع بها نصوص الوعد والوعيد، نحو (لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) و (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) فلو مات رجل من أهل لا إله إلا الله وفي قلبه كبر، فلا يقطع له بدخول الجنة أو عدم دخولها وإنما يقال: (لا إله إلا الله) توجب الجنة بالنص فهي عظيمة جداً، والكبر يمنع دخول الجنة بالنص، فجرمه كبير، فنستفيد من كل نص مقدار العمل، أما الشخص المعين، =

وإنما أخبر ﷺ أنه سيد ولد آدم، لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره، إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله، كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله، ﷺ أجمعين. ولهذا أتبعه بقوله «ولا فخر»، كما جاء في رواية. وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر: إن مقام الذي أسري به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم ـ كمقام الذي ألقي في بطن الحوت وهو مليم؟! وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب؟! فهذا في غاية التقريب، وهذا في غاية التأديب[1] فانظر إلى هذا الاستدلال، بهذا المعنى المحرف للفظ لم يقله الرسول، وهل يقاوم هذا الدليل على نفي علو الله تعالى على خلقه الأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه، التي تزيد على ألف دليل، كما يأتي الإشارة إليها عند قول الشيخ رحمه الله «محيط بكل شيء وفوقه»، إن شاء الله تعالى[2].

٥ـ الأنبياء أفضل من الأولياء.

لاخلاف بين المسلمين في أن الأنبياء أفضل البشر على الإطلاق، ولكن

= فهو إلى الله، وموازين الرب قسط، ونرجوا للمحسن ونخاف على المسيء، ولا ننزل أحداً جنة ولا ناراً إلا من شهد له الشرع والله تعالىٰ أعلم.

(١) لو قال (الممتحن المبتلى)، (وغاية الابتلاء) لكان أولىٰ والله أعلم، وإنما يبتلي الله الأنبياء بالذنوب رفعاً لدرجاتهم بالتوبة، وتبليغاً لهم إلى محبته، وفرحه بهم، فإنه سبحانه يحب التوابين، ويفرح بتوبة التائب، فالمقصود كمال الغاية لا نقص البداية. انظر مجموع الفتاوى (٢٠/٨٩)، وهذه المسألة متعلقة بمسألة العصمة، وليس هناك نص قاطع بعصمة أحد من الصغائر والكبائر مطلقاً، وإنما هي بدعة شيعية، وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٤/٣١٩ ـ ٣٢١)(٣٥/١٠٠ ـ ١٠٢)، (١٠/٢٩٠ ـ ٢٩٢)، (١٥/١٥٠)، ومنهاج السنة (٢/٣٩٣).

(٢) وبترتيب هذا الكتاب يكون هذا في مبحث العلو في فصل الإيمان بأسماء الله وصفاته من الباب الأول فليراجع.

نبتت نابتة من الفلاسفة والاتحادية، ورأى كل منهم أن شيوخه أفضل من الأنبياء فالفلاسفة يرون أن الأنبياء هم فلاسفة العوام، أما الفيلسوف فهو نبي أصحاب البرهان العقلي وصفوة الخلق، وبذا يكون الفيلسوف عندهم أعلى درجة من النبي ويرون أن النبوة يمكن الوصول إليها عن طريق الرياضة الروحية، حتى تتهيأ النفوس لتلقي الفيوضات التي تفيض من العقل الفعال، وقد سبق بيان ضلال هؤلاء.

وأما الاتحادية فيرون أن الأولياء أفضل من الأنبياء لأن النبي يأخذ من الملك والولي لا يحتاج إلى وساطة الملك، فهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك.

وقد بين الشارح الرد على هؤلاء الاتحادية ومن تبعهم من جهلة الصوفية فقال: (ص٥٥٥ـ ٥٥٨)

قوله: ولا نُفَضِّلُ أحداً مِنَ الأولياءِ عَلَىٰ أَحَدٍ من الأنبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السلام، ونَقُولُ: نَبي واحدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الأوْلِيَاءِ.

يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع. فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤]، إلى أن قال: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]. قال أبو عثمان النيسابوري: من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا، نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه، نطق بالبدعة. وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شيئا من السنة إلا لكبر في نفسه والأمر كما قال، فإنه إذا لم يكن متبعا للأمر الذي جاء به الرسول، كان يعمل بإرادة نفسه، فيكون متبعا لهواه، بغير هدى من الله، وهذا غش النفس، وهو من الكبر، فإنه شبيه بقول الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته واجتهاده في العبادة، وتصفية نفسه، إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم! ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء!! ومنهم من يقول إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء!! ويدعى لنفسه أنه خاتم الأولياء! ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه، ليس له صانع مباين له، لكن هذا يقول: هو الله! وفرعون أظهر الإنكار بالكلية، لكن كان فرعون في الباطن أعرف بالله منهم، فانه كان مثبتا للصانع، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق، كابن عربي وأمثاله !! وهو لما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره قال: النبوة ختمت، لكن الولاية لم تختم! وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأن الأنبياء مستفيدون منها! كما قال:

مقام النبوة في برزخ فُوَيق الرسول ودون الولي(١)

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]. والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة، كما تقدم التنبيه على ذلك.

---

(١) ويُروى بلفظ مقارب وهو ما جاء في تحقيق التركي والأرناؤوط نقلا عن لطائف الأسرار لابن عربي ص٤٩ بلفظ
سماء النبوة في برزخ دوين الولي وفوق الرسول
وبالفتوحات المكية بلفظ آخر، واللفظ الذي أورده المصنف هنا هو ما نقله شيخ الإسلام عنهم كما بمجموع الفتاوى (٤/ ١٧١)، (١١/ ٢٢٦)، وفي العقل والنقل (١٠/ ٢٠٤).

وقال ابن عربي أيضاً في «فصوصه»[1]: ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة، فكان هو ﷺ موضع اللبنة، وأما خاتم الأولياء، فلابد له من هذه الرؤية، فيرى ما مثله النبي ﷺ، ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين!! ويرى نفسه تنطبع في موضع اللبنتين، فيكمل الحائط!! والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين: أن الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب، واللبنة الفضة هي ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو أخذ عن الله في السر ما هو في الصورة الظاهرة متبع فيه، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلابد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن! فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى إليه إلى الرسول ﷺ، قال: فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع[2]!!

فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب، وللرسل المثل بلبنة فضة، فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسل؟! تلك أمانيهم ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]. وكيف يخفى كفر من هذا كلامه؟ وله من الكلام أمثال هذا، وفيه ما يخفى منه الكفر ومنه ما يظهر،

---

(١) انظر الفصوص (١/ ٦٣)، ونقله المصنف بتصرف.

(٢) انظر في هذا والرد عليه مجموع الفتاوى (٢/ ٢٠٨)، (٤/ ١٧١)، (١٣/ ١٨٨)، وجامع الرسائل (ص٢١٥)، وزاد ابن عربي بقوله: (المعدن الذي يأخذ من الملك) أي: المعدن العقلي المحض، في حين أن النبي عنده فيأخذ بواسطة الخيال النفساني، ولذا لما كان العقل فوق مرتبة الخيال، كان الولي أفضل من النبي عنده وانظر في رد هذه الترهات غير ما ذكر: الصفدية (١/ ٢٣١)، وقد ذكر شيخ الإسلام نص كلام ابن عربي في فصه (حكمة نفسية في كلمة شيثية) وقال: فهذا الفص ذكر فيه حقيقة مذهبه الذي يبني عليه سائر كلامه، ثم انتقده: انظر مجموع الفتاوى (٢/ ٢٠٨ ـ ٢٤٠).

فلهذا يحتاج إلى نقد جيد، ليظهر زيفه، فإن من الزغل ما يظهر لكل ناقد، ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير.

وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة، اتحادية في الدرك الأسفل من النار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين، لإظهارهم الإسلام، كما كان يظهره المنافقون في حياة النبي ﷺ ويبطنون الكفر، وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم. فلو أنه ظهر من أحد منهم ما يبطنه من الكفر، لأجرى عليه حكم المرتد. ولكن في قبول توبته خلاف، والصحيح عدم قبولها، وهي رواية معلى عن أبي حنيفة رضي الله عنه[1]. والله المستعان.

(١) اختلف أهل العلم في قبول توبة الزنديق، فمنهم من قبلها، ومنهم من لم يقبلها، وقال: لو كانت صحيحة لنفعته عند ربه، وإن كان كاذباً فيها، فبقتله نستريح من شره، ولاشك أنه إذا تاب توبة صادقة أنه يغفر له، كما قال تعالىٰ (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً)، وإنما تنازع العلماء في الحكم الظاهر، وانظر في ذلك الصارم المسلول لشيخ الإسلام ص٣١٢ وما بعدها نشر مكتبة تاج بطنطا، وانظر مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٠)، (١٣/ ٢٠،٢١)، (٣٥/ ١١٠).

المبحث السادس

وجوب الاتباع والتزكية

من المباحث التي لها تعلق قوى بالإيمان بالرسل هو مبحث الاتباع، لأنه لا يتصور إيمان صحيح بدونه، بل عده بعض أهل العلم من أنواع التوحيد، والحق أن الاتباع الكامل من لوازم التوحيد، فالتوحيد :هو توحيد المرسِل (بكسرالسين) وتوحيد الاتباع المرسَل (بالفتح)، فلابد من الاخلاص والمتابعة كما قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) وهذا هو المتابعة (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وهذا هو الإخلاص، وهما قطبا العبادة اللذان دار فلك العبادة حولهما فمن الإيمان بمحمد ﷺ رسولا نبيا، أن نتبعه في أمره ونهيه وسنته وشرعه.

وقد رأيت أن يكون هذا المبحث شاملاً للنقاط الآتية

أولاً: تقرير وجوب الاتباع وكيفيته.

ثانياً: نقض الاختلاف في الكتاب والسنة.

ثالثاً: وسطية دين الإسلام بين الأديان والفرق والأهواء.

رابعاً: التزكية.

أولاً: تقرير وجوب الاتباع وكيفيته

لقد تناول الشارح هذه القضية في أكثر مباحث الكتاب، وأقتطف من ثماره هنا ما يعطي تصورا واضحا لما يجب على المؤمن معرفته والعمل به في هذا الباب ويمكن تقسيم كلام الشارح إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حول وجوب الاتباع المطلق وطلب العلم من النصوص.

القسم الثاني: كمال المخلوق في تحقيقه العبودية، ومبنى العبودية على التسليم

القسم الثالث: مالا يعلم وجهه كيف يتعامل معه.

ويلي ذلك قسمٌ رابع هو من مكملات ما سبق وهو: اتباع السنة والجماعة وترك الشذوذ والخلاف، وماذا يجب عند الاختلاف.

فالقسم الأول يدل على وجوب طلب العلم من النصوص لا من الشبه والخيالات.

والثاني يدل على وجوب التسليم لهذه النصوص لا معارضتها.

والثالث يدل على ما يجب على العبد في حالة عدم العلم أو عدم اتضاح القضية.

والرابع يدل على ما يجب فعله في حالة الخلاف.

وهذه الأقسام الأربعة تجمع ما يجب اعتقاده والعمل به على المؤمنين بالرسالة والنبوات[1].

---

(١) رحم الله الإمام ابن القيم حيث يقول في النونية (٢/ ٢٧٩ ـ شرح ابن عيسى):

«العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو العرفان
ما العلم نصبك للخلافة سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فلان
كلا ولا عزل النصوص وإنها ... ليست تفيد حقائق الإيمان
إذ لا تفيدكم يقيناً لا ولا ... علماً فقد عزلت عن الإيقان
والعلم عندكم يُنال بغيرها ... بزبالة الأفكار والأذهان
سميتموه قواطعاً عقلية ... وهي الظواهر حاملات معان
كلا ولا إحصاء آراء الرجا ... ل وضبطها بالحصر والحسبان
كلا ولا التأويل والتبديل والـ ... تحريف للوحيين بالبهتان
هذي علومكم التي من أجلها ... عاديتمونا يا أولي العرفان»اهـ.

وللشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي أبيات مشابهة يقول فيها:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس خلفٌ فيه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي سفيه.
كلا ولا نصب الخلاف جهالة ... بين النصوص وبين رأي فقيه

١ـ العلم هو ما جاء به الرسول، وغيره يعرض عليه.

قال الشارح مبيناً وجوب طلب العلم المتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر من النصوص وأن النصوص بينت ذلك البيان المبين:

قال في تأكيد هذا المعنى: (ص٢٢٠ـ٢٢١)

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]. وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤]. ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان: ١ـ ٢]. ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ونظائر ذلك كثيرة في القرآن. فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر: إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا؟ والثاني باطل، وإن كان قد تكلم بما يدل على الحق بألفاظ مجملة محتملة، فما بلغ البلاغ المبين، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم، فمن يدعي أنه في أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين، فقد افترى عليه ﷺ.

وقال مبيناً منزلة الاتباع من الدين ووجوبه(ص٢١٧ـ ٢١٩):

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول[1]، فلا نحاكم إلى غيره، ولا نرضى بحكم غيره،

---

(١) فأصل العبادة: لا يعبد إلا الله وأن يعبد بما شرع، وانظر مجموع الفتاوى (١٠/١٧٣) قال ابن القيم في النونية (٢/٢٥٧):

«هــذا وثانــي نوعــي التوحيــد تــو　　حيــد العبــادة منــك للرحمــن

ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره وإلا فإن طلب السلامة فوضه إليهم وأعرض عن أمره وخبره[1]، وإلا حرفه عن مواضعه، وسمى تحريفه تأويلا وحملا، فقال: نؤوله ونحمله، فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ـ ما خلا الإشراك بالله ـ خير له من أن يلقاه بهذه الحال[2]. بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله ﷺ فهل يسوغ له أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه؟! بل كان الفرض المبادرة إلى امتثاله، من غير التفات إلى سواه، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان، يستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة، وتلغى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته، لخيال يسميه أصحابه معقولا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول! ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان، كائنا من كان[3].

قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا أبو حازم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أحب أن لي به حمر النعم[4]، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا

= أن لا تكون لغيره عبداً ولا تعبد بغير شريعة الإيمان» اهـ.
(١) انظر في فساد مذهب التفويض والمفوضة: العقل والنقل (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٨).
(٢) انظر في فساد ذلك بلفظه: مدارج السالكين (٢/ ٣٦٦).
(٣) ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ولا رأي ولا قياس انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩).
(٤) وهي أنفس أنواع الإبل عند العرب.

حَجْرَة[1]، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضبا، قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «**مهلا ياقوم! بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، وإنما نزل يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**»[2].

ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرضه عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم: هل خالفه أو وافقه ـ لكون ذلك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه فإنه يمسك عنه، ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علمٌ عن غير الرسول، لكن في الأمور الدنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة، وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية، فهذه العلم فيها ما أُخذ

---

(١) أي محتجرين في ناحية منفردين.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٨١/٢، ١٨٥، ١٩٥، ١٩٦)، والبغوي في شرح السنة (٢٦٠/١ ـ ح١٢١)، وصححه الألباني في تعليقه على الطحاوية (ص٢١٨)، وحسن الأرناؤوط إسناده (ص٢٣٠)، وأخرجه مسلم أوله من حديث عبدالله بن عمرو في العلم باب النهي عن متشابه القرآن (٢٠٥٣/٤ ـ ح٢٦٦٦).

عن الرسول لا غير[1].

ولما قال بعضهم بوجوب اتباع ما كان من النبي بياناً للقرآن وينازع فيما كان شرعاً ابتدائياً.

لذا قال الشارح مؤكداً أن الجميع واجب الاتباع (ص٤٠٢):

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله: من الشرع والبيان . إلى أن ما صح عن النبي ﷺ نوعان: شرع ابتدائي، وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز، وجميع ذلك حق واجب الاتباع.

٢ـ لا يتم الإيمان إلا بالتسليم.

كمال المخلوق هو في تحقيقه عبودية الله تعالى، ولا يتم ذلك إلا بالتسليم لأمر الله ورسوله.

هاتان القضيتان مسلَّمتان لكل من أيقن بالإسلام، ولكن لغلبة الشبهات احتاج الشارح أن يوضحهما ويستدل لهما.

قال في بيان كمال المخلوق (ص١٥٧):

واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى. وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته. ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]. إلى غير ذلك من الآيات . وذكر الله نبيه ﷺ باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. وبذلك

(١) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٣/١٣٦)، (١٧/٤٤٣).

استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة. ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة، إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام: «اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[(1)]. فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى[(2)].

وقال في بيان شرط العبودية: (ص٢٩٠-٢٩١)

وقوله: **فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَاب كَانَ مِنَ الكَافِرِين.**

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله ـ على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع. ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفى عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما في الإنجيل: «يابني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا»، ولهذا كان سلف هذه الأمة، التيهي أكمل

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس في الشفاعة في كتاب التفسير باب قول الله: (وعلم آدم الأسماء كلها) (٨/ ١٦٠ ـ ح٤٤٧٦)، وأخرجه في كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ: (لما خلقت بيدي) (١٣/ ٣٩٢ ـ ح٧٤١٠)، وفي مواضع أخر (ح٦٥٦٥، ح٧٥١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٠ ـ ح١٩٣).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٢ وما بعدها)، وانظر مفتاح دار السعادة (ص٥-١١)، ط. دار الأفق العلمية.

الأمم عقولا ومعارف وعلوماً ـ لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟ ولِمَ نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم. فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورا، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته ـ فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فإن هذا ينافي الانقياد، ويقدح في الامتثال. قال القرطبي ناقلا عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهما راغبا في العلم ونفي الجهل عن نفسه باحثاً عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه فلا بأس به، فشفاء العي السؤال ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره. قال ابن العربي: الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة وإيضاح سبل النظر وتحصيل مقدمات الاجتهاد وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد. قال: فإذا عرضت نازلة، أتيت من بابها، ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها. انتهى[(١)] وقال ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**». رواه الترمذي وغيره[(٢)].

٣ـ الواجب فيما اشتبه علينا علمه.

بعد بيان أن العلم لا يؤخذ إلا من النصوص، وأن النصوص يجب الأخذ

---

(١) وانظر في هذا أيضاً مجموع الفتاوى (١٣/٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد بعد باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس (٤/٤٤٨٣ ـ ح٢٣١٧) وقال: غريب، وأخرجه ابن ماجه في الفتن باب كف اللسان في الفتنة (٢/١٣١٥، ١٣١٦ ـ ح٣٩٧٦)، وهو أحد أحاديث الأربعين النووية، وصححه الألباني (ص٢٩١)، وصححه الأرناؤوط بشواهده (ص٣٤٢).

بها دون سؤال عن تفاصيل الحكمة، قد يقال فماذا نفعل إذا لم نفهم نصاً ولم نعرف مسألة، فيكون الجواب أننا نرد علم ذلك إلى الله، ولا نردّ النصوص لمجرد أننا لم نعرف وجه القضية أو المسألة.

قال الشارح (ص٤٣٣ ـ ٤٣٤) عند شرح قول الطحاوي رحمه الله:

ونقول: اللهُ أَعْلَمُ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلينَا عِلْمُه:

تقدم في كلام الشيخ رحمه الله أنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه. ومن تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ﴾ [القصص: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٣-٤]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يرد علم ما لم يعلم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦]. ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف: ٢٢].

وقد قال ﷺ لما سئل عن أطفال المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ماقيل في أولاد المشركين (٣/ ٢٤٥ ـ ح١٣٨٤)، وأخرجه في القدر باب: الله أعلم بما كانوا عاملين (١١/ ٤٩٣ ـ ح٦٥٩٩، ٦٦٠٠)، وأخرجه مسلم في القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤/ ٢٠٤٩ ـ ح٢٦٥٩).

وقال عمر رضي الله عنه: اتهموا الرأى في الدين، فلو رأيتنى يوم أبي جندل، فلقد رأيتني وإني لأرد أمر رسول الله ﷺ برأيى، فأجتهد ولا آلو، وذلك يوم أبي جندل، والكتاب يكتب، وقال: اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)، قال: اكتب باسمك اللهم، فرضي رسول الله ﷺ، وكتب وأبيت، فقال: «ياعمر تراني قد رضيت وتأبى[1]؟»

وقال أيضاً رضي الله عنه: السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة[2]. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إن قلت في آية من كتاب الله برأيي، أو بما لا أعلم[3]. وذكر الحسن بن على الحلواني، حدثنا عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن سعيد بن أبي صدقة، عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبي بكر رضي الله عنه، ولم يكن بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر رضي الله عنه، وإن أبا بكر نزلت به قضية، فلم يجد في كتاب الله منها أصلا، ولا في السنة أثرا، فاجتهد برأيه، ثم قال: هذا رأيى، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني، وأستغفر الله[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٧٢ ـ ح٨٢)، وأخرجه البزار في مسنده كما بكشف الأستار (٢/ ٣٣٨ ـ ح١٨١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٧٩) رواه أبو يعلى ورجاله موثوقون، وإن كان فيهم مبارك بن فضالة، وقال في موضع آخر (٦/ ١٤٥، ١٤٦): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح وطرفه الأول في الصحيحيين من حديث سهل بن حنيف، وانظر فتح الباري (٥/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (٢/ ١٣٦).

(٣) أخرجه الطبري في مقدمة التفسير (١/ ٥٨ ـ ح٧٨، ٧٩) من طريق أبي معمر عبدالله بن سخبرة عن أبي بكر، وهو منقطع بينهما، وأخرجه أبوعبيد في فضائل القرآن (ص٢٢٧ ـ ح٥٨) في باب تأويل القرآن بالرأي من طريق التيمي عن أبي بكر ولم يدركه أيضاً. وقوله تقلني: أي تحملني.

(٤) ورجاله ثقات إلا أن ابن سيرين لم يدرك الشيخين، وانظر تخريج الأرناؤوط (ص٥٥٠).

٤ـ الواجب عند التنازع

إذا طلب المؤمن العلم من النصوص، وسلّم لها، ولم يعارضها برأيه، لكن رأى تنازع الناس فيها فما الواجب عليه عندئذ؟

الواجب أن يتبع الجماعة ويتجنب الشذوذ والفرقة، وليس معنى الجماعة هو الكثرة ولكن الجماعة ما وافق الحق، وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

ويتساءل الشارح كيف يتكلم في أصول الدين مَن لا يتلقاه من الكتاب والسنة وإنما يتلقاه من قول فلان؟ يعني من كان متحيراً فلينظر الفريقين من أهدى سبيلاً حتى يعرف الحق، ويتبعه.

قال: (ص٤٣٠ـ٤٣٢)

قوله: ونتَّبِع السُّنَّة والجَمَاعَةَ، ونجْتَنِبُ الشُّذُوذَ والخِلافَ والفُرْقَةَ.

السنة: طريقة الرسول ﷺ، والجماعة جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين فاتباعهم هدى، وخلافهم ضلال. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وثبت في «السنن» الحديث الذي صححه الترمذي، عن العرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل يارسول الله، كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»(١).

وقال ﷺ: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، يعنى الأهواء، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**»(٢).

وفي رواية: «قالوا: من هي يارسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة (٥/٤٣ ـ ح٢٦٧٦)، وأبوداود في السنة باب في لزوم السنة (٤/٢٠٠ ـ ح٤٦٠٧)، وابن ماجه في المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١/١٥ ـ ح٤٢)، وأحمد (٤/١٢٦، ١٢٧).
وهذا الحديث أصل عظيم في نفي البدع والمحدثات، والمقصود بالبدعة: البدعة في الدين، فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله، أو أوجبه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه الله فقد ابتدع، وشرع ما لم يأذن به الله. وانظر في الاستدلال على كراهية الشيء بكونه بدعة مجموع الفتاوى (٤/١٩٤ ـ ١٩٦).

(٢) وأخرجه أبوداود في السنة باب شرح السنة (٤/١٩٨ ـ ح٤٥٩٧) من حديث معاوية رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي في الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٥/٢٥ ـ ح٢٦٤٠) من حديث أبي هريرة، وابن ماجه في الفتن باب افتراق الأمم (٢/١٣٢١ ـ ح٣٩٩١)، وأحمد (٢/٣٣٢).

(٣) أخرجها الترمذي في العلم باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٥/٢٦ ـ ح٢٦٤١) من =

فبين ﷺ أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين، إلا أهل السنة والجماعة.

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علما وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[١].

وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى، عند قول الشيخ: ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً[٢].

وقال: (ص٣٥٤)

بل قوله: **ولا نخالف جماعة المسلمين** مجرى على إطلاقه: أنا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة[٣].

= حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وقال مفسرٌ غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وضعفها الشيخ الألباني في تعليقه (ص٤٣٢).

(١) أخرجه بنحوه عن ابن مسعود ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله/ تحقيق أبي الأشبال الزهيري ط. دار ابن الجوزي، وأخرج أبونعيم في الحلية نحوه عن الحسن عن ابن عمر (١/ ٣٠٥،٣٠٦)، وبنحوه عن الحسن أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم(٢/ ٩٤٦ ـ ث ٨٠٧).

(٢) ويأتي في هذا المبحث بعد قليل.

(٣) انظر في حجية الإجماع، وقطعيته وحكم الإجماع السكوتي الاستقرائي مجموع الفتاوى (١٩/ ٩١، ٩٢، ٢٦٧، ٢٧٠ وما بعدها)، (٢٠/ ١٠ وما بعدها).

وفي بيان معنى الجماعة قال: (ص٣٠٧ـ٣٠٨)

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة ـ في كتاب «الحوادث والبدع»[1]: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: السنة ـ والذي لا إله إلا هو ـ بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فان أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعتهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا.

وقال الشارح أيضاً: (ص٢١٢)

وكيف يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة[2]، وإنما يتلقاه من قول فلان؟! وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، المنقول إلينا عن الثقات النقلة، الذين تخيرهم النقاد، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده، بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان، بل يتعلمونه بمعانيه. ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلم برأيه وما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب فهو مأثوم وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسنة

---

(١) ويقال له أيضاً (الباعث على إنكار البدع والحوادث).

(٢) وذلك لأن النبي ﷺ بين الأدلة العقلية والنقلية التي يهتدي بها الناس وإنما يأتي الخلل من التقصير في معرفة وفهم ما جاء به. وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٦/٢٥١).

فهو مأجور وإن أخطأ، لكن إن أصاب يضاعف أجره.

وقال: في بيان بعض هذه النصوص (ص٢١٠)

ومن أراد الوقوف عليها[1] فليواظب سماع الأحاديث النبوية، فإن فيها مع إثبات الرؤية أنه يكلم من شاء إذا شاء[2]، وأنه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة[3]، وأنه فوق العالم[4]، وأنه يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب[5]، وأنه يتجلى لعباده، وأنه يضحك[6]، إلى غير ذلك من الصفات التي سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق.

وكيف تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله؟ وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره به رسوله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، الذين نزل القرآن بلغتهم؟

---

(١) أي أدلة إثبات الرؤية، والأحاديث المتواترة فيها.

(٢) وسبق من ذلك جملة في فصل الإيمان بالكتب، وقبله في فصل الإيمان بأسماء الله وصفاته.

(٣) كما في أحاديث الشفاعة ومر ذكر بعضها.

(٤) راجع في ذلك مبحث العلو.

(٥) علقه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ: (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له....) (٤٥٣/١٣)، ووصله أحمد (٤٩٥/٣)، والحاكم (٤٣٧/٢)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص١٣٧ ـ ح٣٦٥)، وقال الحافظ في الفتح: «وله طريق أخرى ..ثم قال عنها: وإسناده صالح» (١٧٤/١)، وانظر فتح الباري (٤٥٧/١٣) وهذا الحديث المشهور في الرحلة في طلب الحديث الذي رحل فيه جابر بن عبدالله إلى عبدالله بن أنيس شهراً رضي الله عنهما.

(٦) كما في حديث جابر في الشفاعة وفيه «ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك...»الحديث، أخرجه مسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٧٧/١، ١٧٨ ـ ح١٩١)، وأخرجه أحمد (٣٣٥/٣، ٣٨٣).

وقد قال ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[١]. وفي رواية: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

وسئل أبوبكر رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٣١]. ما الأب؟ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم؟[٣]

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير في باب ما جاء في الذي يقيس القرآن برأيه (٥/ ١٨٣ ـ ح٢٩٥١) من حديث ابن عباس، وقال: هذا حديث حسن، وضعفه الألباني (ص٢١٠)، والأرناؤوط (ص٢١٩).

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (٥/ ١٨٣ ـ ح٢٩٥٠) وقال حسن صحيح، وكذا أخرجه أحمد (١/ ٢٣٣) من حديث ابن عباس، ضعفه الأرناؤوط (ص٢١٩).

(٣) أخرجه أبوعبيد في فضائل القرآن (ص٢٢٧ ـ ح٥٨) من حديث التيمي عن أبي بكر الصديق. قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية (٤/ ٤٧٣): «وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق رضي الله عنه، فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي حدثنا حميد عن أنس قال: قرأ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه (عبس وتولى) فلما أتى على هذه الآية (وفاكهة وأبا) قال: قد عرفنا ما الفاكهة فما الأب؟ فقال لعمرك ياابن الخطاب إن هذا لهو التكلف، فهذا إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس به، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١].

ثانياً: الاختلاف في الكتاب والسنة:

ذم الله سبحانه المختلفين في الكتاب فقال ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦].

والاختلاف في الكتاب يشمل أمرين:

الأول: الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه.

الثاني: إبطال دلالات النصوص.

وليس في غالب هذه الأمة من قال: إن القرآن مختلق مكذوب، أو كفر ببعض الآيات أو السور، ويذكر عن بعض فرق الخوارج إنكار (سورة يوسف) أن تكون من القرآن، وهؤلاء كفار كما قرره أهل العلم.

إلا أن عامة الاختلاف الواقع في هذه الأمة إنما هو على الوجه الثاني وهو إبطال دلالات النصوص وقد سلك أهل الضلال في ذلك عدة طرق تدور حول أربعة أشياء وهي:

(التأويل، ودعوى المجاز، ورد خبر الواحد، وزعمهم بأن العقل يقدم على النقل عند التعارض) وهذه الأربعة هي مادة كتاب «الصواعق المرسلة» للإمام ابن القيم.

وقد بحث الشارح رحمه الله هذه الأمور في أماكن مختلفة من الكتاب، ثم ختم الكتاب ببيان إجمالي لطرق أهل الأهواء في تناول النصوص (التبديل والتجهيل)، وهم أهل الفلسفة والتحريف والتفويض.

وهؤلاء جميعاً داخلون في الاختلاف المذموم في الكتاب.

ومما ينبغي التفطن له، أن الخلاف الذي يُرَد إلى الله ورسوله ليس اختلافاً مذموماً، كاختلاف اجتهاد المجتهدين في دلالات النصوص، إذا لم يقترن به دفع لبعض النصوص، أو اقترن به بغي واعتداء على المخالف، وهذا إنما يحدث إذا تُرِك بعض ما جاء به الرسول، ولم يُعمل به كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ. . .﴾ الآية [المائدة: ١٤].

وقد أوضح الشارح رحمه الله هذه القضايا جميعها بعبارة واضحة بينة،

وفيما يلي بيان لذلك:

تقرير ذم الاختلاف

قال الشارح: (ص٥٧٧):

قوله: ونَرىٰ الجَمَاعةَ حَقّاً وصَوَاباً، والفُرْقَةَ زَيْغاً وعَذَاباً.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الانعام: ١٥٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف[1]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقد تقدم قوله ﷺ: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، يعني الأهواء، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**». وفي رواية: قالوا: من هي يارسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[2]. فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة[3]، وأن الاختلاف واقع لا محالة.

---

(١) انظر العقل والنقل (١/٤٨، ٤٩).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) والناظر في آيات القرآن يجد الأمر باتباع السلف في غير ما آية كقوله: (واتبع سبيل من أناب إليّ) [لقمان: ١٥] والسلف المؤمنون منيبون فيجب اتباع سبيلهم، وقال تعالىٰ: (اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) [يسٓ: ٢١]، والسلف كذلك فيجب اتباعهم وانظر في أمثال هذه النصوص مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٠٠ وما بعدها).

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل، أن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم، يأخذ الشاردة القاصية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة، والعامة، والمسجد**»[1].

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ: أنه قال لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «**أعوذ بوجهك**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: «**هاتان أهون**»[2].

فدل على أنه لابد أن يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض، مع براءة الرسول من هذه الحال، وهم فيها في جاهلية. ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن: فهو هدر، أنزلوهم منزلة الجاهلية[3].

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٢، ٢٣٣) بإسناد صحيح إلا أن به انقطاعاً بين العلاء بن زياد ومعاذ بن جبل، فإن روايته عن معاذ مرسلة، ولذا ضعفه الألباني (ص٥٧٨) وأشار إلى الإنقطاع الأرناؤوط (ص٧٧٦) وذكر له طريقاً عند أحمد عن العلاء عن رجل يثق به عن معاذ. فالله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري في مواضع من كتابه فأخرجه في التفسير سورة الأنعام (٨/٢٩١ ـ ح٤٦٢٨)، وأخرجه في كتاب الاعتصام باب في قول الله تعالىٰ (أو يلبسكم شيعاً) (١٣/٢٩٦ ـ ح٧٣١٣)، وأخرجه في كتاب التوحيد باب قول الله عز وجل (كل شيء هالك إلا وجهه) (١٣/٣٨٨ ـ ح٨٤٠٦)، وأخرجه الترمذي في تفسير الأنعام (٥/٢٤٤ ـ ح٣٠٦٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ولم أره في صحيح مسلم، ونبه على ذلك أيضاً الأرناؤوط (ص٧٧٦).

(٣) راجع في كلام الزهري: منهاج السنة (٤/٤٥٤، ٤٦٨).

تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية، يعني قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩](١). فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى(٢)، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة

---

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٧٢) من حديث عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة رضي الله عنها، وانظر كلام عائشة منهاج السنة (٤/ ٥٠٣).

(٢) مسألة قتال أهل البغي: من المسائل المهمة التي وقع النزاع في هذه الأمة وقد ذكر العلماء شروطاً لقتال أهل البغي، ذكر الماوردي منها ما يلي:
أولاً: أن يكونوا في منعة، بكثرة عددهم لا يمكن تفريق جمعهم إلا بقتالهم.
ثانياً: أن يعتزلوا عن دار أهل العدل بدار ينحازون إليها ويتميزون بها فإن كانوا على اختلاطهم بأهل العدل ولم ينفردوا عنهم لم يقاتلوا.
ثالثاً: أن يخالفوا إمام العدل بتأويل محتمل، فإن باينوا من غير تأويل، أجري عليهم حكم الحرابة، وقطاع الطريق.
رابعاً: نصب إمام لهم يجتمعون على طاعته.
وذكر الماوردي رحمه الله أن الشروط الثلاثة الأولى متفق عليها، وأن الرابع مختلف فيه والأكثرون من أصحاب الشافعي على أنه ليس بشرط في قتالهم (انظر كتاب قتال أهل البغي من الحاوي ص٦٧ ـ ٦٩ تحقيق د. إبراهيم صندقجي) والأظهر أن القتال الذي وقع بين الصحابة لم يكن مشروعاً لأنه إنما شرع بعد الإصلاح، ولم يأمر الله بالقتال ابتداءً، وأثر عائشة رضي الله عنها هذا يدل على تركهم للإصلاح الذي أمر الله به قبل القتال، ثم إن حديث النبي ﷺ في الحسن «إن ابني هذ سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» يدل على أن ترك القتال هو المحبوب لله ورسوله ولذا اعتزل عنه أكثر كبار الصحابة، مثل سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر وأبي برزة الأسلمي وأسامة بن زيد، وكان النبي ﷺ يقول فيه وفي الحسن «اللهم إني أحبهما فأحبهما»، وكذلك اعتزل محمد بن مسلمة الذي دعا له النبي ﷺ أن لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، وغيرهم كثير فلو كان قتال صفين مشروعاً لما قعد عنه هؤلاء، بخلاف قتال الخوارج فإنه مشروع ولذا سارع فيه بعض من قعد عن القتال في الفتنه لما عرفوا عن النبي ﷺ من الأمر به، ونحن نتولى الجميع ونقول =

وجاهلية[1]، وهكذا مسائل النزاع.

الفتن سبب الاختلاف.

. وبين الشارح كذلك أن سبب اختلاف الفرق وتفرقهم وتشتت الأمة هو الفتن التي وقعت في الأمة في الصدر الأول.

فقال: بعد أن ذكر بعض البدع (ص٥٩٣ـ٥٩٥)

وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الأمة، كما ذكر البخاري في «صحيحه»، عن سعيد بن المسيب، قال: «وقعت الفتنة الأولى، يعنى مقتل عثمان، فلم تُبق من أصحاب بدر أحداً. ثم وقعت الفتنة الثانية، فلم تُبق من أصحاب الحديبية أحداً. ثم وقعت الفتنة الثالثة، فلم ترتفع وللناس طَبَاخ»[2]، أي عقل وقوة.

= فيهم (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا).

(١) بلفظه من مجموع الفتاوى (١٧/ ٣١١).

(٢) علقه البخاري في كتاب المغازي في أبواب غزوة بدر ومن شهدها بعد حديث جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له» (ح٤٠٢٤)، ثم قال البخاري: وقال الليث عن يحي بن سعيد عن سعيد بن المسيب «وقعت الفتنة الأولى ـ يعني مقتل عثمان ـ فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية ـ يعني الحرة ـ فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً .... » الأثر، وقد سقط من الرواية التي أوردها الشارح قوله (يعني الحرة)، وقد أشار الحافظ في شرح الأثر إلى أن المراد الفتنة التي وقعت بالمدينة، وأن الثالثة هي يوم خروج أبي حمزة الخارجي، وقيل غير ذلك. وقوله: «فلم تبق من أصحاب بدر أحداً» أي إنهم ماتوا منذ قامت الفتنة بمقتل عثمان إلى أن قامت الفتنة الأخرى بوقعة الحرة، وكان آخر من مات من البدريين سعد بن أبي وقاص، ومات قبل الحرة ببضع سنيين، كذا بالفتح (٧/ ٣٧٧ ط. الريان). وقد روى ابن بطة عن بكير بن الأشج قال: «أما إن رجالاً من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد مقتل عثمان، فلم =

فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة(1). فصار هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوا في عليّ، وأولئك كفّروه! وأولئك غلَوا في الوعيد حتى خلدوا بعض المؤمنين

= يخرجوا إلا إلى قبورهم». انظر منهاج السنة (٦/٢٣٨).

(١) قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٦/٢٣١): «والصحابة رضي الله عنهم كانوا أقل فتناً من سائر من بعدهم، فإنه كلما تأخر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف، ولهذا لم تحدث في خلافة عثمان بدعة ظاهرة، فلما قتل وتفرق الناس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعة الخوارج المكفرين لعلي، وبدعة الرافضة المدعين لإمامته وعصمته، أو نبوته وإلهيته. ثم لمّا كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبدالملك حدثت بدعة المرجئة والقدرية، ثم لما كان عصر التابعين في أواخر الخلافة الأموية، حدثت بدعة الجهمية المعطلة، والمشبهة الممثلة، ولم يكن على عهد الصحابة شيء من ذلك». اهـ. وقال أيضاً (٦/٢٣٦،٢٣٧): «والمقصود أن الفتن بين الأمة، والذنوب التي لها بعد الصحابة أكثر وأعظم، ومع هذا فمكفرات الذنوب موجودة لهم، وأما الصحابة فجمهورهم وجمهور أفاضلهم ما دخلوا في فتنة. قال عبدالله بن الإمام أحمد حدثنا أبي حدثنا إسماعيل يعني ابن علية حدثنا أيوب يعني السختياني عن محمد بن سيرين قال: «هاجت الفتن وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة الآف فما حضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين». وهذا الإسناد من أصح إسناد على وجه الأرض، ومحمد بن سيرين من أورع الناس في منطقه ومراسيله من أصح المراسيل. وقال عبدالله حدثنا أبي حدثنا إسماعيل حدثنا منصور بن عبدالرحمن قال: قال الشعبي: لم يشهد الجمل من أصحاب رسول الله ﷺ غير علي وعمار وطلحة والزبير، فإن جاؤوا بخامس فأنا كذاب. وقال عبدالله بن أحمد حدثنا أبي حدثنا أمية بن خالد قال: قيل لشعبة: إن أباشيبة روى عن الحكم عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، فقال: كذب والله لقد ذاكرت الحكم بذلك، وذاكرناه في بيته، فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت». قلت: هذا النفي يدل على قلة من حضرها، وقد قيل: إنه حضرها سهل بن حنيف وأبوأيوب، وكلام ابن سيرين مقارب فما يكاد يذكر مائة واحدة. اهـ.

وأولئك غلوا في الوعد حتى نفوا بعض الوعيد أعني المرجئة! وأولئك غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات، وهؤلاء غلوا في الإثبات، حتى وقعوا في التشبيه! وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع، ويعرضون عن الأمر المشروع، وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل: اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، فإنهم قرؤوا كتبهم، فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم ودلائلهم، وغيّروه في اللفظ تارة وفي المعنى أخرى! فلبسوا الحق بالباطل، وكتموا حقا جاء به نبيهم، فتفرقوا واختلفوا وتكلموا حينئذ في الجسم والعرض والتجسيم نفيا وإثباتا.

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم، عدولهم عن الصراط المستقيم، الذي أمرنا الله باتباعه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]. فوحَّد لفظ «صراطه» و«سبيله»، وجَمَع «السبل» المخالفة له. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا وقال: «هذا سبيل الله، ثم خطَّ خطوطا عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل، على كل سبيل شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾[1] [الأنعام: ١٥٣].

ومن ههنا يعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هداية الصراط المستقيم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/٤٣٥،٤٦٥)، والحاكم في المستدرك (٢/٣١٨) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وشاهده لفظاً واحداً حديث الشعبي عن جابر من وجه غير معتمد. اهـ. وسكت عنه الذهبي، وصححه الألباني في تخريجه (ص٥٩٤)، وحسنه الأرناؤوط (ص٨٠٠).

فوق كل ضرورة، ولهذا شرع الله تعالى في الصلاة قراءة أمِّ القرآن في كل ركعة، إما فرضا أو إيجاباً، على حسب اختلاف العلماء في ذلك، لاحتياج العبد إلى هذا الدعاء العظيم القدر، المشتمل على أشرف المطالب وأجلِّها. فقد أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦ـ٧]. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون**»[(١)].

وثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» قالوا: يارسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟!**»[(٢)]

قال طائفة من السلف: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العُبَّاد ففيه شبه من النصارى. فلهذا تجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام، من المعتزلة ونحوهم ـ فيه شبه من اليهود، حتى إن علماء اليهود يقرؤون كتب شيوخ المعتزلة، ويستحسنون طريقتهم، وكذا شيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود ويرجحونهم على النصارى. وأكثر

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير باب ومن سورة الفاتحة (١٨٧/٥ ـ ح٢٩٥٣، ٢٩٥٤) وقال حسن غريب، والإمام أحمد (٣٧٨/٤)، وصححه الألباني (ص٥٩٤)، وحسن الإسناد الأرناؤوط (ي٨٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٤٩٥/٦ ـ ح٣٤٥٦) من حديث أبي سعيد، وأخرجه أيضاً في الاعتصام باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» (٣٠٠/١٣ ـ ح٧٣٢٠)، وأخرجه مسلم في العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٠٥٤/٤ ـ ح٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري أيضاً.

المنحرفين من العُبَّاد، من المتصوفة ونحوهم - فيهم شبه من النصارى، ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك. وشيوخ هؤلاء يذمون الكلام وأهله، وشيوخ أولئك يعيبون طريقة هؤلاء ويصنفون في ذم السماع والوَجْد وكثير من الزهد والعبادة التي أحدثها هؤلاء[1].

الاختلاف المذموم

ولبيان الاختلاف المذموم قال الشارح: (ص٥٨٩-٥٨٠)

وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة، في الأصول والفروع[2] - إذا لم تردّ إلى الله والرسول، لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقرَّ بعضهم بعضاً، ولم يبغ بعضهم على بعض، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بغض مسائل الاجتهاد، فيقر بعضهم بعضاً، ولا يَعتدي ولا يُعتدى عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض، إما بالقول، مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل، مثل حبسه وضربه وقتله. والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن، كانوا من هؤلاء، ابتدعوا بدعة، وكفَّروا من خالفهم فيها، واستحلوا منعَ حقه وعقوبته[3].

والناس يختلفون في مقابلة هذا الاختلاف وقد بين أصنافهم الشارح

---

(١) انظر بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٣٢).

(٢) هذا قاله الشارح على سبيل التنزل، وإلا فتقسيم الدين لأصول وفروع، ثم الاستدلال على الأصول بالمتواتر، وترك الآحاد، ونحو ذلك، من البدع المعتزلية الدخيلة في الإسلام التي لا أصل لها. انظر مجموع الفتاوى (١٣/ ١٢٥ - ١٢٦، ١٩/ ٢٠٨ - ٢١٣، ٢٣/ ٣٤٦).

(٣) بلفظه في مجموع الفتاوى (١٧/ ٣١١، ٣١٢).

فقال: (ص٥٧٩ـ٥٨٠)

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول: إما عادلون وإما ظالمون، فالعادل فيهم: الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء، ولا يظلم غيره، والظالم: الذي يعتدي على غيره. وأكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩]. وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل، أقر بعضهم بعضا، كالمقلدين لأئمة العلم، الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل، فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول، وقالوا: هذا غاية ما قدرنا عليه، فالعادل منهم لا يظلم الآخر، ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل، مثل أن يدعي أن قول مقلّده هو الصحيح بلا حجة يبديها، ويذم من خالفه، مع أنه معذور(١).

أنواع الاختلاف

وفي بيان أنواع الاختلاف قال الشارح (ص٥٨١ـ٥٨٥)

ثم إن أنواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان: اختلاف تنوع، واختلاف تضاد.

واختلاف التنوع على وجوه: منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقا مشروعا، كما في القراءات التي اختلفت فيها الصحابة رضي الله عنهم حتى زجرهم النبي ﷺ، وقال: «**كلاكما محسن**»(٢).

---

(١) بلفظه في مجموع الفتاوى (٣١٢/١٧) وينبغي أن يلاحظ الفرق في إطلاق لفظ (الشرع) على الأحكام بين الشرع المنزل الواجب الاتباع، والشرع المؤول والذي يكون باجتهاد وإمام، والشرع المبدل الذي سببه الهوى. انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٣٠٨/١٩، ١١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١، ٥٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في الخصومات وتقدم تخريجه.

ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، ومحل سجود السهو، والتشهد، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، ونحو ذلك، مما قد شُرع جميعه، وإن كان بعض أنواعه أرجحَ أو أفضلَ[1].

ثم تجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك! وهذا عين المحرم. وكذا تجد كثيرا منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع، والإعراض عن الآخر والنهي عنه: ما دخل به فيما نهى عنه النبي ﷺ.

ومنه ما يكون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر، لكن العبارتان مختلفتان، كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود، وصيغ الأدلة، والتعبير عن المسميات، ونحو ذلك . ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذمّ الأخرى والاعتداء على قائلها! ونحو ذلك.

وأما اختلاف التضاد، فهو القولان المتنافيان، إما في الأصول، وإما في الفروع، عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد . والخطبُ في هذا أشد، لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقا ما، فيرد الحق مع الباطل، حتى يبقى هذا مبطلاً في البعض، كما كان الأول مبطلاً في الأصل، وهذا يجرى كثيرا لأهل السنة.

وأما أهل البدعة، فالأمر فيهم ظاهر. ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من هذا ما تبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا

(١) راجع مجموع الفتاوى (٥/ ١٦٠ ـ ١٦٣، ١٩/ ١٣٨ ـ ١٤١).

وأشباهه، وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا، لكن نورٌ على نور.

والاختلاف الأول، الذي هو اختلاف التنوع، الذمُّ فيه واقع على من بغى على الآخر فيه . وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك، إذا لم يحصل بغي، كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]. وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم، وترك آخرون(١).

وكما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]، فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم(٢).

وكما في إقرار النبي ﷺ يوم بني قريظة لمن صلى العصر في وقتها، ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة(٣).

---

(١) أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع ـ وهي البويرة ـ فأنزل الله (ما قطعتم من لينة . . .) الآية، أخرجه البخاري في التفسير باب (ما قطعتم من لينة) نخلة ما لم تكن عجوة أو برنية (٦٢٩/٨ ـ ح٤٨٨٤)، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير باب جواز قطع أشجار الكفار (١٣٦٥/٣ ـ ح١٧٤٦) واللينة: النخلة كما تقدم في ترجمة البخاري، وانظر الفتح (٦٢٩/٨).

(٢) أخرج الطبري عن ابن مسعود في تفسير الآية قال: كَرْمٌ قد أنبت عناقيده، فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يانبي الله، قال وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها فذلك قوله (ففهمناها سليمان) تفسير ابن جرير (٥٠/٩ ـ ث٢٤٦٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في الخوف باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً (٤٣٦/٢ ـ =

وكما في قوله: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[1].

والاختلاف الثاني، هو ما حُمد فيه إحدى الطائفتين، وذُمَّت الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]، الآيات.

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة، من القسم الأول، وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء. لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق، ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٣]. لأن البغي مجاوزة الحد، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة.

= ح٩٤٦)، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين (٣/ ١٩٣١ ـ ح١٧٧٠).

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٣/ ٣١٨ ـ ح٧٣٥٢) من حديث عمرو بن العاص، وأخرجه مسلم في الأقضية باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٣/ ١٣٤٣ ـ ح١٧١٦)، والإمام أحمد (٤/ ١٩٨) من حديث عمرو بن العاص، وأخرجه الشيخان أيضاً من حديث أبي هريرة فأخرجه البخاري في الموضع السابق بعد ذكر الإسناد الآخر لحديث عمرو (١٣/ ٣١٨ ـ ح٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية الباب السابق بالإسنادين جميعاً (٣/ ١٣٤٣ ـ ح١٧١٦)، وكذا الإمام أحمد (٤/ ٢٠٤).

وقريب من هذا الباب ما خرجاه في «الصحيحين»، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[1]. فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به، معللا بأن سبب هلاك الأولين إنما كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية.

اختلافهم بإبطال دلالة النصوص

قال: (ص٥٨٣).

ثم الاختلاف في الكتاب، من الذين يقرون به ـ على نوعين:

أحدهما اختلاف في تنزيله.

والثاني اختلاف في تأويله. وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض:

فالأول كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن وتنزيله، فطائفة قالت: هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقا في غيره لم يقم به، وطائفة قالت: بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق، لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته. وكل من الطائفتين جمعت في كلامها بين حق وباطل، فآمنت ببعض الحق، وكذبت بما تقوله الأخرى من الحق، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك[2].

وأما الاختلاف في تأويله، الذي يتضمن الإيمان ببعض دون بعض،

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (١٣/ ٢٥١ ـ ح٧٢٨٨)، وأخرجه مسلم في الفضائل باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه (٤/ ١٨٣١ ـ ح١٣٣٧/ ١٣١).

(٢) في مباحث القرآن.

فكثير، كما في حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية، فكأنما فقيء في وجهه حبُّ الرمان، فقال: «أبهذا أمِرتم؟ أم بهذا وكلتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا ما أمرتم به فاتبعوه، وما نهيتم عنه فانتهوا».

وفي رواية: «ياقوم بهذا ضلت الأمم قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضا، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به».

وفي رواية: «فإن الأمم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا، وإن المراء في القرآن كفر». وهو حديث مشهور، مخرج في «المسانيد والسنن»[1]. وقد روى أصل الحديث مسلم في «صحيحه»، من حديث عبد الله بن رباح الأنصاري، أن عبد الله بن عمرو قال: هجَّرْت إلى النبي ﷺ يوما، فسمع أصوات رجلين إختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»[2].

وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله، مؤمنون ببعضه دون بعض، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات، وما يخالفه: إما أن يتأوله تأويلاً يحرفون فيه الكلم عن مواضعه، وإما أن يقولوا: هذا متشابه لا يعلم أحد معناه، فيجحدوا ما أنزله من معانيه! وهو في معنى الكفر بذلك، لأن الإيمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.

لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: إلا تلاوةً من غير فهم معناه[١]. وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به، واشتبه عليه بعضه فوكل علمه إلى الله، كما أمره النبي ﷺ بقوله: «فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[٢]، فامتثل ما أمر به ﷺ.

طريق التبديل وطريق التجهيل

وقال الشارح: (ص٥٩٥-٥٩٧)

ولِفِرَق الضُّلَّال في الوحي طريقتان: **طريقة التبديل، وطريقة التجهيل**[٣].

أما أهل التبديل فهم نوعان: **أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل.**

---

(١) هذا أحد أوجه تفسير الأماني في الآية، وقيل: المراد بالأماني: الأكاذيب، وقيل المراد: أمانيهم على الله. وعلى اختيار الشارح يكون الاستثناء منقطعاً واستشهد لذلك بقوله تعالى: (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي: تلا، وقال: كعب بن مالك الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة   وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر:

تمنى كتاب الله آخر ليلة   تمنى داود الكتاب على رِسل

وانظر تفسير ابن كثير (١/١١٦، ١١٧)، ومعاني القرآن للفراء (١/٤٩، ٥٠).

(٢) رواية من حديث عبدالله بن عمرو المتقدم قريباً، وهي رواية الإمام أحمد (٢/ ١٨١).

(٣) انظر (درء تعارض العقل والنقل) (١/ ٨ - ٢٠)، ومجموع الفتاوى (٤/ ٦٧، ٥/ ٣١ - ٣٣، ١٦/ ٤٤٠ - ٤٤٢)، والنبوات (ص٦٤، ٦٥)، ومختصر الصواعق (١/ ٧٩ وما بعدها).

فأهل الوهم والتخييل، هم الذين يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه! لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير، وأن الأبدان تعاد وأن لهم نعيماً محسوساً، وعقابا محسوسا وإن كان الأمر ليس كذلك، لأن مصلحة الجمهور في ذلك ، وإن كان كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور!! وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

وأما أهل التحريف والتأويل، فهم الذين يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر، وأن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا! ثم يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات!! ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل، بل يقولون: يجوز أن يراد كذا. وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ .

وأما أهل التجهيل والتضليل، الذين حقيقة قولهم: أن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء! ويقولون: يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعمله إلا الله، لايعلمه جبرائيل ولا محمد ولاغيره من الأنبياء فضلا عن الصحابة والتابعين لهم باحسان، وأن محمداً ﷺ كان يقرأ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وهو لايعرف معاني هذه الآيات! بل معناها الذي دلت عليه لا يعرفه إلا الله تعالى!! ويظنون أن هذه طريقة السلف!!

ثم منهم من يقول: إن المراد بهذا خلاف مدلولها الظاهر المفهوم ولا يعرفه أحد، كما لا يُعلم وقت الساعة! ومنهم من يقول: بل تجرى على ظاهرها!! وهؤلاء يشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يجعلونها مشكلةً أو متشابهةً ولهذا يجعل كل فريق المشكل

من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلاً!

ثم منهم من يقول: لم يعلم معانيها أيضا! ومنهم من يقول: علمها ولم يبينها، بل أحال في بيانها على الأدلة العقلية، وعلى من يجتهد في العلم بتأويل تلك النصوص!! فهم مشتركون في أن الرسول لم يَعلم أو لم يُعلم، بل نحن عرفنا الحق بعقولنا ثم اجتهدنا في حمل كلام الرسول على ما يوافق معقولنا، وأن الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليات! ولا يفهمون السمعيات!! وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل.

نسأل الله السلامة والعافية، من هذه الأقوال الواهية، المفضية بقائلها إلى الهاوية.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين[1].

(١) هذا في تصنيف المؤلف هو آخر الكتاب.

لم يكن الصحابة رضى الله عنهم مختلفين في قبول خبر الواحد، كيف وقد عرفوا أن النبي ﷺ كان يرسل الآحاد إلى القبائل يدعونهم إلى دين الله . .
وقد نبغت الجهمية ومن اتبعهم من المعطلة فادعوا أن الأخبار التي لم تصل إلى حد التواتر هي أخبار آحاد لا تفيد العلم، وبالتالي لا تعارض القطعي الذي زعموه بعقولهم، وبذلك قضوا على سبل الهدى كلها.
فالهدي إما من القرآن أو من سنة الهادي البشير ﷺ، فإذا كان القرآن قد أصبح قطعي الثبوت فقط، وأما دلالته فتلاعبوا بها من تأويل وتحريف، ورد بالمجاز وغيره ثم كروا على السنة، فردوا الأحاديث بدعوى أنها آحاد لا تفيد القطع واليقين وما تواتر منها لم يسلم منهم، ففعلوا به ما فعلوا بالآيات، فحُرِمُوا الهدي والخير، فاستولى عليهم الشيطان وأضلهم.

وقد بين الشارح فساد هذا الوجه الذي توجهوا إليه فقال: (ص٣٩٨ـ٤٠٢)

قوله: **وجَمِيعُ مَا صَحَّ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الشَّرْعِ والبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ.**

يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة، القائلين بأن الأخبار قسمان: متواتر وآحاد، فالمتواتر ـ وإن كان قطعي السند ـ لكنه غير قطعي الدلالة، فإن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين!! ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات! قالوا: والآحاد لا تفيد العلم، ولا يحتج بها من جهة طريقها، ولا من جهة متنها! فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول، وأحالوا الناس على قضايا وهمية، ومقدمات خيالية، سموها قواطع عقلية، وبراهين يقينية!! وهي في التحقيق ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩ـ٤٠].

ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحي، وعزلوا لأجلها النصوص، فأقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص، ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية. ولو حكموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح، الموافق للفطرة السليمة[1].

بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته، وما ظنه معقولا: فما وافقه: قال: إنه محكم، وقبله واحتج به!! وما خالفه قال: إنه متشابه، ثم رده، وسمى رده تفويضا! أو حرفه، وسمى تحريفه تأويلا!! فلذلك اشتد إنكار أهل السنة عليهم.

وطريق أهل السنة: أن لا يعدلوا عن النص الصحيح، ولا يعارضوه بمعقول، ولا قول فلان، كما أشار إليه الشيخ رحمه الله. وكما قال البخاري رحمه الله: سمعت الحميدي يقول: كنا عند الشافعي رحمه الله، فأتاه رجل فسأله عن مسألة، فقال قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟! فقال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تراني في بيعة! تراني على وسطى زنار؟! أقول لك: قضى رسول الله ﷺ، وأنت تقول: ما تقول أنت[2]؟!

ونظائر ذلك في كلام السلف كثير. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3] [الأحزاب: ٣٦].

(١) انظر التعليق السابق في تقسيم الدين إلى أصول وفروع.

(٢) الخبر أورده البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٧٤)، وهو في الحلية (٩/ ١٠٦).

(٣) وهكذا كان السلف من الصحابة ومن بعدهم لا يعارضون النصوص بمعقول أبداً وإنما قد يقع منهم استشكالاً لظنهم في تعارض نصين كما استشكلت عائشة رضي الله عنها قوله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب» مع ما علمته من قوله تعالىٰ: (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) حتى أزال النبي ﷺ الإشكال بقوله لها: «ذلك العرض ومن نوقش =

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول، عملا به وتصديقا له ـ: يفيد العمل اليقيني عند جماهير الأمة[1]، وهو أحد قسمي المتواتر. ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع، كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما الأعمال بالنيات»[2]، وخبر ابن عمر رضي الله عنهما: «نهى عن بيع الولاء وهبته»[3]، وخبر أبي هريرة: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها»[4]، وكقوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[5] وأمثال ذلك.

= الحساب عذب» وغير ذلك. وليس في استشكالهم معارضة منقول بمعقول ألبتة، بل لما رأى الصحابة بعض من عارض النص برأيه اشتد نكيرهم عليه، فأنكر عبدالله بن عمر على ابنه بلال معارضة النص في الإذن للنساء بالخروج للمساجد بقوله: «والله لنمنعهن» فسبه أبوه وهجره، ولما حدث عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ بقوله: «إن الحياء خير كله» فعارضه معارض بقوله: «إن منه وقاراً وإن منه ضعفاً» فاشتد غضب عمران عليه وظنه زنديقاً. ولما أكثر الناس على ابن عباس في المتعة، محتجين بنهي الشيخين عنها قال لهم: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبوبكر وعمر؟!

قال ابن القيم: «فرحم الله ابن عباس، كيف لو رأى قوماً يعارضون قول رسول الله ﷺ بقول أرسطو وأفلاطون وابن سينا والفارابي وجهم بن صفوان وبشر المريسي وأبي هذيل العلاف وأضرابهم؟ وانظر مختصر الصواعق (١/ ١١٩ ـ ٢٢٤).

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٥١)، مختصر الصواعق (٢/ ٣٧٢ ـ ٤٣٣).

(٢) تقدم تخريجه في مبحث القرآن.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العتق باب بيع الولاء وهبته (٥/ ١٩٨ ـ ح٢٥٣٥) ط. الريان، ومسلم في كتاب العتق باب النهي عن بيع الولاء وهبته (٢/ ١١٤٥ ـ ح١٥٠٦).

(٤) أخرجه البخاري في النكاح باب لا تنكح المرأة على عمتها (٩/ ١٦٠ ـ ح٥١٠٩، ٥١١٠)، ومسلم في كتاب النكاح باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها (٢/ ١٠٢٨ ـ ح١٤٠٨).

(٥) أخرجه البخاري في الشهادات على الأنساب والرضاع المستفيض (٥/ ٣٠٠ ـ =

وهو نظير خبر الذي أتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة، فاستداروا إليها(1).

وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله آحادا، ويرسل كتبه مع الآحاد، ولم يكن المرسل إليهم يقولون لا نقبله لأنه خبر واحد! وقد قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣]. فلابد أن يحفظ الله حججه وبيناتهَ على خلقه، لئلا تبطل حججه وبيناته.

ولهذا فضح الله من كذَب على رسوله في حياته وبعد وفاته، وبين حاله للناس. قال سفيان بن عيينة: ماستر الله أحدًا يكذب في الحديث. وقال عبدالله بن المبارك: لو هم رجل في السَحَر أن يكذب في الحديث، لأصبح والناس يقولون: فلان كذاب. وخبر الواحد وإن كان يحتمل الصدق والكذب ـ ولكن التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون معظم أوقاته مشتغلا بالحديث، والبحث عن سير الرواة، ليقف على أحوالهم وأقوالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحداً في كلمة يتقولها على رسول الله ﷺ،

= ح٢٦٤٥) ط.الريان، وأخرجه أيضاً في النكاح باب (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم) (٩/ ١٤٠ ـ ح٥١٠٠) وذلك من حديث ابن عباس، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة بلفظ (يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة)، فأخرجه البخاري في الشهادات باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض (٥/ ٣٠٠ ـ ح٢٦٤٥) ط.الريان، وأخرجه أيضا في النكاح باب (وأمهاتكم التي أرضعنكم) (٩/ ١٣٩ ـ ح٥٠٩٩)، وأخرجه مسلم في الرضاع باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة (٢/ ١٠٦٨ ـ ح١٤٤٤).

(1) أخرجه البخاري في مواضع منها ما في كتاب الصلاة باب ما جاء في القبلة (١/ ٦٠٣ ـ ح٤٠٣)، وأخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب تحويل القبلة (١/ ٣٧٥ ـ ح٥٢٦) من حديث ابن عمر.

ولا فعلوا بأنفسهم ذلك[1].

وقد نقلوا هذا الدين إلينا كما نقل إليهم، فهم تُرُك الإسلام[2] وعصابة الإيمان، وهم نقاد الأخبار، وصيارفة الأحاديث. فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم، وعرف حالهم، وخَبَرَ صدقهم وورعهم وأمانتهم ـ: ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه. ومن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديث لهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره، ماليس لغيرهم به شعور، فضلا أن يكون معلوما لهم أو مظنونا. كما أن النحاة عندهم من أخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ما ليس عند غيرهم، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم، وكل ذي صنعة هو أخبر بها من غيره، فلو سألت البقال عن أمر العطر، أو العطار عن البز، ونحو ذلك!! لعد ذلك جهلا كبيرا[3].

ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى ١١] مستندا لهم في رد الأحاديث الصحيحة، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم، وما وضعته خواطرهم وأفكارهم ـ ردوه بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، تلبيسا منهم وتدليسا على من هو أعمى قلبا

---

(١) وقد حفظ الله بهم الدين، فأهل العلم بالحديث ـ رغم اختلافهم ـ لم يجمعوا على التصديق بكذب، ولا التكذيب بصدق بخلاف غيرهم انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٤١/١٨).

(٢) تُرُك بالمثناة فوق والمهملة: جمع تريكة، وهي بيضة الحديد للرأس، وقال الألباني (يريد أنهم دروع الإسلام وحفظته) (ص٤٠١)، وضبطها الأرناؤوط بالمثناة تحت والمعجمة (يزك) ذكر في تفسيرها أنها: طلائع الجيش، والكلمة فارسية (ص٥٠٣).

(٣) انظر العقل والنقل (١٨٤/١)، وانظر في إفادة خبر الواحد العلم إذا كان متلقى بالقبول، أو محتفاً بالقرائن: مجموع الفتاوى (٤١/١٨)، ومختصر الصواعق (٣٣٢/٢، ٣٧٩، ٣٩٤ ـ ٤٠٥).

منهم، وتحريفا لمعنى الآية عن مواضعه. ففهموا من أخبار الصفات مالم يرده الله ولا رسوله، ولا فهمه أحد من أئمة الإسلام، أنه يقتضي إثباتها التمثيل بما للمخلوقين! ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] تحريفا للنصين!! ويصنفون الكتب، ويقولون: هذا أصول دين الإسلام الذي أمر الله به وجاء من عنده، ويقرأون كثيرا من القرآن ويفوضون معناه إلى الله تعالى، من غير تدبر لمعناه الذي بينه الرسول، وأخبر أنه معناه الذي أراده الله. وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب الأول على هذه الصفات الثلاث، وقص علينا ذلك من خبرهم لنعتبر وننزجر عن مثل طريقتهم. فقال تعالى: ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ [البقرة: ٧٥]، إلى أن قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: ٧٨]. والأماني: التلاوة المجردة، ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة: ٧٩]. فذمهم على نسبة ما كتبوه إلى الله، وعلى اكتسابهم بذلك، فكلا الوصفين ذميم: أن ينسب إلى الله ما ليس من عنده، وأن يأخذ بذلك عوضاً من الدنيا مالا أو رياسة، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزلل، في القول والعمل، بمنه وكرمه.

دعوى تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول

من الشبه التي اعتمد عليها أهل البدع في رد النصوص دعواهم أن العقل أصل النقل فيرد النقل لأنه فرع.

والحق أنه لا يتعارض معقول صريح مع صحيح منقول وإذا أردنا أن نزيد الأمر إيضاحاً، فنقول: من المعلوم أن كلا من المعقول والمنقول ينقسم إلى قطعي الدلالة وظنى الدلالة وبذلك فإن اجتماع العقل والنقل يتفرع منه أربعة أقسام في التعارض.

الأول: تعارض قطعي عقلي مع قطعي شرعي وهذا التعارض لا يمكن أن يكون ألبتة، فإن فرض وقوعه هو نحو فرض وقوع النقيضين . .

وكل مازعمَوا أنه من هذا الباب فإن الخلل في حكمهم على أحدهما بأنه قطعي، فإن المعقولات الصريحة لم تأت الرسل بما يخالفها، نعم قد يكون في كلام الرسل ما تحار فيه العقول لكن لا تقطع بإحالتها.

الثاني: تعارض القطعي الشرعي مع الظني العقلي وهذا لابد فيه من ترجيح القطعي الشرعي بل وتخطئة هذا الظني العقلي وبيان بطلانه وهذا نحو أصل الإنسان فنحن نعلم بالشرع القطعي أن أبا البشر هو آدم عليه السلام فإذا ظن ظان أن أصل الإنسان قرد فهو آثم مكذب بالشرع، وهذا واضح بحمد الله.

الثالث: تعارض الظني الشرعي مع القطعي العقلي فما دام العقلي قطعياً فهو صحيح، ولكن الظني الشرعي يمكن أن يكون له وجه من الأوجه التي توافق القطعي العقلي.

الرابع: تعارض ظنيين عقلي وشرعي، وحينئذ فليس أحدهما مقدماً على الآخر فنميل للظني الشرعي وننسب الظني العقلي لأهله ولا ننفيه(١).

---

(١) انظر في ذلك العقل والنقل (١/٧٩،٨٠)، مختصر الصواعق فصل في كسر الطاغوت الثاني وهو قولهم: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل . .(١/١٢٩ وما بعدها).

قال الشارح: (ص٢١٩-٢٢٠)

قوله: ولا تَثْبُتُ قَدَمُ الإسْلامِ إلاَّ عَلىٰ ظَهْرِ التَّسْلِيمِ والاسْتِسْلامِ.

هذا من باب الاستعارة، إذ القدم الحسي لا تثبت إلا على ظهر شيء، أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه. روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. وهذا كلام جامع نافع[(١)].

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو: أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالما، ولا يمكن العالم أن يصير نبيا رسولا، فإذا عَرَف العاميُّ المقلدُ عالماً، فدلَّ عليه عامياً آخر. ثم اختلف المفتي والدال، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي، دون الدال، فلو قال الدال: الصواب معي دون المفتي، لأني أنا الأصل في علمك بأنه مفت، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت، فلزم القدح في فرعه! فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت له بأنه مفت، ودللت عليه، شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعين، لا يستلزم موافقتك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو أعلم منك، لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطىء[(٢)].

---

(١) علقه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) [المائدة: ٦٧]، وقال الزهري . . .فذكره انظر الفتح (٥٠٣/١٣).

(٢) بلفظه تقريباً في درء التعارض (١٣٨/١ - ١٣٩).

والعاقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى، لايجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذي تلقيه علينا، والحكمة التي جئتنا بها، قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحا في ما علمنا به صدقك، فنحن نعتقد موجب العقول المناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه، لا نتلقى منه هدىً ولا علماً، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول. ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد أن لا يؤمن بشيء مما جاء به الرسول، إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لاتزال تلقي الوساوس في النفوس، فيتمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر به الرسول وما أمر به[1].

وقال: (ص٢١٦ـ٢١٧)

وقوله: فإنَّهُ مَا سَلِمَ في دِينِه إلاَّ مَنْ سَلَّم للهِ عزَّ وجَلَّ ولِرَسُولِهِ ﷺ، ورَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَه عَلَيْه إلى عَالِمِه.

أي: سلم لنصوص الكتاب والسنة، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة، أو يقول: العقل يشهد بضد مادل عليه النقل! والعقل أصل النقل[2] !! فإذا عارضه قدمنا العقل!! وهذا لا يكون قط. لكن إذا

(١) انظر درء التعارض (٥/ ٢١٤ ـ ٢١٥) بلفظه.

(٢) قولهم (العقل أصل النقل) ليس صحيحاً من وجه آخر، فإنهم إن أرادوا بالعقل: الغريزة التي تميز الإنسان عن الحيوان، فهي ليست علماً يتصور أن يعارض النقل، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كشرط الحياة، والشرط يمتنع أن ينافي المشروط فيه. وإن أريد بالعقل: المعارف العقلية، والعلوم الحاصلة بالعقل، فهي =

جاء مايوهم مثل ذلك: فإن كان النقل صحيحاً فذلك الذي يدعى أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك. وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبدا. ويعارض كلام من يقول ذلك بنظيره، فيقال: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لان العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضا للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجبا عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه. وهذا بين واضح، فان العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته، وأن خبره مطابق لمخبره، فان جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون العقل دليلا صحيحا، وإذا لم يكن دليلا صحيحا لم يجز أن يتبع بحال، فضلا عن أن يقدم، فصار تقديم العقل على النقل قدحا في العقل[1].

فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقى خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولا، أو يحمله

= كثيرة جداً، وليست كلها أصلاً للسمع، وليست كل الأدلة العقلية يُعلم بها صدق الرسول، وليس صدق الرسول متوقفاً على المعجزات. وعليه فإن صحة بعض العقليات لا يلزم منه صحة كل العقليات، وكذلك إن كانت العقليات التي صححت السمع صحيحة، ولا يلزم صحة غيرها من المعقولات. انظر في ذلك درء التعارض (١/ ٨٩ ـ ٩٠)، مختصر الصواعق (١/ ١٣١ ـ ١٣٢).

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٧٠ ١٧١) بلفظه وانظر في المسألة أيضاً درء التعارض (٥/ ٣٤٠، ٢٦٩ ـ ٢٧١، ٢٧٥).

شبهاً أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم[1]، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

---

(١) والعجب أن أدلتهم العقلية لم يستطيعوا أن يثبتوا بها تنزيه الرب عن النقائص والعيوب، واعترف حذاقهم بذلك، وأن ذلك مأخوذ من الأدلة السمعية فحسب، قال ابن القيم: «فيا أولي الألباب: كيف نقدم الأدلة القطعية على نفي صفات كمال الله ونعوت جلاله.. حتى يدعى أن الأدلة السمعية على ذلك قد عارضها صريح العقل، وأما تنزيهه عن العيوب والنقائص، فلم يقم عليه دليل عقلي، بل علمناه بالإجماع!! وقلتم: إن دلالته ظنية!!، ويكفيك في فساد عقل معارض الوحي أنه لم يقم عنده دليل عقلي على تنزيه ربه عن العيوب والنقائص..اهـ. انظر مختصر الصواعق (١/٢٦٨)، وانظر العقل والنقل (١/١٨).

ثالثاً: وسطية دين الإسلام بين الأديان ووسطية أهل السنة بين الفرق والأهواء.

مر معنا كيف أن الاتباع من لوازم التوحيد، وأن المتابعة للنبي ﷺ هي أحد قطبي العبادة الذين هما الإخلاص والمتابعة ولاشك أن تمام المتابعة يلزم منها صحة المعتقد وصحة الهدي والسبيل، وهذا يؤدي إلى وسطية يرضاها الرب سبحانه وتعالى كما قال تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾وجاء عن النبي ﷺ في معنى الوسطية هذا: خياراً عدولاً وكذا قال جمع من المفسرين

قال الشارح: (ص٥٨٥ـ٥٨٨)

قوله: ودِينُ اللهِ في الأرضِ والسماءِ واحدٌ، وهُوَ دِينُ الإسلام، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقَالَ تعالى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. وهُوَ بَيْنَ الغُلُوِّ والتَّقْصِير، وبَيْنَ التَّشْبِيهِ والتَّعْطِيل، وبَيْنَ الجبْرِ والقَدَرِ، وبَيْنَ الأمْنِ والإيَاسِ.

ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد»[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. عام في كل زمان، ولكن الشرائع تتنوع، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. فدين الإسلام هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله[2]،

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالىٰ (واذكر في الكتاب مريم) (٦/ ٤٨٧ ـ ح٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، وأخرجه مسلم في الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام (٤/ ١٨٣٧ ـ ح٢٣٦٥)، ولفظه «الأنبياء أخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» من حديث أبي هريرة.

(٢) انظر في وسطية دين الإسلام في الملل ووسطية أهل السنة في الإسلام: الصفدية =

وأصول هذا الدين وفروعه موروثة عن الرسل، وهو ظاهر غاية الظهور، يمكن كل مميز من صغير وكبير، وفصيح وأعجم، وذكي وبليد ـ: أن يدخل فيه بأقصر زمان، وإنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك، من إنكار كلمة، أو تكذيب، أو معارضة، أو كذب على الله، أو ارتياب في قول الله تعالى، أو رد لما أنزل، أوشك فيما نفى الله عنه الشك، أو غير ذلك مما في معناه. فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام، وسهولة تعلمه، وأنه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته واختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الألفاظ بحسب من يتعلم، فإن كان بعيد الوطن، كضمام بن ثعلبة[1] والنجدي[2]، ووفد عبد القيس[3]، علمهم مالم يسعهم جهله، مع علمه أن دينه سينتشر في الآفاق، ويرسل إليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون إليه، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان في كل وقت، بحيث يتعلم على التدريج، أو كان قد علم فيه أنه قد عرف مالابد منه ـ أجابه بحسب حاله

= (٢/ ٣١٠ ـ ٣١٤)، والجواب الصحيح (١/ ٨٠٦، ٢٣٠ ـ ٢٣٥، ٢٩٢)، (٢/ ٥٢ ـ ٥٣).

(١) خبر ضمام بن ثعلبة، أخرجه البخاري في العلم باب ما جاء في العلم وقوله تعالىٰ (وقل رب زدني علماً) (١/ ١٧٩ ـ ح٦٣) من حديث أنس، وأخرجه كذلك مسلم في الإيمان باب السؤال عن أركان الإسلام من حديث أنس أيضاً (١/ ٤١ ـ ح١٢).

(٢) أخرج البخاري ومسلم عن طلحة بن عبيدالله أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته.... الحديث. أخرجه البخاري في الإيمان باب الزكاة من الإسلام (١/ ١٣٠، ١٣١ ـ ح٤٦)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (١/ ٤٠ ـ ح١١).

(٣) أخرج البخاري قصة وفد عبدالقيس في كتاب الإيمان باب أداء الخمس من الإيمان من حديث ابن عباس (١/ ١٥٧ ـ ح٥٣)، وأخرج مسلم القصة في كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالىٰ ورسوله (١/ ٤٦ ـ ح١٧)، وقد استخرج الإمام ابن القيم من هذه القصة عدة فوائد، فليراجع في الزاد (٣/ ٦٠٧ ـ ٦٠٩).

وحاجته، على ماتدل قرينة حال السائل، كقوله: «قل آمنت بالله ثم استقم»[1].

وأما من شرع دينا لم يأذن به الله، فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقوله عن النبي ﷺ ولا عن غيره من المرسلين، إذ هو باطل، وملزوم الباطل باطل، كما أن لازم الحق حق.

وقوله: بَيْنَ الغُلُو والتقْصِير.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [النساء: ٧١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨٧ ـ ٨٨]. وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها: أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج رسول الله ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «مابال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟! لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2]. وفي غير «الصحيحين»: «سألوا عن عبادته في السر،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي (١/ ٦٥ ـ ح٣٨).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح (٩/ ١٠٤ ـ ح٥٠٦٣)، وأخرجه بنحوه مسلم في كتاب النكاح باب استحباب النكاح (٢/ ١٠٢٠ ـ ح١٤٠١) وهو من حديث أنس عندهما، وأما حديث عائشة فهو عندهما بغير هذا السياق وفيه قوله ﷺ: «ما بال أقوام بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية» أخرجه البخاري في الاعتصام =

فكأنهم تقالوها»[1] وذكر في سبب نزول الآية الكريمة: عن ابن جريج، عن عكرمة أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى أبي حذيفة، رضي الله عنهم في أصحابه ـ تَبَتَّلُوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاختصاء، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المائدة: ٨٧]، يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الاختصاء، فنزلت فيهم، بعث النبي ﷺ إليهم، فقال: «إن لأنفسكم عليكم حقا، وإن لأعينكم حقا، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا»، فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت[2].

وقوله: وبَيْنَ التَشْبِيهِ والتَعْطِيلِ.

تقدم أن الله سبحانه وتعالى يجب أن يوصف بما وصف به نفسه، وما

= باب ما يكره من التعمق والتنازع (١٣/ ٢٧٦ ـ ح٧٣٠١)، وأخرجه مسلم في الفضائل باب علمه ﷺ بالله تعالىٰ وشدة خشيته (٤/ ١٨٢٩ ـ ح٢٣٥٦).

(١) أخرجه أحمد بلفظ «سألوا عن عبادته في السر» والحديث في مسلم بلفظ «سألوا عن عمله في السر» كما أورده الشارح والبخاري بلفظ «يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها» لكن كلها من رواية أنس كما تقدم، ونبه على ذلك الشيخان الألباني والأرناؤوط أيضاً.

(٢) أخرج الطبري هذا الأثر في تفسير المائدة (٥/ ١٢ ـ ث١٢٣٥٢) من حديث ابن جريج عن عكرمة ومجاهد.

وصفه به رسوله، من غير تشبيه، فلا يقال: سمع كسمعنا، ولا بصر كبصرنا، ونحوه، ومن غير تعطيل، فلا ينفى عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به أعرف الناس به: رسوله ﷺ، فإن ذلك تعطيل، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى[1].

ونظير هذا القول قوله: فيما تقدم ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه. وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى: ١١]. فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] رد على المشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝﴾ [الشورى: ١١] رد على المعطلة.

وقوله: وبَيْنَ الجَبْرِ والقَدَرِ.

تقدم الكلام أيضا على هذا المعنى، وأن العبد غير مجبور على أفعاله وأقواله، وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها، وليست مخلوقة للعباد، بل هي فعل العبد وكسبه وخلق الله تعالى[2].

وقوله: وبَيْنَ الأمْنِ والإِيَاسِ.

تقدم الكلام أيضا على هذا المعنى وأنه يجب أن يكون العبد خائفا من عذاب ربه، راجياً رحمته، وأن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد، في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة[3].

---

(١) وانظر مجموع الفتاوى (٥/٢٦)، وانظر فصل الأسماء والصفات في باب الإيمان بالله.

(٢) وهو الفصل الأخير حسب ترتيب هذا الكتاب.

(٣) تقدم الكلام على ذلك في فصل توحيد الألوهية.

الوسطية بين أهل الأهواء والفرق.

قال الشارح: مبيناً وشارحًا لبعض المذاهب الردية المخالفة لهدي النبي ﷺ (ص٥٨٨-٥٩٣)

قوله: فَهذَا دِينُنَا واعْتِقادُنَا ظَاهراً وبَاطِناً، ونَحنُ بُرآءُ إلى الله تعالىٰ مِنْ كُلِّ مَنْ خَالفَ الذي ذَكَرْنَاهُ وبَيَّنَّاهُ، ونَسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يُثبِّتَنَا عَلى الإيمَانِ، ويَخْتِمَ لَنَا بِه، ويَعْصِمَنَا مِنَ الأهْواءِ المُخْتَلِفَةِ، والآرَاءِ المُتَفَرِّقَةِ، والمَذَاهبِ الرَدِيَّة، مِثْلِ المُشَبِّهةِ والمُعْتَزِلةِ، والجَهْمِية، والجَبْرِية، والقَدْرِية، وغَيْرِهم، مِنَ الذينَ خَالفُوا الجَمَاعة، وحَالفُوا الضَّلالَةَ ونَحْنُ مِنهُم بُرآء، وهُمْ عِنْدَنَا ضُلَّالٌ وأرْدِيَاء. وبالله العصمة والتوفيق.

الإشارة بقوله: «فهذا» كل ما تقدم من أول الكتاب إلى هنا. **والمشبهة**: هم الذين شبهوا الله سبحانة بالخلق في صفاته، وقولهم عكس قول النصارى، شبهوا المخلوق - وهو عيسى عليه السلام - بالخالق وجعلوه إلها، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق، كداود الجواربي وأشباهه[1].

والمعتزلة: هم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأصحابهما، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله، في أوائل المائة الثانية، وكانوا يجلسون معتزلين، فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة، وقيل: إنَّ واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول مذهب المعتزلة، وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري، فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل[2] كتابين، وبين مذهبهم وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة، التي سموها: العدل، والتوحيد،

---

(١) انظر في حال هؤلاء منهاج السنة (٢/٦١٨ وما بعدها).

(٢) هو أبوالهذيل محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول العبدي العلاف من مؤسسي المذهب.

وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]، ولبسوا فيها الحق بالباطل، إذ شأن البدع هذا، اشتمالها على حق وباطل.

وهم مشبهة الأفعال، لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه. وقالوا: يجب عليه أن يفعل كذا وما يجوز له أن يفعل كذا بمقتضى ذلك القياس الفاسد!! فإن السيد من بني آدم لو رأى عبيده تزني بإمائه ولا يمنعهم من ذلك لعد إما مستحسناً للقبيح، وإما عاجزاً، فكيف يصح قياس أفعاله سبحانه وتعالى على أفعال عبادة؟! والكلام على هذا المعنى مبسوط في موضعه.

فأما العدل، فستروا تحته نفي القدر، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جوراً!! والله تعالى عادل لا يجور. ويلزمهم على هذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون في ملكه مالا يريده، فيريد الشيء ولا يكون، ولازمه وصفه بالعجز! تعالى الله عن ذلك.

وأما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء!! ويلزمهم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة، أو التناقض.

وأما الوعيد، فقالوا: إذا أوعد بعض عبيده وعيداً فلا يجوز أن لا يعذبهم ويخلف وعده، لأنه لا يخلف الميعاد، فلا يعفو عمن يشاء،

---

(١) وانظر في بيان أصولهم ومخالفتهم للكتاب والسنة مجموع الفتاوى (١٣/٣٨٦، ٣٨٧).

ولا يغفر لمن يريد، عندهم!!

وأما المنزلة بين المنزلتين، فعندهم أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر!!

وأما الأمر بالمعروف، وهو أنهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به، وأن نلزمه ما يلزمنا، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا!! وقد تقدم جواب هذه الشبه الخمس في مواضعها[1] وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلا بعدها، وإذا استدلوا على ذلك بأدلة سمعية، إنما يذكرونها للاعتضاد بها، لا للاعتماد عليها، فهم يقولون: لا تثبت هذه بالسمع، بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل! فمنهم من لا يذكرها في الأصول إذ لا فائدة فيها عندهم ومنهم من يذكرها ليبين موافقة السمع للعقل، ولإيناس الناس بها، لا للاعتماد عليها! والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب! والمدد اللاحق بعسكر مستغن عنهم! وبمنزلة من يتبع هواه واتفق أن الشرع ما يهواه كما قال عمر بن عبد العزيز لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذا أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق، وتعاقب على ما تركته منه، لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين. وكما أن «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»، والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادته، فالاعتقاد القوى يتبع أيضا علم ذلك وتصديقه، فإن كان

---

(١) فأما قولهم بخلق القرآن فسبق الرد عليه في فصل الإيمان بالكتب، وقولهم بالعدل ونفي القدر فسيأتي الرد عليها في الفصل الأخير إن شاء الله والشبهة المتعلقة بإنفاذ الوعيد وتخليد عصاة المؤمنين في النار، سبق الكلام عليها في مباحث الإيمان وكذا ما بعدها من مبحث الخروج.

ذلك تابعا للإيمان كان من الإيمان، كما أن العمل الصالح إذا كان عن نية صالحة كان صالحا، وإلا فلا، فقول أهل الإيمان التابع لغير الإيمان، كعمل أهل الصلاح التابع لغير قصد أهل الصلاح. وفي المعتزلة زنادقة كثيرة، وفيهم من ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

والجهمية: هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان الترمذي، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط فإنه خطب الناس في يوم عيد الأضحى، قال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبحه. وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه، وهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى[1].

وكان جهم بعده بخراسان، فأظهر مقالته هناك، وتبعه عليها ناس، بعد أن ترك الصلاة أربعين يوما شكا في ربه! وكان في ذلك لمناظرته قوما من المشركين، يقال لهم السمنية[2]، من فلاسفة الهند، الذين ينكرون من العلم ما سوى الحسيات، قالوا له: هذا ربك الذي تعبده، هل يرى أو يشم أو يذاق، أو يلمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدوم!! فبقي أربعين يوما لايعبد شيئا، ثم لما خلا قلبه من معبود يؤلهه، نقش الشيطان اعتقادا نحته فكره، فقال: إنه الوجود المطلق!! ونفى جميع الصفات، واتصل بالجعد.

---

(١) وهذه القصة أخرجها البخاري في (خلق أفعال العباد)، وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد فيه مقال.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤/٢١٨، ٥/٢٢)، وهذه القصة نقلها أيضاً الإمام أحمد.

وقد قيل: إن جعداً كان قد اتصل بالصابئة الفلاسفة من أهل حرَّان، وإنه أيضا أخذ شيئا عن بعض اليهود المحرفين لدينهم، المتصلين بلبيد بن الأعصم، الساحر الذي سحر النبي ﷺ. فقتل جهم بخراسان، قتله سلم بن أحوز، ولكن كانت قد فشت مقالته في الناس، وتقلدها بعده المعتزلة. ولكن كان جهم أدخل في التعطيل منهم، لأنه ينكر الأسماء حقيقة، وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات.

وقد تنازع العلماء في الجهمية: هل هم من الثنتين وسبعين فرقة أم لا؟ ولهم في ذلك قولان: وممن قال إنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة ـ عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط[1].

وإنما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة، فإنه من إمارة المأمون قووا وكثروا، فإنه قد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم، ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثمان عشرة ومائتين وفيها مات، وردوا الإمام أحمد إلى الحبس ببغداد إلى سنة مائتين وعشرين، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه، وبين أنه لا حجة لهم في شيء من ذلك، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم وامتحانهم إياهم ـ: جهل وظلم ، وأراد المعتصم إطلاقه، أشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه، لئلا تنكسر

---

(١) من أئمة الزهاد وثقه ابن معين، وقال أبوحاتم: لا يحتج به، قال البخاري: دفن كتبه فكان حديثه لا يجيء كما ينبغي. ومن حكمه ومواعظه قال: خلقت القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات، لا يمحوا الشهوات إلا خوف مزعج، أو شوق متعلق، الزهد في الرئاسة أشد منه في الدنيا. توفى في أوآخر المائة الأولىٰ. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٩/١٦٩ ـ ج٥٠)، وانظر في كونهم ليسوا من أمة محمد ﷺ: النبوات ص١٣٥.

حرمة الخلافة مرة بعد مرة! فلما ضربوه قامت الشناعة في العامة، وخافوا، فأطلقوه. وقصته مذكورة في كتب التاريخ[1].

ومما انفرد به جهم: أن الجنة والنار تفنيان[2]، وأن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل فقط[3]، وأنه لافعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز، كما يقال تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس[4]!

ولقد أحسن القائل:

عجبت لشيطان دعا الناس جهرةً إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقد نقل أن أبا حنيفة رحمه الله، سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: لعن الله عمرو بن عبيد، هو فتح على الناس الكلام في هذا.

والجبرية: أصل قولهم من جهم بن صفوان، كما تقدم، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه! وهم عكس القدرية نفاة القدر، فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه، كما سميت المرجئة لنفيهم الإرجاء، وأنه لا أحد مرجأ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم. وقد تسمى الجبرية «قدرية» لأنهم غلوا في إثبات القدر، كما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد، بل يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع، فلا يجزمون بثواب من تاب، كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب، وكما لا يجزم لمعين.

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٠/٣٤٥ وما بعدها)، وسير أعلام النبلاء (١١/٢٣٢).
(٢) يأتي الرد على هذه الشبهة في فصل الإيمان باليوم الآخر.
(٣) سبق ذلك في فصل الإيمان.
(٤) يأتي الرد على هذه الشبهة في فصل الإيمان بالقدر.

وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعليا، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر!!

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في «السنن»: منها ما روى أبو داود في «سننه»، من حديث عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»[1].

وروي في ذم القدرية أحاديث أخر كثيرة، تكلم أهل الحديث في صحة رفعها، والصحيح أنها موقوفة، بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج، فإن فيهم في «الصحيح» وحده عشرة أحاديث، أخرج البخاري منها ثلاثة، وأخرج مسلم سائرها. ولكن مشابهتهم للمجوس ظاهرة، بل قولهم أردأ من قول المجوس، فإن المجوس اعتقدوا وجود خالِقَين، والقدرية اعتقدوا خالِقِين!!

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة باب القدر (٤/ ٢٢٢ ـ ح٤٦٩١)، والحاكم (١/ ٨٥) قال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر، ثم ذكر شاهداً له ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني (ص٥٩٣).

رابعاً: التزكية

من أصول دعوة السلف تزكية النفس، ومراقبة القلب، ودرء الران عنه ودفع وسائل الختم ونحو ذلك من العقوبات التي يبتلي الله بها المعرضين عن الحق المدافعين له ولأهله.

والتزكية أصل من الأصول ملازم للاتباع، حيث لا تزكية بغير طريق النبي ﷺ، وقد ضل أقوام في ذلك كما تقدم.

وقد بين الشارح أن القلوب منها قلب حي ومنها قلب ميت، وإن القلب الحي قد يمرض إلى أن يموت فصارت القلوب ثلاثة:

قلب حي سليم، وقلب حي مريض، وقلب ميت ولكل من القلب المريض والقلب الميت علامات كما أن للقلب الحي علامات.

قال: (ص٣٠٦-٣٠٩)

القلب له حياة وموت، ومرض وشفاء وذلك أعظم مما للبدن. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. أي كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان. فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر(١).

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١١٢ - ح٨٥٦٤) عن طارق بن شهاب قال: جاء عتريس بن عرقوب الشيباني إلى عبدالله فقال: هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال: بل هلك من لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٥): ورجاله رجال الصحيح.

وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعليا، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر!!

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في «السنن»: منها ما روى أبو داود في «سننه»، من حديث عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: **«القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»**[(١)].

وروي في ذم القدرية أحاديث أخر كثيرة، تكلم أهل الحديث في صحة رفعها، والصحيح أنها موقوفة، بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج، فإن فيهم في «الصحيح» وحده عشرة أحاديث، أخرج البخاري منها ثلاثة، وأخرج مسلم سائرها. ولكن مشابهتهم للمجوس ظاهرة، بل قولهم أردأ من قول المجوس، فإن المجوس اعتقدوا وجود خالقَين، والقدرية اعتقدوا خالقِين!!

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة باب القدر (٤/ ٢٢٢ ـ ح٤٦٩١)، والحاكم (١/ ٨٥) قال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر، ثم ذكر شاهداً له ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني (ص٥٩٣).

رابعاً: التزكية

من أصول دعوة السلف تزكية النفس، ومراقبة القلب، ودرء الران عنه ودفع وسائل الختم ونحو ذلك من العقوبات التي يبتلي الله بها المعرضين عن الحق المدافعين له ولأهله.

والتزكية أصل من الأصول ملازم للاتباع، حيث لا تزكية بغير طريق النبي ﷺ، وقد ضل أقوام في ذلك كما تقدم.

وقد بين الشارح أن القلوب منها قلب حي ومنها قلب ميت، وإن القلب الحي قد يمرض إلى أن يموت فصارت القلوب ثلاثة:

قلب حي سليم، وقلب حي مريض، وقلب ميت ولكل من القلب المريض والقلب الميت علامات كما أن للقلب الحي علامات.

قال: (ص٣٠٦-٣٠٩)

القلب له حياة وموت، ومرض وشفاء وذلك أعظم مما للبدن. قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. أي كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان. فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر[1].

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١١٢ - ح٨٥٦٤) عن طارق بن شهاب قال: جاء عتريس بن عرقوب الشيباني إلى عبدالله فقال: هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال: بل هلك من لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٥): ورجاله رجال الصحيح.

ذلك حسب قوة المرض وضعفه.

ومرض القلب نوعان، كما تقدم مرض شهوة، ومرض شبهة، وأردؤها مرض الشبهة، وأردأ الشُّبه ما كان من أمر القدر. وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لاتؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة. فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته. وما لجزح بميت إيلام[1].

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس له أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه، لضعف علمه وبصيرته وصبره كمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول: أين ذهب الناس فلي أسوة بهم! وهذه حال أكثر الخلق وهي التي أهلكتهم. فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

---

(١) من شعر المتنبي وصدره: «من يهن يسهل الهوان عليه» انظر ديوان المتنبي بشرح العكبري (٤/ ٩٢ ـ ١٠١) في قصيدة يمدح بها علي بن أحمد المري الخراساني.

قال الشارح: (ص٣٠٨)

وعلامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة له إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع إلى دوائه الضار[1].

فههنا أربعة أشياء: غذاء نافع ودواء شاف وغذاء ضار ودواء مهلك.

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان وأنفع الأدوية دواء القرآن وكل منهما فيه الغذاء والدواء فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضل الضالين، فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]. و«من» في قوله: «من القرآن» لبيان الجنس، لا للتبعيض. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يُؤهل للاستشفاء به. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه لم يقاوم الداء أبدا وكيف تقاوم الأدواء كلامَ ربّ الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدَعها، أو على الأرض لقطَعها؟!

(١) ومن ذلك النفي والتشبيه في أمراض القلوب وتقدم الكلام عليها في فصل الأسماء والصفات.

فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل[1] الدلالة على دوائه[2] وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه.

(١) انظر «التحفة العراقية»، وانظر «أمراض القلوب وشفاؤها»، مجموع الفتاوى (١٠/٥ - ١٤٨).

(٢) انظر في أمراض القلوب إغاثة اللهفان لابن القيم (١/٦٨ - ٧٠).

المبحث السابع

الصحابـــة

الصحابة هم خير هذه الأمة، وقد زكاهم الله تعالى وعدَّلهم وبين فضلهم وصدقهم وإحسانهم، وهم حملة الشريعة، وأنصار الحق، وحملة الهدى، وفرسان الدجى، بهم نصر الله الدين وأعلى الكلمة، ونشر الدعوة، رضي الله عنهم أجمعين.

وقد عرف أعداء الإسلام أنهم لا سبيل لهم إلى الدين إلا إذا حطموا أسسه وقواعده، ومن هذه الأسس والقواعد الطعن في نقلته والذين حملوه لنا، ومن ثم اتجهت السهام إلى الصحابة تطعن في عدالتهم ونقولهم.

فإذا تزعزع عن المسلم إيمانه بصدق الصحابة لزم من ذلك أن يتزعزع إيمانه بالدين كله، فهل نقل الدين إلا هم؟؟

وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ وحملة الوحي والهدى لم يطبقوا هذا الدين، فهل تنتظر أن يطبقه أحد؟؟

وإذا كان الصحابة قد كفروا أو فسقوا وكانوا حريصين على الدنيا ويأكلون بدينهم، إذاً فماذا تنتظر من الناس بعدهم؟؟

وإذا كان حال الصحابة لا يصح أن يكون القدوة والمثل الإنساني العالي، فلابد أن يكون البديل، ومن ثم تخرج البدائل الكافرة التي يُضفَى عليها هالات النور حتى يتبعهم الغوغاء أتباع كل ناعق.

لأجل هذا كله كان حب الصحابة وذكرهم بالخير من الإيمان وكان بغض الصحابة من الكفر والعصيان.

ولما كان الصحابة هم أتبع الناس لرسول الله ﷺ ناسب أن يكون البحث في فضائلهم مرتبطا بمبحث النبوات، وقد قدمت مبحث الاتباع عليه حتى

تكون النظرية والتطبيق ماثلين أمام طالب الهدى والاتباع.

وقد تكلم الشارح رحمه الله حول هذا الأمر، فيما يمكن أن يُلخص فيما يلي:

أولاً : حب الصحابة من الإيمان.

ثانياً: فضل الخلفاء الراشدين.

ثالثاً: فضائل العشرة.

رابعاً: حقوق الأئمة بعد الصحابة رضي الله عنهم.

خامساً: علماء السلف رحمهم الله، وموقف المسلم منهم.

أولاً: حب الصحابة من الإيمان

تقدم أن الإيمان قول وعمل، وأن العمل يشمل عمل القلب وعمل الجوارح، ولما كان حب الصحابة من عمل القلب فهو إذاً من الإيمان.
وهذا مذهب أهل السنة كما تقدم، ولما كان مذهب الإمام الطحاوي أنه يُخرج العمل عن مسمى الإيمان، لذا فلا يكون الحب عنده من الإيمان إلا على سبيل المجاز واللزوم، وعلى كل فقد صرح أن حب الصحابة من الإيمان والحمد لله

قال الشارح: (ص٥٢٨ـ ٥٣٣)

وقوله: وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولا نُفْرِطُ في حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُم، ولا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُم وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُم، وَبِغَيرِ الخَيرِ يَذْكُرُهُم. ولا نَذْكُرُهُم إلَّا بِخَيرٍ. وحُبُّهُم دِينٌ وإيمَانٌ وإحْسَانٌ، وبُغْضُهُم كُفْرٌ ونِفَاقٌ وطُغْيَانٌ.

يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض والنواصب وقد أثنى الله تعالى على الصحابة هو ورسوله، ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، إلى آخر السورة. وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، إلى آخر السورة. وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ

وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاؤوا من بعدهم، يستغفرون لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيبا، بنص القرآن[١].

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: **«لاتسبوا أحدا من أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحُد ذهبا، ما أدرك مُد أحدهم ولا نَصيفه»** انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن، دون البخاري[٢].

---

(١) منهاج السنة (١٧/٢، ١٨) بلفظه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٢٥/٧ ـ ح٣٦٧٣) ط. الريان، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (١٩٦٧/٤ ـ ح٢٥٤١)، وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة وفيه قصة سب خالد لعبدالرحمن في الموضع السابق (٢٥٤٠)، وأشار الشارح إلى انفراد مسلم بذلك. حيث أنه قد نص جمع من أهل العلم شذوذ هذه الرواية، =

فالنبي ﷺ يقول لخالد ونحوه: «لا تسبوا أصحابي»، يعنى عبد الرحمن وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وبعد مصالحة النبي ﷺ أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء[1]، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية.

والمقصود أنه نهى من له صحبة آخرا أن يسب من له صحبة أولا لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لايمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية، وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة؟ رضي الله عنهم أجمعين.

والسابقون الأولون ـ من المهاجرين والأنصار ـ هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

وقيل: إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين، وهذا ضعيف. فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيله، لأن النسخ ليس من فعلهم، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعى، كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة.

= وأن مسلماً رحمه الله وهم فيها بإخراجه عن أبي هريرة وانظر الفتح (٤٣/٧) ط. الريان.

(١) انظر في الطلقاء: مجموع الفتاوى (٤٥٢/٤، ٤٥٤، ٤٦٦).

وأما ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم» ـ فهو حديث ضعيف، قال البزار: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة[1].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر، قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: إن ناسا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر! فقالت: وما تعجبون من هذا! انقطع عنهم العمل، فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر[2].

وروى ابن بطة بإسناد صحيح، عن ابن عباس، أنه قال: لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ. فلمقام أحدهم ساعة، يعنى مع النبي ﷺ، خير من عمل أحدكم أربعين سنة. وفي رواية وكيع: خير من عبادة أحدكم عمره[3].

وفي «الصحيحين» من حديث عمران بن حصين وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري: أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة الحديث[4].

---

(١) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٩١)، وابن حزم في الإحكام (٦/٨٢)، وقال الألباني: باطل (ص٥٣٠)، وكذا ضعفه الأرناؤوط (ص٦٩٢، ٦٩٣).

(٢) استغربه الألباني وذكر أنه ليس في مسلم (ص٥٣٠) وكذا الأرناؤوط (ص٦٩٣)، وعزاه شيخ الإسلام إلى مسلم كما بالمنهاج (٢/٢١، ٢٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (ح٢٠)، وأخرج رواية وكيع أيضاً (ح١٥) ورواية وكيع أخرجها ابن ماجه في المقدمة (فضل أهل بدر) (١/٥٧ ـ ح١٦٢)، وعزاه في منهاج السنة إلى ابن بطة (٢/٢٣) من طريق عبدالله بن أحمد.

(٤) أخرجه البخاري في مواضع منها ما في كتاب الشهادات با لا يشهد على شهادة جور (٥/٣٠٦ ـ ح٢٦٥١) ط. الريان، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب فضل =

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر، أن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»**[1].

وقال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

الآيات. وقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم، حيث قال: إن الله تعالىٰ نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء[2].

= الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٤ ـ ح٢٥٣٥).

(١) أخرجه مسلم عن جابر بن عبدالله قال أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها...» الحديث في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة(٤/ ١٩٤٢ ـ ح٢٤٩٦)، وأما اللفظ الذي أورده المصنف فقد أخرجه الترمذي في المناقب باب في فضل من بايع تحت الشجرة من حديث أبي الزبير عن جابر وقال: هذا حديث حسن صحيح (٥/ ٦٥٢ ـ ح٣٨٦٠)، وأخرجه أبوداود في كتاب السنة باب في الخلفاء من حديث أبي الزبير عن جابر (٤/ ٢١٣ ـ ح٤٦٥٣)، وأخرجه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير باب ونذر الظالمين فيها جثيا من حديث أبي الزبير (٦/ ٣٩٥ ـ ح١١٣٢١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٧٩)، والطيالسي في المسند (ح٢٤٦)، قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨): رجاله موثقون .اهـ. وحسنه الألباني (ص٥٣٠)، والأرناؤوط (ص٦٩٦)، وانظر منهاج السنة (٢/ ٧٦، ٧٧) وذكر الراويتين جميعاً.

وفي رواية: وقد رأى أصحاب محمد جميعا أن يستخلفوا أبابكر.

وتقدم قول ابن مسعود: من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات. إلخ ـ عند قول الشيخ: ونتبع السنة والجماعة.

فمن أضل ممن يكون في قلبه غل لخيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين؟! بل قد فضلتهم اليهود والنصارى بخصلة، قيل لليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد!! لم يستثنوا منهم إلا القليل[1]، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة.

وقوله: ولا نفرط في حب أحد منهم.

أي لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم كما تفعل الشيعة، فنكون من المعتدين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]. وقوله: **ولا نتبرأ من أحد منهم** كما فعلت الرافضة! فعندهم لا ولاء إلا ببراء، أي: لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما!! وأهل السنة يوالونهم كلهم، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها، بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب[2]، فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد، كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الجاثية: ١٧].

وهذا معنى قول من قال من السلف: **الشهادة بدعة، والبراءة بدعة،**

---

(١) من خطبة منهاج السنة (١/ ٢٧).
(٢) انظر درء التعارض (١/ ٢٤٠).

يروى ذلك عن جماعة من السلف، من الصحابة والتابعين، منهم: أبو سعيد الخدري، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي والضحاك وغيرهم.

ومعنى الشهادة: أن يشهد على معين من المسلمين أنه من أهل النار، أو أنه كافر، بدون العلم بما ختم الله له به.

وقوله: **وحبهم دين وإيمان وإحسان**: لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص، وروى الترمذي عن عبد الله بن مغفل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحُبي أحبهُم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيُوشك أن يأخذه**»[1].

وتسمية حب الصحابة إيماناً مُشكِل على الشيخ رحمه الله، لأن الحب عمل القلب، وليس هو التصديق، فيكون العمل داخلا في مسمى الإيمان، وقد تقدم في كلامه: «أن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان»، ولم يجعل العمل داخلا في مسمى الإيمان، وهذا هو المعروف من مذهب أبي حنيفة إلا أن تكون هذه التسمية مجازاً[2].

وقوله: **وبغضهم كفر ونفاق وطغيان**.

تقدم الكلام في تكفير أهل البدع، وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد تقدم الكلام في ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب بعد باب في فضل من بايع تحت الشجرة (٥/٦٥٣ ـ ح٣٨٦٢)، والإمام أحمد في المسند (٤/٨٧)،(٥/٥٤)، وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وضعفه الألباني (ص٥٣٣).

(٢) راجع مبحث الإيمان.

وقال الشارح: (ص٥٥٣، ٥٥٤)

قوله: ومَنْ أحْسَنَ القَوْلَ في أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وأزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ، وذُرِّيَّاتِهِ المُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ، فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ النِّفَاقِ.

تقدم بعض ما ورد في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضي الله عنهم.

وفي «صحيح مسلم»، عن زيد بن أرقم، قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً، بماء يدعى: خما، بين مكة والمدينة، فقال: **«أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي، فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، وأذكركم الله في أهل بيتي، ثلاثا»**[(١)].

وخرج البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: ارقبوا محمداً في أهل بيته[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤/١٨٧٣ ـ ح٢٤٠٨)، وقوله ﷺ: «أولهما: كتاب الله» قد يراد به الشريعة كتاباً وسنة كما في حديث العسيف فإن فيه: «لأقضين بينكم بكتاب الله» ثم قضى بالجلد والتغريب، وليس التغريب إلا بالسنة، وقوله: «وأهل بيتي»: المراد الوصاة بهم، ويدخل فيهم نساؤه ﷺ فإنهن من أهل بيته كما في سياق آيات سورة الأحزاب، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٧/٩٧ ـ ح٣٧١٣) ط.الريان، وفي كتاب فضائل الصحابة باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٧/١١٩ ـ ح٣٧٥١) ط.الريان، ومعنى ارقبوا: أي حافظوا، والمعنى: =

وإنما قال الشيخ رحمه الله: فقد بريء من النفاق ـ لأن أصل الرفض إنما أحدثه منافق زنديق[(١)]، قصده إبطال دين الإسلام، والقدح في الرسول ﷺ، كما ذكر ذلك العلماء . فإن عبد الله بن سبأ لما ظهر الإسلام، أراد أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه، كما فعل بولس بدين النصرانية[(٢)]، فأظهر التنسك، ثم أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى سعى في فتنة عثمان وقتله، ثم لما قدم على الكوفة أظهر الغلو في علي والنصر له ليتمكن بذلك من أغراضه وبلغ ذلك علياً، فطلب قتله فهرب منه إلى قرقيسيا وخبره معروف في التاريخ[(٣)].

وتقدم عنه أن من فضله على أبي بكر وعمر جلده جلد المفتري[(٤)].

وبقيت في نفوس المبطلين خمائر بدعة الخوارج، من الحرورية والشيعة.

ولهذا كان الرفض باب الزندقة، كما حكاه القاضي أبو بكر بن الطيب عن الباطنية وكيفية إفسادهم لدين الإسلام[(٥)]، قال: فقالوا للداعي: يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلما أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك،

= احفظوه فيهم فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم كما بالفتح (٧/٩٨) ط. الريان.

(١) راجع في ذلك مجموع الفتاوى (٤/١٠٢).

(٢) بولس أو (شاوول) هو الذي وضع للنصارى أسطورة الفداء وأن المسيح ابن الله.

(٣) راجع في خبره البداية والنهاية (٧/ ١٧٤، ١٧٥).

(٤) يأتي هذا بعده قريباً على ترتيب هذا الكتاب.

(٥) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٣٥/١٣٦)، والقاضي أبوبكر هو محمد بن الطيب الباقلاني، ناصر مذهب الأشعري، وكان من نظرائه، وربما خالفه، كان يضرب المثل بفهمه وذكائه، مقدم في الأصول والرد على أهل البدع توفي سنه٤٠٣ هـ انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٠ ـ ج١١٠). ،

واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعلي وقتلهم الحسين، والتبري من تيم وعدي[1]، وبني أمية وبني العباس وقل بالرجعة وأن عليا يعلم الغيب! يفوض إليه خلق العالم! وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم إلى أن قال فإذا أنست من بعض الشيعة عند الدعوة إجابة ورشدا، أوقفته على مثالب علي وولده، رضي الله عنهم. انتهى. ولا شك أنه يتطرق من سب الصحابة إلى سب أهل البيت، ثم إلى سب الرسول ﷺ، إذ أهل بيته وأصحابه مثله [عند] هؤلاء الفاعلين الضالين.

(١) لأن أبابكر من (تيم)، وعمر الفاروق من (عدي)، فأراد التبرؤ من أبي بكر وعمر ومن يناصرهما.

ثانياً: فضل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

١ـ خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال رحمه الله: (ص٥٣٣ـ٥٣٩)

قوله: وَنُثْبِتُ الخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أولاً لأبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْه، تَفْضِيلاً لَهُ وتَقْدِيماً عَلى جَمِيعِ الأُمَّةِ.

اختلف أهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه: هل كانت بالنص، أو بالاختيار؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة، ومنهم من قال بالنص الجلي. وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار[(١)].

والدليل على إثباتها بالنص أخبار: من ذلك ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم، قال: أتت امرأة النبي ﷺ، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت، قال: **«إن لم تجديني فأتي أبا بكر»**[(٢)]. وذكر له سياقاً آخر، وأحاديث أخر[(٣)]. وذلك نص على إمامته.

وحديث حُذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله ﷺ: **«اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»**. رواه أهل السنن[(٤)].

---

(١) انظر في ذلك منهاج السنة (١/ ٤٨٧ ـ٤٩٩، ٥٠٥ ـ٥٠٨، ٥١١ـ٥١٩)، ومجموع الفتاوى (٣٥/ ٤٧ ـ ٤٩)

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ (٧/ ٢٢ـ ح٣٦٥٩) ، وأخرجه أيضاً في كتاب الأحكام باب الاستخلاف (١٣/ ٢٠٦ـ ح٧٢٢٠).

(٣) من ذلك ما أخرجه في كتاب الاعتصام باب الأحكام التي تعرف بالدليل (١٣/ ٣٣٠ـح٧٣٦٠)

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب ياب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٥/ ٥٦٩، ٥٧٠ ـ ح٣٦٦٢، ٣٦٦٣) وقال: حسن، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١/ ٣٧ ـ ح٩٧)، وصححه الألباني (ص٥٣٤)، =

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، قالت: دخل علي رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدىء فيه، فقال: «**ادعي لي أباك وأخاك، حتى أكتب لأبي بكر كتابا، ثم قال: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر**» وفي رواية: «**فلا يطمع في هذا الأمر طامع**». وفي رواية: قال: «**ادعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر، لأكتب لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه، ثم قال: معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر**»(١).

وأحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة، وهو يقول: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»(٢).

وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة، فصلى بهم مدة مرض النبي ﷺ.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم رأيتني على قليب، عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غربا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقرياً من**

= وحسن إسناده الأرناؤوط (ص٦٩٩).

(١) أخرجه البخاري في كتاب المرضى باب ما رخص للمريض أن يقول: إني وجع (١٠/١٢٨ - ح٥٦٦٦) ط.الريان، وأخرجه في كتاب الاعتصام باب الاستخلاف (١٣/٢٠٥ - ح٧٢١٧)، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٤/١٨٥٧ - ح٢٣٨٧) وهو لفظ لمسلم، ولفظ البخاري «يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون».

(٢) أخرجه البخاري في مواضع منها ما في كتاب الأذان باب حد المريض أن يشهد الجماعة (٢/١٥١ - ح٦٦٤)، وفي كتاب الأذان عنه أيضاً باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة (٢/١٦٤ - ح٦٧٩)، وفيه أيضاً باب من أسمع الناس تكبير الإمام وبابين بعده (٢/٢٠٣-٢٠٦ - ح٧١٢، ٧١٣، ٧١٦).

الناس يفري فريه، حتى ضرب الناس بعطن»[1].

وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال على منبره: «لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت، إلا خوخة أبي بكر»[2].

وفي «سنن أبي داود» وغيره، من حديث الأشعث عن الحسن عن أبي بكرة، أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «من رأى منكم رؤيا؟» فقال رجل أنا، رأيت ميزانا أنزل من السماء، فوزنت أنت وأبو بكر، فرجحت أنت بأبي بكر، ثم وزن عمر وأبو بكر، فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان، فرجح عمر، ثم رفع، فرأيت الكراهة في وجه النبي ﷺ[3]، فقال: «خلافة نبوة،

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ (٧/ ٢٠ - ح٣٦٦٤) ط. الريان، وأخرجه في كتاب التعبير باب نزع الذنوب والذنوبين من البئر بضعف (١٢/ ٣١٤ - ح٧٠٢١)، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٦٠ - ح٢٣٩٢)، وأخرجه البخاري في الموضع السابق من حديث ابن عمر (٧/ ٢٦ - ح٣٦٧٦) وفي آخره قال وهب: العطن: برك الإبل، يقول: حتى رويت الإبل فأناخت. وقوله: «وفي نزعه ضعف والله يغفر له» أي على مهل ورفق: إشارة إلى قرب وفاة أبي بكر وأن قلة الفتوح في زمانه لا صنع له فيه. وقوله: «فاستحالت في يده غرباً» أي دلواً عظيماً. وقوله: «فلم أر عبقرياً يفري فريه» المراد بالعبقري كل شيء بلغ النهاية ويفري فريه أي يعمل عمله، أو ينتزع نزعه. انظر في ذلك الفتح (٧/ ٤٨) ط. الريان.

(٢) تقدم تخريجه في فصل النبوات.

(٣) أخرجه أبوداود في السنة باب في الخلفاء (٤/ ٢٠٨ - ح٤٦٣٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب الرؤيا باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو (٤/ ٤٦٨ - ح٢٢٨٧) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أحمد (٥/ ٤٤، ٥٠)، وصححه الألباني (ص٥٣٥)، والأرناؤوط (ص٧٠٢)، وقوله: «فرأيت الكراهة... الخ» أي لوقوع الخلاف بعد رفعه فهو بسبب ترك بعض الواجبات وهذا مما أشير إليه في الرؤيا، فإن مبناها على الإشارة.

ثم يؤتي الله الملك من يشاء»[1].

فبين رسول الله ﷺ، أن ولاية هؤلاء خلافة نبوة، ثم بعد ذلك ملك. وليس فيه ذكر علي رضي الله عنه، لأنه لم يجتمع الناس في زمانه، بل كانوا مختلفين، لم ينتظم فيه خلافه النبوة ولا الملك[2].

وروى أبوداود أيضا عن جابر رضي الله عنه، أنه كان يحدث، أن رسول الله ﷺ قال: «رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ، ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر»، قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ، قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ، وأما المنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه[3].

وروى أبوداود أيضا عن سمرة بن جندب: أن رجلا قال: يارسول الله، رأيت كأن دلوا دلي من السماء، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها، فشرب شربا ضعيفا، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها، فانتشطت منه، فانتضح عليه منها شيء[4].

---

(١) هذه الزيادة ليست في الرواية الأولى وإنما رواها أبوداود في الموضع السابق لكن من طريق علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف. انظر سنن أبي داود (٢٠٨/٤ - ح٤٦٣٥)، قال الأرناؤوط (ص٧٠٢): لكن يشهد لها حديث سفينة الآتي، فهي صحيحة به.

(٢) وحديث سفينة الآتي «خلافة النبوة ثلاثون سنة» يدل على أن زمان علي أيضاً خلافة نبوة وستة أشهر بعد موته أيضاً تمام الثلاثين.

(٣) أخرجه أبوداود في كتاب السنة باب في الخلفاء (٢٠٨/٤ - ح٤٦٣٦) وقوله: نيط: أي عُلِّق، والتنوط التعلق كما أفاده الخطابي انظر شرح عون المعبود (٣٨٩/١٢).

(٤) أخرجه أبوداود في كتاب السنة باب في الخلفاء (٢٠٨/٤ - ح٤٦٣٧) والعراقي هي أعواد تخالف بينها ثم تشد في عرى الدلو وتعلق بها الحبل واحدتها عرقوة. وقول: =

وعن سعيد بن جمهان، عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء»[1]. أو «الملك»[2].

واحتج من قال لم يستخلف، بالخبر المأثور، عن عبد الله بن عمر عن عمر رضيَ الله عنهما، أنه قال: «إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، يعني أبا بكر، وإن لا أستخلف، فلم يستخلف من هو خير مني،

= «حتى تضلع» أي شرب وافراً حتى روي فتمدد جنبه وضلوعه. وقوله: «فانتشطت»: أي اضطربت حتى ينتضح ماؤها. وانظر عون المعبود (١٢ / ٣٩٠)، والحديث ضعفه الألباني (ص٥٣٦) لوجود عبدالرحمن الجرمي فيه وهو مجهول. وأشار إلى ذلك أيضاً الأرناؤوط (٧٠٤).

(١) أخرجه أبوداود في كتاب السنة باب في الخلفاء (٤/ ٢١١ ـ ح٤٦٤٦، ٤٦٤٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن باب ما جاء في الخلافة (٤/ ٤٣٦ ـ ح٢٢٢٦) وقال: حسن ولا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جمهان. والحديث حسنه الألباني لغيره (ص٥٣٦)، وحسن إسناده الأرناؤوط (ص٧٠٤)، وفي آخر إحدى روايتي أبي داود، قال سعيد: قال لي سفينة: أمسك عليك أبابكر: سنتين، وعمر عشراً وعثمان اثنتي عشرة، وعلي كذا، قال سعيد: قلت لسفينة: إن هؤلاء يزعمون أن عليا عليه السلام لم يكن بخليفة، قال: كذبت أستاه بني الزرقاء، يعني بني مروان. اهـ. وذكر شيخ الإسلام أن بعض الناس ضعف هذا الحديث، لكن أحمد وغيره يثبتونه، منهاج السنة (٧/ ٥٠).

(٢) وهذا يدل على أن الخلفاء في فترة الثلاثين سنة، ولكن هل يجوز أن يطلق على من بعدهم خلفاء؟ الصحيح نعم يجوز تسمية الملوك بعد الراشدين بالخلفاء، وإن كانوا ملوكاً ولم يكونوا خلفاء الأنبياء، والحجة في ذلك حديث الصحيحيين عن أبي هريرة مرفوعاً: «كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فتكثر .....» الحديث فقوله: «تكثر» دليل على من سوى الراشدين، فإنهم لم يكونوا كثرة، وأيضاً ففي آخر الحديث: «فوا بيعة الأول فالأول»: ما يدل على أنهم يختلفون، والراشدون لم يختلفوا. انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٣، ٢٤).

يعني رسول الله ﷺ. ، قال عبد الله: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف[1].

وبما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف[2] ؟؟.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد أنه لم يستخلف بعهد مكتوب، ولو كتب عهدا لكتبه لأبي بكر، بل قد أراد كتابته ثم تركه، وقال: «يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر»[3].

فكان هذا أبلغ من مجرد العهد، فإن النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبي بكر، وأرشدهم إليه بأمور متعددة، من أقواله وأفعاله وأخبر بخلافته إخبار راضٍ بذلك، حامدٍ له، وعزم على أن يكتب بذلك عهداً، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه، فترك الكتاب اكتفاءً بذلك، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس، ثم لمّا حصل لبعضهم شك: هل ذلك القول من جهة المرض؟ أو هو قول يجب اتباعه؟ ترك الكتابة، اكتفاءً بما علم أن الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكر[4].

---

(1) أخرجه البخاري في الأحكام باب الاستخلاف (١٣/ ٢٠٥ ـ ح٧٢١٨)، ومسلم في كتاب الإمارة باب الاستخلاف وتركه (٣/ ١٤٥٤ ـ ح١٨٢٣) وزاد قال: (يعني ابن عمر): فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ وأبابكر فعلمت أنه لم يكن يعدل برسول الله ﷺ أحداً، وأنه غير مستخلف.

(2) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصديق (٤/ ١٨٥٦ ـ ح٢٣٨٥) ولفظه: «قالت: أبوبكر، فقيل لها: ثم من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبوعبيدة بن الجراح، ثم انتهت إلى هذا.

(3) تقدم تخريجه قريباً.

(4) أخرج الشيخان من حديث ابن عباس قال: «لما حضر النبي ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال النبي ﷺ: «هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع، وعندكم القرآن، فحسبكم كتاب الله، فاختلف أهل البيت،

فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه بيانا قاطعاً للعذر لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر متعين وفهموا ذلك ـ حصل المقصود.

واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده منهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبي ﷺ قال: «قوموا عني» قال عبيدالله: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية: ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم. أخرجه البخاري في الاعتصام باب كراهية الاختلاف (١٣/٣٣٦ ـ ح٧٣٦٦)، وأخرجه مسلم، في الوصية باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (٣/١٢٥٧ ـ ح١٦٣٧)، ونقل الحافظ في الفتح عن القرطبي قوله: «ودل أمره بالقيام على أن أمره الأول كان على الاختيار ولهذا عاش ﷺ بعد ذلك أياماً، ولم يعاود أمرهم بذلك، ولو كان واجباً لم يتركه لاختلافهم، لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يعزم بالأمر، فإذا عزم امتثلوا». قال الحافظ: (فائدة: قال الخطابي: إنما ذهب عمر إلى أنه لو نص بما يزيل الخلاف لبطلت فضيلة العلماء وعُدم الاجتهاد، وتعقبه ابن الجوزي بأنه لو نص على شيء أو أشياء لم يبطل الاجتهاد لأن الحوادث لايمكن حصرها، قال: وإنما خاف عمر أن يكون ما يكتبه في حالة غلبة المرض، فيجد بذلك المنافقون سبيلاً إلى الطعن في ذلك المكتوب.) اهـ. الفتح (١/٢٥٢). وقال النووي: «اتفق قول العلماء على أن قول عمر: (حسبنا كتاب الله) من قوة فقهه ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب أموراً ربما عجزوا عنها فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة، وأراد أن لا ينسد باب الاجتهاد على العلماء، وفي تركه ﷺ الإنكار على عمر إشارة إلى تصويب رأيه، وأشار بقوله: حسبنا كتاب الله إلى قوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) [الأنعام: ٣٨] ويحتمل أن يكون قصده التخفيف عن رسول الله ﷺ لما رأى ما هو فيه من شدة الكرب، وقامت عنده قرينة بأن الذي أراد كتابته ليس مما لا يستغنون عنه، إذ لو كان من هذا القبيل لم يتركه ﷺ لأجل اختلافهم. ولا يعارض قول ابن عباس: (إن الرزية... إلخ) لأن عمر كان أفقه منه قطعاً. اهـ. الفتح (٨/١٣٤).

ولهذا قال عمر رضي الله عنه، في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: أنت خيرنا وسيدنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ[1]، ولم ينكر ذلك منهم أحد، ولا قال أحد من الصحابة إن غير أبي بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منه، ولم ينازع أحد في خلافته إلا بعض الأنصار، طمعاً في أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ بطلانه.

ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر، إلا سعد بن عبادة، لكونه هو الذي كان يطلب الولاية[2].

ولم يقل أحد من الصحابة قط إن النبي ﷺ نص على غير أبي بكر، لا علي، ولا العباس، ولا غيرهما، كما قد قال أهل البدع!

وروى ابن بطة بإسناده: أن عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبير الحنظلي إلى الحسن، فقال: هل كان النبي ﷺ استخلف أبا بكر؟ فقال: أو في شك صاحبك؟ نعم، والله الذي لا إله إلا هو استخلفه، لهو كان أتقى لله من أن يتوثب عليها[3].

وفي الجملة: فجميع من نقل عنه أنه طلب تولية غير أبي بكر، لم يذكر حجة دينية شرعية، ولا ذكر أن غير أبي بكر أفضل منه، أو أحق بها، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط، وهم كانوا يعلمون فضل أبي بكر رضي الله عنه وحب رسول الله ﷺ له[4].

---

(١) هو جزء من رواية البخاري وستأتي بتمامها في كلام الشارح قريباً.

(٢) لم يبايع سعد أبابكر ولا عمر، ومات في خلافة عمر، وهو من السابقين الأولين، ومن النقباء، والله يغفر له. انظر منهاج السنة (٦/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) في إسناده محمد بن الزبير الحنظلي، قال الحافظ في التقريب (٢/ ١٦١) متروك. اهـ. وأشار الأرناؤوط إلى تضعيفه أيضاً (ص٧٠٧).

(٤) فضائل أبي بكر رضي الله عنه مختصة به لا يشاركه فيها أحد، وفضائل غيره أكثرها =

ففي «الصحيحين»، عن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته، فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»، قلت: ثم من؟ قال: «عمر، وعد رجالا»[1].

وفيهما أيضا، عن أبي الدرداء، قال: كنت جالسا عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر»، فسلم، وقال: يارسول الله،إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك، فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر، ثلاثا»، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى النبي ﷺ، فسلم عليه، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، مرتين فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ مرتين، فما أوذي بعدها»[2]. ومعنى: غامر: غاضب وخاصم[3].

= مشتركة، فمما اختص به أبوبكر، وهو في سياق حديث واحد بالصحيح: أن النبي ﷺ لو اتخذ خليلاً من أهل الأرض لاتخذه وأنه أمنُّ الناس عليه في صحبته وماله، وكل خوخة تسد إلا خوخته وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٤/ ٤١٤ ـ ٤٢٠)، وانظر في تفضيل أبي بكر أيضاً مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٩ ـ ٤١٣).

(١) تقدم تخريجه في مبحث النبوات.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذاً خليلاً (٧/ ٢٢ ـ ح٣٦٦١) ط. الريان، وأخرجه أيضاً في كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف (٨/ ٣٠٣ ـ ح٤٦٤٠)، وعزاه الشارح إلى صحيح مسلم وليس به في النسخ التي بين أيدينا والله أعلم.

(٣) هذا هو المشهور من التفسير، وقيل من الغِمر بالكسر وهو الحقد أي صنع أمراً اقتضى له أن يحقد على من صنعه معه ويحقد الآخر عليه وفي الرواية الأخرى بكتاب التفسير =

ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله.

وفي «الصحيحين» أيضا، عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ـ فذكرت الحديث ـ إلى أن قالت: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة، في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير، ومنكم أميرا فذهب إليهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم، فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت في نفسي كلاما، قد أعجبني، خشيت أن لا يبلغه أبو بكر! ثم تكلم أبو بكر، فتكلم أبلغُ[1] الناس، فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء. هم أوسط العرب، وأعزهم أحساباً، فبايعوا عُمر بن الخطاب، أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال: عمر: بل نبايعك، فأنت سيدنا، وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله، فأخذ عمر بيده، فبايعه، وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعداً، فقال عمر: قتله الله[2]. والسُّنْح: العالية، وهي حديقة من حدائق المدينة معروفة بها[3].

= جاء في آخرها قال أبوعبدالله (أي البخاري) غامر: أي سبق بالخير، واستغربه الحافظ في الفتح (٧/ ٢٩، ٣٠) ط. الريان.

(١) قال في الفتح (٧/ ٣٧): «بنصب أبلغ على الحال، ويجوز الرفع على الفاعلية أي تكلم رجل هذه صفته». اهـ.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٧/ ٢٤ ـ ح٣٦٦٨).

(٣) السُّنْح: بضم السين المهملة، وسكون النون، ويجوز ضمها وهي منازل بني الحارث من الخزرج بالعوالي، وبينه وبين المسجد النبوي ميل، كذا بالفتح (٧/ ٣٦).

٢ـ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال رحمه الله: (ص٥٣٩ـ٥٤٠)

قوله: ثُمَّ لِعُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أي ونثبت الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه، لعمر رضي الله عنه. وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، واتفاق الأمة بعده عليه. وفضائله رضي الله عنه (أشهر من أن تنكر، وأكثر من أن تذكر). فقد روي عن محمد بن الحنفية أنه قال: قلت لأبي: يا أبت، من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ قال: يابني، أو ما تعرف؟ فقلت: لا، قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول: ثم عثمان! فقلت: ثم أنت؟ فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين[١].

وتقدم قوله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»[٢]. وفي «صحيح مسلم»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: وضع عمر على سريره، فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه، قبل أن يُرفع، وأنا فيهم، فلم يَرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه، فإذا هو علي، فترحم على عمر، وقال: ما خلفتُ أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله، إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذلك أني كنت كثيرا ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، فإن

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٧/ ٢٤ ـ ح٣٦٧١)، وأبوداود في كتاب السنة باب في التفضيل (٤/ ٢٠٦ ـ ح٤٦٢٩).

(٢) تقدم تخريجه.

كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما[1].

وتقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في رؤيا رسول الله ﷺ، ونزعه من القليب، ثم نزع أبي بكر، ثم استحالت الدلو غربا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر، حتى ضرب الناس بعطن[2].

وفي «الصحيحين»، من حديث سعد بن أبي وقاص: قال: استأذن عمر ابن الخطاب على رسول الله ﷺ، وعنده نساء من قريش، يكلمنه، عالية أصواتهن ـ الحديث، وفيه ـ فقال رسول الله ﷺ: **«إيه يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده، مالقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك»**[3].

وفي «الصحيحين» أيضا، عن النبي ﷺ، أنه كان يقول: **«قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم»**. قال ابن وهب: تفسير «محدثون»: ملهمون[4].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة في باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٧/ ٢٦ـ ح٣٦٧٧)، وأخرجه في باب مناقب عمر (٧/ ٥١ ـ ح٣٦٨٥) ط. الريان، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٥٨ ـ ح٢٣٨٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في مواضع منها في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر (٧/ ٥١ ـ ح٣٦٨٣)، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٦٣ ـ ح٢٣٩٦).

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب عقب حديث الغار (٦/ ٥١٢ ـ ح٣٤٦٩)، وأخرجه في مناقب عمر (٧/ ٥٢ ـ ح٣٦٨٩)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عمر (٤/ ١٧٦٤ ـ ح٢٣٩٨).

٣ـ خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

قوله: ثُمَّ لعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أي وثبتت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما، وقد ساق البخاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه، وأمر الشورى والمبايعة لعثمان، في «الصحيحين»، فأحببت أن أسردها، كما رواها بسنده: عن عمرو بن ميمون، قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة، وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف، فقال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حملناها أمراً هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: لا[(١)]، فقال عمر: لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبدا، قال: فما أتت عليه رابعة حتى أصيب.

قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبدالله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف، أو النحل، أو نحو ذلك في الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر، فسمعته يقول: قتلني ، أو أكلني الكلب، حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينا وشمالا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا، مات منهم سبعة،

---

(١) المراد بذلك أرض السواد، وكان عمر بعثهما يضربان عليها الخراج، فضربا الخراج عليها فخشي عمر أن يكون كبيراً، فقال له حذيفة: لو شئت لأضعفت الأرض، أي جعلت خراجها ضعفين، وأجاب عثمان بن حنيف بما يدل على إطاقتها أيضاً. انظر في روايات ذلك فتح الباري (٧/ ٧٧).

فلما رأى ذلك رجل من المسلمين، طرح عليه بُرنسا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ، نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف، فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد، فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله، سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا، قال: يا ابن عباس انظر من قتلني؟ فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصَنَع[1]؟ قال: نعم، قال: قاتله الله! لقد أمرت به معروفا! الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقا، فقال: إن شئت فعلت؟ أي: إن شئت قتلنا؟ قال: كذبت! بعد ماتكلموا بلسانكم، وصلوا قبلتكم، وحجوا حجكم؟فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس عليه، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشربه، فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة[2]، قال: وددت أن ذلك كفاف، لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام، قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك،

---

(١) الصَنَع بفتحتين: الماهر الحاذق في الصناعة، وكان أبو لؤلؤة حداداً نقاشاً نجاراً، وكان المغيرة ضرب عليه الخراج كل يوم أربعة دراهم فشكا أبولؤلؤة إلى عمر شدة الخراج، فكان من نية عمر أن يأمر المغيرة أن يخفف عنه. انظر الفتح (٧/ ٧٨).

(٢) وفيه أن النهي عن المدح في الوجه مخصوص بما إذا كان غلو مفرط أو كذب ظاهر، ومن ثم لم ينه عمر الشاب عن مدحه له مع كونه أمره بتشمير إزاره. كذا بالفتح (٧/ ٨٦).

وأتقى لربك[1]، ياعبدالله بن عمر، انظر ما علي من الدين؟ فحسبوه، فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه، قال: إن وفى له مال آل عمر، فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم، فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، فأد عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أمير، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرن به اليوم على نفسي ، فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، قال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقال: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال، فولجت داخلاً لهم[2]، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوص

---

(١) رحم الله عمر رضي الله عنه، لم يترك المنكر الذي يراه وهو في هذه الحال دون أن ينكره بنفسه، وفي ذلك أبلغ رد على من قسم الدين إلى قشر ولباب، وظل يمنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما يراه قشراً - ومنه عنده الإسبال وحلق اللحية ونحو ذلك - دون ما يراه اللباب، زعم، وليس هذا ما أمرنا الله به، بل أمرنا بالدخول في السلم كافة، أي في جميع شرائع الإسلام، نعم قد يكون هناك أمور يقدمها الداعية على غيرها، فيقدم الوصاة بالتوحيد والأمر بالصلاة على غير ذلك مع من لا يعرف ذلك، لكن هذا باب، والأول باب آخر فتنبه.

(٢) أي مُدْخَلاً كان في الدار كما بالفتح (٧/٨٣)، وقوله: (تسير معها) كذا برواية =

يا أمير المؤمنين، استخلف؟ قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أي الرهط، الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى عليا، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعدا، وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبدالله بن عمر، وليس له من الأمر شيء، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرا، الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم، أن يقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيرا، فإنهم ردء الإسلام، وجباة الأموال، وغيظ العدو، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم، عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيرا، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يأخذ من حواشي أموالهم، وأن يُرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله، أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل مِن ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم، فلما قبض خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلم عبدالله بن عمر، قال: يستأذن عمر ابن الخطاب؟ قالت: أدخلوه، فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت امرى إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه؟ والله عليه والإسلام؟ لينظرن أفضلهم في نفسه، فَأُسكِت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي؟ والله علي أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم،

= البخاري وفي المطبوعة (يسترنها) وفي طبعة مؤسسة الرسالة (تسرب معها) أي تمضي.

فأخذ بيد أحدهما، فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ، والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك، لئن أمرتك لتعدلن؟ ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن؟ ثم خلا بالآخر، فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق، قال: ارفع يدك ياعثمان، فبايعه، فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه[1].

وعن حميد بن عبدالرحمن: أن المسور بن مخرمة أخبره: أن الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا، قال لهم عبد الرحمن: لست بالذي أنافسكم عن هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلما ولوا عبدالرحمن أمرهم، فمال الناس على عبدالرحمن، حتى ما أرى أحدا من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه، ومال الناس على عبدالرحمن يشاورونه تلك الليالي، حتى إذا كانت تلك الليلة التي أصبحنا فيها فبايعنا عثمان، قال المسور بن مخرمة: طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل[2]، فضرب الباب حتى استيقظت، فقال: أراك نائما؟ فوالله ما اكتحلت هذه الثلاثة بكبير نوم، انطلق فادع لي الزبير وسعداً، فدعوتهما له، فشاورهما ثم دعاني، فقال: ادع لي علياً، فدعوته، فناجاه حتى ابهار الليل، ثم قام عليّ من عنده وهو على طمع، وقد كان عبدالرحمن يخشى من علي شيئاً، ثم قال: ادع لي عثمان، فدعوته، فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح، فلما صلى الناس الصبح، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين، والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد، وكانوا وافوا تلك

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان (٧/ ٧٤ ـ ح ٣٧٠٠).

(٢) الهجع: طائفة، أي بعد طائفة من الليل، وقوله بعدها (ابهارّ الليل) أي: انتصف، وبهرة كل شيء وسطه، وقيل معظمه، انظر الفتح (١٣/ ١٩٦).

الحجة مع عمر، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن، ثم قال: أما بعد، ياعلي، إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلاً[1]، فقال لعثمان: أبايعك على سنة الله ورسوله ﷺ والخليفتين من بعده، فبايعه عبدالرحمن، وبايعه الناس[2] والمهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون[3].

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة: كونه ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه[4].

وفي «صحيح مسلم»، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعا

---

(١) قوله: (فلا تجعلن على نفسك سبيلاً)، متعلق بقوله: (وقد كان عبدالرحمن يخشى من علي شيئاً) والمراد أنه يخشى أن لا يطاوعه، فنهاه عن الفرقة إذا لم يوافق الجماعة فيُلام على ذلك وانظر الفتح (١٣/ ١٩٧).

(٢) قال الإمام أحمد: لم يجتمعوا على بيعة أحد ما اجتمعوا على بيعة عثمان، وسئل عن خلافة النبوة، فقال: كل بيعة كانت بالمدينة، قال شيخ الإسلام وهو كما قال فإنهم كانوا في آخر ولاية عمر أعز ما كانوا وأظهر ما كانوا قبل ذلك انظر منهاج السنة (٦/ ١٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام باب كيف يبايع الإمام الناس (١٣/ ١٩٣ ـ ح٧٢٠٧) قال في الفتح في فوائد هذا الحديث: (١٣/ ١٩٩): «وفيه أن الشركاء في الشيء إذا وقع بينهم التنازع في أمر من الأمور يسندون أمرهم إلى واحد ليختار لهم بعد أن يخرج نفسه من ذلك الأمر. وفيه أن من أسند إليه ذلك يبذل وسعه في الاختيار، ويهجر أهله وليله اهتماماً بما هو فيه حتى يكمله... ثم نقل عن ابن المنير فوائد ومنها: أن إحداث قول زائد على ما أجمع عليه لا يجوز، وهو كإحداث سابع في أهل الشورى.

(٤) رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما ماتتا في حياة النبي ﷺ فقال: «لو كان أخرى لزوجناها لعثمان» وفي معنى ذلك أحاديث لا يخلو واحد منها من مقال، وانظر البداية والنهاية (٧/ ٢١٠)، مجمع الزوائد (٩/ ٨٣).

في بيته، كاشفا عن فخذية أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهش ولم تباله ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ قال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»(١).

وفي «الصحيح»: لما كان يوم بيعة الرضوان، وأن عثمان رضي الله عنه كان قد بعثه النبي ﷺ إلى مكة، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان، فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان**»(٢).

٤ـ خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قوله: ثُمَّ لِعَلي بن أبي طَالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أي: ونثبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما. لما قتل عثمان وبايع الناس عليا صار إماما حقا واجب الطاعة، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة، كما دل عليه حديث سفينة المقدم ذكره، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب فضل عثمان بن عفان (٤/ ١٨٦٦ ـ ح٢٤٠٢) بنحوه، وقوله: (هش له) من الهشاشة وهي طلاقة الوجه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب عثمان بن عفان (٧/ ٦٦ ـ ح٣٦٩٨)، وفي كتاب المغازي باب قول الله تعالىٰ: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) [آل عمران: ١٥٥] (٧/ ٤٢١ ـ ح٤٠٦٦).

(٣) تقدم تخريجه.

وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفا، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر وخلافة الحسن ابنه ستة أشهر.

وأول ملوك المسلمين معاوية[1] رضي الله عنه، وهو خير ملوك المسلمين[2]، لكنه إنما صار إماماً حقا لما فوض إليه الحسن بن علي رضي الله عنهم الخلافة، فإن الحسن رضي الله عنه بايعه أهل العراق بعد موت أبيه، ثم بعد ستة أشهر فوض الأمر إلى معاوية، فظهر صدق قول النبي ﷺ: **«إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**[3]، والقصة معروفة في موضعها[4].

---

(١) شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا للحاجة أو بما يُيسر فعل المقصود بالولاية ولا يعسره، وقد يكون الأمر باجتهاد، ولقد كان نبي الله داود ملكاً. انظر مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٤، ٢٧).

(٢) قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٦/ ٢٣٢، ٢٣٣): «فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خير من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيراً منهم في زمن معاوية، إذا نُسبت أيامه إلى أيام من بعده، وأما إذا نُسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل... ثم ذكر شيخ الإسلام أحاديث عن السلف في ذلك منها حديث الأعمش عن مجاهد قال: لو أدركتم معاوية لقلتم هذا المهدي، وعن أبي هريرة المكتب قال: كنا عند الأعمش، فذكروا عمر بن عبدالعزيز وعدله فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: في حلمه، قال: لا والله في عدله.

(٣) أخرجه البخاري في مواضع منها في كتاب الصلح باب قول النبي ﷺ للحسن: «ابني هذا سيد» (٥/ ٣٦١ ـ ح٢٧٠٤)، وأخرجه في كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٦/ ٦٢٨ ـ ح٣٦٢٩)، وأخرجه في الفتن باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي: «إن ابني هذا لسيد» (١٣/ ٦١ ـ ح٧١٠٩).

(٤) وهذا يدل على أن ما فعله الحسن رضي الله عنه من ترك القتال هو محبوب إلى الله ورسوله، فلو كان ما فعله علي والحسين رضي الله عنهما محبوباً، لكان الحسن إما =

حجج المتقاتلين في الفتنة والقاعدين عنها:

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه، بمبايعة الصحابة، سوى معاوية مع أهل الشام. والحق مع علي رضي الله عنه، فإن عثمان رضي الله عنه لما قتل كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض، ممن بعدت داره من أهل الشام، ويحمي الله عثمان، أن يظن بالأكابر ظنون سوء ويبلغه عنهم أخبار، منها ما هو كذب، ومنها ماهو محرف، ومنها مالم يعرف وجهه.

وانضم إلى ذلك أهواء قوم يحبون العلو في الأرض. وكان في عسكر علي رضي الله عنه ـ من أولئك الطغاة الخوارج، الذين قتلوا عثمان ـ من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم، ويقمع أهل الفساد والعدوان، وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه. فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبير وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين، ثم جرت فتنة صفين(١) لرأي(٢)، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم، أو لا يتمكن من

= فاعلاً لغير المحبوب، أو يكون عاجزاً، وإذا ثبت أن مافعله الحسن أحب إلى الله ورسوله ولم يكن عاجزاً، ثبت أن القتال في الفتنة تركه أولىٰ. انظر في ذلك منهاج السنة (٤/ ٤٠، ٤١)، (٨/ ١٤٦).

(١) انظر فيما شجر بين الصحابة (علي ومعاوية وعائشة وطلحة والزبير): مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣١ ـ ٤٦٥).

(٢) أي لرأي رآه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر منهاج السنة (٨/ ٥٢٦).

العدل عليهم ـ وهم كافون، حتى يجتمع أمر الأمة، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر، كما طغوا على الشهيد المظلوم، وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته، ويجب أن يكون الناس مجتمعين عليه، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم، بطلب الواجب عليهم، بما اعتقد أنه يحصل به أداء الواجب، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي ﷺ والخليفتين من بعده مما يسوغ، فحمله ما رآه ـ من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة، دون تأليفهم على القتال[(١)]، وقعد عن القتال أكثر الأكابر، لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة، ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها[(٢)]. ونقول في الجميع

---

(١) وهذا الاجتهاد من علي رضي الله عنه تبين له بعد ذلك أن غيره أولىٰ منه، فتبين له آخر الأمر أن المصلحة في ترك القتال أعظم منها في فعله. انظر منهاج السنة (٤/ ٥٣١)، ومعاوية رضي الله عنه كان رأيه أنه ولي الدم، وأن عدم الانتصار للشهيد المظلوم حرام، وأن له سلطاناً من الله بولاية الدم حتى يأخذه، وأنه ولاه خليفتان عمر وعثمان وهو باق على ولايته حتى يجتمع الناس على الإمام. وانظر منهاج السنة (١/ ٤٦٦، ٥٣٨ ـ ٥٣٩)، (٦/ ٣٣٤). ويقول شيخ الإسلام وذكر حديث أبي سعيد في الخوارج يرفعه: «تمرق مارقة على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق، وفي لفظ (فتقتلهم أدناهم إلى الحق). قال: فهذا الحديث الصحيح دليل على أن كلا الطائفتين المقتتلتين، علي وأصحابه، ومعاوية وأصحابه على حق، وأن عليا وأصحابه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه. انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٤٦٧).

(٢) وهذا هو حد قتال الفتنة، أما القتال المشروع بين المسلمين فهو: قتال الخوارج وقتال المرتدين والممتنعين عن إقامة شريعة الله، وقتال أهل الحرابة والفساد وقتال البغاة بعد محاولة الإصلاح. فإذا ثبت أن القتال ليس من الأنواع المشروعة، فهو قتال فتنة، والقتال الذي كان بين علي ومعاوية ليس من الأنواع المذكورة، وإنما اشتبه على بعض الناس أنه من جنس قتال البغاة لحديث: «ويح ابن سمية تقتلك الفئة الباغية»، وهذا =

بالحسنى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]. والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا، فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا، بمنه وكرمه[(١)].

ومن فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما في «الصحيحين»، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»[(٢)].

يحمل على الطائفة التي اجتمعت عليه فقتلته، وعلى من رضي بقتله من المعسكرين وإلا فقد ذكر أن قاتل عمار هو: أبوالغادية من أصحاب بيعة الرضوان. ثم لو كانوا بغاة لكان قتالهم مشروعاً محبوباً بعد الإصلاح وقد تقدم عن عائشة أنه لم يكن إصلاح بين المتقاتلين.

فلذا لم يكن القتال من جهة البغي، كيف وقد مدح النبي ﷺ الحسن بالسيادة لترك القتال، وقتال البغاة مشروع لا يمدح أحد بتركه إلا إذا عجز والنبي ﷺ جعل الحسن في الصلح سيداً محموداً ولم يجعله عاجزاً معذوراً. انظر في ذلك منهاج السنة (٤١/٤)، (٢٠٥/٦)، ومجموع الفتاوى (٣٥/٥٤ ـ ٥٧، ٧٤). وممن قعد عن القتال في الفتنة سعد بن أبي وقاص، وابن عمر وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وقد دعا له النبي ﷺ أن لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض وأمثالهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان مع أنهم معظمون لعلي يحبونه ويوالونه ويقدمونه على من سواه، ولا يرون أن أحداً أحق بالإمامة منه في زمانه، ولكن لم يوافقوه على رأيه في القتال. انظر منهاج السنة (٣٣٣/٦).

(١) ومن خير ما يقال في الفتنة ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «إن الفتنة إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت بينت»، وقال: «المستشار مؤتمن، سمعت من النبي ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الراكب» وقد جعلنا الله إخواناً وحرم علينا دماءنا وأموالنا». البداية والنهاية (٤٧/٧).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه =

وقال ﷺ يوم خيبر: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»، قال: فتطاولنا لها، فقال: «**ادعوا لي عليا**» فأتي به أرمد، فبصق في عينيه، ودفع الراية إليه. ففتح الله عليه[1].

ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] - دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسنا وحسينا، فقال: «**اللهم هؤلاء أهلي**»[2].

الخلفاء الراشدون أئمة مهديون.

قال الشارح: (ص٥٤٨)

قوله: وهُمُ الخُلَفاءُ الراشِدُونَ، والأئمَّةُ المَهْدِيُّون.

تقدم الحديث الثابت في «السنن»، وصححه الترمذي، عن العِرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يارسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد الينا؟ فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»[3].

= (٧/ ٨٨ - ح٣٧٠٦)، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب (٤/ ١٨٧٠ - ح٢٤٠٤).

(١) أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد في فضائل الصحابة باب مناقب علي ابن أبي طالب (٧/ ٨٧ - ح٣٧٠١)، وكذا أخرجه مسلم من حديثه في الموضع السابق (٤/ ١٨٧٢ - ح٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص في الموضع السابق (٤/ ١٨٧٠ -ح٢٤٠٤) وتقدم.

(٣) تقدم تخريجه.

وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين في الفضل، كترتيبهم في الخلافة.

ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من المزية: أن النبي ﷺ أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين، ولم يأمرنا في الاقتداء في الأفعال إلا بأبي بكر وعمر، فقال: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»[١]، وفرقٌ بين اتباع سنتهم والاقتداء بهم[٢]، فحال أبي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين[٣].

وقد روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على علي. وعلى هذا عامة أهل السنة[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ووجه ذلك أن السنة ما سنوه للناس وأما القدوة: فيدخل فيه الاقتداء بالشيخين فيما فعلاه مما لم يجعلاه سنة، أو أن السنة المأمور باتباعها ما أضافها إلى الخلفاء بمجموعهم لا إلى كل منهم، فقد يقال: ذلك فيما اتفقوا عليه دون ما انفرد به بعضهم، وأما القدوة، فعيّن القدوة بهذا وبهذا. وانظر مجموع الفتاوى (٢٣/٣٥) وقال عن الوجه الأخير (وفي هذا نظر).

(٣) انظر في المفاضلة بين الأربعة مجموع الفتاوى (٤/٤٢١ ـ ٤٣٠). يقول شيخ الإسلام (مجموع الفتاوى ٣٥/٢٣): «ويستفاد من هذا أن ما فعله عثمان وعلي من الاجتهاد الذي سبقهما بما هو أفضل منه أبوبكر وعمر، ودلت النصوص وموافقة جمهور الأمة على رجحانه، وكان سببه افتراق الأمة: لا يؤمر بالاقتداء بهما فيه، إذ ليس ذلك من سنة الخلفاء، وذلك أن أبابكر عمر ساسا الأمة بالرغبة والرهبة وسلما من التأويل في الدماء والأموال، وعثمان رضي الله عنه غلب عليه الرغبة وتأول في الأموال، وعلي غلّب عليه الرهبة، وتأول في الدماء، . وأبوبكر وعمر كمل زهدهما في المال والرياسة، وعثمان كمل زهده في الرياسة، وعلي كمل زهده في المال. اهـ. رضي الله عنهم جميعا.

(٤) قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٦/٣٥٦، ٣٥٧): «ونحن لا نكر أن عثمان رضي =

وقد تقدم قول عبد الرحمن بن عوف لعلي رضي الله عنهما: إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان[1].

وقال أيوب السختياني من لم يقدِّم عثمان على علي فقد أزرى

= الله عنه كان يحب بني أمية، وكان يواليهم ويعطيهم أموالاً كثيرة، وما فعله من مسائل الاجتهاد التي تكلم فيها العلماء، الذين ليس لهم غرض، كما أننا لا ننكر أن علياً ولي أقاربه، وقاتل خلقاً كثيراً من المسلمين الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة ويصومون ويصلون، لكن من هؤلاء من قاتله بالنص والإجماع، ومنهم من كان قتاله من مسائل الاجتهاد التي تكلم فيها العلماء الذين لا غرض لهم. وأمر الدماء أخطر من أمر الأموال، والشر الذي حصل في الدماء بين الأمة أضعاف الشر الذي حصل بإعطاء الأموال. فإذا كنا نتولّى علياً ونحبه، ونذكر ما دلّ عليه الكتاب والسنة من فضائله مع أن الذي جرى في خلافته أقرب إلى الملام مماجرى في خلافة عثمان، وجرى في خلافة عثمان من الخير ما لم يجر مثله في خلافته، فلأن نتولى عثمان ونحبه ونذكر ما دلّ عليه الكتاب والسنة بطريق أولىٰ. وقد ذكرنا أن ما فعله عثمان في المال فله ثلاثة مآخذ:

أحدهما: أنه عامل عليه، والعامل يستحق مع الغنى.

الثاني: أن ذوي القربى هم ذوو قربى الإمام.

الثالث: أنهم كانوا قبيلة كثيرة، ليسوا مثل قبيلة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فكان يحتاج إلى إعطائهم وولايتهم، أكثر من حاجة أبي بكر وعمر إلى تولية أقاربهما وإعطائهما، وهذا مما نقل عن عثمان الاحتجاج به. وقد قدمنا أنا لا ندعي عصمة في أحد بعد رسول الله ﷺ من الذنب فضلاً عن الخطأ في الاجتهاد. وقد قال سبحانه وتعالىٰ: (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون. لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين. ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) [الزمر: ٣٣ـ ٣٥]. وقال تعالىٰ: (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة. وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) [الأحقاف: ١٦].

(١) تقدم تخريجه.

بالمهاجرين والأنصار.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر، قال: كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: أفضل أمة النبي ﷺ بعده - أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان[1].

(1) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب عثمان بن عفان (٧/ ٦٦ - ح٣٦٩٧)، وأبوداود في كتاب السنة باب في التفضيل (٤/ ٢٠٦ - ح٤٦٢٧)، والترمذي في كتاب المناقب باب في مناقب عثمان وقال حسن صحيح غريب (٥/ ٥٨٨ - ح٣٧٠٧)، وليس الحديث في مسلم كما نص على ذلك الألباني (ص٥٤٨)، والأرناؤوط (ص٧٢٨).

ثالثاً: فضل العشرة رضي الله عنهم

قال رحمه الله: (ص٥٤٩_٥٥٣)

قوله: وأنَّ العَشَرَةَ الذِينَ سَمَّاهُم رَسُولُ ﷺ وبَشَّرهُم بالجنَّةِ، نَشْهَدُ لَهُم بالجَنَّةِ، عَلى مَا شَهِدَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ، وقَوْلُهُ الحَق، وهُمْ: أبو بَكْرٍ، وعُمَر، وعُثْمَان، وعليٌّ، وطَلْحَةُ، والزُّبَيرُ، وسَعْدٌ، وسَعِيد، وعَبْدُ الرحْمٰن بنُ عَوْفٍ، وأبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وهُوَ أَمينُ هذِهِ الأُمَّةِ، رَضِيَ اللهُ عَنهُم أجْمَعِينَ.

تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة.

ومن فضائل الستة الباقين من العشرة رضي الله عنهم أجمعين: ما رواه مسلم: عن عائشة رضي الله عنها: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت رجلا صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة، قالت: وسمعنا صوت السلاح، فقال النبي ﷺ: «من هذا»؟ فقال سعد ابن أبي وقاص: يا رسول الله، جئت أحرسك ـ وفي لفظ آخر: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام[(١)].

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يوم أحد، فقال: ارم، فداك أبي وأمي[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة في الجهاد باب الحراسة في الغزو (٦/ ٨١ ـ ح٢٨٨٥)، وأخرجه في التمني باب قوله ﷺ ليت كذا وكذا (١٣/ ٢١٩ ـ ح٧٢٣١)، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب في فضل سعد بن أبي وقاص (٤/ ١٨٧٥ ـ ح٢٤١٠)، وقد يقال عزو الحديث إلى مسلم فقط فيه شيء من القصور لأن البخاري أخرجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب المحن ومن يترس بترس صاحبه (٦/ ٩٣ ـ =

وفي «صحيح مسلم»، عن قيس بن أبي حازم، قال: رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ يوم أحد قد شلَّت[1].

وفيه أيضا عن أبي عثمان النهدي، قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيها النبي ﷺ غير طلحة وسعد[2].

وفي «الصحيحين» واللفظ لمسلم، عن جابر بن عبد الله قال: ندب رسول الله ﷺ وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير، ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير»[3].

= ح٢٩٠٥)، وأخرجه في المغازي باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) (٧/ ٤١٥ ـ ح٤٠٥٨، ٤٠٥٩)، ومسلم في فضائل الصحابة باب في فضل سعد بن أبي وقاص (٤/ ١٨٧٥ ـ ح٢٤١١).

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ذكر طلحة بن عبيدالله (٧/ ١٠٣ ـ ح٣٧٢٤)، وأخرجه في المغازي باب (إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا (٧/ ٤١٦ ـ ح٤٠٦٣) والحديث ليس في نسخ مسلم التي بين أيدينا وجزم الألباني (ص٥٤٩)، والأرناؤوط (ص٧٢٩) أنه ليس بمسلم فالله أعلم. قال في الفتح (٧/ ١٠٤): «قوله قد شلت: بفتح المعجمة ويجوز ضمها في لغة ذكرها اللحياني، وقال ابن درستويه: هي خطأ. والشلل نقص في الكف وبطلان لعملها، وليس معناه القطع كما زعم بعضهم. اهـ.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ذكر طلحة بن عبيدالله (٧/ ١٠٣ ـ ح٣٧٢٢، ٣٧٢٣)، وأخرجه في المغازي باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) (٧/ ٤١٦ ـ ح٤٠٦٠)، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير (٤/ ١٨٧٩ ـ ح٢٤١٤).

(٣) أخرجه البخاري في مواضع منها كتاب الجهاد باب فضل الطليعة (٦/ ٥٢ ـ ح٢٨٤٦)، وفي فضائل الصحابة باب مناقب الزبير بن العوام (٧/ ٩٩ ـ ح٣٧١٩)، وأخرجه في المغازي باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٧/ ٤٦٩ ـ ح٤١١٣)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير (٤/ ١٨٧٩ ـ ح٢٤١٥)، قال في =

وفيهما أيضا عن الزبير رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم»؟ فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه، فقال: «فداك أبي أمي»[(1)].

وفي «صحيح مسلم»، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة أمينا، وإن أميننا أيتها الأمة: أبو عبيدة بن الجراح»[(2)].

وفي «الصحيحين» عن حذيفة بن اليمان، قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ، قالوا: يارسول الله، ابعث إلينا رجلا أمينا، فقال: «لأبعثن إليكم رجلا أميناً حق أمين» قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح[(3)].

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعته يقول: «عشرة في الجنة: النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة وطلحة في الجنة

= الفتح (٧/ ١٠١): «قوله: «وإن حواري الزبير» بتشديد الياء وفتحها كقوله: (ماأنتم بمصرخيّ) [إبراهيم: ٢٢] ويجوز كسرها. اهـ.

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب الزبير (٧/ ٩٩ ـ ح٣٧٢٠)، ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل طلحة والزبير (٤/ ١٨٧٩ ـ ح٢٤١٦).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب أبي عبيدة (٧/ ١١٦ ـ ح٣٧٤٤)، وأخرجه في المغازي باب قصة أهل نجران (٧/ ٦٩٦ ـ ح٤٣٨٢)، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي عبيدة (٤/ ١٨٨١ ـ ح٢٤١٩).

(٣) أخرجه البخاري في مواضع منها في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب أبي عبيدة (٧/ ١١٦ ـ ح٣٧٤٥)، وفي المغازي باب قصة أهل نجران (٧/ ٦٩٥، ٦٩٦ ـ ح٤٣٨٠، ٤٣٨١)، وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح (٤/ ١٨٨٢ ـ ح٢٤٢٠).

والزبير في الجنة وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة»، ولو شئت لسميت العاشر، قال: فقالوا: من هو؟ قال: سعيد بن زيد، وقال: لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ، يغبر منه وجهه، خير من عمل أحدكم، ولو عُمِّرَ عُمرَ نوح» رواه أبو دواد، وابن ماجه، والترمذي وصححه. ورواه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف(١).

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **«أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»**. رواه الإمام أحمد في «مسنده»(٢). ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة، وقدم فيه عثمان على علي، رضي الله عنهما.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ على حراء، هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: **«اهدأ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»** رواه مسلم والترمذي وغيرهما، ورُوي من طرق(٣).

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة باب في الخلفاء (٤/ ٢١١، ٢١٢ ـ ح٤٦٤٩، ٤٦٥٠)، والترمذي عن سعيد بن زيد في المناقب باب مناقب عبدالرحمن (٥/ ٦٠٥ ـ ح٣٧٤٨)، ورواه عن عبدالرحمن بن عوف في الباب نفسه إلا أنه قال عن حديث سعيد بن زيد: إنه أصح، وابن ماجه في المقدمة باب فضائل الصحابة (فضائل العشرة) (١/ ٤٨ ـ ح١٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الباب السابق (٥/ ٦٠٥ ـ ح٣٧٤٧)، وأقر به الإمام أحمد (١/ ١٩٣).

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب فضل طلحة والزبير (٤/ ١٨٨٠ ـ ح٢٤١٧)، والترمذي في كتاب المناقب في مناقب عثمان بن عفان (٥/ ٥٨٢ ـ ح٣٦٩٦) وقال: صحيح، والإمام أحمد (٢/ ٤١٩).

وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم، لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم. ومن أجهل ممن يكره التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون عشرة!! لكونهم يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة، وهم يستثنون منهم عليا رضي الله عنه! فمن العجب: أنهم يوالون لفظ التسعة! وهم يبغضون التسعة من العشرة! ويبغضون سائر المهاجرين والأنصار، من السابقين الأولين، الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، وكانو ألفا وأربعمائة[١]، وقد رضي الله عنهم. كما قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]. وثبت في صحيح مسلم، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[٢].

وفي صحيح مسلم أيضاً، عن جابر: أن غلام خاطب بن أبي بلتعة قال يارسول الله: ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ : «كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدراً والحديبية»[٣].

---

(١) ثبت ذلك في صحيح البخاري من رواية جابر أنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض وكنا ألفاً وأربعمائة. وأخرجه في المغازي باب غزوة الحديبية (٧/٥٠٧ ـ ح٤١٥٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب استحباب مبايعة الإمام الجيش (٣/١٤٨٣ ـ ح١٨٥٦)، وعن جابر أيضاً خمس عشرة مائة وعن عبدالله بن أبي أوفى ألفا وثلاثمائة وذلك فيما أخرجه البخاري في الباب نفسه، وقد جمع بين هذه الروايات الحافظ في الفتح بأنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة فمن قال: ألفاً وخمسمائة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربعمائة ألغاه، ومن قال ألفا وثلاثمائة وقت الخروج قبل أن يتلاحق بهم الناس، أو بغير الخدم والنساء... ونحو ذلك انظر فتح الباري (٧/٥٠٤،٥٠٥) ط.الريان.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أهل بدر (٤/١٩٤٢ ـ ح٢٤٩٥).

والرافضة يتبرؤون من جمهور هؤلاء، بل يتبرؤون من سائر أصحاب رسول الله ﷺ، إلا من نفر قليل، نحو بضعة عشر نفراً[1] !!

ومعلوم أنه لو فرض في العالم عشرة من أكفر الناس، لم يجب هجر هذا الاسم لذلك، كما أنه سبحانه لما قال: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨﴾ [النمل: ٤٨] - لم يجب هجر اسم التسعة مطلقاً. بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع من القرآن: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]. ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١-٢]. وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان[2]، وقال في ليلة القدر: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان**»[3]. وقال: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من أيام العشر**»[4]. يعني عشر ذي الحجة والرافضة توالي بدل العشرة المبشرين بالجنة، اثني عشر إماماً، وهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويدعون أنه وصي النبي ﷺ، دعوى مجردة عن الدليل، ثم الحسن رضي الله عنه، ثم الحسين رضي الله عنه، ثم علي بن الحسين زين

---

(١) من هنا وما بعده منقول من خطبة منهاج السنة (١/٣٨ - ٤١).

(٢) أخرج ذلك البخاري عن ابن عمر في كتاب الاعتكاف في العشر الأواخر (٤/٢٧١ - ح٢٠٢٥)، ومسلم في كتاب الاعتكاف باب اعتكاف العشر الأواخر (٢/٨٣٠ - ح١١٧١).

(٣) أخرجه البخاري من حديث عائشة في كتاب فضل ليلة القدر (٤/٢٥٩ - ح٢٠١٧)، ومسلم من حديثهما في كتاب الصيام باب استحباب صوم ستة أيام من شوال (٢/٨٢٨ - ح١١٦٩).

(٤) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس في العيدين باب فضل العمل في أيام التشريق (٢/٤٥٧ - ح٩٦٩)، والترمذي في الصوم باب ما جاء في العمل في أيام العشر (٣/١٣٠ - ح٧٥٧) وقال: حسن صحيح غريب.

العابدين[1]، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضي، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن[2]، ويتغالون في محبتهم، ويتجاوزون الحد!!

ولم يأت ذكر الأئمة الاثني عشر، إلا على صفة ترد قولهم وتبطله، وهو ما خرجاه في «الصحيحين»، عن جابر بن سمرة، قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ، فسمعته يقول: «**لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلاً**»، ثم تكلم النبي ﷺ؟ بكلمة خفيت علي، فسألت أبي: ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: «**كلهم من قريش**».

وفي لفظ «**لايزال الإسلام عزيزاً إلى اثنى عشر خليفة**» وفي لفظ: «**لا يزال هذا الأمر عزيزا إلى اثنى عشر خليفة**»[3].

---

(1) انظر كلام شيخ الإسلام على هؤلاء الأئمة بعد الحسين رضي الله عنه في منهاج السنة (٤/٦ ـ ١٢٨) وهؤلاء الأئمة ليس فيهم من نقل عنه العلم إلا المتقدمون منهم ، علي بن الحسن زين العابدين وابنه جعفر الباقر وابنه جعفر بن محمد، فقد نقل عنهم من العلم قطعة معروفة نقل عن غيرهم أكثر بكثير كثير، وأما من بعدهم فالعلم المأخوذ عنهم قليل جداً، ولا ذكر لأحد منهم في رجال أهل العلم المشاهير بالرواية والحديث والفتيا ولا غيرهم من المشاهير بالعلم، وما يذكر لهم من المناقب والمحاسن فمثله يوجد لغيرهم من الأئمة. انظر منهاج السنة (٤/١٠٨).

(2) هذا الثاني عشر ليس له وجود فإن ابن جرير الطبري وعبدالباقي بن قانع وغيرهما ممن له اختصاص بالأنساب والتواريخ ذكروا أن الحسن بن علي العسكري لم يكن له نسل ولا عقب وأن نقيب الطالبيين حبس جواري الحسن ليتأكد من عدم حملهن، ثم هذا سواء قُدر وجوده أو عدمه فلم يُنتفع به لا في دين ولا دنيا، فلم يحصل به شيء من مقاصد الإمامة مما يدل على كذب الإمامية. انظر منهاج السنة (٤/ ٨٧ ـ ٩٤).

(3) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام باب بعد باب الاستخلاف (١٣/ ٢١١ ـ ح٧٢٢٢، ٧٢٢٣)، وأخرجه مسلم في الإمارة باب الناس تبع لقريش (٣/ ١٤٥٢ ـ ح١٨٢١).

وكان الأمر كما قال النبي ﷺ والاثنا عشر: الخلفاء الراشدون الأربعة، ومعاوية، وابنه يزيد، وعبد الملك بن مروان، وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، ثم أخذ الأمر في الانحلال.

وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل في أيام هؤلاء فاسداً منغّصاً، يتولى عليهم الظالمون المعتدون، بل المنافقون الكافرون، وأهل الحق أذل من اليهود!! وقولهم ظاهر البطلان، بل لم يزل الاسلام عزيزاً في ازدياد في أيام هؤلاء الاثني عشر.

من المسائل المتعلقة بالنبوات مسألة طاعة (ولي الأمر)، وأولو الأمر هم العلماء والأمراء على الصحيح من أقوال أهل العلم، فالإمام هو خليفة يطبق شرع النبي ﷺ والعالم يجتهد ليكشف عن حكم الله ورسوله في المسائل المختلفة، ومن هنا كان ارتباط هذه المسألة بمبحث النبوات.

قال الشارح رحمه الله: (ص٤٣٧)

قوله: والحَجُّ والجِهَادُ مَاضِيانِ مَعَ أُولِي الأَمْرِ مِنَ المُسْلِمِينَ بَرِّهِم وفَاجِرِهِم، إلى قِيَامِ السَّاعَةِ، لا يُبْطِلُهُما شَيءٌ ولا يَنْقُضُهُمَا.

يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الرافضة، حيث قالوا لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضى من آل محمد، وينادي مناد من السماء: اتبعوه!! وبطلان هذا القول أظهر من أن يُستدل عليه بدليل وهم شرطوا في الإمام أن يكون معصوماً، اشتراطا من غير دليل! بل في «صحيح مسلم» عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**»، قال: قلت: يارسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا مَن ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعته**»[1]. وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث في الإمامة ولم يقل: إن الإمام يجب أن يكون معصوماً.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم (٣/ ١٤٨١ ـ ح١٨٥٥)، وأحمد (٦/ ٢٤، ٢٨).

والرافضة أخسر الناس صفقة في هذه المسألة، لأنهم جعلوا الإمام المعصوم هو الإمام المعدومَ، الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا!! فإنهم يدعون أنه الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكري، الذي دخل السرداب في زعمهم، سنة ستين ومائتين أو قريبا من ذلك بسامراء! وقد يقيمون هناك دابة، إما بغلة وإما فرسا ليركبها إذا خرج! ويقيمون هناك في أوقات عينوا فيها من ينادي عليه بالخروج يامولانا، اخرج! يا مولانا، اخرج ويُشهرون السلاح، ولا أحد هناك يقاتلهم! إلى غير ذلك من الأمور التي يضحك عليهم العقلاء[1]!!

وقوله مع أولي الأمر برّهم وفاجرهم - لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر، فلا بد من سائس يسوس الناس فيهما، ويقاوم العدو وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البَرّ يحصل بالإمام الفاجر.

ومن المسائل التي ذكرها الشارح ولها تعلق بالاتباع مسألة المسح على الخفين والمخالف فيها هم الرافضة أيضاً فقد خالفوا في مسألة الحج والجهاد المذكورة وخالفوا أيضا في المسح وقد أجاد الشارح رحمه الله في الرد عليهم.

قال رحمه الله: (ص٤٣٥)

قوله: ونَرَىٰ المَسْحَ على الخُفَّينِ، في السَّفَرِ والحَضَرِ، كَمَا جَاءَ في الأَثَرِ.

تواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة، فيقال لهم: إلذين نقلوا عن النبي ﷺ الوضوء قولاً وفعلاً، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضؤوا على عهده

(١) انظر الهامش السابق ص٩٠١ في آخر المطلب الثالث.

وهو يراهم ويقرهم، ونقلوه إلى من بعدهم أكثر عدداً من الذين نقلوا لفظ هذه الآية[1]. فإن جميع المسلمين كانوا يتوضؤون على عهده ولم يتعلموا الوضوء إلا منه فإن هذا العمل لم يكن معهوداً عندهم في الجاهلية، وهم قد رأوه يتوضأ ما لايحصي عدده إلا الله تعالى، ونقلوا عنه ذكر غسل الرِجلين في ماشاء الله من الحديث، حتى نقلوا عنه من غير وجه، في كتب الصحيح وغيرها، أنه قال: «**ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار**»[2].

مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم، كان غسل الجميع كلفة لا تدعوا إليها الطباع، كما تدعو الطباع إلى طلب الرياسة والمال، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء، لكان في نقل لفظ آية الوضوء أقربَ إلى الجواز.

وإذا قالوا: لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ: فثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل. ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة، فإن المسح كما يطلق ويراد به الإصابة ـ كذلك يطلق ويراد به الإسالة، كما تقول العرب: تَمسحتُ للصلاة.

وفي الآية مايدل على أنه لم يُرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسيم الغَسل، بل المسح الذي الغسل قسم منه فإنه قال: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، ولم يقل إلى الكعاب، كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، فدل على أنه ليس في كل رجل كعب واحد، كما في كل يد مرفق واحد،

---

(١) فليس كل الصحابة كانوا يقرئون الناس القرآن، وفي المقابل كانوا يتوضأون أمامهم.

(٢) أخرجه أحمد (١٩١/٤) من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي رضي الله عنه، وأصله في الصحيح من حديث عبدالله بن عمرو دون قوله (وبطون الأقدام)، أخرجه البخاري في العلم باب من رفع صوته بالعلم (١/ ١٧٣ ـ ح٦٠)، ومسلم في الطهارة باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما (١/ ٢١٤ ـ ح٢٤١).

بل في كل رجل كعبان، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمين الناتئين، وهذا هو الغَسْل، فإن من يسمح المسحَ الخاص يجعل المسحَ لظهور القدمين، وجعل الكعبين في الآية غاية يرد قولهم. فدعواهم أن الفرض مسح الرجلين إلى الكعبين اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك مردود بالكتاب والسنة.

وفي الآية قراءتان مشهورتان: النصب والخفض[1]، وتوجيه إعرابهما مبسوط في موضعه. وقراءة النصب نص في وجوب الغسل، لأن العطف على المحل إنما يكون اذا كان المعنى واحدا كقوله:

فلسنا بالجبال ولا الحديدا[2]

وليس معنى: مسحت برأسي ورجلي - هو معنى: مسحت رأسي ورجلي: بل ذكر الباء يفيد معنى زائدا على مجرد المسح، وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس، فتعين العطف على قوله: (وأيديكم) فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن، فإن الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه.

كما قال أبوعبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من

---

(١) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص (وأرجلكم) بالنصب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر (وأرجلكم) بالخفض. انظر حجة القراءات ص٢٢١- ٢٢٣.

(٢) عجز بيت صدره: معاوي إننا بشر فأسجح.
والشاهد فيه أن قوله: (ولا الحديدا) معطوف على محل الجار والمجرور (بالجبال) فهو خبر ليس، وكذا أورده سيبويه في الكتاب (١/ ٣٤)، وقيل: بل البيت مخفوض من قصيدة مخفوضة كلها. انظر شرح شواهد المغني (٧/ ٥٣ - ٥٥) (وهامش ط. مؤسسة الرسالة ص٥٥٣، ٥٥٤).

النبي ﷺ عشرَ آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا معناها[1].

وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين، فإن السرف يُعتاد فيهما كثيرا. والمسألة معروفة، والكلام عليها في كتب الفروع.

---

(١) أخرجه الطبري في مقدمة تفسيره (١/ ٦٠ ـ ح٨٢).

خامساً: علماء السلف حملة الشريعة

قال رحمه الله: (ص٥٥٤-٥٥٥)

قوله: **وعُلَماءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ، ومَنْ بَعْدَهُم مِنَ التَّابِعِينَ - أَهلِ الخَيْرِ والأَثَرِ، وأَهْلِ الفِقْهِ والنَظَرِ - لا يُذكَرون إلا بالجَمِيل، ومَن ذَكَرهم بِسُوءٍ فَهُوَ عَلى غَيرِ السَبِيلِ.**

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]. فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصا الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر. وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها، إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول من أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا(١)، وكلهم متفقون اتفاقا يقينا على وجوب اتباع الرسول ﷺ(٢).

ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له في تركه من عذر. وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

---

(١) من مقدمة رفع الملام عن الأئمة الأعلام، من مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٣١،٢٣٢).

(٢) وليس هناك مسألة مجردة اتفقوا على أنه لا يستدل فيها بنص جلي ولا خفي، انظر مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٩).

والثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.
والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ[1].

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم[2]. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٣٢).
(٢) ويقول شيخ الإسلام أيضاً (٢٠/ ٢٥٠) بعد أن ذكر الأسباب التي تدعوا إماماً إلى مخالفة الحديث: «وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة على ترك العمل بالحديث لم نطلع عليها، فإن مدارك العلم واسعة، ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء، والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها، وإذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا، وإذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه، سواء كانت الحجة صواباً في نفس الأمر أم لا. لكن نحن وإن جوزنا هذا فلا يجوز لنا أن نعدل عن قول ظهرت حجته بحديث صحيح وافقه طائفة من أهل العلم إلى قول آخر قاله عالم يجوز أن يكون معه ما يدفع به هذه الحجة، وإن كان أعلم، إذا تطرق الخطأ إلى آراء العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية حجة الله على جميع عباده بخلاف رأي العالم. اهـ. وانظر أيضاً مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٠٤، ٣٠٥).

الفصل الرابع
الإيمان باليوم الآخر

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول:

النفس والروح

المبحث الثاني:

أشراط الساعة

المبحث الثالث:

الموت وعذاب القبر

المبحث الرابع:

البعث

المبحث الخامس:

القيامة الكبرى

المبحث السادس:

الإيمان بالجنة والنار

المبحث الأول

النفس والروح

الإيمان باليوم الآخر يقتضي الإيمان بأن الله تعالى يبعث هذه الأجساد والأرواح ويحاسبها، ثم يدخلها جنة أو ناراً، ولما كان هذا الأمر يستلزم معرفة الأرواح وصفاتها، وإثبات معادها لزم أن يوضح الشارح شيئا من ذلك، وقد بين الشارح الكثير من ذلك في عبارة مختصرة مفيدة وقد قسمت ما ذكره في هذا الشأن إلى مطالب وهي:

أولاً: الروح محدثة

ثانياً: تعريف الروح وصفاتها الواردة في الكتاب والسنة

ثالثاً: الفرق بين النفس والروح وأنواع النفوس

رابعاً: هل الروح مخلوقة قبل الجسد أو بعده

خامساً: تعلق الروح بالبدن

سادساً: موت النفوس

سابعاً: مستقر الأرواح إلى قيام الساعة

وقد بين الشارح أن بحث هذه المسألة يطول وأنه اختصر الكلام عليها وذلك عند شرح قول الطحاوي رحمه الله: **(ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين)**.

قال: في (ص٤٤١):

وقد اختُلف في حقيقة النفس ما هي؟ وهل هي جزء من أجزاء البدن؟ أو عرَض من أعراضه؟ أو جسم مساكن له مُوَدع فيه؟ أو جوهر مجرد؟ وهل هي الروح أو غيرها؟ وهل الأمَّارة واللوامة والمطمئنة - نفس واحدة، أم هي ثلاثة أنفس؟ وهل تموت الروح، أو الموت للبدن وحده؟ وهذه المسألة تحتمل مجلداً، ولكن أشير إلى الكلام عليها مختصرا، إن شاء الله تعالى:

أولاً: الروح محدثة

الأقوال في المسألة.

قال الشارح: في (ص٤٤٢)

فقيل: الروح قديمة، وقد أجمعت الرسل على أنها محدَثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبَّرة. وهذا معلوم بالضرورة من دينهم، أن العالم محدَث، ومضى على هذا الصحابة والتابعون، حتى نبغتْ نابغةٌ ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة، فزعم أنها قديمة، واحتج بأنها من أمر الله، وأمره غير مخلوق! وبأن الله أضافها إليه بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، وبقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعَه وبصره ويدَه وتوقف آخرون.

قول أهل السنة وأدلتهم:

واتفق أهل السنة والجماعة أنها مخلوقة(١). وممن نقل الإجماع على ذلك: محمد بن نصر المرْوَزي، وابن قُتيبة وغيرهما.

ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة، قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما، ولا يدخل في ذلك صفاتُ الله تعالى، فإنها داخلةٌ في مسمى اسمه. فالله تعالى هو الإله الموصوف بصفات الكمال، فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاته ـ داخل في مسمى اسمه فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالقُ، وما سواه مخلوق، ومعلومٌ قطعاً أن الروح ليست هي الله، ولا صفة من صفاته، وإنما هي من مصنوعاته. ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٢١٦/٤ وما بعدها)، وكتاب الروح لابن القيم (ص٢٢٦ ـ ٢٤٤) نشر دار الكتاب العربي تحقيق السيد الجميلي ط. ٢ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الدهر: ١]. وقوله تعالى لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ [مريم: ٩]. والإنسان اسم لروحه وجسده، والخطاب لزكريا، لروحه وبدنه، والروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث.

رد استدلال المبتدعة:

وأما احتجاجهم بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] ـ فليس المراد هنا بالأمر الطلب، بل المراد به المأمور، والمصدر يُذكر ويراد به اسمُ المفعول، وهذا معلوم مشهور[١]. وأما استدلالهم بإضافتها إليه بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان:

صفات لا تقوم بأنفسها: كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له، وكذا وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول

---

(١) الأمر كغيره من الصفات؛ يطلق على الصفة تارة، وعلى متعلقها أخرى، فالرحمة مثلاً صفة لله، ويسمى ما خلق الله رحمة كحديث «إن الله خلق الرحمة مائة جزء» رواه البخاري في الرقاق باب الرجاء مع الخوف (١١/٣٠١ ـ ح٦٤٦٩)، ومسلم في التوبة باب في سعة رحمة الله (٤/٢١٠٨ ـ ح٢٧٥٢). وكذلك القدرة من صفات الله، ويسمى المقدور قدرة، ويسمى تعلقها بالمقدور قدرة، والخلق من صفات الله، ويسمى المخلوق خلقاً، والعلم من صفات الله، ويسمى المعلوم أو المتعلق علماً، فتارة يراد الصفة، وتارة يراد متعلقها، وتارة يراد نفس التعلق، وعليه فينظر في كل نص من آية أو حديث بخصوصه سياقه، وما يبين معناه من القرآن، ودلالاته حتى يعرف المراد. انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٦/١٨).

والروحَ فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالِقِهِ، لكنَّها إضافَةٌ تقتضِي تخصيصاً وتشريفاً يتميزَ بها المضافُ عن غيرِهِ.

ثانياً: تعريف الروح وبيان صفاتها الواردة في الكتاب والسنة.

لما كانت الروح مغايرة للأجسام التي نلمسها ونحسها ونراها، لذا اضطرب الناس في تعريفها، فمن قائل إنها كالسمع والبصر أي عرض من أعراض (أي صفات) البدن، ومن قائل هي النسيم وغير ذلك مما ذكره الشارح وهذه الأقوال كلها لا دليل عليها.

وقد حاول الشارح أن يستخلص تعريفاً من خلال النصوص الواردة في صفات الروح، وقد أصاب في كثير من التعريف، إلا أن تعريفه لم يخل أيضا من اعتراضات لوجود ألفاظ في الحد لم ترد في الكتاب والسنة وتحتمل معاني موهمة كما أشرت إلى ذلك في الهامش.

قال رحمه الله: (ص٤٤٢،٤٤٣)

واختلف في الروح: ماهي؟ فقيلَ: هي جِسْمٌ، وقيلَ: عَرَضٌ، وقيلَ: لا ندري ما الروح، أجوهر أم عرض؟ وقيلَ: ليس الروح شيئا أكثر من اعتدال الطبائع الأربع، وقيلَ: هي الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات، وقيلَ: هي الحرارة الغريزية، وهي الحياة، وقيلَ: هو جوهر بسيطٌ منبثٌ في العالم كله من الحيوان على جهة الإعمال له والتدبير، وهي على ما وصفت من الانبساط في العالم، غير منقسمة الذات والبِنية، وأنها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لاغير، وقيلَ: النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس، وقيل غير ذلك.

وللناس في مسمى الإنسان: هل هو الروح فقط، أو البدن فقط، أو مجموعهما، أو كل منهما؟ وهذه الأقوال الأربعة لهم في كلامه: هل هو اللفظ فقط، أو المعنى فقط، أو هما، أو كل منهما؟ فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه.

والحق: أن الإنسان اسم لهما، وقد يطلق على أحدهما بقرينة، وكذا الكلام.

* والذي يدل عليه الكتاب والسنة وإجماعُ الصحابة وأدلةُ العقل: أن النفسَ جسمٌ مُخالفٌ بالماهيةِ لهذا الجسمِ المحسوسِ، وهو جسمٌ نورانيٌّ عُلوي، خفيف حي متحركٌ، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسرى فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم، فما دامت هذهِ الأعضاءِ صالحةً لقَبولِ الآثارِ الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك الجسم اللطيف سارياً في هذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار، من الحسّ والحركة الإرادية، وإذا فسدتْ هذه، بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح[1].

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، الآية. ففيها الإخبار بتوفّيها وإمساكها وإرسالها. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ففيها بسط الملائكة أيديَهم لتناولها، ووصفها بالإخراج والخروج، والإخبار بعذابها ذلك اليوم، والإخبار عن مجيئها

(١) يلاحظ أن سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، يتم عبر الأنابيب الخشبية في الخلايا، وهذا الشيء يعرفه طلاب المدارس بعد التطور الكبير في علوم الأحياء بعد اختراع المجاهر التي تكبر آلاف بل ملايين المرات، ولذا فلا نستطيع أن نجزم أن سريان الروح في الجسد بهذه الصفة، ثم إن وسم الشارح الروح بأنها (جسم) فيه نظر، لأن الجسم صار له عدة معان بعد الاصطلاحات الحادثة كما هو معلوم، فالأولى عدم الاطلاق، وانظر في اختلافهم في تعريف الروح: كتاب الروح لابن القيم (ص٢٧٢ ـ ٢٧٦).

إلى ربها. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، الآية. ففيها الإخبار بتوفي النفس بالليل، وبعثها إلى أجسادها بالنهار، وتوفي الملائكة لها عند الموت.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. ففيها وصفها بالرجوع والدخول والرضى.

وقال ﷺ: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»[(١)]. ففيه وصفُه بالقبض، وأن البصر يراه. وقال ﷺ في حديث بلال: «قبضَ أرواحكم وردَّها عليكم»[(٢)]، وقال ﷺ: «نَسمة المؤمن طائرٌ يعلق في شجر الجنة»[(٣)].

وسيأتي في الكلام على عذاب القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت لها، وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، وأنها تصعد ويوجد منها من المؤمن كأطيب ريح، ومن الكافر كأنتن ريح، إلى غير ذلك من الصفات. وعلى ذلك أجمع السلف ودل العقل، وليس مع من خالف سوى الظنون الكاذبة، والشبه الفاسدة، التي لا يعارَض بها ما دل عليه نصوصُ الوحي والأدلة العقلية[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أم سلمة في الجنائز باب في إغماض الميت (٢/ ٦٣٤ ـ ح٩٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت باب الأذان بعد ذهاب الوقت (٢/٦٦ ـ ح٥٩٥) وذلك من حديث أبي قتادة في قصة نومهم عن صلاة الفجر، وإنما قال الشارح (حديث بلال) لأنه صاحب القصة لأنه قال: «أنا أوقظكم» ثم غلبته عيناه فنام.

(٣) أخرجه النسائي في الجنائز باب أرواح المؤمنين (٤/ ١٠٨ ـ ح٢٠٧٣)، وأخرجه ابن ماجه في الزهد باب ذكر القبر والبلى (٢/ ١٤٢٥ ـ ح٤٢٧١) وذلك من حديث كعب بن مالك.

(٤) انظر في صفات الروح والنصوص الواردة في ذلك: مجموع الفتاوى (٥/ ٤٣٧ ـ ٤٥٨)، وساق ابن القيم الأدلة على قيامها بنفسها في كتاب الروح من ١١٦ وجهاً (ص٢٧٧ ـ ٣٠٠).

ثالثاً: النفس والروح وأنواع النفوس

قال رحمه الله: (ص٤٤٤ـ٤٤٦)

وأما اختلاف الناس في مسمى النفس والروح: هل هما متغايران، أو مسمّاهما واحد؟ فالتحقيق: أن النفس تطلق على أمور، وكذلك الروح[1]، فيتحد مدلولهما تارةً، ويختلف تارةً، فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما تسمّى نفساً إذا كانت متصلةً بالبدن، وأما إذا أخذت مجردةً فتسمية الروح أغلب عليها. وتطلق على الدّم، ففي الحديث: «ما لانفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه»[2].

والنفس: العين، يقال: أصابت فلاناً نفس، أي عين. والنفس: الذات، ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [النور: ٦١]، ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٩]، ونحو ذلك. وأمّا الرّوحُ فلا يُطلَقُ علىٰ البدَنِ، لا بانفراده، ولا مع النفس. وتطلقُ الروحُ علىٰ القرآن، وعلىٰ جبرائيل، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]. ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

ويطلق الروح على الهواءِ المتردد في بدن الانسان أيضاً، وأما ما يؤيدُ الله به أولياءه فهي روح أخرى كما قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وكذلك القُوىٰ التي في البدَنِ، فإنّها أيضاً تُسَمَّىٰ أرْواحاً، فَيقالُ: الرّوحُ الباصِر، والروح السامع، والروح

(١) انظر في ذلك كتاب الروح (ص٣٢٥ ـ ٣٣٠).

(٢) أخرج الدارقطني في سننه (١/ ٣٧)، وابن عدي في الكامل (٣/ ١٢٤٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٥٣) من حديث سلمان الفارسي مرفوعاً «ياسلمان كل طعام وشراب وقعت فيه دابة ليس لها دم ، فماتت فيه، فهذا حلال أكله وشربه ووضوؤه» وضعفه الأرناؤوط (ص٥٦٨)، وأما ما أورده المصنف فقد قال الشيخ الألباني عنه (لا أعرف له أصلاً، وإنما هو من كلام الفقهاء) (ص٤٤٥).

الشامُ[1]. ويطلق الروح على أخص من هذا كله، وهو: قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته. ونسبة هذا الروح إلى الروح، كنسبة الروح إلى البدن، فالعلم روح، والإحسان روح، والمحبة روح، والتوكل روح، والصدق روح. والناس متفاوتون في هذه الروح: فمن الناس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً.

أنواع النفوس:

وقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: مطمئنة، ولوّامة، وأمّارة[2]، قالوا: وإن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ [الفجر: ٢٧]. ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ٢]. ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

والتحقيق: أنها نفسٌ واحدة، لها صفات، فهي أمّارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوّامة، تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها، وتلوم بين الفعل والترك، فاذا قوي الإيمان صارت مطمئنةً. ولهذا قال النبي ﷺ: «من سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[3]، مع قوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[4]، الحديث.

(١) انظر مدارج السالكين (٣/ ٢٣٢).
(٢) انظر مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٤)، الروح (ص٣٣٠ وما بعدها).
(٣) أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر في الفتن باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/ ٤٠٤ ـ ح٢١٦٥) وقال حسن صحيح غريب، والنسائي في الكبرى في كتاب عشرة النساء باب خلو الرجل بالمرأة (٥/ ٣٨٨ ـ ح٩٢٢٠)، والإمام أحمد (١/ ١٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١١٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث عمر رضي الله عنه، وانظر تخريج الأرناؤوط له (ص٥٦٩ ـ ٥٧٠).
(٤) أخرجه البخاري ومسلم وتقدم تخريجه في مباحث الإيمان.

رابعاً: هل الروح مخلوقة قبل الجسد

قال الشارح رحمه الله: (ص٤٤٢)

واختلف في الروح: هل هي مخلوقة قبل الجسد أم بعده؟ وقد تقدم عند ذكر الميثاق الإشارة إلى ذلك[1].

وقال: عند ذكر الميثاق عند الكلام على الأحاديث الدالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل النار وأهل الجنة.

قال: (ص٢٦٧)

ومن هنا قال من قال: إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد. وهذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً، وغايتها أن تدل على أنّ باريها وفاطرها سبحانه صوَّرَ النسمة وقدَّرَ خلقَها وأجلَها وعملَها، واستخرج تلك الصورَ من مادتها، ثم أعادها إليها، وقدَّر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له، ولا يدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد ثم يرسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة، كما قاله ابن حزم، فهذا لا تدل الآثار عليه، نعَم الربُّ سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة، علَى الوَجْهِ الذي سَبَقَ بهِ التَّقديرُ أولاً فيجيء الخلق الخارجي مطابقا للتقدير السابق، كشأنه سبحانه في جميع مخلوقاته، فإنه قدر لها أقدارا وآجالا وصفات وهيآت، ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق[2].

---

(١) وهو ما يلي ذلك بترتيب هذا الكتاب.

(٢) من الروح لابن القيم (ص٢٥١)، واختار أنّ الأرواحَ مخلوقةٌ بعْدَ الأجسادِ واستُدلَّ له في (ص٢٦٧ ـ ٢٧١).

خامساً: تعلق الروح بالبدن

لما كانت الروح مخلوقاً غير معلوم الماهية، وله بالبدن تعلقات كثيرة ويختلف بعضها عن بعض، لذا وجب التفريق بين هذه التعلقات حتى لا يقع المؤمن في إشكال يؤدي به إلى إنكار شيء من الدين.

قال الشارح: (ص٤٥١)

فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق، متغايرةُ الأحكام(١):

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه، ومفارقه من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه، فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقي لها إليه التفات ألبتة، فإنه ورد ردها إليه وقتَ سلام المسلِّم(٢)، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه(٣). وهذا الردّ إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة(٤).

---

(١) من الروح (ص٨٤).

(٢) في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلّم عليّ إلا رد الله روحي حتى أرد عليه السلام» أخرجه أبوداود في المناسك باب زيارة القبور (٢/٢١٨ ـ ح٢٠٤١)، لكن انفرد به أبوصخر حميد بن زياد عن يزيد بن عبدالله بن قسيط، وصخر وإن كان من رجال مسلم إلا أنه اختلف فيه قول ابن معين، ويزيد بن قسيط لايصحح ما انفرد به جزماً، وانظر تخريج الأرناؤوط (ص٥٧٩).

(٣) وهذا خاص بوقت الدفن، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز باب الصلاة علي القبر بعد مايدفن (٣/ ٢٠٤ ـ ح١٣٣٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/ ٢٢٠٠ ـ ح٢٨٧٠)، وانظر في إعادة الروح وقت السؤال ما جاء في كتاب الروح (ص٨٠ وما بعدها).

(٤) ومن ذلك رؤية الأنبياء ليلة الإسراء، فإنه ﷺ رأى أرواحهم دون أجسادهم، والأجساد في الأرض قطعاً إنما تبعث يوم بعث الأجساد، ولم تبعث قبل ذلك. وانظر في ذلك الروح ص٨٥.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدنُ معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً، فالنوم أخو الموت. فتأمل هذا يُزِحْ عنك إشكالات كثيرة.

سادساً: موت النفوس:

قال رحمه الله: (٤٤٦-٤٤٧)

واختلف الناس: هل تموت الروح أم لا[1]؟ فقالت طائفة: تموت، لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، وقد قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]. قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوس البشرية أولى بالموت. وقال آخرون: لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان. قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها وخروجها منها.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر، فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية، فهي لا تموت بهذا الاعتبار[2]، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦]،

---

(١) انظر الروح لابن القيم (ص٧٠ وما بعدها).

(٢) لأن العدم لا يوصف بالإمساك والإرسال والتوفي، ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

وتلك الموتة هي مفارقة الروح للجسد. وأما قول أهل النار: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾[1] [المؤمن: ١١]. وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] فالمراد: أنهم كانوا أمواتا وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة، وإلا كانت ثلاث موتات. وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها، فإن الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره[2]، وليس ذلك بموت. وسيأتي ذكر ذلك، إن شاء الله تعالى. وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتاً[3]، والذي يدل عليه أن نفخة الصعق ـ والله أعلم ـ موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه من الحور والولدان وغيرهم[4]، فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية. والله أعلم.

---

(١) أمات هنا: أي قدرهم ميتين، على نحو قولهم: (سبحان من كَبَّرَ الفيل وصَغَّرَ البعوض). ليس ثمة نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر، والسبب فيه أن الصغر والكبر جائزان على المصنوع الواحد، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه. فالإماتتان: تقديرهم موتى أولاً، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم، والإحياءة الأولى في الدنيا والثانية البعث كما دلت عليه آية البقرة. وانظر تفسير النسفي (٤/ ٧٢) نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(٢) هذه الصعقة اختلف الناس في إثباتها، والشارح يرى إثباتها، وسيأتي الكلام على ذلك عند مطلب القيامة الكبرى وجزاء الأعمال إن شاء الله تعالىٰ، وانظر اختلاف الناس في الصعقات هل هي ثلاثة أو أربعة في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦١).

(٣) يأتي ذكر ذلك في مبحث القيامة الكبرىٰ إن شاء الله تعالىٰ.

(٤) وأيضاً فقد استثنى الله تعالىٰ في كتابه فقال: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه. انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦١)، والروح (ص٧١).

سابعاً: مستقر الأرواح:

قال رحمه الله: (ص٤٥٣-٤٥٩)

وقد اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة[1]:

فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

وقيل: على أفنية قبورهم.

وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله عز وجل، ولم يزيدوا على ذلك.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت!

وقال كعب: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكافرين في سجين في الأرض السابعة تحت خد إبليس!

وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت.

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكافرين عن شماله.

قال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل أجسادها.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أنَّ أرواحَ الشهداءِ كطيرٍ خُضْرٍ معلقةٍ بالعرشِ، تغدو وتروحُ إلى رياضِ الجنةِ، تأتي ربها كلَّ يومٍ تسلمُ عليه.

(١) انظر الروح (ص١٥٤ - ١٩٠) المسألة الخامسة عشر.

١٣ - وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض. وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن، كحياته وإدراكه! وقولهم مخالف للكتاب والسنة.

١٤ - وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح! وهذا قول التناسخية منكري المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم.

ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال والكلام عليها.

ويتلخص من أدلتها:

أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظمَ تفاوت.

فمنها: أرواحٌ في أعلى عليين، في الملأ الأعلى، وهي أرواحُ الأنبياءِ صلوات الله عليهم وسلامُه، وهم متفاوتونَ في منازلهم.

ومنها أرواح في حواصلِ طيرٍ خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لاكلِّهم، بل من الشهداء من تحبس روحَه عن دخول الجنة لدين عليه. كما في «المسند» عن محمدِ بن عبدِ الله بن جحشٍ عن أبيه: أن رجلا جاء إلى النبيِّ ﷺ، فقالَ: يارسولَ اللهِ: مالي إن قُتلتُ في سبيلِ الله؟ قال: «الجنة»، فلما وَلّى، قال: «إلا الدين، سارّني به جبرائيل آنفا»[1].

ومنَ الأرواح من يكونَ محبوساً على بابِ الجنةِ، كما في الحديثِ الذي قال فيه رسولُ اللهِ ﷺ: «رأيت صاحبكم محبوسا على باب الجنة»[2].

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن الأطول في الصدقات باب أداء الدين عن الميت =

④ ومنهم من يكون محبوساً في قبره، ومنهم من يكون في الأرض.

⑤ ومنها أرواح تكون في تَنّور الزُناةِ والزَواني، وأرواحٌ في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة، كلُ ذلك تشهد له السنة[1]، والله أعلم.

الفرقُ بينَ حياةِ الشهيدِ وحياة عامّةِ المؤمنين

قال رحمه الله: (ص٤٥٥ـ٤٥٦)

وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]. فهي: أن الله تعالى جعل أرواحهم في أجواف طير خضر. كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما أصيب إخوانكم، يعني يوم أحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش»**، الحديث رواه الإمام أحمد وأبوداود[2]، وبمعناه في حديث ابن مسعود، رواه مسلم[3].

فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضهم

= (٢/٨١٣ ـ ح٢٤٣٣)، وأخرجه الإمام أحمد (١٣٦/٤)، (٧/٥) من حديث سعد، وصححه الألباني (ص٤٥٥)، وصحح الأرناؤوط إسناده (ص٥٨٥، ٥٨٦).

(١) كما في حديث سمرة الطويل الذي أخرجه البخاري في آخر التعبير باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح ٤٣٨/١٢ـ ح٧٠٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٦/١)، وأخرجه أبوداود في الجهاد باب في فضل الشهادة (١٥/٣ ـ ح٢٥٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (١٥٠٢/٣ ـ ح١٨٨٧) من حديث ابن مسعود.

نها في البرزخ أبدانا خيراً منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان، أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها. ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير، أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير.

وتأمل لفظ الحديثين، ففي الموطأ أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه**»(1).

فقوله: «**نسمة المؤمن**» تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: «**هي في جوف طير خضر**»، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير(2)، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير منهم، فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم(3).

(1) تقدم تخريجه.
(2) انظر الروح (ص١٦٥، ١٦٦).
(3) قال ابن القيم في النونية: (١/ ٩٧، ٩٨) شرح ابن عيسى

فالشأن للأرواح بعد فراقها ... أبدانها والله أعظم شانِ
إما عذاب أو نعيم دائم ... قد نعمت بالروح والريحانِ
وتصير طيراً سارحاً مع شكْلِها ... تجني الثمارَ بجنة الحيوانِ
وتظل واردة لأنهار بها ... حتى تعودَ لذلك الجثمانِ
* لكنَّ أرواح الذي استشهدوا ... في جوفِ طيرٍ أخضرٍ ريانِ
فلهم بذلك مزية في عيشِهم ... ونعيمهم بالرُّوح والأبدانِ
بذلوا جسومهم لربهم فأعاضهم ... أجسام تلك الطير بالإحسانِ
ولها قناديل إليها تنتهي ... مأوى لها كمساكن الإنسانِ
فالروح بعد الموت أكمل حالة ... منها بهذي الدار في جثمانِ

وحرّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روي في «السنن»(1). وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو لم يتغير(2)، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة، والله أعلم. وكأنه ـ والله أعلم ـ كلما كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل، كان بقاءُ جَسده أطوَل(3).

٤ ـ عجب الذنب

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة باب تفريع أبواب الجمعة باب فضل الجمعة (١/ ٢٧٥ ـ ح١٠٤٧) من حديث أوس بن أوس، والنسائي في الجمعة باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة (٣/ ٩١، ٩٢ ـ ح١٣٧٤)، وابن ماجه في الجنائز باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١/ ٥٢٠ ـ ح١٦٣٦).

(٢) أخرج البخاري عن جابر أنه قال: «لماحضر أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعزّ علي منك، غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليَّ ديناً فاقض، واستوص بأخواتك خيراً، فأصبحنا، فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته غير هنية في أذنه. وأخرجه في كتاب الجنائز باب هل يُخرج الميت من القبر واللحد لعلة (٣/ ٢١٤ ـ ح١٣٥١)، وفي خبر آخر أنه أخرجه بعد ٤٦سنة وهو يتثنى كأنما دفن بالأمس، وانظر فتح الباري (٣/ ٢١٦).

(٣) قال ابن القيم في النونية (١/ ٩٥، ٩٦) شرح ابن عيسى:

والعرش والكرسي لا يفنيهما	أيضاً وإنهما لمخلوقان
والحور لاتفنى كذلك جنة ال	مأوى وما فيها من الولدان
ولأجل هذا قال جهم إنها	عدم ولم تخلق إلى ذا الآن
والأنبياء فإنهم تحت الثرى	أجسامهم حفظت من الديدان
ماللبلى بلحومهم وجسومهم	أبداً وهم تحت التراب يدان
وكذا عجب الظهر لا يبلى	بلى منه تركب خلقة الإنسان

المبحث الثاني

أشراط الساعة

من المباحث الهامة التي ينبغي معرفتها مبحث أشراط الساعة، وذلك يرجع إلى عدة أمور، منها:

تصديق النبي ﷺ فيما أخبر به.

ومنها الحذر مما حذّر منه كالدجال.

ومنها اجتناب الفتنة.

وغير ذلك كثير، إلا أنه ينبغي التفطن إلى أن الكثيرين أخذوا النصوص الواردة في ذلك، وصاروا يطبقونها على واقع قد يشابهها من وجه دون وجه، وفي ذلك محذورات:

الأول: القول على الله بغير علم، وهو محرم فقد ذكر الله المحرمات ثم قال في آخرها ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣].

الثاني: إيجاد مجال للطعن في الدين من قبل أعدائه إذا لم يتحقق الذي زعموا أنه المقصود بالنص الوارد.

الثالث: ترك ما أمرنا به من إعداد العدة، والعمل، ونحو ذلك، اعتماداً على نصوص خروج المهدي ونزول عيسى ونحو ذلك، فيقع الوَهَنُ والضعف في المسلمين علماً أن هذه النصوص تدل على أن أصحاب المهدي وعيسى من خير جنود المسلمين، ومن أفاضل المجاهدين، وما يصل المرء إلى ذلك إلا بالعلم والتقوى والعمل الصالح.

والواجب تجاه هذه النصوص الواردة في أشراط الساعة: الإيمان بها، والحذر مما حُذرنا منه، لكن لا نجزم بأن المراد منها كذا وكذا مما نراه في واقعنا إلا بدليل صحيح صريح، لأن بعضها قد يأتي الله به في غير

زماننا وإن تشابه مع زماننا في شيء منه، وهذا بين واضح والتاريخ يشهد بذلك، فكم من رجل ادعى المهدية واتبعه فثام، وزالوا وبان كذبهم، وغير ذلك كثير.

قال الشارح رحمه الله: (ص٥٦٤)

قوله: وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ: مِنْ خُرُوجِ الدَّجَّالِ، وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنَ السَّمَاءِ، وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ دَابَّةِ الأَرضِ مِنْ مَوْضِعِهَا.

عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة من أدم، فقال: «اعدد ستا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتَان يأخذ فيكم كقُعَاص الغنم[1]، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا». وروي «راية» بالراء والغين، وهما بمعنى، رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه والطبراني[2].

(١) مُوْتان: بضم الميم وسكون الواو، قال القزاز: هو الموت، وقال غيرم: هو الموت الكثير الوقوع، ويقال بالضم لغة تميم وغيرهم يفتحونها، ويقال للبليد: مَوْتان القلب بفتح الميم والسكون، وقال ابن الجوزي: يغلط بعض المحدثين فيقول: مَوَتان: بفتح الواو والميم، وإنما داك اسم الأرض التي لم تحي بالزرع والإصلاح. وروي (موتتان) بلفظ التثنية. وقعاص الغنم: داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة، ويقال إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر بعد فتح بيت المقدس انظر فتح الباري (٦/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة باب ما يحذر من القدر (٦/ ٢٧٧ - ح٣١٧٦)، وأخرجه ابن ماجه في الفتن باب أشراط الساعة (٢/ ١٣٤١ - ح٤٠٤٢)، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٤٠ - ح٧٠)، وأخرجه أبوداود مختصراً في الملاحم باب ما يذكر من ملاحم الروم (٤/ ١١٠ - ح٤٢٩٣).

وعن حذيفة بن أَسِيد، قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «ما تذاكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة، فقال: «إنها لَنْ تَقومَ حَتَّىٰ تَرَوْنَ قَبلَها عَشْرَ آياتٍ»، فذكر: «الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم». رواه مسلم(1).

وفي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ، فقال: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليسَ بأعور، وأشار بيده على عَيْنِهِ، وإن المسيحَ الدجالَ أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»(2).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن نبي إلا وأنذر قومه الأعور الدجال، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه ك ف ر»، فسره في رواية: «أي كافر»(3).

وروى البخاري وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خير من الدنيا وما فيها»(4).

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب في الآيات (٤/ ٢٢٢٥ ـ ح٢٩٠١).

(2) أخرجه البخاري في مواضع منها في الأنبياء باب قول الله (واذكر في الكتاب مريم) (٦/ ٤٧٦ ـ ح٣٤٣٩)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (١/ ١٥٤ ـ ح١٦٩).

(3) أخرجه البخاري في الفتن باب ذكر الدجال (١٣/ ٩١ ـ ح٧١٣١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال (٤/ ٢٢٤٨ ـ ح٢٩٣٣).

(4) أخرجه البخاري في الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم (٦/ ٤٩٠ ـ ح٣٤٤٨)، ومسلم =

ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

وأحاديث الدجال، وعيسى ابن مريم عليه السلام، [وأنه] ينزل من السماء ويقتله، ويخرج يأجوج ومأجوج في أيامه بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم يضيق هذا المختصر عن بسطها[1].

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب ـ فقال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وروى البخاري عند تفسير الآية، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»**[2].

وروى مسلم، عن عبد الله بن عمرو، قال: حفظت من رسول الله ﷺ

= في الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٥ ـ ح١٥٥).

(١) انظر النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (١/ ١١٨ ـ ١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير الأنعام باب (هلم شهداءكم) والباب الذي يليه (٨/ ٢٩٦، ٢٩٧ ـ ح٤٦٣٥، ٤٦٣٦)، ومسلم في الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه إيمان (١/ ١٣٧ ـ ح١٥٧).

حديثا لم أنسلو بعدُ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا»[1].

أي أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك أمور مألوفة، لأنهم بشر، مشاهدة مثلهم مألوفة، وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف، ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمر خارج عن مجاري العادات. وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها، على خلاف عادتها المألوفة - أول الآيات السماوية[2]. وقد أفرد الناس أحاديث أشراط الساعة مصنفات مشهورة، يضيق عن بسطها هذا المختصر[3].

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب في خروج الدجال (٤/٢٢٦ـ٢٢٦ - ح٢٩٤١/ ١١٢)

(٢) بلفظه من النهاية لابن كثير، وفي مختصره علامات يوم القيامة تحقيق وتعليق عبداللطيف عاشور نشر مكتبة القرآن (ص١٢٢، ١٢٣).

(٣) ومن ذلك ما كتبه الحافظ ابن كثير في نهاية البداية والنهاية المشار إليه، وكذلك لصديق حسن خان رسالة سماها (الإذاعة عما يكون بين يدي الساعة)، وللدكتور يوسف الوابل كتابٌ مفيدٌ في ذلك أيضاً، ومن أجمع ما كتب فيه ما جمعه شيخنا في الإجازة (حمود بن عبدالله التويجري) رحمه الله في كتابه (إتحاف الجماعة بما ورد من الفتن والملاحم بين يدي الساعة)، وغير ذلك كثير.

المبحث الثالث

الموت وعذاب القبر

الموت أول درجات الآخرة، والإنسان إذا مات فإنه ينكشف له ماكان مستوراً عن بصره، فيرى من الآيات العظام ما لايراه الحي، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق: ٢٢].

والكافر والمنافق يقبل على ما كان مكذباً به في الدنيا، فتكون صدمته بذلك شديدة، أما المؤمن الذي آمن بالنصوص الواردة في ذلك فإنه ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧].

ولذا فالمؤمنون يأمنون يوم يفزع الناس، ويُبشرون في قبورهم، ويستبشرون بما أعده الله لهم، وقد بين الشارح عدة مسائل حول الموت وعذاب القبر لمن كان له أهلاً، وقد جمعت أطرافها في المطالب الآتية:

١ـ ماهو الموت؟.

٢ـ انتفاع المؤمن بعد موته بغير ما تسبب فيه.

٣ـ عذاب القبر لمن والأدلة عليه وسؤال القبر.

وفيما يلي عرض لهذه المطالب:

أولاً: ما هو الموت؟

قال رحمه الله: (ص١٢٦)

قول: مُمِيتٌ بِلاَ مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلاَ مَشَقَّةٍ.

الموت صفة وجودية، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى

﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا. وفي الحديث: أنه «يؤتى بالموتِ يوم القيامةِ على صورة كبش أملح، فيُذبح بين الجنة والنار»(١). وَهُوَ وإنْ كانَ عَرَضاً فالله تعالى يَقْلِبُهُ عَيْناً، كما ورد في العمل الصالح: «أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة»(٢). وورد في القرآن: «أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون»(٣)، الحديث. أي قراءة القارىء(٤). وورد في الأعمال: «أنها توضع في الميزان»(٥)، والأعيان هي التي تقبل

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد، فأخرجه البخاري في تفسير سورة مريم باب (وأنذرهم يوم الحسرة) (٨/ ٤٢٨ ـ ح٤٧٣٠)، وأخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون (٤/ ٢١٨٨ ـ ح٢٨٤٩)، وأخرجاه أيضاً من حديث ابن عمر، فأخرجه البخاري في الرقاق باب صفة الجنة والنار (١١/ ٤١٥ ـ ح٦٥٤٨)، وأخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون (٤/ ٢١٨٩ ـ ح٢٨٥٠).

(٢) من حديث البراء بن عازب في ذكر عذاب القبر، وسيأتي بتمامه ص ١٨٤، وأخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

(٣) من حديث بريدة كما في سنن ابن ماجه ومسند أحمد وفيه «وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب...» الحديث، أخرجه ابن ماجه في الأدب باب ثواب القرآن (٢/ ١٢٤٢ ـ ح٣٧٨١)، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨، ٣٥٢)، وأخرجه الدارمي في كتاب فضائل القرآن من السنن باب في فضل سورة البقرة وآل عمران (٢/ ٥٤٣ ـ ح٣٣٩١)، وفيه بشير بن المهاجر لذا حكم عليه الشيخ الألباني عليه بأن حديثه يحتمل التحسين (ص١٢٦)، وكذا الأرناؤوط (ص٩٤).

(٤) قوله وورد في القرآن: أي ورد في شأن القرآن، أي في شأن قراءة العبد، أي المقصود في الحديث، أن عمل الإنسان يأتيه، وأطلق على القراءة التي هي أفعال العباد قرآناً، وليس المراد بالقرآن هنا: المكتوب بين دفتي المصحف، ويدل على أنه ليس المراد نفس القرآن: تعدد المجيء ويلزم منه الثواب، وانظر مجموع الفتاوى (١٢/ ٧٩).

(٥) يأتي ذكر ذلك في مبحث القيامة الكبرى ـ مطلب الميزان، وقد يكون للأعراض موازين خاصة بها فالله أعلم.

الوزن دون الأعراض. وورد في سورة البقرة وآل عمران: أنهما يوم القيامة: **«يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف»**[1] وفي الصحيح: **«أن أعمال العباد تصعد إلى السماء»**[2] وسيأتي الكلام على البعث والنشور. إن شاء الله تعالى[3].

---

(١) هو قطعة من حديث بريدة السابق تخريجه قريباً، والغياية والغمامة: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة وغيرها، والغياية أقل من الغمامة في الكثافة وأقرب إلى رأس صاحبها، وقوله: (أو فرقان من طير صواف): أي طائفتان من طير باسطات أجنحتها متصلاً بعضها ببعض.

(٢) كما في حديث رفاعة بن رافع الزرقي وفيه: «كنا نصلي يوماً وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال سمع الله لمن حمده، قال رجل وراءه: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: من المتكلم؟ قال: أنا، قال: رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول. وأخرجه البخاري في الأذان الباب بعد (فضل اللهم ربنا لك الحمد) (٢/ ٢٨٤ ـ ح٧٩٩)، ورواه الترمذي وأبوداود بلفظ «لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعد بها»، وأخرجه الترمذي في أبواب الصلاة باب ما جاء في الرجل يعطس في الصلاة (٢/ ٢٥٤ ـ ح٤٠٤)، وأبوداود في الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (١/ ٢٠٥ ـ ح٧٧٣)، وله شاهد من حديث عبدالله بن أبي أوفى نحوه وفيه: «والله لقد رأيت كلامك يصعد في السماء حتى فتح باب فدخل فيه»، أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٥، ٣٥٦)، وفي حديث عبدالله بن السائب عند الترمذي أن رسول الله ﷺ كان يصلي أربعاً بعد أن تزول الشمس قبل الظهر وقال: إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء وأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح». أخرجه في أبواب الصلاة من كتاب الوتر باب ما جاء في الصلاة عند الزوال (٢/ ٣٤٢ ـ ح٤٧٨) وقال الترمذي حسن غريب، وعلق أحمد شاكر، بل صحيح متصل الإسناد رواته ثقات، وأخرج الترمذي عن أنس مرفوعاً «ما من مؤمن إلا وله بابان، باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، فذلك قوله عز وجل (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) تفسير الدخان (٥/ ٣٥٤ ـ ح٣٢٥٥)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث.

(٣) في مبحث البعث قريباً إن شاء الله.

ثانياً: انتفاع المؤمن بعد موته بغير ما تسبب فيه

الأقوال في المسألة:

١ـ المتفق عليه بين أهل السنة: وصول الدعاء، والاستغفار، والصدقة، والحج.

قال رحمه الله: (ص٥١٣)

قوله: وفي دُعَاءِ الأَحْيَاءِ وصَدَقَاتِهِم مَنْفَعَةٌ لِلأَمْوَاتِ.

اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له، والصدقة، والحج، على نزاع فيما يصل من ثواب الحج، فعن محمد بن الحسن: أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة، والحج للحاج.

وعند عامة العلماء: ثواب الحج للمحجوج عنه، وهو الصحيح[1].

٢ـ المختلف فيه بين أهل السنة (العبادات البدنية)

قال: (ص٥١٣)

واختُلف في العبادات البدنية، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر: فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها.

٣ـ قول بعض أهل البدع والكلام لا يصل شيء بغير ما تسبب فيه.

---

(١) هذا البحث مختصر من كتاب الروح لابن القيم المسألة السادسة عشر (ص١٩٠ ـ ٢٢٦)، وراجع البحث في مجموع الفتاوى (٢٤/٣٠٦ ـ ٣١٣، ٣٢٤، ٣٦٦).

قال: (ص٥١٣)

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء ألبتة، لا الدعاء ولا غيره. وقولهم مردود بالكتاب والسنة.

وقد بين الشارح صحة انتفاع الميت بالدعاء والصدقة والاستغفار والحج وإن كان الميت لم يتسبب فيه مباشرة واختار الشارح أيضا وصول العبادات البدنية وناقش المخالفين.

أدلة أهل السنة في انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه

قال: (ص٥١٤)

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه، الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح.

أما الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]. فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وقد دلَّ على انتفاع الميت بالدعاء: إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة. وكذا الدعاء له بعد الدفن، ففي سنن أبي داود، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: **«استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»**[1].

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم، كما في «صحيح مسلم» من حديث بريدة بن الحصيب، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: **«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين**

---

(١) أخرجه أبوداود في الجنائز باب الاستغفار عند القبر للميت (٣/ ٢١٥ ـ ح٣٢٢١)، وصححه الألباني (٥١٢)، وقوى إسناده الأرناؤوط (ص٦٦٦).

والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»[1]

وفي صحيح مسلم أيضا، عن عائشة رضي الله عنها: سألت النبي ﷺ: كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قال: قولي: «السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون»[2].

وأما وصول ثواب الصدقة، ففي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم»[3].

وفي «صحيح البخاري»، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي ﷺ، فقال: يارسول الله، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم»، قال: فإني أشهدك أن حائطي المخرافَ صدقة عنها[4]. وأمثال ذلك كثيرة في السنة.

وأما وصول ثواب الصوم، ففي «الصحيحين»، عن عائشة رضي الله عنها،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز باب مايقال عند دخول القبور (٢/ ٦٧١ ـ ح٩٧٥)، وتقدم تخريجه في مبحث الاستثناء من مباحث الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم في الباب السابق (٢/ ٦٦٩ ـ ح٩٧٤)، وتقدم في مباحث الإيمان ص .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب موت الفجاءة البغتة (٣/ ٢٥٤ ـ ح١٣٨٨)، ومسلم في الوصية باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت (٣/ ١٢٥٤ ـ ح١٠٠٤).

(٤) أخرجه البخاري في مواضع منها في كتاب الوصايا باب إذا قال أرضي أو بستاني صدقة لله عن أمي (٥/ ٤٥٣ ـ ح٢٧٥٦) ط. الريان، وقوله المخراف: أي المكان المثمر، سمى كذلك لما يخرف منه أي يجتنى وانظر فتح الباري (٥/ ٤٥٤).

أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[1].

وله نظائر في «الصحيح».

ولكن أبو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه، لحديث ابن عباس المتقدم. والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع.

وأما وصول ثواب الحج، ففي «صحيح البخاري»، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: **«حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء»**[2]. ونظائره أيضا كثيرة.

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت، ولو كان من أجنبي، ومن غير تركته. وقد دلَّ على ذلك حديث أبي قتادة، حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلما قضاهما قال النبي ﷺ: **«الآن بردت عليه جلدته»**[3].

وكل ذلك جار على قواعد الشرع. وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك، كما لم يمنع من هبة ماله له في حياته، وإبرائه له منه بعد وفاته. وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية.

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم باب من مات وعليه صوم (١٩٢/٤ ـ ح١٩٥٢)، وأخرجه مسلم في الصيام باب قضاء الصيام عن الميت (٨٠٣/٢ ـ ح١١٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في جزاء الصيد باب الحج والنذر عن الميت (٦٤/٤ ـ ح١٨٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣٣٠/٣)، والحاكم في المستدرك وصححه (٥٨/٢) ووافقه الذهبي وحسن الهيثمي إسناده في المجمع (٣٩/٣).

يوضحه: أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت، فكيف بالقراءة التى هي عمل ونية؟!

أدلة من فرق بين العبادات البدنية وغيرها والجواب عنها

قال: (ص٥١٢)

واستدل المقتصرون على وصول العبادات التي تدخلها النيابة كالصدقة والحج بأن النوع الذي لا تدخله النيابة بحال كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن يختص ثوابها بفاعله لا يتعداه، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد، ولا ينوب فيه عن فاعله غيره - وقد روى النسائي بسنده، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مداً من حنطة**»[1].

قال: (ص٥١٦، ٥١٧)

وأما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية - فقد شرع النبي ﷺ الصوم عن الميت، كما تقدم، مع أن الصوم لا تجزىء فيه النيابة، وكذلك حديث جابر رضي الله عنه، قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «**بسم الله والله اكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي**»، رواه أحمد وأبو داود والترمذي[2].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى في كتاب الصيام باب صوم الحي عن الميت من حديث ابن عباس موقوفاً (٢/ ١٧٥ - ح٢٩١٨)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ١٤١) عن ابن عباس موقوفاً، قال الألباني: لا أعرف له أصلاً مرفوعاً، ثم صححه موقوفاً (ص٥١٤)، وبنحوه قال الأرناؤوط (ص٦٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٦، ٣٦٢)، وأبوداود في الأضاحي باب في الشاة يضحى بها (٣/ ٩٩ - ح٢٨١٠)، والترمذي في الأضاحي في أبواب العقيقة (٣/ ٨٥ - ح١٥٢١) وقال غريب من هذا الوجه والعمل على هذا عند أهل العلم، وصححه الألباني بشواهده (ص٥١٦)، وصححه الأرناؤوط تبعاً للحاكم والذهبي (ص٦٧١).

وحديث الكبشين اللذين قال في أحدهما: «اللهم هذا عن أمتي جميعاً» وفي الآخر: «اللهم هذا عن محمد وآل محمد»، رواه أحمد[1]. والقربة في الأضحية إراقة الدم، وقد جعلها لغيره[2]

وكذلك عبادة الحج بدنية، وليس المال ركناً فيه، وإنما هو وسيلة، ألا ترى أن المكي يجب عليه الحج إذا قدر على المشي إلى عرفات، من غير شرط المال. وهذا هو الأظهر، أعنى أن الحج غير مركب من مال وبدن، بل بدني محض، كما قد نص عليه جماعة من أصحاب أبي حنيفة المتأخرين.

وانظر إلى فروض الكفايات: كيف قام فيها البعض عن الباقين؟ ولأن هذا إهداء ثواب، وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنه، وله أن يعطي أجرته لمن شاء.

استدلالات بعض أهل البدع وردها

ذكر الشارح قول أهل البدع المتقدم ثم قال: (ص٥١١)

لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩]. وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾ [يس: ٥٤]. وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٣٩١ ـ ٣٩٢)، وحسن إسناده الهيثمي في المجمع (٤/٢٢)، وحسنه الألباني (ص٥١٦)، وحسن إسناده الأرناؤوط (ص٦٧٢).

(٢) ومنهم من مات في عهده ﷺ كعثمان بن مظعون وغيره والذبح قربة بدنية.

(٣) أخرجه مسلم في الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٢/١٢٥٥ ـ ح١٦٣١).

فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه.

جواب استدلالاتهم

قال: (ص٥١٤ـ ٥١٦)

والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] قد أجاب العلماء بأجوبة: أصحها جوابان[1]:

أحدهما: أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير وتودد إلى الناس، فترحموا عليه، ودعوا له، وأهدوا له ثواب الطاعات، فكان ذلك أثر سعيه، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه، في حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم.

يوضحه: أن الله تعالى جعل الإيمان سببا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه ذلك.

الثاني، وهو أقوى منه: أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى. فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه، وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يبقيه لنفسه.

(١) انظر في أجوبة أهل العلم: مجموع الفتاوى (٣٠٦/٢٤ ـ ٣١٣)، (١٤٢/١٨)، (٢٠٨/٨)، والروح (٢٠١ ـ ٢٠٦).

وقوله سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣٨-٣٩]. آيتان محكمتان، تقتضيان عدل الرب تعالى: **فالأولى** تقتضي أنه لا يعاقب أحدا بجرم غيره، ولا يؤاخذه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا. **والثانية** تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله، ليقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [يس: ٥٤]. على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفي عقوبة العبد بعمل غيره، فإنه تعالى قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [يس: ٥٤].

وأما استدلالهم بقوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله**»[1] فاستدلال ساقط، فإنه لم يقل انقطع انتفاعه، وإنما أخبر عن انقطاع عمله، وأما عمل غيره فهو لعامله، فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل، لا ثواب عمله هو وهذا كالدين يوفيه الإنسان عن غيره، فتبرأ ذمته، ولكن ليس له ما وفي به الدين.

من فروع انتفاع الميت بالعبادات البدنية:

١- استئجار قوم يقرؤون القرآن واهداء ثوابه للميت.

قال: (ص٥١٧)

وأما استئجار قوم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت!! فهذا لم يفعله أحد من السلف، ولا أمر به أحد من أئمة الدين، ولا رخص فيه. والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف. وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار

(١) تقدم تخريجه قريباً.

على التعليم ونحوه، مما فيه منفعة تصل إلى الغير . والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله، وهذا لم يقع عباده خالصة، فلا يكون ثوابه مما يهدى إلى الموتى!! ولهذا لم يقل أحد أنه يكتري من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك إلى الميت، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك، كان هذا من جنس الصدقة عنه، فيجوز.

وفي الاختيار: لو أوصى بأن يعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره، فالوصية باطلة، لأنه في معنى الأجرة، انتهى.

وذكر الزاهدي في «القنية»: أنه لو وقف على من يقرأ عند قبره، فالتعيين باطل.

٢ـ قراءة القرآن وإهداء ثوابه للميت بغير أجرة

قال: (ص٥١٧)

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجرة، فهذا يصل إليه، كما يصل ثواب الصوم والحج فإن قيل: هذا لم يكن معروفاً في السلف، ولا أرشدهم إليه النبي ﷺ ؟.

فالجواب: إن كان مورد هذا السؤال معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء، قيل له: ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول، ومن أين لنا هذا النفي العام؟

فإن قيل: فرسول الله أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة؟ قيل: هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه، وهذا سأله عن الصوم عنه،

فأذن له فيه، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأي فرق بين وصول ثواب الصوم - الذي هو مجرد نية وإمساك - وبين وصول ثواب القراءة والذكر(١)؟.

(انتفاع الميت بإهداء القرآن)

٣- الاهداء للنبي ﷺ

قال: (ص٥١٨)

فإن قيل: ما تقولون في الإهداء إلى رسول الله ﷺ.؟.

قيل: من المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، لأن النبي ﷺ له مثل أجر كل من عمل خيرا من أمته، من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، لأنه هو الذي دل أمته على كل خير، وأرشدهم إليه.

(٤) قراءة القرآن عند قبره

ومن قال: إن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده، باعتبار سماعه كلام الله فهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين، ولاشك في سماعه(٢)،

---

(١) يبقى لنا فعل السلف، فإن هذه هو عمدة الشيخ في منع الإهداء للنبي ﷺ، ولم يذكر هنا من أهدى للميت من السلف، وكذا ابن القيم رحمه الله في كتاب الروح لم يذكر أحداً فعله من السلف، ولو وجده لما احتاج إلى أن يقول (ص٥٢٥): «والقائل أن أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به، فإن هذه شهادة على نفي ما لم يعلمه فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه». اهـ. وهذا الفعل ذريعة لما بعده فالأولى تركه. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية النجم (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) [النجم: ٣٩] (٤/٢٥٨): «ومن هذه الآية استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء». اهـ.

(٢) مسألة سماع الموتى: من المسائل المشهورة، واستدل المثبتون بحديث «حتى إنه ليسمع قرع نعالهم» وبحديث أصحاب قليب بدر، وفيه «ما أنتم بأسمع لي منهم»، والمانعون استدلوا بقوله تعالى: (وماأنت بمسمع من القبور) [فاطر: ٢٢]، وبقوله: =

ولكن انتفاعه بالسماع لايصح[1]، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة، فإنه عمل اختياري، وقد انقطع بموته، بل ربما يتضرر ويتألم، لكونه لم يمتثل أوامر الله ونواهيه، أو لكونه لم يزدد من الخير.

= (إنك لا تسمع الموتى) [النمل: ٨٠].
وأجابوا عن حديث سماع قرع النعال بالخصوصية حال الدفن، وعن حديث القليب بأنه خاص أيضاً لقول قتادة: «أحياهم الله تبكيتاً لهم»، وبأن عمر أنكر ذلك مستدلاً بالآية المذكورة آنفاً، ولو كان فهمه للآية غير صحيح لبين له النبي ﷺ الوجه الصحيح لذلك، كما كان يبينه لمن استشكل شيئاً من أصحابه أو فهمه على غير معناه، وذلك كما قال لعائشة رضي الله عنها «من نوقش الحساب عذب» فقالت: أليس الله يقول: (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) [الانشقاق: ٨]، قال: «ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب». ولما سمعت حفصة رضي الله عنها النبي ﷺ يقول: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» قالت له: أليس الله يقول: (وإن منكم إلا واردها) [مريم: ٧١]، فقال لها: ألم تسمعيه يقول: (ثم ننجي الذين اتقوا) [مريم: ٧٢]، فبين لها أن الورود لا يستلزم الدخول. ولما استشكل بعض أصحابه قوله تعالىٰ: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) [الأنعام: ٨٢] أن هذا: الظلم العام، بين لهم أن المراد به الظلم الأكبر وهو الشرك، (إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان: ١٣]، وغير ذلك كثير مما يدل على أنه لو فهم عمر رضي الله عنه الآية على غير المراد منها لبين له النبي ﷺ الوجه الصحيح في تفسيرها، ولذلك فقوله ﷺ لعمر: «ما أنتم بأسمع لي منهم» يكون ظاهراً في الخصوصية وقد ألف نعمان خير الدين الألوسي رسالة لطيفة سماها (الآيات البينات في عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات)، وحققها محدث الشام بل الدنيا الشيخ الألباني، فلتراجع فإنها نفيسة، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الأقوال في المسألة كما بمجموع الفتاوى (٤/٢٩٧)، ثم ختمها بقوله (٤/٢٩٩): «ومن العلماء من قال: إن الميت في قبره لا يسمع ما دام ميتاً» ولم يتعقبه مما يدل على قوته عنده فالله أعلم.

(١) وقد ذكر شيخ الإسلام خطأً من قال بانتفاع الميت بسماع القرآن كما بمجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٠٠، ٣١٧).

٤ـ القراءة عند القبور

واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور، على ثلاثة أقوال: هل تكره، أم لا بأس بها وقت الدفن، وتركه بعده؟

فمن قال بكراهتها، كأبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية ـ قالوا: لأنه محدث، لم ترد به السنة، والقراءة تشبه الصلاة، والصلاة عند القبور منهي عنها، فكذلك القراءة. ومن قال: لابأس بها، كمحمد بن الحسن وأحمد في رواية ـ استدلوا بما نُقِلَ عَنْ ابن عمر رضي الله عنه: أنه أوصى أن يقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها. ونقل أيضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة. ومنَ قال: لا بأس بها وقت الدفن فقط، وهو رواية عن أحمد ـ أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين.

وأما بعد ذلك، كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده ـ فهذا مكروه، فإنه لم تأت به السنة، ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلاً. وهذا القول لعله أقوى من غيره، لما فيه من التوفيق بين الدليلين[1].

---

(١) القراءة عند القبور صارت الآن حرفة لكثير من الناس، والأدلة المذكورة لا تنهض للاستدلال إذ الوارد عن الصحابة لا يسلم بعضه من مقال، وما يمكن أن يصح منه يحتمل أن يكون اجتهاداً خاصاً، وعلى كل فحصره في وقت الدفن أسهل من إطلاق القول بجوازه والله تعالىٰ أعلم. وانظر المسألة في المغني (٣/٥١٨،٥١٩)، والروح (ص٣٣ وما بعدها)، وأحكام الجنائز للألباني (ص١٩٢،١٩٣).

ثالثاً سؤال القبر وعذابه

الأدلة من الكتاب:

قال رحمه الله: (٤٤٧)

قوله: وبِعَذَابِ القَبْرِ لِمَنْ كَان لَهُ أَهلاً، وسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِير في قَبْرِه عَنْ رَبِّهِ ودِينه ونَبِيِّه، عَلىٰ مَا جاءَتْ بِه الأخبار عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وعَن الصَّحابَة رِضْوانُ اللهِ عَلَيْهِم. والقَبْرُ رَوْضةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، أَوْ حُفْرةٌ مِنْ حُفَرِ النِيرَان.

قال تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦ ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

وقال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧ ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧]. وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر، لأن كثيرا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، أو المراد أعم من ذلك.

الأدلة من السنة:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وهو يُلحَد له، فقال: «أعوذ بالله من عذاب القبر»، ثلاث مرات، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه الملائكة، كأن على وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان»، قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء،

فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها، كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها، يعنى على ملإ من الملائكة، إلا قالوا: ماهذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله[1]، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الارض. فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: ابشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: يارب، أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة،

---

(١) في المسند وغيره (إلى السماء السابعة)، وتأتي (في) بمعنى (على) نحو قوله: (لأصلبنكم في جذوع النخل) [طه: ٧١]، وقوله: (قل سيروا في الأرض) [الأنعام: ١١].

نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح[1]، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة؛ اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السُّفُود من الصوف المبلول[2]، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيث؟ فيقولون فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١ ﴾ [الحج: ٣١]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب، فافرشوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: رب لا تقم

---

(١) المسُوح: جمع مِسح، وهو كساء الصوف أو الشعر.
(٢) السفود: مفرد سفافيد، وهو الحديدة ذات الشعب الملتوية التي يشوىٰ بها اللحم، وهذا بيان لشدة انتزاع الروح من جسد الكافر.

الساعة.» رواه الإمام أحمد وأبوداود، وروى النسائي وابن ماجه أوله، ورواه الحاكم وأبوعوانة الإسفرائيني في «صحيحيهما»، وابن حبان[1].

وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث، وله شواهد من الصحيح، فذكر البخاري رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان، فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل، محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقولان له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما جميعا»**[2].

قال قتادة: روي لنا أنه يفسح له في قبره، وذكر الحديث.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ مر بقبرين، فقال: **«إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، فدعا بجريدة رطبة، فشقها نصفين، وقال: لعله يخفف عنهما مالم ييبسا»**[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٨٧، ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وأخرجه أبوداود في السنة باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤/٢٣٩، ٢٤٠ ـ ح٤٧٥٣)، ورواه الحاكم في المستدرك (١/٣٧ ـ ٤٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا جميعاً بالمنهال بن عمرو وزاذان أبي عمر الكندي، وفي هذا الحديث فوائد كثيرة لأهل السنة وقمع للمبتدعة، ولم يخرجاه لطوله». اهـ. ووافقه الذهبي ـ وانظر الروح (٩١، ٩٢)، وانظر في أنواع من العلم في هذا الحديث: مجموع الفتاوى (٤/٢٨٨ ـ ٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال (٣/٢٠٥ ـ ح١٣٣٨)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/٢٢٠٠ ـ ح٢٨٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز باب الجريدة على القبر (٣/٢٢٢ ـ ح١٣٦١)، وأخرجه =

وفي «صحيح» أبي حاتم عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «إذا قبر أحدكم، أو الإنسان أتاه مَلكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، وللآخر: النكير»، وذكر الحديث[1]... إلخ.

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمَن كان لذلك أهلا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لاعهد له به في هذا الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول. فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا.

سؤال القبر وعذابه للروح والبدن معاً

قال الشارح: (ص٤٥١)

وليس السؤال في القبر للروح وحدها، كما قال ابنُ حزم وغيرُه[2]، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح! والأحاديث الصحيحة ترد القولين. وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعا، باتفاق أهل السنة والجماعة، تُنَعَّمُ النفسُ وتُعذَّبُ مفردة عن البدن ومتصلة به.

عذاب القبر لمن مات وهو مستحقه قُبر أو لا

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق

مسلم في الطهارة باب الدليل على نجاسة البول (١/ ٢٤٠ ـ ح٢٩٢).

(١) أخرجه ابن حبان (ح رقم ٧٨٠)، وأخرجه الترمذي في الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (٣/ ٣٨٣ ـ ح١٠٧١) وقال: حديث حسن غريب، وحسن الألباني إسناده (ص٤٥٠)، وذكر الأرناؤوط أن رجال إسناده على شرط مسلم (ص٥٧٨).

(٢) وكذا قال: إن العذاب على النفس فقط، انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٢، ٢٨٢).

للعذاب ناله نصيبه منه، قبر او لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر ـ وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور[1].

وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك ـ فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه مالا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب مالا يعلمه إلا الله. بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول، ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد[2]. والله المستعان.

احكام الروح مع الدور

فالحاصل أن الدور ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. وقد جعل الله لكل دار أحكاما تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم ـ صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً.

فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم[3].

---

(١) الروح (ص١٠٦).
(٢) الروح (ص١١٣).
(٣) الروح (ص١١٤، ١١٥).

ويجب أن يعلم أن النار التي في القبر والنعيم، ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه الترابَ والحجارة التي فوقه وتحته حتى يكون أعظم حرا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها. بل أعجب من هذا أن الرجلين يُدفنان أحدهما إلى جنب صاحبه. وهذا في حفرة من النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه. وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكن النفوس مولعه بالتكذيب بما لم تحط به علماً.

وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير. وإذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العبادَ كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن الناس، كما في «الصحيح» عنه ﷺ: «لَوْلا أَنْ لا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذابِ القَبْرِ ما أَسْمَعُ»[1] ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعته وأدركته[2].

١- الاختصاص
٢- المنع من الاختصاص
٣- التوقف

سؤال القبر ليس خاصاً بهذه الأمة

وللناس في سؤال منكر ونكير: هل هو خاص بهذه الأمة أم لا ثلاثة أقوال: الثالثُ التوقف[3]، وهو قول جماعة، منهم أبو عمر بن عبد البر،

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس في كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت (٤/ ٢٢٠٠ ـ ح٢٨٦٧)، وأخرجه في نفس الموضع من حديث أنس (٤/ ٢٢٠٠ ـ ح٢٨٦٨) دون قوله «ما أسمع».

(٢) الروح (ص١١٥، ١١٩).

(٣) أي قول بالاختصاص وقول بمنعه والثالث بالتوقف، وهذه عادة أهل العلم في اختصار الأقوال المعلومة من أس المسألة. وانظر هذه المسألة في الروح المسألة الحادية عشرة (ص١٤٣ ـ ١٤٧)، وانظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٦).

فقالَ: وفي حديثِ زيدِ بن ثابتٍ عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ هذهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى في قُبُورِها»[1] ـ مِنْهُم مَنْ يَرْوِيه «تُسأَل»، وعلى هذا اللفظ يُحْتَمَلُ أَنْ تكون هذه الأمة قد خُصَّتْ بِذلك، وهذا أمر لا يقطع به، ويظهر عدم الاختصاص، والله أعلم. وكذلك اختلف في سؤال الأطفال أيضاً[2].

انقطاع عذاب القبر لبعض من استحقه

وهل يدوم عذاب القبر أو ينقطع؟ جوابه أنه نوعان: منه ما هو دائم، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]. وكذلك في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة»، رواه الإمام أحمد في بعض طرقه[3]، والنوع الثاني: أنه مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه[4]، كما تقدم ذكره في الممحصات العشرة[5].

---

(١) هو جزء من حديث أبي سعيد المتقدم قريباً في مسلم (٤/ ٢٢٠٠ ـ ح٢٨٦٧)، وانظر الروح (ص٤٨).

(٢) وذَكَرَ ابنُ القيِّم فيها وجهين في مذهب أحمد ومال لعدم السؤال لأن الطفل لا يعقل الرسولَ والمرسِلَ بخلاف امتحانهم في الآخرة فإن عقولهم معهم. الروح (ص١٤٩ ـ ١٥١)، والاختلافُ في سؤالِ المجانينَ من هذا الباب، وكذلك اختلف في سؤال الأنبياء في قبورهم، وذكر ابن القيم أنهما وجهان في مذهب أحمد كذلك، الروح (ص١٤١)، وانظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٦، ٢٧٧ ـ ٢٨١).

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

(٤) انظر الروح (ص١٥١،١٥٢).

(٥) وسبق ذكرها في مباحث الإيمان.

المبحث الرابع
البعث

أولاً: الأدلة من القرآن والسنة

قال الشارح: (ص٤٥٦-٤٦٣)

قوله: وَنُؤْمِنُ بِالبَعْثِ وجَزَاءِ الأَعْمَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ، والعَرْضِ وَالحِسَابِ، وقِرَاءَةِ الكِتَابِ، والثَّوابِ والعِقَابِ، والصِرَاطِ والمِيزَانِ.

الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السليمة. فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز، وأقام الدليل عليه، ورد على منكريه في غالب سور القرآن.

وذلك: أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالآخرة، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقرّ بالربّ[1]، إلا من عاند، كفرعون، بخلاف الإيمانِ باليوم الآخر، فإنّ منكريه كثيرون، ومحمدٌ ﷺ لما كان خاتمَ الأنبياءِ، وكان قد بَعثَ هو والساعةَ كهاتين[2]، وكان هو الحاشرُ المقفى[3] - بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من

---

(١) راجع مبحث الفطرة في توحيد الربوبية أول الكتاب.

(٢) أخرج البخاري في تفسير (والنازعات) من حديث سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام: «بعثت والساعة كهاتين». (٨/ ٦٩١ - ح٤٩٣٦)، وأخرجه مسلم في الفضائل باب في أسمائه ﷺ (٤/ ١٨١٨ - ح٢٣٥٤).

(٣) أخرج البخاري عن جبير بن مطعم أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». أخرجه في تفسير الصف باب (يأتي من بعدي اسمه أحمد) (٨/ ٦٤٠ - ح٤٨٩٦)، وأخرجه مسلم في الفضائل باب في =

كتب الأنبياء.

إنكار الفلاسفة معاد الأبدان

ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم، أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ ، وجعلوا هذا حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري .

والقرآنُ بيَّنَ معادَ النفسِ عندَ الموت، ومعادَ البدنِ عند القيامة الكبرىٰ في غيرِ موضع. وهؤلاءِ يُنكِرونَ القيامةَ الكبرىٰ، وينكرون معادَ الأبدان، ويقولُ مَنْ يقولُ منهم: إنَّهُ لَمْ يُخْبِرْ به إلا محمدٌ ﷺ على طريق التخييل! وهذا كذبٌ، فإن القيامةَ الكبرىٰ هي معروفةٌ عند الأنبياءِ، مِنْ آدم إلى نوح، إلى إبرهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم عليهم السلام، وقد أخبر الله بها من حينِ أهبط آدم، فقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٤]، ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٥]. ولما قال إبليس اللعين ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [ص: ٧٩-٨١].

وأمانوح عليه السلام فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح: ١٧-١٨].

وقالَ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٢]. إلى آخر القصة. وقال: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ

= أسمائه ﷺ (٤/ ١٨٢٨ ـ ح٢٣٥٤)، والعاقب والمقفى شيء واحد، وهو الذي ليس بعده نبي، وورد اسم المقفى في حديث أبي موسى الأشعري عند مسلم في نفس الباب (ح٢٣٥٥).

ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأما موسى عليه السلام، فقال الله تعالى لما ناجاه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝﴾ [طه: ١٥-١٦]. بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإنما آمن بموسى، قال تعالى حكايه عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝﴾ [غافر: ٣٢-٣٣]، إلى قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝﴾ [غافر: ٣٩]، إلى قوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝﴾ [غافر: ٤٦]. وقال موسى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد أخبر الله في قصة البقرة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ [البقرة: ٧٣].

وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، في آيات من القرآن، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝﴾ [الزمر: ٧١]. وهذا اعترافٌ من أصناف الكفار الداخلين جهنمَ أن الرسل أنذرتْهم لقاءَ يومهم هذا. فجميعُ الرسل أنذروا بما أنذرَ به خاتمهم، من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة[1] فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد، يذكر ذلك فيها: في الدنيا والآخرة.

وأمرَ نبيه أن يقسم به على المعاد، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٣]، الآيات. وقال تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [التغابن: ٧].

وأخبر عن اقترابها، فقال: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]. ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٖ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]. ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴾ [المعارج: ١-٢]، ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدٗا وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴾ [المعارج: ٦-٧]

وذم المكذبين بالمعاد، فقال: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥]. ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨]. ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكّٖ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦]. ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقّٗا ﴾ [النحل: ٣٨]، إلى أن قال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩]. ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩]. ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيٗا وَبُكْمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرٗا ۝ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقٗا جَدِيدًا ۝ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلٗا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٩٧- ٩٩].

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقٗا جَدِيدٗا ۝ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقٗا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل(١):

(١) هذا وما بعده منقول بلفظه من مختصر الصواعق (١/ ١٠٢، ١٠٣).

فإنهم قالوا أولاً: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩﴾ [الإسراء: ٤٩]، فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم، فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت، كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟! فإن قلتم: كنا خلقا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء ـ فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقا جديدا؟! وللحجة تقدير آخر، وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام، مع شدتها وصلابتها، بالإفناء والاحالة ـ فما الذي يعجزه فيما دونها؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: من يعيدنا اذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الإسراء: ٥١]. فلما أخذتهم الحجة، ولزمهم حكمها، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع، وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: عسى أن يكون قريبا.

ومن هذا قوله⁽¹⁾: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨] إلى آخر السورة. فلو رامَ أعلمُ البشرِ وأفصحُهم وأقدرُهم على البيانِ، أنْ يأتيَ بأحسنِ من هذهِ الحجةِ، أو بمثلِها، في ألفاظٍ تشابهُ هذه الألفاظ في الإيجاز ووضح الأدلة وصحّة البرهانِ لما قدرَ. فإنه سبحانهُ افتتحَ هذه الحجّةَ بسؤالٍ أوْرَدَهُ مُلحدٌ، اقتضى جواباً، فكانَ في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾ [يس: ٧٨] ما وَفَّى بالجواب. وأقامَ الحُجّةَ وأزالَ الشبهةَ لَمَا أرادَ سبحانهُ مِنْ تأكيدِ الحُجّةِ وزيادةِ تقريرِها فقال: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يس: ٧٩]، فاحتجَّ بالإبداءِ على الإعادةِ،

---

(١) بلفظه أيضاً من مختصر الصواعق (١/ ١٠٠).

وبالنَّشْأةِ الأُولىٰ على النَّشأةِ الأخرىٰ إذ كلّ عاقلٍ يَعْلَمُ عِلماً ضرورياً أنّ مَنْ قَدِرَ على هذه، قَدِرَ على هٰذِه، وأنَّه لَوْ كانَ عاجزاً عن الثانية لكانَ عن الأولى أعْجزَ وأعْجزَ.

ولَمّا كانَ الخلْقُ يستلْزِمُ قُدرةَ الخالقِ على مخلوقِه، وعِلمِه بتفاصيلِ خَلْقِه أتْبعَ ذلكَ بقولِه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [يس: ٧٩]. فهوَ عليمٌ بتفاصيلِ الخلقِ الأولِ وجُزئياتِه، وموادِّه وصورتِه، فكذلكَ الثاني. فإذا كانَ تامَّ العلم، كاملَ القدرةِ، كيفَ يتعذرُ عليهِ أن يحيَ العظامَ وهيَ رميمٌ؟ ثمَّ أكّدَ الأمرَ بحجةٍ قاهرةٍ، وبرهانٍ ظاهرٍ، يتضمنُ جواباً عن سؤالِ مُلحدٍ آخَرَ يقولُ: العظامُ إذا صارتْ رميماً عادتْ طبيعتُها باردةً يابسةً، والحياةُ لابدَّ أن تكونَ مادَّتها وحامِلُها طبيعةٌ حارَّةٌ رطْبَةٌ بما يَدُلّ على أمرِ البعْثِ، ففيهِ الدليلُ والجوابُ معاً، فقالَ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝﴾ [يس: ٨٠]. فأخبرَ سبحانَه بإخراجِ هذا العنصرِ، الذي هو في غايةِ الحرارةِ واليُبوسَةِ، مِن الشَّجرِ الأخْضرِ المُمْتلىءِ بالرطوبَةِ والبرودَةِ، فالذي يُخرِجُ الشيءَ مِنْ ضِدِّه، وتَنْقادُ لهُ موادُّ المخلوقاتِ وعناصِرُها و لاتستعصي عليهِ هوَ الذي يفعلُ ما أنكرَهُ الملحدُ ودفعهُ، من إحياءِ العظامِ وهي رميمٌ.

ثم أكدَ هذا بأخذِ الدّلالةِ منَ الشيءِ الأجلِّ الأعظمِ، على الأيسرِ الأصغرِ فإنّ كلّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ مَنْ قدرَ على العظيمِ الجليلِ فهوَ على مادونَه بكثيرٍ أقدرُ وأقدرُ، فمن قدرَ على حَمْلِ قنطارٍ فهوَ علىٰ حملِ أوقيّةٍ أشدُّ اقتداراً، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ (١) [يس: ٨١]. فأخبرَ أنَّ الذي أبدعَ السمواتِ والأرضِ، على جلالتِهما، وعظمِ شأنِهما، وكِبَرِ أجسامِها، وسعتِهما، وعجيبِ خلقِهما، أقدرعلى أنْ يُحْيِيَ عظاماً قد صارتْ رميماً، فيردَّها إلى حالتِها الأولى.

كما قال في موضع آخر: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ ﴾ [يس: ٨١].
ثم أكدَ سبحانَهُ ذلكَ وبيَّنَهُ ببيانٍ آخرٍ، وهوَ أنَّهُ ليسَ فعلُهُ بمنزلةِ غيرِه، الذي يفعلُ بالآلاتِ والكلفةِ، والتعبِ والمشقَّةِ، ولا يُمكنُهُ الاستقلالُ بالفعل، بل لابدَّ معهُ منْ آلةٍ ومعينٍ، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته، وقوله للمكون: «كن»، فإذا هو كائن كما شاءه وأراده[1]. ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: ٨٣].

ومن هذا قوله سبحانه[2]: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]. فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مُهملاً عن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، إلى آخر السورة. فإن من نقله من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم شق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس والقوى، والعظام والمنافع، والأعصاب والرباطات التي هي أشده، وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة، التي هي أتم الصور وأحسنُ الأشكال كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته،

---

(١) انظر الفتاوى (١٧/ ٢٤١ ـ ٢٦١)، ودرء التعارض (١/ ٣٠)، (٧/ ٣٧٤).
(٢) بلفظه من مختصر الصواعق (١/ ١٠٣، ١٠٤)، وانظر أيضاً مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

ولا تعجز عنه قدرته. فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب، بالقول الوجيز، الذي لايكون أوجز منه، والبيان الجليل، الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب، الذي لا تقع الظنون على أقرب منه.

وكم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الحج: ٥]، إلى أن قال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج ٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢]، إلى أن قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٦]. وذكر قصة أصحاب الكهف وكيف أبقاهم موتى ثلثمائة سنة شمسية، وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية، وقال فيها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ [الكهف: ٢١].

١- الاستدلال بآياته .
٢- الاستدلال بأفعاله ومخلوقاته
٣- الاستدلال بأسمائه وصفاته .

ثانياً: تخبط الفرق في معنى البعث والرد عليهم

قال: (ص٤٦٣-٤٦٤)

والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة، لهم في المعاد خبط واضطراب.

وهم فيه على قولين: منهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد. ومنهم من يقول: تفرق الأجزاء ثم تجمع، فأوْرَدَ عليهم: الإنسان الذي يأكله حيوان، وذلك الحيوان أكله إنسان، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا، لم تعد من هذا؟

وأورد عليهم: أن الإنسان يتحلل دائما، فماذا الذي يُعاد؟ أهو الذي كان وقت الموت؟ فإن قيل بذلك، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة، وهو خلاف ما جاءت به النصوص، وإن كان غير ذلك، فليس بعض الأبدان بأولى من بعض! فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاءِ أصلية لا تتحلل، ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني! والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل، ليس فيه شيء باق، فصار ما ذكروه في المَعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في إنكار مَعاد الأبدان.

والقولُ الذي عليهِ السلفُ وجمهورُ العقلاءِ: أنَّ الأجسامَ تنقلبُ من حالٍ إلى حالٍ، فتستحيلُ تراباً، ثم يُنْشِئُها اللهُ نشأةً أخرى، كما استحالَ في النشأةِ الأولى: فإنهُ كانَ نطفةً، ثم صارَ علقةً، ثم صار مُضْغَةً، ثم صارَ عظاماً ولحماً، ثم أنشأهُ خلقاً سَوياً. كذلكَ الإعادَةُ: يُعيدُهُ اللهُ بعدَ أنْ يَبْلَى كُلُّهُ إلا عَجْبَ الذنب، كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ، أنه قال: «كلُّ ابنِ آدمَ يبلى إلا عُجْبُ الذَّنب، منهُ خُلق ابنُ آدم، ومنه يركَبُ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب (ونفخ في الصور) (٨/ ٥٥١ ـ ح٤٨١٤)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة باب مابين النفختين (٤/ ٢٢٧٠ ـ ح٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة. والعجْب: بسكون الجيم: هو عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس =

وفي حديث آخر: «إن السماء تُمطِرُ مطراً كَمَنيِّ الرجال، يَنبُتون في القبور كما ينبتُ النباتُ»[(1)].

= العصعص وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع. الفتح (٨/ ٥٥٢)، وأخرج الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٩) عن أبي سعيد مرفوعاً «قيل يا رسول الله: ما عجَب الذنب؟ قال: مثل: حبة الخردل» وصححه ووافقه الذهبي، قال الأرناؤوط (ص٥٩٨): مع أنه من رواته دراج عن أبي الهيثم. اهـ. قال في الفتح (٨/ ٥٥٣): «وقال العلماء: هذا عام يخص منه الأنبياء لأن الأرض لا تأكل أجسادهم، وألحق ابن عبدالبر بهم الشهداء، والقرطبي: المؤذن المحتسب، قال عياض: فتأويل الخبر، وهو (كل ابن آدم يأكله التراب): أي كل ابن مما يأكله التراب، وإن كان التراب لا يأكل أجساداً كثيرة كالأنبياء». اهـ.

(1) أخرج الطبراني في المعجم الكبير (ح٩٧٦١) حديث سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء قال: ذكروا عند عبدالله الدجال، فذكر الحديث وفيه «ثم يرسل الله ماء من تحت العرش يمني كمني الرجال فتنبت جسمانهم ولحمانهم من ذلك الماء»، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩٨ ـ ٦٠٠) وقال صحيح على شرط الشيخين، واستدل الذهبي بقوله: (ما احتجا بأبي الزعراء)، وذكر الألباني انقطاعه (ص٤٦٤)، قال الأرناؤوط (ص٥٩٩): «رجاله ثقات إلا أن في سنده انقطاعاً، فإن أبا الزعراء واسمه يحي بن الوليد لم يرو عن أحد من الصحابة»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٩، ٣٣٠): رواه الطبراني وهو موقوف مخالف للحديث الصحيح وهو قول النبي ﷺ: «أنا أول شافع». اهـ. وذلك لأن الحديث فيه «ثم يأذن الله جل ذكره في الشفاعة فيكون أول شافع يوم القيامة جبريل ثم إبراهيم ثم موسى أو قال عيسى قال سلمة: ثم يقوم نبيكم ﷺ شافعاً لا يشفع أحد بعده فيما يشفع فيه وهو المقام المحمود». وأيضاً ورد هذا في حديث الصور الطويل المشهور، ففي رواية البيهقي في آخر كتاب البعث والنشور (ص٣٣٥ ـ ٣٤٣ ـ ح٦٠٩) من حديث أبي هريرة. وفيه (ص٣٣٨) «ثم ينزل الله عليكم ماءً من تحت العرش كمني الرجال، ثم يأمر الله السماء أن تمطر أربعين يوماً حتى يكون فوقهم اثنا عشر ذراعاً، ويأمر الله الأجساد أن تنبت كنبات الطرا وكنبات البقل».

وفي هذا يقول ابن القيم في النونية (١/ ١٠٧) شرح ابن عيسى:

وإذا أراد الله إخـــراج الـــورى   بعـد الممـات إلـى المعـاد الثـانـي =

فالنشأتان نوعان تَحْتَ جنسٍ، يتفقانِ ويتماثلانِ من وَجْهٍ، ويفترقانِ ويتنوعانِ من وجهٍ[(١)]. والمَعادُ هو الأولُ بعينِهِ، وإنْ كان بَيْنَ لوازمِ الإعادَهِ ولوازمِ البداءَة فَرْقٌ، فَعَجْبُ الذنبِ هو الذي يبقى، وأما سائِرُهُ فيستحيلُ، فَيُعادُ من المادةِ التي استحالَ إليها. ومعلومٌ أنَّ مَنْ رأى شخصاً وهو صغيرٌ، ثم رآه وَقَدْ صارَ شيخاً، عَلِمَ أنَّ هذا هوَ ذاكَ، مَعَ أنَّهُ دائماً في تحلُّلٍ واستحالَةٍ وكذلكَ سائرُ الحيوانِ والنباتِ، فمن رأى شجرةً وهي صغيرةٌ ثم رآها كبيرةً قال هذه تلكَ، وليست صفةُ تلكَ النشأةِ الثانيةِ مماثلةً لصفةِ هذه النشأةِ، حتى يقالَ إنَّ الصفاتَ هي المُغَيَّرَةُ، لاسيما أهلُ الجنةِ إذا دخلوها فإنهم يدخلونَها على صورةِ آدم، طولُهُ ستونَ ذراعاً، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرِهما[(٢)]، وروي: أنَّ عَرْضَهُ سَبْعَةُ أَذْرُعٍ[(٣)]. وتلكَ

= ألقى على الأرض التي هم تحتها ... والله مقتـــــدر وذو سلطـــــان
مطـراً غليظـاً أبيضـاً متتـابعـاً ... عشـراً وعشـراً بعـدهـا عشـران
فتظل تَنْبُتُ منه أجسام الورى ... ولحـومهـم كمنـابـت الـريحـان
والله ينشـىء خلقـه فـي نشـأة ... أخـرى كمـا قـد قـال فـي القـرآن

(١) الجنس أوسع من النوع، فالذكر نوع، والأنثى نوع، يجمعهما جنس البشر، فيتفق النوعان من جهة الجنسية، ويفترقان من جهة النوعية. فالمعاد الثاني هو المبدأ الأول من جهة الجنسية، وبينهما افتراق من جهة النوعية فلوازم البدء ليس كلوازم الإعادة.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب خلق آدم وذريته (٦/ ٣٦٢ ـ ح٣٣٢٦).

(٣) ورد هذا في حديث رواه البيهقي في كتاب البعث والنشور نشر مركز الخدمات والأبحاث الثقافية بلبنان ط.١ سنة١٤٠٦هـ (ص٢٤٠ ـ ح٤٠٦ ـ ٤٠٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ولفظه «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمس مائة عام على خلق آدم ثماني عشر ذراعاً في سبعة أذرع». قال البيهقي: ورواية أبي صالح وهمام وأبي زرعة عن أبي هريرة «على صورة آدم ستين ذراعاً» أصح من هذه الرواية. اهـ. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٠) رواه الطبراني في الأوسط وفيه =

نشأةٌ باقيةٌ غيرُ مُعَرضَةٍ للآفاتِ، وهذهِ النشأةَ فانيَةٌ معرضةٌ للآفاتِ[1].

= عدي بن الفضل التيمي مولاهم وهو ضعيف. اهـ.

(١) هذا المبحث مختصر مما كتبه شيخ الإسلام بألفاظه، انظر مجموع الفتاوى (١٧/٢٤٦ - ٢٦١).

المبحث الخامس
القيامة الكبرى

هذا المبحث يشمل ما يكون بعد البعث وحتى دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار

فهذا المبحث يشمل الحوض والحساب والميزان والصراط والشفاعة، وقد اخترت هذا الترتيب في مطالبه؛ لأن هذا هو الترتيب الذي دلت عليه الأدلة واختاره الشارح فقد اختار أن الحوض بعد الخروج من القبور لأن الناس يخرجون عطاشاً، واختار أن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لتقديرها فيكون بعدها، واختار أن الميزان قبل الصراط.

ثم إن الشفاعة تشمل كل ذلك، فإن هناك شفاعة للفصل بين العباد ثم شفاعة لقوم استوجبوا النار ألا يدخلوها، وشفاعة لرفع درجات أهل الجنة، وشفاعة في خروج أهل الكبائر من النار من الموحدين، وغير ذلك ولما كانت أكثر أنواعها بعد الصراط، لذا رأيت تأخيرها إلى ما بعد مطلب الصراط.

وفيما يلي بيان اختيارات الشارح

قال رحمه الله: (ص٢٥٢)

قال العلامة أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في «التذكرة»[1]: واختلف في الميزان والحوض: أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان قبل، وقيل: الحوض.

قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل. قال القرطبي: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم، كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط.

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله، في كتاب كشف علم الآخرة: حكى

(١) التذكرة (١/ ٣٠٢، ٣٠٤).

بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله. قال القرطبي: هو كما قال[1].

وقال: (ص٤٧٢)

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها[2].

وقال: (ص٤٧٥)

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله، أن الحوض قبل الميزان، والصراط بعد الميزان[3]. ففي «الصحيحين»: «أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة النار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة»[4]. وجعل القرطبي في «التذكرة» هذه القنطرة صراطا ثانيا للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار[5]، والله تعالى أعلم.

---

(١) واستشكل في كون الحوض قبل الصراط، وذلك لأن قوله: «ومن شرب لم يظمأ أبداً» يدل على أن من شَرِبَ مِنهُ ممنْ استوجب النار أن يكون رياناً في النار، وقد قال عياض بنحو ذلك، وأنه لا يلزم أن العصاة من هؤلاء الذين يشربون من الحوض أن لا يدخلوا النار، ولكن يحتمل أن من قدر عليه التعذيب منهم أن لا يعذب فيها بالظمأ بل بغيره. قال في الفتح(١١/٤٦٦): ويدفع هذا الاحتمال أنه وقع في حديث أبي بن كعب عند ابن أبي عاصم في ذكر الحوض: «وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ لَمْ يرْوَ أَبَداً». اهـ.

(٢) التذكرة (ص٣٠٩).

(٣) تقدم قريباً.

(٤) أخرجه البخاري في أول المظالم باب قصاص المظالم(٥/١١٥ـح٢٤٤٠)ط. الريان وأخرجه أحمد(٣/١٣) من حديث أبي سعيد الخدري، وليس في مسلم فيما بين أيدينا من نسخ والله أعلم

(٥) التذكرة (ص٣٣٩).

أولاً: الحوض

قال رحمه الله: (ص٢٥٠-٢٥١)

قوله: والحَوْضُ - الذي أكْرَمَهُ اللهُ تَعَالىٰ بِهِ غِيَاثاً لأمَّتِه حَقٌّ.

الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضعة وثلاثون صحابياً، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، تغمده الله برحمته، في آخر تاريخه الكبير، المسمى بـ«البداية والنهاية»[(١)].

فمنها: ما رواه البخاري رحمه الله تعالى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء**»[(٢)].

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «**ليردن علي ناس من أصيحابي الحوض حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لاتدري ما أحدثوا بعدك**». رواه مسلم[(٣)].

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: «أغفى رسول الله ﷺ أغفاءة، فرفع رأسه مبتسما، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: **إنه نزلت علي آنفا سورة، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم**

---

(١) الجزء الأول من النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٣٣٧ - ٣٧٣)، وانظر في طرقها أيضاً فتح الباري (١١/ ٤٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب في الحوض (١١/ ٤٦٣، ٤٦٤ - ح٦٥٨٠)، وأخرجه مسلم في الفضائل باب إثبات حوض النبي ﷺ (٤/ ١٨٠١ - ح٢٣٠٣).

(٣) أخرجه بلفظه البخاري في الرقاق باب في الحوض (١١/ ٤٦٤ - ح٦٥٨٢)، ومسلم بنحوه في الموضع السابق (ح٢٣٠٤).

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾ [الكوثر: ١]، حتى ختمها، ثم قال لهم: **هل تدرون ما الكوثر»؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يارب، إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»**(١).

ورواه مسلم، ولفظه: **«هو نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة»**، والباقي مثله(٢).

ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان(٣) من ذلك الكوثر إلى الحوض.

والحوض في العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه، ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط.

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أنا فرطكم على الحوض»**(٤). والفرط: الذي يسبق إلى الماء.

وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني فرطكم علي الحوض، من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليَرِدَنَ علي أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم»**،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة. (١/٣٠٠ ـ ح٤٠٠).

(٣) يشخب: أي يسيل، من الشخب وهو السَّيلان، وأصله ما يخرج من تحت يد الحالب عند كل غمزة وعصرة لضرع الشاة، انظر النهاية لابن الأثير (٢/٤٥٠).

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق باب في الحوض (١١/٤٦٥ ـ ح٦٥٨٩)، والفرط: الذي يسبق إلى الماء المتقدم إليه، انظر النهاية (٣/٤٣٤).

قال أبوحازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت : نعم. فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري، لسمعته وهو يزيد فأقول: «إنهم من أمتي» فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي»[(١)]. سحقاً: أي بعداً.

والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك[(٢)]، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر[(٣)].

وفي بعض الأحاديث: أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في حالٍ من المسك والرضراض من اللؤلؤ: قضبان الذهب[(٤)]، ويثمر

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن باب ما جاء في قوله تعالىٰ: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) [الأنفال: ٢٥](١٣/٣،٤ ـ ح٧٠٥٠)، وأخرجه مسلم في الفضائل باب إثبات حوض نبينا (١٧٩٣/٤ ـ ح٢٢٩٠).

(٢) فأخذ من كلٍ صفة أعلاها بياضاً، وحلواً وطيباً، واجتماع هذه الصفات يمنع ما يجده الإنسان من ثقل إذا ما انفردت واحدة منها، وعلى كلٍ فماؤه ليس من جنس ما في الدنيا والله أعلم.

(٣) في حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً في صحيح البخاري (حوضي مسيرة شهر) (٤٦٣/١١ ـ ح٦٥٧٩)، وفي الروايات اختلاف في تحديد مسافته، وذكر النووي أنه ليس في ذكر المسافة القليلة ما يدفع المسافة الكثيرة، فالأكثر ثابت بالحديث الصحيح فلا معارضة، وحاصله أنه يشير إلى أنه أخبر أولاً بالمسافة اليسيرة ثم أعلم بالمسافة الطويلة فأخبر بها كأن الله تفضل عليه باتساعه شيئاً بعد شيء. وجمع غيره باختلاف السير البطيء والسير السريع. وانظر فتح الباري (٤٧٢/١١).

(٤) أخرج أحمد في المسند (٣٩٨/١ ـ ٣٩٩) عن ابن مسعود مرفوعاً: «حاله المسك ورضراضه الثوم» وضعفه الأرناؤوط (ص٢٨١)، والحال: التراب اللين، والرضراض: ما دق من الحصى.

ألوان الجواهر، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء. وقد ورد في أحاديث أن لكل نبي حوضاً، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً[(١)] جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

ثم ذكر الشارح قول القرطبي في أن الحوض قبل الصراط وسبق ذلك مبسوطاً.

قال: (ص٢٥٢)

ثم قال القرطبي: ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض، بل في الأرض المبدلة، أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء[(٢)]. انتهى. فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأَخْلِقْ بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

---

(١) أخرجه الترمذي عن سمرة مرفوعاً بلفظ «إن لكل نبي حوضاً، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني أرجوا أن أكون أكثرهم واردة»، أخرجه في صفة القيامة والرقائق والورع باب ما جاء في صفة أواني الحوض (٤/ ٥٤٤ ـ ح٢٤٤٥) وحسنه الألباني (ص٢٥١)، وقد ربط ذلك بقوله ﷺ: «إني لأذود عن حوضي» قال في الفتح (١١/ ٤٧٤): «والحكمة في الذود المذكور أنه ﷺ يريد أن يرشد كل أحد إلى حوض نبيه على ما تقدم أن لكل نبي حوضاً وأنهم يتباهون بكثرة من يتبعهم، فيكون ذلك من جملة إنصافه ورعاية إخوانه من النبيين، لا أنه يطردهم بخلاً عليهم بالماء. ويحتمل أن يطرد من لا يستحق الشرب من الحوض والعلم عند الله تعالىٰ». اهـ.

(٢) التذكرة (١/ ٣٠٤).

ثانياً: جزاء الأعمال والعرض والحساب

قال رحمه الله: (ص٤٦٤-٤٦٩)

وقوله: وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ

قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٣]. ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: ٢٥]. والدين: الجزاء، يقال: كما تدين تدان، أي كما تجازي تجازَى، وقال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧ والأحقاف: ١٤ والواقعة: ٢٤]، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦]. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ [النمل ٨٩-٩٠]، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾ [القصص: ٨٤]. وأمثال ذلك. وقال ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1]. وسيأتي لذلك زيادة بيان عن قريب، إن شاء الله تعالى[2].

وقوله: والعَرْضِ والحِسَابِ، وقِرَاءَةِ الكِتَابِ، والثَّوابِ والعِقَابِ.

قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٥-١٨]، إلى آخر السورة.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة باب تحريم الظلم (٤/١٩٩٤ - ح٢٧٧٥).

(٢) في مباحث القدر.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝ ﴾ [الانشقاق: ٦-١٥].

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ [الكهف: ٤٨]. ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، إلى آخر السورة.

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥]، إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ ﴾ [غافر: ١٧].

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وروى البخاري رحمه الله في «صحيحه»، عن عائشة، أن النبي ﷺ قال: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**»، فقلت: يارسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ ﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب**»[1].

---

(1) أخرجه البخاري في مواضع منها في كتاب العلم باب من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه (٢٣٧/١ - ح١٠٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب إثبات الحساب (٢٢٠٤/٤ - ح٢٨٧٦).

يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكنه تعالى يعفو ويصفح. وسيأتي لذلك زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أولَ من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أو جُوزي بصعقة يوم الطور؟**»[1] وهذا صعق في موقف القيامة، إذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذ يصعق الخلائق كلهم».

فإن قيل: كيف تصنعون بقوله في الحديث: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الارض، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش**»؟[2]

قيل: لاريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث، فركب بين اللفظين، فجاء هذان الحديثان هكذا: أحدهما: «**أن الناس يصعقون**[3] **يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى. الخ**»، كما تقدم، والثاني: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة**»، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر[4].

---

(١) تقدم تخريجه في مبحث النبوات.

(٢) أخرجه البخاري في الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة (٥/ ٨٥ ـ ح٢٤١٢) ط. الريان، وأخرجه مسلم في الفضائل، بابٌ مِنْ فضل موسى (٤/ ١٨٤٥ ـ ح٢٣٧٤).

(٣) انظر في الخلاف في عدد الصعقات هل هي ثلاثة أو أربعة: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦١)، (١٦/ ٣٥، ٣٦).

(٤) ذهب الشيخ الألباني في تعليقه إلى أن الحديث لم يتركب على الراوي ولا إشكال فيه وأن ثمة شاهداً لرواية أبي سعيد رضي الله عنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم وساقها ثم قال: «ومن هذين الحديثين يتبين أن هذه الصعقة الثانية إنما هي =

وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزي، وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم، وشيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير، رحمهم الله[(١)].

وكذلك اشتبه على بعض الرواة، فقال: **«فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل»**؟ والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول[(٢)]. وعليه المعنى الصحيح، فإن الصَّعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم، فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي ربه يوم القيامة. فتأمل هذاالمعنى العظيم ولا تهمله.

وروى الإمام أحمد، والترمذي، وأبو بكر بن أبي الدنيا، عن الحسن، قال: سمعت أبا موسى الأشعري يقول: قال رسول الله ﷺ: **«يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتي كتابه بيمينه، وحوسب حسابا يسيرا، دخل الجنة، ومن أوتي كتابه بشماله، دخل النار»**[(٣)].

= صعقة البعث المذكورة في الآية، وليست صعقة تقع لفصل القضاء كما ذكر الشارح تبعاً للإمام ابن القيم وعلى ذلك فلا إشكال في الحديث والله أعلم». اهـ.

(١) انظر الروح (ص٧٤، ٧٥) حيث نقل ذلك أيضاً عن المزي، وانظر النهاية لابن كثير (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١)، وانظر فتح الباري (٦/ ٤٤٥).

(٢) أي قوله: «أو جُوزي بصعقة الطور»، وقوله: «أم كان ممن استثنى الله عز وجل» يعني (لا تصيبه النفخة) كما صرحت به رواية ابن أبي الدنيا عن الحسن مرسلاً كما في الفتح (٦/ ٤٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع باب ما جاء في العرض (٤/ ٥٣٣ ـ ح٢٤٢٥) من حديث أبي هريرة وضعفه، وذكر حديث أبي موسى =

وقد روى ابن أبي الدنيا عن ابن المبارك أنه أنشد في ذلك شعرا:

طارت الصحف في الأيدي منشرة ... فيها السرائر والأخبار تطلع
كيف سهوك والأنباء واقعة ... عما قليل، ولا تدري بما تقع
في الجنان وفوز لا انقطاع له ... أم الجحيمُ فلا تبقي ولا تدعُ
تهوي بساكنها طورا وترفعهم ... إذا رجوا مخرجا من غمها قمعوا
طال البكاء فلم يُرحم تضرعهم ... فيها، ولا رقية تغني ولا جزع
لينفع العلمُ قبل الموت عالمه ... قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا[1]

قال: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى.
له عنه في سير أعلام النبلاء (٨/٤١٣).

ثالثاً: الميزان

قال: (ص٤٧٢-٤٧٥)

وقوله: والمِيزَانِ.

أي: ونؤمن بالميزان. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

ثم ذكر الشارح قول القرطبي في أن الميزان بعد الحساب ثم ذكر عنه أنه قال:

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة[١]، والله أعلم.

والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان.

روى الإمام أحمد، من حديث أبي عبد الرحمن الحُبلي، قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي**

(١) التذكرة (ص٣٠٩).

الحافظون؟ قال: لا، يارب فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول أحضروه، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم»[(١)]. وهكذا روى الترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا من حديث الليث، زاد الترمذي «ولا يثقل مع اسم الله شيء»[(٢)].

وفي سياق آخر: «توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتي بالرجل فيوضع في كفة»[(٣)]، الحديث.

وفي هذا السياق فائدة جليلة، وهي أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾[(٤)] [الكهف: ١٠٥] »

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢١٣)، وقد حكم عيها الألباني بالشذوذ (ص٤٧٣)، وكذلك الأرناؤوط (ص٦١٠)، وإنما الصحيح الرواية الأخرى «ولا يثقل مع اسم الله شيء» كما أوردها المصنف عقب هذه.

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٥/ ٢٥ ـ ح٢٦٣٩) وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الزهد باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٢/ ١٤٣٧ ـ ح٤٣٠٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦، ٥٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) وضعفه الألباني من قبل سنده قال (ص٤٧٣): لأن فيه ابن لهيعة وهو سيء الحفظ، فلا يحتج بما تفرد به.

(٤) أخرجه البخاري في آخر تفسير سورة الكهف (٨/ ٤٢٦ ـ ح٤٧٢٩)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين فاتحته (٤/ ٢١٤٧ ـ ح٢٧٨٥).

وروى الإمام أحمد، عن ابن مسعود: أنه كان يجتني سواكا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون»؟ قالوا: يانبي الله، من دقة ساقيه، فقال: **«والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد»**[1]. وقد وردت الأحاديث أيضا بوزن الأعمال أنفسها، كما في «صحيح مسلم»، عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان»**[2].

وفي «الصحيح»، وهو خاتمة كتاب البخاري، قوله ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**[3].

وروي الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«يؤتى بابن آدم يوم القيامة، فيوقف بين كفتي الميزان، ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه، نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق: سَعد فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً»**[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١)، وحسن إسناده الألباني (ص٤٧٤)، والأرناؤوط (ص٦١١).

(٢) أخرجه مسلم في أول كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (١/ ٢٠٣ ـ ح٢٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات باب فضل التسبيح (١١/ ٢٠٦ ـ ح٦٤٠٦) ثم ختم به صحيحه (ح٧٥٦٣)، ومسلم في الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح (٤/ ٢٠٧٢ ـ ح٢٦٩٤).

(٤) أخرجه أيضاً أبونعيم في الحلية (٦/ ١٧٤) وفيه داود بن المحبر وهو متروك ولذا حكم عليه الشيخ الألباني بالوضع (ص٤٧٤).

فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام!! فإن الله يقلب الأعراض أجساماً[1]، كما تقدم، وكما روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتي بالموت كبشاً أغبر، فيوقف بين الجنة النار، فيقال، يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، ويرون أن قد جاء الفرج، فيذبح، ويقال: خلود لا موت**»[2]. ورواه البخاري بمعناه[3]. فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال[4]، وثبت أن الميزان له كفتان. والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات.

فعلينا الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق ﷺ، من غير زيادة ولا نقصان. ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع، لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال!! وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً. ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله

---

(١) وقد يقال: بل للأعراض موازين لا نعلم كيفيتها، فإن للبصر وقوته، وللذكاء وقوته، وللسمع، والشم، وغير ذلك: موازين معروفة الآن يقاس بها هذه الأعراض، فلا يمنع أن يكون ثمة موازين للأعمال بميزان له كفتان ولا ندري كيفية الوزن، فالله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٢٣) بلفظ (أغثر) وهو كالأغبر، والأغبر: الذي يغلب بياضه على سواده.

(٣) أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد...» الحديث وفيه فيذبح ثم يقول يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود فلا موت. أخرجه البخاري في أول تفسير سورة مريم (٨/٤٢٨ ـ ح٤٧٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون (٤/٢١٨٨ ـ ح٢٨٤٩).

(٤) أي كالسجلات.

سبحانه لجميع عبادة، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين. فكيف ووراء ذلك من الحكم مالا اطلاع لنا عليه. فتأمل قول الملائكة، لما قال الله لهم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٥].

رابعاً: الصراط

قال رحمه الله: (ص٤٦٩ـ٤٧٢)

قوله: والصِّرَاطِ.

أي: ونؤمن بالصراط، وهو جسر على جهنم، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال: **«هم في الظلمة دون الجسر»**[1]. وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم.

وروى البيهقي بسنده، عن مسروق، عن عبد الله، قال: **«يجمع الله الناس يوم القيامة»**، إلى أن قال: **«فيعطون نورَهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم من يعطى نورَه مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك**[2]**، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفيء قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف، دَحض، مزَلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يَرمل**

---

١) أخرجه مسلم في الحيض باب صفة الرجل والمرأة (١/٢٥٢ ـ ح٣١٥).

٢) عند الطبراني (أصغر)، وفي رواية الحاكم المرفوعة (دون) والسياق عليها كما نبه الألباني (ص٤٧٠).

رملاً، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخُر يدٌ وتعلق يد، وتَخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحداً»(١)... الحديث.

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢].

وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يَلِجُ النارَ أحَدٌ بايَعَ تَحتَ الشَّجرَةَ»، قالت حَفْصَة: فَقُلْتُ: يارَسولَ الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقال: «ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾»(٢) [مريم: ٧٢].

أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وإن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨]. ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا﴾ [هود: ٦٦]. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤]. ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧)، ومن طريقه البيهقي كما أورده ابن كثير في النهاية (٢/ ٨٤٢ ـ ٨٥)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني (ص٤٧٠)، والأرناؤوط (ص٦٠٦).

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر عن أم بشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة .... فذكر الحديث في فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة (٤/ ١٩٤٢ ـ ح٢٤٩٦)، وأخرجه أحمد (٦/ ٢٨٥، ٣٦٢).

غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصا أولئك . وكذلك حال الواردين في النار، يمرون فوقها على الصراط، ث ينجي الله الذي اتقوا ويذرُ الظالمين فيها جثياً. فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور: أن الورود هو الورود على الصراط[1]. وروى الحافظ أبو نصر الوائلي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ : «علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة، فلا تحدثن في دين الله حدثا برأيك»[2]. أورده القرطبي. وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجاد، عن يعلى بن منية، عن رسول الله ﷺ، قال: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جُز يامؤمن فقد أطفأ نورُك لهبي»[3].

---

(1) انظر العقل والنقل (٧/٤٩، ٥٠).

(2) أورده القرطبي في التذكرة (ص٣٣٦ ـ ٣٣٧) نقلاً عن الإبانة وحكم عليه الألباني بالوضع (ص٤٧٢)، ونحوه الأرناؤوط (ص٦٠٨).

(3) أخرجه أبونعيم في الحلية (٩/٣٢٩)، والطبراني في الكبير (٢٢ ـ ح٦٦٨)، وضعفه الألباني (ص٤٧٢)، والأرناؤوط (٦٠٨).

خامساً: الشفاعة

أنواع الشفاعة:

قال رحمه الله: (ص٢٥٢-٢٥٩)

قوله: وَالشَّفَاعَةُ التي ادَّخَرَهَا لَهُم حَقٌّ، كَمَا رُوِيَ في الأَخْبَارِ.

الشفاعة أنواع[1]: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين. في «الصحيحين» وغيرهما عن جماعة من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، أحاديث الشفاعة[2].

منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ بلحم، فدُفع إليه منها الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: **«أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم، فيأتون**

---

(١) انظر في أنواع الشفاعة: مجموع الفتاوى (١٤٧/٣ - ١٤٨)، وفتح الباري (٤٢٨/١١ - ٤٣٠).

(٢) وهي متواترة كما ذكره شيخ الإسلام، انظر مجموع الفتاوى (٣٠٩/٤)، والصفدية (٢٩٠/٢، ٢٩١).

آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكورا، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، ألا تري إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ماقد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته[1]، نفسي نفسي، نفسي نفسي،اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى: فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي، نفسي

---

(١) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله عز وجل: قوله: (إني سقيم)، وقوله: (بل فعله كبيرهم هذا)»، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. . .خ وذكر الحديث. أخرجه موقوفاً في كتاب الأنبياء (٦/٣٨٨ ـ ح٣٣٥٨)، قال في الفتح (٦/ ٣٩١): «والحديث في الأصل مرفوع». اهـ.

نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، قال: هكذا هو، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنبا اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني فيقولون: يا محمدَ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ذنبك، ما تقدم منه وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأقول: يارب أمتي أمتي، يارب أمتي أمتي، يارب أمتي أمتي، فيقال: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى». أخرجاه في «الصحيحين» بمعناه واللفظ للإمام أحمد(١).

والعجب كل العجب، من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى، في أن يأتي الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، كما ورد هذا في حديث الصور(٢)، فإنه المقصود في هذا المقام،

---

(١) أخرجه أحمد(٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦)، والبخاري في التفسير باب (ذرية من حملنا مع نوح) (٨/ ٣٩٥ ـ ح٤٧١٢)، ومسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٤ ـ ح١٩٤).

(٢) يأتي تخريجه بعد قليل عند ذكر المصنف لخلاصته.

ومقتضى سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار.

وكأن مقصود السلف ـ في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث ـ هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم، فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث[1].

وقد جاء التصريح بذلك[2] في حديث الصور، ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله، لكن من مضمونه: **«أنهم يأتون آدم ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون رسول الله ﷺ، فيذهب فيسجد تحت العرش**

---

(١) وقد يقال: بل دلَّ عليه أول الحديث، وإنما يسند المحدث ما سمعه، وإن كان الاختصار مشهوراً عند المتقدمين، وكثير منهم يجيزونه انظر في ذلك تدريب الراوي (١٠٣/٢ وما بعدها) ط.دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، وقد أورد الحافظ الإشكال في الفتح (٤٣٨،٤٣٧/١١) عن عدة من أهل العلم، فالداودي قال: كأن راوي هذا الحديث ركب شيئاً على غير أصله، وذكر الإشكال ثم قال: وهو إشكال قوي ثم ذكر جواب عياض والنووي بأن النبي ﷺ يشفع مرتين، وأن الراوي حفظ ما لم يحفظ الآخر، ثم ذكر حديث ابن عمر وفيه«إن الشمس تدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليُقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم، وهو في البخاري. وراجع أيضاً بقية البحث فإنه طويل، واختصره في كتاب التوحيد (٤٧٦/١٣)، وذكر قول عياض بأن معنى الكلام فيؤذن في الشفاعة الموعود بها في فصل القضاء، وقوله «ويلهمني» ابتداء كلام آخر. اهـ.

(٢) أي التصريح بالشفاعة لفصل القضاء، وانظر الهامش السابق.

في مكان يقال له الفحص، فيقول الله: ما شأنك؟ وهو أعلم، قال رسول الله ﷺ فأقول: يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك، فاقض بينهم، فيقول سبحانه وتعالى: شفعتك، أنا آتيكم فأقضي بينهم قال: فأرجع فأقف مع الناس، ثم ذكر انشقاق السموات وتنزل الملائكة في الغمام، ثم يجيء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء والكروبيون والملائكة المقربون يسبحونه بأنواع التسبيح، قال فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: إني أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع أقوالكم، وأرى أعمالكم، فأنصتوا إلي، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، إلى أن قال: فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة، قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم، إنه خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلا، فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه وذكر نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً ﷺ . . . إلى أن قال رسول الله ﷺ: «فآتي الجنة، فآخذ بحلقة الباب، ثم استفتح، فيفتح لي، فأُحيَّ ويرحب بي، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي عز وجل خررت له ساجدا، فيأذن لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول الله لي: ارفع يا محمد، واشفع تشفع، وسل تعطه، فإذا رفعت رأسي، قال الله ـ وهو أعلم ـ: ما شأنك؟ فأقول يارب، وعدتني الشفاعة، فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله عز وجل: قد شفعتك، وأذنت لهم في دخول الجنة»، الحديث . رواه الأئمة: ابن جرير في تفسيره، والطبراني، وأبو يعلى الموصلي، والبيهقي وغيرهم[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢/ ٣٣٠)، وأخرجه الطبراني في المطولات (٢٥/ ٢٦٦ ـ ح٣٦)، وأخرجه البيهقي في آخر كتاب البعث والنشور (ص٣٣٥ ـ ٣٤٣ ـ =

النوع الثاني والثالث من الشفاعة: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار، أن لا يدخلوها[(١)].

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضية ثواب أعمالهم. قد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها[(٢)].

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن، حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مخرج في الصحيحين[(٣)].

= ح٦٠٩) وهو آخر حديث فيه ونسبه في الدر لأبي يعلى، وأبي الحسن القطان في المطولات وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي موسى المديني في المطولات، وأبي الشيخ في العظمة ومدار الحديث على إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن أبي زياد، وإسماعيل مختلف فيه، وأيضاً اضطرب في سندة. ولذا ضعفه الشيخ الألباني (ص٢٥٦)، وكذا الأرناؤوط (ص٢٨٧).

(١) قال ابن القيم: «لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه». انظر حاشية السنن (١٣/ ٧٧ - هامش عون المعبود)، وأشار الأرناؤوط (ص٢٨٨) إلى حديث موقوف ضعيف جعله مستند هذا القول وهو قول ابن عباس: «السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد» (الطبراني ح١١٤٥٤)، إلا أنه ليس صريحاً في هذا النوع والله أعلم. والظاهر أنه أخذه من الفتح (١١/ ٤٢٨).

(٢) قال في الفتح (١١/ ٤٢٨): «قال عياض: أثبتت المعتزلة الشفاعة العامة في الإراحة من كرب الموقف، وهي خاصة بنبينا، والشفاعة في الدرجات، وأنكرت ما عداهما، قلت (أي الحافظ): وفي تسليم المعتزلة الثانية نظر.» اهـ.

(٣) أخرجه البخاري في اللباس باب البرود والحبر والشملة (١٠/ ٢٨٧ - ح٥٨١١) =

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه[1].

ثم قال القرطبي في «التذكرة» بعد ذكر هذا النوع: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]. قيل له: لاتنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة[2].

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة كما تقدم. وفي «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«أنا أول شفيع في الجنة»**[3].

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، جهلا منهم بصحة الأحاديث،

= ط. الريان، ومسلم في الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ١/ ١٩٧ ـ ح٢١٦، ٢١٧)، إلا أنه قد يقال: لا تستلزم الشفاعة لعكاشة في الدنيا أن يشفع في غيره في الآخرة، وقد يستدل لذلك بحديث: «أدخل من لا حساب عليه من الباب الأيمن» وسبق قريباً.

(١) أخرج البخاري ومسلم عن العباس بن عبدالمطلب أنه سأل النبي ﷺ: هل نفعت أباطالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم هو في ضحضاح من النار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار، أخرجه البخاري في مناقب الأنصار وباب قصة أبي طالب (٧/ ٢٣٢ ـ ح٣٨٨٣) ط. الريان، ومسلم في الإيمان باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب (١/ ١٩٤ ـ ح٢٠٩).

(٢) انظر التذكرة (١/ ٢٤٩)، فتح الباري (١١/ ٤٣١).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان باب قول النبي ﷺ: «أنا أول الناس يشفع في الجنة» (١/ ١٨٨ ـ ح١٩٦).

وعنادا ممن علم ذلك واستمر على بدعته.

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضا. وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ أربع مرات.

ومن أحاديث هذا النوع، حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[(1)]. رواه الإمام أحمد رحمه الله.

وروى البخاري رحمه الله في كتاب «التوحيد»: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي، قال: اجتمعنا، ناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا بثابت البناني، يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى، فاستأذنا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لاتسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أباحمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال: «**إذا كان يوم القيامة، ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم**[(2)]**، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم،**

---

(1) أخرجه أحمد (٣/٢١٣)، وأخرجه أبوداود في السنة باب في الشفاعة (٤/٢٢٦ ـ ح٤٧٣٩)، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب ما جاء في الشفاعة (٤/٥٣٩ ـ ح٢٤٣٥) وقال حسن صحيح غريب، وصححه الحاكم في المستدرك (١/٦٩)، ووافقه الذهبي، وذكر الحاكم شواهد له كثيرة فلتراجع، وصححه بشواهده الألباني (ص٢٥٨)، والأرناؤوط (ص٢٩٠).

(٢) ليس في هذا الحديث ذكر (نوح)، وكذا هو في رواية معبد بن هلال العنزي في كتاب التوحيد لصحيح البخاري، إلا أن البخاري أخرجه من طريق أبي عوانة عن قتادة عن =

فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها، لاتحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجداً، فيقال يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يارب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل». قال: فلما خرجنا من عند أنس، قلت لبعض أصحابنا لو مررنا بالحسن، وهو متوار في منزل أبي خليفة، فحدثناه بما حدثنا أنس بن مالك، فأتيناه، فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له: يا أباسعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا في

= أنس في كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (١١/ ٤١٧ ـ ح٦٥٦٥) وفيه يقول آدم: «لست هناكم ويذكر خطيئته، ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله فيأتونه، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً...» الحديث، وكذا هو في روايات أخر، وقد نبه الحافظ على سقوط ذكره من حديث أبي حذيفة المقرون بحديث أبي هريرة، وبحديث ابن عمر، ولم ينبه على سقوطه من رواية معبد بن هلال إلا أنه قال: (والعمدة على من حفظ)، وانظر الفتح (١١/ ٤٣٣، ٤٣٤).

الشفاعة، فقال: هيه؟ فحدثناه بالحديث، فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه؟ فقلنا: لم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو جميع[1]، منذ عشرين سنة، فما أدري، أنسي أم كره أن تتكلوا؟ فقلنا: يا أباسعيد، فحدثنا، فضحك وقال: وخلق الإنسان عجولا! ماذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حدثني كما حدثكم به، قال: **«ثم أعود الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»**. وهكذا رواه مسلم[2].

وروى الحافظ أبويعلى عن عثمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»**[3].

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً، قال: **«فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط»**[4]، الحديث.

---

(١) أي مجتمع العقل، وهو إشارة إلى أنه كان حينئذ لم يدخل في الكِبَر الذي هو مظنة تفرق الذهن، وحدوث اختلاط الحفظ، كذا بالفتح (٣/ ٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب كلام الرب تعالىٰ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (١٣/ ٤٧٣ ـ ح٧٥١٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ذكر الشفاعة (٢/ ١٤٤٣ ـ ح٤٣١٣)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٦٧) وفي إسناده عنبسة بن عبدالرحمن القرشي، قال البخاري تركوه، وقال ابن أبي حاتم: كان يضع الحديث، وفيه علاق بن أبي مسلم ضعفه البوصيري به (الزوائد ص٥٥٩)، وحكم عليه الألباني بالوضع (ص٢٦٠).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧ ـ ح١٨٣).

حال الناس حيال الشفاعة:

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال: فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم: يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة، فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لايشفع أحدٌ حتى يأذن الله له ويَحُد له حداً، كما في الحديث الصحيح، حديث الشفاعة: «**إنهم يأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى عليه السلام: اذهبوا إلى محمد، فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأذهب، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي، لا أحسنها الآن، فيقول: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأقول ربي أمتي، فيحدلي حدًا، فأدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد، فيحد لي حدًا**»[1] ذكرها ثلاث مرات.

---

(١) تقدم تخريجه، وهو حديث أبي هريرة في الشفاعة، ومن حديث أبي سعيد في الصحيحين أيضاً.

المبحث السادس

الإيمان بالجنة وبالنـــار

أولاً: إثبات وجودهما الآن

قال رحمه الله: (ص٤٧٦-٤٨٠)

وقوله: **والجَنَّةُ والنَّارُ مَخلُوقَتَانِ، لا تَفْنَيَانِ أبَداً ولا تَبيدَانِ، فإنَّ اللهَ تَعالىٰ خَلَقَ الجَنَةَ والنَّارَ قَبْلَ الخَلْقِ، وخَلَق لهُمَا أهْلاً، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُم إلى الجَنَّةِ فَضْلاً مِنْه، ومَنْ شَاءَ مِنهُم إلى النَّارِ عَدْلاً مِنْه وكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِغَ لَهُ وصَائِرٌ إلى مَا خُلِقَ لَهُ، والخَيْرُ والشَّرُّ مُقَدَّرانِ عَلىٰ العِبَادِ.**

أما قوله: إن الجنة والنار مخلوقتان، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت بل ينشئهما الله يوم القيامة!! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، وَدَخَلَ التَّجَهّم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة! وقالوا: خَلْقُ الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مدداً متطاولة(1)! فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة

(1) وهذا غير صحيح، بل هناك حكم عظيمة في خلقهما الآن، ولو لم يكن فيها إلا أن المؤمن يشتاق إلى الجنة، ويخاف من النار، والشوق والخوف من الموجود أبلغ منه من المعدوم لكفى، وانظر في الرد على شبه القدرية مشبهة الأفعال: في حادي الأرواح لابن القيم (ص١٢ -٢٤) تحقيق بشير عيون ط. مكتبة المؤيد بالرياض.

التي وضعوها للرّبِّ تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم.

له وجود الجنة والنار:

فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]. وعن النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]. ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: ٢١-٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣-١٥]. وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عِنْدها جَنَّةَ المَأْوىٰ. كما في «الصحيحين»، منْ حديث أنس رضيَ اللهُ عنهُ، في قِصَّةِ الإسراءِ، وفي آخرِه: «ثمَّ انطلقَ بي جبرائيلُ، حتى أتىٰ سدرَةَ المنتهىٰ، فَغَشِيها ألوان لا أدري ماهي، قال: ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[(١)] وفي «الصحيحين» من حديثِ عبدِ اللهِ بْنِ عُمَر رضيَ اللهُ عنهما، أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّ أَحَدَكُم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[(٢)].

وتقدم حديث البراء بن عازب، وفيه: «ينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه

---

(١) تقدم تخريجه في حديث الإسراء. والجنابذ: عقود اللؤلؤ، وقلائده، وفي نسخة (حبائل)، وقال ابن حزم رحمه الله: فتشت عن هاتين اللفظتين فلم أجدهما ولا واحدة منهما، ولا وقفت على معناهما. اهـ. انظر الفتح (١/٥٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (٣/٢٤٣ ـ ح١٣٧٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيم أهلها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/٢١٩٩ ـ ح٢٨٦٦).

من روحها وطيبها» وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء[١].

وفي «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول الله ﷺ: **«رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به، حتى لقد رأيتني آخذ قطفا من الجنة حين رأيتموني أتقدم ولقد رأيت النار يحطم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت»**[٢].

وفي «الصحيحين» واللفظ للبخاري، عن عبد الله بن عباس، قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يارسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت؟ فقال: **«إني رأيت الجنة، وتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**[٣]**، ورأيت النار، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»**، قالوا: بم، يارسول الله؟ قال: **«بكفرهن»**، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: **«يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيتُ خيراً قط!!»**[٤].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس: **«وايم الذي نفسي بيده، لو رأيتم**

(١) تقدم تخريجهما في مطلب (عذاب القبر).
(٢) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة باب إذا انفلتت الدابة (٣/٨١ ـ ح١٢١٢)، ومسلم في الكسوف باب صلاة الكسوف (٢/٦١٩ ـ ح٩٠١/٣).
٣) وهذا يدل على أنه رآها حقيقة لا في عالم المثال كما يدعيه بعض الصوفية.
٤) أخرجه البخاري في الكسوف باب صلاة الكسوف جماعة (٢/٥٤٠ ـ ح١٠٥٢)، ومسلم في باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف (٢/٦٢٦ ـ ح٩٠٧)، وقوله: تكعكعت وفي نسخة كعكعت: أي تأخرت، يقال: كع الرجل إذا انكفى على عقبيه، انظر الفتح (٢/٥٤١).

ما رأيت، لضحكتم قليلا وبكيتم كثيراً» قالوا: ما رأيت يارسول الله؟ قال: «الجنة والنار»(1).

وفي «الموطأ والسنن»، من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما نسمة المؤمن طير يَعْلَقُ في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة»(2).

وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي «صحيح مسلم والسنن والمسند»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة، فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك، لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد، قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، فرجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»(3). ونظائرُ ذلكَ في السُّنَّةِ كَثيرَةٌ.

---

(1) أخرجه مسلم في الصلاة باب تحريم سبق الإمام (1/ 320 ـ ح426).

(2) تقدم تخريجه في مبحث الروح.

(3) أخرجه مسلم مختصراً من حديث أنس في كتاب الجنة فاتحته (4/ 2174 ـ ح2822)، وأما حديث أبي هريرة فأخرجه أبوداود، وكذا الترمذي في صفة الجنة باب حفت الجنة بالمكاره (4/ 598 ـ ح2560 ـ ح4744)، والنسائي كذلك في كتاب الإيمان والنذور باب الحلف بعزة الله تعالىٰ (7/ 3 ـ 4 ـ ح3763)، وأخرجه أحمد (2/ 332).

وأما على قول من قال، إن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم أخرج منها، فالقول بوجودها الآن ظاهر، والخلاف في ذلك معروف[1].

أما شبهة من قال: إنها لم تخلق بعد[2]، وهي: أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارا أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت، لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]. و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد روى الترمذي في جامعه، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيمَ ليلةَ أسري بي، فقال: يامحمد، أقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، قال: هذا حديث حسن غريب[3].

وفيه أيضاً من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة». قال هذا حديث حسن صحيح[4].

---

(١) انظر الخلاف في ذلك في حادي الأرواح (ص٢٤ ـ ٤٤).
(٢) انظر شبهتهم والرد عليها في حادي الأرواح (ص٤٥ ـ ٤٧).
(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات باب ما جاء في فضل التسبيح (٥/٤٧٦ ـ ح٣٤٦٢) وقال حسن غريب، والقيعان: الأرض المستوية أي بلا نبات. وانظر في معنى القيعة مختار الصحاح (ص٤٨٩) نشر مكتبة لبنان.
(٤) أخرجه الترمذي في الموضع السابق (٥/٤٧٧ ـ ح٣٤٦٤، ٣٤٦٥) وقال حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر.

قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغاً منها لم تكن قيعانا، ولم يكن لهذا الغراس معنى.

قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورا أخر ـ فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فأتيتم من سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن ـ نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما !! فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام. فمن كلامهم[١]: أن المراد «كل شيء» مما كتب الله عليه بالفناء والهلاك «هالك»، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء. وكذلك العرش، فإنه سقف الجنة.

وقيل: المراد إلا ملكه. وقيل: إلا ما أريد به وجهه[٢]. وقيل: إن الله تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن: ٢٦]، فقالت الملائكة: هلك أهل

---

(١) راجع حادي الأرواح (ص٤٧).

(٢) أي أن المراد بالوجه هنا الجهة، أي كل شيء هالك إلا ما كان جهة الرب تعالىٰ، وانظر مجموع الفتاوى (٢/٤٢٧ ـ ٤٣٤).

الأرض وطمعوا في البقاء فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]، لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت. وإنما قالوا ذلك توفيقا بينها وبين النصوص المحكمة، الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار أيضا، على ما يذكر عن قريب، إن شاء الله تعالى.

ثانياً: أبدية الجنة والنار

*** أصل الجهم الذي أدى به إلى القول بفنائهما**

وقوله: لا تَفْنَيَانِ أبَداً ولا تَبِيدَان.

- هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.
- وقال ببقاء الجنة وبفناء النار جماعة من السلف والخَلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها.
- وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط[1]، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة، أنكره عليه عامة أهل السنة، وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض.

وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث! وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم. فرأى الجهم أن ما يمنع من حوداث لا أول لها في الماضي، يمنعه في المستقبل!! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي! وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة[2] !!

---

(١) انظر النبوات (ص١٣٥).

(٢) بلفظه من الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٤٤، ٤٥) تحقيق د. محمد عبدالله السمهري، نشر دار بلنسية بالرياض =

وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى[1]، وهو لم يزل رباً قادراً فعّالاً لما يريد، فإنه لم يزل حياً عليماً قديراً، ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعاً عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكناً لذاته، من غير تجدد شيء وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكناً له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنعا عليه.

فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده.

* أبدية الجنة

فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]، أي غير مقطوع، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾.

واختلف السلف في هذا الاستثناء[2]: فقيل: معناه إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لكلهم.

وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف. وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: هو استثناء استثناه الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه.

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ. وهذا النص نقله بلفظه ابن القيم في حادي الأرواح (ص٣٣٤)، وعزاه لشيخ الإسلام.

(١) انظر مبحث التسلسل في فصل الأسماء والصفات من الباب الأول.

(٢) انظر الأقوال في حادي الأرواح (ص٣٣١ وما بعدها).

وقيل: «إلا» بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف. وسيبويه يجعل إلا بمعنى لكن، فيكون الاستثناء منقطعا، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]. قالوا: ونظيره أن تقول: (أسكنتك داري حولا إلا ما شئت) أي سوى ما شئت، ولكن ما شئت من الزيادة عليه[(١)].

وقيل: الاستثناء لإعلامهم بأنه مع خلودهم في مشيئة الله، لا أنهم يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه[(٢)] لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾ [الإسراء: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ [يونس: ١٦]. ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن «ما» بمعنى «من» أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء وقيل غير ذلك. وعلى كل تقدير فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]، محكم. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾ [ص: ٥٤]. وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]. وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ [الحجر: ٤٨].

---

(١) (فائدة): ذكر شيخ الإسلام أن الاستثناء المنقطع لا يكون في الموجب ولو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعي في أي استثناء أنه منقطع! قال: وأيضاً فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول. انظر مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٨٠).

(٢) لو قال: (إرادته) لكان أولى، فإن الله يوصف بالعزم كما في قراءة (فإذا عزمتُ) بضم التاء، وفي الحديث «عزمة من عزمات ربنا»، وأما وصفه بالجزم فلا أعرف له دليلاً، إلا أن يكون من باب الإخبار وهو أوسع والله أعلم.

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] ـ تبين لك المراد من الآيتين.

واستثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة: كقوله ﷺ: «من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت»[(١)].

وقوله: «يُنادي مناد: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً»[(٢)].

وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: «يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت»[(٣)].

*** أبدية النار والخلاف في ذلك**

وأما أبدية النار ودوامها، فللناس في ذلك ثمانية أقوال[(٤)]:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بنحوه في الجنة باب في دوام نعيم أهل الجنة (٤/ ٢١٨١ ـ ح٢٨٣٦).

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق (٤/ ٢١٨٢ ـ ح٢٨٣٧).

(٣) تقدم تخريجه في مطلب (ما هو الموت؟).

(٤) راجع الأقوال ومناقشتها في حادي الأرواح (ص٣٣٧ ـ ٣٦٧).

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة نارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي[1]!!

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ، وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨٠-٨١].

الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها، لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه!! وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً، لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف كما تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في السنة، ثم يبقيها شيئاً، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من يشاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ رحمه الله.

وما عدا هذين القولين الأخريين ظاهر البطلان.

---

(١) أورده في الفصوص (ص٩٣ - ٩٤) تحقيق وتعليق أبي العلاء عفيفي.

وهذان القولان لأهل السنة ينظر في دليلهما.

فمن أدلة القول الأول منها: (أي القول بالفناء)

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧] - ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: ٢٣].

وهذا القول، أعني القول بفناء النار دون الجنة - منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم[1].

وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر رضي الله عنه، أنه قال: «لو لبث أهل النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه»، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[2] [النبأ: ٢٣].

---

(١) انظر في هذه الآثار ما أورده شيخ الإسلام في رسالة الرد على من قال بفناء الجنة والنار (ص٦٧ - ٧٠) حيث قال: «فحينئذ فيحتج على فنائها بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة، مع أن القائلين ببقائها ليس معهم كتاب ولا سنة ولا أقوال الصحابة.

(٢) انظر كلام شيخ الإسلام على هذا الحديث (ص٥٤، ٥٥) من الرسالة المشار إليها آنفاً، وأما أثر ابن مسعود فلفظه «ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد» وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا فذكره البغوي في تفسيره معلقاً (٤/ ٢٠٢)، وأما أثر أبي هريرة فذكره ابن القيم في حادي الأرواح بلفظ «ما أنا بالذي لا أقول: إنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد»، وأورده شيخ الإسلام (ص٧٠) بلفظ «أما الذي أقول: إنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ (وأما الذين شقوا ففي النار). اهـ.، وإسناده جيد، وهو من أقوى الأدلة لأصحاب هذا القول، وأما أثر أبي سعيد فهذا أيضاً صحيح الإسناد أخرجه الطبري وغيره ولفظه «هذه الآية تأتي على القرآن كله، =

قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته. وقد قال ﷺ: «لما قضي الله الخلق، كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي». وفي رواية: «تغلب غضبي»[1]. رواه البخاري في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:١٥] و﴿أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]. و﴿عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥]. ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: ﴿عَذَابِيَ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. فلابد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته. وقد ثبت في «الصحيح» تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة[2] والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقا يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لا نهاية له. وأما أنه يخلق خلقا ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيماً سرمداً، فمن مقتضى الحكمة،

= فيقول: حيث كان في القرآن (خالدين فيها) تأتي عليه، وقال أبومجلز: هو جزاؤه فإن شاء تجاوز عن عذابه، وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات (ص٢٠٥) عن أبي سعيد ولفظه: «هذه الآية تأتي على القرآن كله (إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) قال المعتمر بن سليمان: قال أبي: عن كل وعيد في القرآن.

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) (٦/ ٢٨٧ ـ ح٣١٩٤)، ومسلم في التوبة باب في سعة رحمة الله تعالىٰ وأنها سبقت غضبه (٤/ ٢١٠٧ ـ ح٢٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في الزكاة بابُ إثم مانع الزكاة (٢/ ٦٨٠ ـ ح٩٨٧). وفيه «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة».

والإحسان مراد لذاته والانتقام مراد بالعَرَض. قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج وأن عذابها مقيم، وأنه غرام كله حق مسلم، لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد. ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه[(١)].

ومن أدلة القائلين[(٢)] ببقائها وعدم فنائها: قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٥]. ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠]. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [البينة: ٨]. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٨]. ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧]. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: ٦٥]، أي مقيماً لازماً.

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان. وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما[(٣)].

---

(١) ومن هنا يظهر أن مأخذ من قال بهذا القول من السلف، ليس هو مأخذ الجهمية وهو إنكار حوادث لا آخر لها كما تقدم، وانظر الرد على من قال بفناء الجنة والنار لشيخ الإسلام (ص٨٠ ـ ٨٧)، ومختصر الصواعق (١/ ٣٧٥ ـ ٣٧٧).

(٢) انظر في طرق هؤلاء والرد عليهم في الرد على من قال بفناء الجنة والنار (ص٧١ ـ ٧٩).

(٣) قال ابن القيم في حادي الأرواح (ص٣٦٧): «فإن قيل: إلى أين انتهى قدمكم، في هذه المسألة العظيمة الشأن التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة، قيل: إلى قوله =

وقوله: وخَلَقَ لَهُمَا أَهْلاً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، الآية. وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يارسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءاً، ولم يدركه، فقال: «**أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**». رواه مسلم وأبو داود والنسائي(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ [الدهر ٢-٣]. والمراد الهداية العامة، وأعم منها الهداية المذكوره في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾ [طه: ٥٠].

فالموجودات نوعان:

أحدهما مسخر بطبعه(٢)، والثاني متحرك بإرادته فهدى الأول لما سخره له طبيعة وهدى الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره.

ثم قسم هذا النوع إلى ثلاثة أنواع:

= تبارك وتعالىٰ: (إن ربك فعال لما يريد) [هود: ١٠٧]، وإلى هذا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء وقال: ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء». اهـ

(١) أخرجه مسلم في القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤/٢٠٥٠ ـ ح٢٦٦٢)، وأبوداود في السنة باب في ذراري المشركين (٤/٢٢٩ ـ ح٤٧١٣)، والنسائي في الجنائز باب الصلاة على الصبيان (٤/٥٧ ـ ح١٩٤٧).

(٢) أي بما طبع الله عليه، أي كتب عليه نحو (فأما الغلام فطبع يوم طبع كافراً).

نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه، كالملائكة، ونوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتي منه إرادة سواه، كالشياطين[1]، ونوع يتأتي منه إرادة القسمين، كالإنسان. ثم جعله ثلاثة أصناف:

صنفا يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته، فيلتحق بالملائكة وصنفا عكسه، فيلتحق بالشياطين. وصنفا تغلب شهوته البهيمية عقله، فيلتحق بالبهائم. والمقصود: أنه سبحانه أعطى الوجودين: العيني والعلمي، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده، فلا هداية إلا بتعليمه. وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته، وثبوت وحدانيته، وتحقيق ربوبيته سبحانه وتعالى.

وقوله: فَمَن شَاءَ مِنهُم إلى الجَنَّة فَضْلاً مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنهُم إلى النَّارِ عَدْلاً مِنْهُ... إلخ.

مما يجب أن يُعلم: أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه، وهو العمل الصالح، فإنه: ﴿ مَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه: ١١٢]، وكذلك لا يعاقب أحدا إلا بعد حصول سبب العقاب، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]. وهو سبحانه المعطي المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. لكن إذا منَّ على الإنسان بالإيمان والعمل الصالح، لا يمنعه موجب ذلك أصلا، بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) يشكل على ذلك قوله ﷺ في قرينه «فأسلم» بفتح الميم، إن كان المعنى أي دخل في الإسلام، وسبق بحث ذلك. وفيه فالشياطين قد تسلم إلا أن الله قضى على إبليس كبيرهم بالشقاوة والله أعلم.

وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه، وهو العمل الصالح. ولا ريب أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء لكن ذلك كله حكمة منه وعدل، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله. وأما المسببات بعد وجود أسبابها، فلا يمنعها بحال، إذا لم تكن أسبابا صالحة، إما لفساد في العمل، وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه، فيكون ذلك لعدم المقتضي، أو لوجود المانع. وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح، وهو لم يعط ذلك ابتلاءً وابتداءً إلا حكمةً منه وعدلاً، فله الحمد في الحالين، وهو المحمود على كل حال، كل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل. فإن الله تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]. ونحو ذلك. سيأتي لذلك زيادة، إن شاء الله تعالى[1].

(١) في مباحث القدر.

الفصل الخامس
الإيمان بالقــدر

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول:

وجوب الإيمان بالقدر والنهي عن التكلف فيه.

المبحث الثاني:

الإيمان بعلم الله تعالىٰ.

المبحث الثالث:

الإيمان باللوح والقلم (الكتابة).

المبحث الرابع:

الإيمان بعموم مشيئة الرب تعالىٰ.

المبحث الخامس:

الإيمان بقدرة الرب وشمولها لكل المخلوقات والممكنات.

المبحث السادس:

وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله.

الإيمـان بالقـدر

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان، ونظام التوحيد، وأس العقيدة، ولا يتم إيمان المؤمن إلا بالإيمان بالقدر.

والإيمان بالقدر يعني الإيمان بأن الله سبحانه علم ما كان وما كون وأنه كتب في اللوح المحفوظ كل شيء إلى يوم القيامة.

ويقتضي الإيمان بالقدر كذلك: الإيمان بعموم مشيئة الرب سبحانه، وربوبيته التامة والمستلزمة قدرته على كل شيء، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

وإذا آمن المؤمن بذلك، فلابد أن يتبعه إيمان بشرع الله وأمره، إذ أن الإيمان بالقدر يستلزم الإيمان بالشرع، فلو صار هناك غلو في أحد الطرفين لكان على نقص من الآخر.

ولهذا نجد أهل الباطل إنما نظروا بعين عوراء فآمنوا بشيء دون شيء فأداهم هذا النظر إلى الانحراف والضلال، ثم إنهم بنظرهم القاصر انقسموا إلى أقسام:

فقسم عظم الرب وأثبت عموم علمه ومشيئته، وأعرض عن الشرع وأوامره، فأداهم ذلك الفهم إلى الجبر، وهؤلاء هم الجبرية الذين لايقيمون للشرع وزناً، ومنهم المشركية.

وقسم عظم أوامر الشرع إلا أنه أغفل علم الرب سبحانه ومشيئته، فوقع في نفي القدر، (وما قدروا الله حق قدره)، وهؤلاء هم القدرية المجوسية.

وقسم أقر بالأمرين وجعل ذلك تناقضاً من الرب فقد شابه في ذلك إمامه إبليس، وهم الإبليسية الملعونة، وكل هؤلاء ضالون مخالفون للسنة والكتاب.

وأهل الحق نظروا بعينين فعرفوا الحق واتبعوه كما قال ابن القيم رحمه الله في النونية.

وانظر إلى الأقدار جارية بمــا	قد شاء من غـي ومـن إيمــان
واجعل لقلبك مقلتيـن كلاهمـا	بالحـق في ذا الخلـق ناظرتان
فانظر بعين الحكم وارحمهم بها	إذ لا تـرد مشيئـة الديّـان
وانظر بعين الأمر واحملهم على	أحكامـه فهمـا إذاً نظـران
واجعل لوجهك مقلتيـن كلاهما	مـن خشيـة الرحمـن باكيتان
لوشاء ربـك كنتِ أيضاً مثلهم	فالقلب بين أصابع الرحمن[1]

وقد أمرنا الله سبحانه بالإيمان بالقدر والالتزام بالشرع، ولم يأمرنا أن نجمع بعقولنا وفهمنا بين الأمرين، ونقول كيف قدر الله وأمر؟ أو كيف خلق ويعذب؟ بل هذا من الأمور التي لم يطلعنا الرب عليها، ولم يكلفنا بها، فإذا أيقنا أن الله تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ عليمٌ حكيمٌ، فيكفينا هذا، ولا ننازع الله في ربوبيته، ولا نتطاول على شرعه، فالقدر له سر لم يطلع الله أحداً عليه لا نبياً ولا رسولاً ولا مَلَكاً.

فعامة من ضلّ في هذا الباب، إنما هو من محاولة الجمع بين الشرع والقدر، إذ لم تعرف عقولهم ذلك فصاروا يتخبطون خبط عشواء تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء.

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان مطمئن النفس والروح، هادىء الطباع، منقاداً لأوامر الله يفزع عند المعصية ويفرح عند التوبة، ولا يجزع عند المصيبة، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فالمؤمن إذا رأى حسنة من الله أنعم بها عليه، فإنه يفرح بها ويشكر الله ليزيده نعماً، وإذا رأى معصية خاف أن تؤدي به هذه المعصية إلى أختها.. فأخرى.. فالشرك.. فالنار.

إذا آمن المؤمن بالقدر فإنه يُقبِل على أمر الله، وإن قلّت الرفقة، ويقبل على الجهاد، وإن كان وحده، ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤].

وإذا آذاه أحد فليعلم أن هذا من القدر فيصبر، فلولا أن الله قدّر ذلك لما

(١) نونية ابن القيم (١/ ١٣١) شرح ابن عيسى.

آذاه من آذاه، وعندئذ يفزع للشرع، ماذا أمر في هذا الموقف؟ فيتبع الشرع ويستغفر، لعل الله يرفع عنه قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥]، فأمر الله نبيه بالصبر ويشمل الإيمان بالقدر، وأمر بالاستغفار وهو يشمل الإيمان بالشرع.

والواجب على من آمن بالقدر وآمن بالشرع والتزم به أن يدفع عنه هذه الوساوس التي يلقيها الشيطان في هذا الشأن، فلست أنت أيها المخلوق الذي تحاكم ربك تقول: (لم فعل)؟ فهو سبحانه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهو ﴿ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود: ٤٥]، و﴿ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وقد حرَّم الظلم على نفسه، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٦].

وقد رأيت أن أقسم هذا الفصل إلى ستة مباحث

المبحث الأول: في وجوب الإيمان بالقدر والنهي عن التكلف فيه.

المبحث الثاني: في الإيمان بعلم الله تعالىٰ.

المبحث الثالث: في الإيمان باللوح المحفوظ والكتابة فيه.

المبحث الرابع: في الإيمان بعموم مشيئة الله.

المبحث الخامس: في الإيمان بعموم قدرة الرب تعالى.

المبحث السادس: وأن تؤمن القدر خيره وشره من الله تعالى.

وفيما يلي عرض لهذه المباحث

المبحث الأول

وجوب الإيمان بالقدر والنهي عن التكلف فيه

تقرير عقيدة الإيمان بالقدر

قال الشارح رحمه الله مقرراً عقيدة القدر: (ص٢٧٥، ٢٧٦)

قوله: وكُلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِقَ لَهُ، والأعْمَالُ بِالخَوَاتِيم، والسعِيدُ مَنْ سَعِد بِقَضَاءِ اللهِ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ الله.

تقدم[1] حديث علي رضي الله عنه وقوله ﷺ: **«اعملوا فكل ميسر لما خُلق له»**[2]. قال تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى...

وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: جاء سُراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يارسول الله، بيّن لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: **« لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير»**، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال؟ فقال: اعملوا فكل ميسر. رواه مسلم[3].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن**

---

(١) يأتي في مبحث الإيمان بعلم الله تعالىٰ.

(٢) أخرجه البخاري في مواضع منها في الجنائز باب موعظة المحدث عن القبر (٣/ ٢٢٥ ـ ح١٣٦٢)، وأخرجه مسلم في القدر باب كيفية خلق الآدمي (٤/ ٢٠٣٩ ـ ح٢٦٤٧).

(٣) أخرجه مسلم في الموضع السابق (٤/ ٢٠٤٠ ـ ح٢٦٤٨).

الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»، خرجاه في «الصحيحين» وزاد البخاري: وإنما الإعمال بالخواتيم[1].

وفي «الصحيحين» أيضا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجمع خَلقُه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثمَّ يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[2].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكذلك الآثار عن السلف.

قال أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد»: قد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق[3].

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها في الجهاد باب لا يقال فلان شهيد (٦/ ٩٠ ـ ح٢٨٩٨)، وأخرجه مسلم في الموضع السابق (٤/ ٢٠٤٢ ـ ح١١٢/ ١٢).
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٦/ ٣٠٣ ـ ح٣٢٠٨).
(٣) التمهيد (٦/ ١٢).

وقال: (ص٣٠٣-٣٠٦)

قوله: وذلكَ مِنْ عقدِ الإيمان وأُصُول المَعْرِفَة والاعتِراف بتَوْحيدِ اللهِ تَعالىٰ ورُبوبيتِه، كَمَا قَالَ تعالىٰ في كِتَابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]. **وقَالَ تَعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾** [الأحزاب: ٣٨].

الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وَسَبْقِ عِلْمِه بالكائناتِ قَبلَ خَلْقِها. قال ﷺ في جوابِ السائلِ عن الإيمانِ: **«أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكته وكتبهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخِر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»** وقال ﷺ في آخر الحديث: **«ياعمر، أتدري من السائل؟** قال: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه جبرائيل، أتاكم يعلمكم دينكم»** رواه مسلم(١).

وقوله: **والإقرار بتوحيد الله وربوبيته** أي لا يَتِمّ التَّوْحيدُ والاقرار بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقا غير الله فقد أشرك. فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله؟! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة وأحاديثُهم في السنن.

وروى أبوداود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: **«القدرية مجوس هذه الأمة إن مَرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»**(٢).

وروى أبوداود أيضا عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحقٌّ على الله أن يلحقهم بالدجال»**(٣).

---

(١) رواه مسلم في الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٦ ـ ح٨).

(٢) أخرجه أبوداود في السنة باب في القدر (٤/ ٢٢٢ ـ ح٤٦٩١)، قال الألباني (ص٣٠٤): «له طرق يتقوى بها».

(٣) أخرجه أبوداود في السنة باب في القدر (٤/ ٢٢٢ ـ ح٤٦٩٢)، وقال الألباني: «إسناده ضعيف» (ص٣٠٤)، وذكر الأرناؤوط وجه ضعفه أيضاً (ص٣٥٧).

وروى أبو داود أيضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **«لا تجالسوا أهل القَدر ولا تفاتحوهم»**[(1)].

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«صنفان من بني آدم ليس لهم في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية»**[(2)].

لكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة. وإنما يصح الموقوف منها: فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده»[(3)].

وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم وما أظهر من علمه بخطابه وكتابه مقادير الخلائق. وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم، ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر.

وأما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد، فأخرجوها عن قدرته وخلقه.

والقدر، الذي لاريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه، وأن

---

(١) أخرجه أبوداود في الموضع السابق (٤/٢٢٨ ـ ح٤٧١٠)، وفي ذراري المشركين (٤/ ٢٣٠ ـ ح٤٧٢٠)، وضعفه الألباني (ص٣٠٤)، والأرناؤوط (ص٣٥٧).
أخرجه الترمذي في القدر باب ما جاء في القدرية (٤/ ٣٩٥ ـ ح٢١٤٩) بلفظ «صنفان من أمتي»، وضعفه الألباني (ص٣٠٥)، والأرناؤوط (ص٣٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي في القدر باب ما جاء في القدرية (٤/ ٣٩٥ ـ ح٢١٤٩) بلفظ «صنفان من أمتي»، وضعفه الألباني (ص٣٠٥)، والأرناؤوط (ص٣٥٧).

٣) أخرجه الآجري في الشريعة (ص٢١٥)، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (ص١١١٢)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥) وفيه من لم يسم.

الذي جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع: هو ما قدره الله من مقادير العباد. وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعنى به هؤلاء، كقول ابن عمر رضي الله عنهما، لما قيل له: يزعمون أن لاقدر وأن الأمر أنف: أخبرهم أني منهم بريء وأنهم مني برآء[١].

الأصول العظيمة التي يتضمنها التقدير المطابق للعلم

والقدر، الذي هو التقدير المطابق للعلم: يتضمن أصولا عظيمة:

أحدها: أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها، فيثبت علمه القديم، وفي ذلك الرد على من ينكر علمه القديم[٢].

الثاني: أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها، فإن الله قد جعل لكل شيء قدرا، قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان: ٢]. فالخلق يتضمن التقدير، تقدير الشيء في نفسه، بأن يجعل له قدرا، وتقديره قبل وجوده. فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كميته وكيفيته، كان ذلك أبلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة، خلافا لِمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ: إِنَّهُ يَعْلَمُ الكليات دون الجزئيات! فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات.

الثالث: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخبارًا مفصلا، فيقتضي أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علماً مفصلا، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم، فإنه إذا

---

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان في قصة حديث ابن عمر مع يحي بن يعمر وحميد بن عبدالرحمن، وفيها حديث جبريل في الإيمان المشهور. (١/ ٣٦ ـ ح٨).

(٢) أنكر متقدمو المعتزلة علم الله القديم دون المتأخرين، أفاده في الفتح (١/ ١٤٥).

كان يُعلم عبادَه بذلك فكيف لايعلمه هو؟[1].

الرابع: أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله، محدث له بمشيئته وإرادته، ليس لازما لذاته[2].

الخامس: أنه يدل على حدوث هذا المقدور، وأنه كان بعد أن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه[3].

النهي عن التعمق في القدر وعلاج الوسوسة في ذلك

قال رحمه الله: (ص٢٧٦، ٢٧٧)

وقوله: وأَصْلُ القَدَرِ سِرُّ الله تَعالىٰ في خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِع عَلىٰ ذَلكَ مَلكٌ مُقَربٌ، ولا نَبي مُرْسَل، والتَعَمُّقُ والنَظَر في ذلك ذَرِيعَةُ الخُذْلان، وسُلَّمُ الحِرْمَان، ودَرَجةُ الطغْيانِ، فالحَذَر كُلَّ الحَذَرِ مِنْ ذلك نَظَراً وفِكراً وَوَسْوَسةً، فإنَّ اللهَ تعالىٰ طَوىٰ عِلْمَ القَدَر عَنْ أَنَامه، ونَهَاهُم عَنْ مَرامِه، كَمَا قَالَ تَعالىٰ في كِتَابه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فَمَنْ سَأَل: لِمَ فَعَل؟ فَقَد رَدَّ حُكم الكِتَاب، وَمَنْ رَدَّ حُكم الكِتاب كَان مِنَ الكَافِرينَ.

أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى. قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه: القدر سر الله فلا نكشفه. والنزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور.

---

(١) أنكرت الفلاسفة علم الله بالجزئيات، راجع قولهم والرد عليهم في الفتح (١٣/٣٦٣).

(٢) زعمت الأشعرية والجهمية أن الفعل هو المفعول، وقالت المعتزلة: إن الله مريد بذاته.

(٣) خلافاً للقائلين بقدم العالم من الفلاسفة وغيرهم.

قال: (ص٢٨٧ـ٢٩٠)

وقوله: **والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان. إلى آخره.**

التعمق: هو المبالغة في طلب الشيء، والمعنى: أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان. **الذريعة**: الوسيلة. والذريعة والدرجة والسلم ـ متقارب المعنى، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقارب المعنى أيضا، لكن الخذلان في مقابلة النصر، والحرمان في مقابلة الظفر، والطغيان في مقابلة الاستقامة.

وقوله: **فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة.**

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: «**وقد وجدتموه**»؟قالوا: نعم ، قال: «**ذاك صريح الإيمان**». رواه مسلم[1].

الإشارة بقوله: «ذاك صريح الإيمان» إلى تعاظمهم أن يتكلموا به.

ولمسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة؟ فقال: «**تلك محض الإيمان**»[2].

وهو بمعنى حديث أبي هريرة، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان.

هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان. ثم خلف

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان (١/١١٩ ـ ح١٣٢).
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، الموضع السابق (١/١١٩ ـ ح١٣٣).

من بعدهم خلف، سودوا الأوراق بتلك الوساوس، التي هي شكوا وشبه، بل و سودوا القلوب، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»(1)

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في ـ القدر ـ، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «**ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم**». قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم أشهده، بما غبطت نفسي بذلك المجلس، أني لم أشهده. ورواه ابن ماجه أيضاً(2).

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، الخلاق: النصيب، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي استمعتم بنصيبكم من الدنيا كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم وخضتم كالذي خاضوا، أي: كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا.

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض، لأن فساد الدين

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير البقرة باب (وهو ألد الخصام) (٨/ ١٨٨ ـ ح٤٥٢٣)، وأخرجه مسلم في العلم باب في الألد الخصم (٤/ ٢٠٥٤ ـ ح٢٦٦٨).

(2) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٨، ١٨١، ١٨٥، ١٩٥)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة باب في القدر (١/ ٣٣ ـ ح٨٥).

إما في العمل وإما في الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثاني من جهة الشبهات.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لتأخذن أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، قالوا: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا أولئك»[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني اسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقوا على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة»، قالوا: من هي يارسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». رواه الترمذي[2].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». رواه أبوداود وابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بنحوه باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» (١٣/ ٣٠٠ - ح٧٣١٩).

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٥/ ٢٦ - ح٢٦٤١)، وقال هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وفي إسناده عبدالرحمن بن زياد الإفريقي، وهو ضعيف، ولذا ضعفه الشيخ الألباني بهذا السياق (ص٢٨٩)، وقال الأرناؤوط «لكن يتقوم بما قبله وما بعده» (ص٣٤٠).

(٣) أخرجه أبوداود في أول كتاب السنة باب شرح السنة (٤/ ١٩٨ - ح٤٥٩٦)، وأخرجه الترمذي في الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٥/ ٢٥ - ح٢٦٤٠) وقال حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في الفتن باب افتراق الأمم (٢/ ١٣٢١ - ح٣٩٩١).

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة»**[1].

وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر. وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

وقال عند شرح الطحاوي رحمه الله: (ص٣٠٩)

فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ للهِ تَعالىٰ في القَدَرِ خَصِيماً، وأَحْضَرَ للنَّظَرِ فيه قَلْباً سَقِيماً، لَقد التَمَسَ بِوَهْمِهِ في فَحْصِ الغَيْبِ سِراً كَتِيماً، وعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكاً أَثِيماً.

قال: وقوله: لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، أي طلب بوهمه في البحث عن الغيب سراً مكتوماً، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قال تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، إلى آخر السورة.

وقوله: **(عاد بما قال فيه)** أي: في القدر: **(أفاكاً)** كذاباً **(أثيماً)** أي: مأثوماً.

---

(١) أخرجه أبوداود في كتاب السنة باب شرح السنة (١٩٨/٤ ـ ح٤٠٩٧)، والإمام أحمد (١٠٢/٤)، وصححه الألباني (ص٢٩٠)، وذكر الأرناؤوط شاهداً له عن أنس بن مالك وقال: وهو حسن (ص٣٤٠).

وقال: (ص٢٩٢)

قوله: **فَهَذا جُمْلَةُ مَا يَحْتَاجُ إليه مَنْ هُو مُنَوَّر قَلْبُهُ مِنْ أَوْليَاءِ الله تَعَالىٰ، وهَي دَرَجَةُ الراسِخِين فِي العِلْم، لأَنَّ العِلْم عِلْمَان: عِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَوْجُود، وعِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَفْقُود، فَإِنكَارُ العِلْمِ المَوْجُود كُفْر، وادِّعاءُ العلم المَفْقودِ كُفْر، وَلاَ يَثْبتُ الإِيمَانُ إلاَّ بِقَبُولِ العِلْمِ المَوْجُودِ، وتَرْكِ طَلَبِ العِلْمِ المَفْقودِ.**

الإشارة بقوله: فهذا إلى ما تقدم ذكره، مما يجب اعتقاده والعمل به، مما جاءت به الشريعة.

وقوله: «وهي درجة الراسخين في العلم». أي علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلاً، نفياً وإثباتاً، ويعني بالعلم المفقود، علم القدر الذي طواه الله عن أنامه، ونهاهم عن مرامه.

ويعني بالعلم الموجود، علم الشريعة، أصولها وفروعها، فمن أنكر شيئا مما جاء به الرسول كان من الكافرين. ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين.

قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] ، الآية. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۝ ﴾ [لقمان: ٣٤] .

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا مَنْ جَهلْنا انْتفاءَ حِكمَتهُ. ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات، التي لا يعلم منها إلا المضرة: لم ينف أن يكون الله تعالى خالقا لها، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، لأن عدم العلم لا يكون علماً بالمعدوم.

قال: (ص١٥٥)

ولقد أحسن القائل: (نسب للشافعي)

فما شئتَ كان و إن لم أشأ   وما شئتُ إن لم تَشأ لم يكن

وعن وهب بن منبه، أنه قال: نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفُّهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم فيه.

المبحث الثاني

الإيمان بعلم الله تعالى

سَبَق أنّ الإيمانَ بالقدرِ يتضمَّنُ الإيمانَ بعلم اللهِ، وكتابتِهِ، وعُموم مشيئتِه، وقدرَتِه، وهذِهِ الأربعُ هي مراتِبُ للإيمانِ بالقَدَرِ.

وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أُفرِدَ كُلَّ واحِدَةٍ منها بمبحثٍ مَعَ مناقَشَةِ أقوالِ المخالِفينَ في ذلكَ.

قالَ رحِمَهُ اللهُ: (ص١٤٧، ١٤٨)

قوله: خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِه.

خلق أي: أوجد وأنشأ وأبدع . ويأتي خلق أيضا بمعنى: قدر. والخلق: مصدر، وهو هنا بمعنى المخلوق. وقوله: «بعلمه» في محل نصب على الحال، أي: خلقهم عالما بهم، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[1] [الملك: ١٤] . وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٠] . وفي ذلك رد على المعتزلة.

قال الإمام عبد العزيز المكي صاحب الإمام الشافعي رحمه الله وجليسه، في كتاب«الحيدة»[2]، الذي حكى فيه مناظرته بشراً المريسي عند

---

(١) (من) يصح أن تكون فاعلاً، ويصح أن تكون مفعولاً وكلاهما يعطي معنى صحيحاً.

(٢) كتاب الحيدة من الكتب المفيدة، والحيدة مصدر حاد عن الشيء يحيد حيدة أي أن =

المأمون حين سأله عن علمه تعالى: «فقال بشر: أقول: لا يجهل، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم، تقريراً له، وبشر يقول: لا يجهل ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمام عبد العزيز: نَفْيُ الجَهْل لا يكونُ صفةَ مَدْحٍ، فان هذه الأسطوانة لا تجهل، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم، لا بنفي الجهل. فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه، وينفوا ما نفاه، ويمسكوا عما أمسك عنه»[1].

والدليل العقلي على علمه تعالى. أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، لان إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد: هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم. ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لان الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم.

ولأن من المخلوقات ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لايكون الخالق عالما، وهذا له طريقان:

= بشراً المريسي كان يحيد في إلزامات عبدالعزيز المكي. وهذا الكتاب مطبوع متداول، وأياً كان القول في صحة نسبته لمؤلفه، إلا أن ما ورد به يمكن الاعتماد على أكثره من الردود السديدة المستقيمة، ومنها النقل عنه هنا، ولذا اعتمد عليها أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فقد نقل عنه في مواضع في كتاب العقل والنقل، تطلب من الفهارس، إلا أنه مما يجدر التنبيه عليه أنه وقعت في النسخ المطبوعة بين أيدينا مخالفات لعقيدة أهل السنة مثل إثباته اسم (السميع) مع عدم إثبات (السمع) وغير ذلك، ولعل المسئولين عن طباعة الكتاب يتنبهون لذلك مستقبلاً فيعلقون عليه بما يستحق والله أعلم.

(١) انظر الحيدة (ص٥٥،٥٦) تحقيق جميل صليبا.

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين، أحدهما عالم والآخر غير عالم ـ كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

الثاني: أن يقال كل علم في الممكنات، التي هي المخلوقات ـ فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه بل هو أحق به. والله تعالى له المثل الأعلى، لا يستوي هو والمخلوقات، لا في قياس تمثيلي، ولا في قياس شمولي[1]، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى[2].

وقال رحمه الله: (ص١٥٢)

قوله: وَلَمْ يَخْفَ عَلَيهِ شَيْء قَبْل أَن يَخْلُقَهُم، وَعَلَمَ مَا هُم عَامِلون قَبلَ أَنْ يَخْلُقَهُم.

فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون و ما لم يكن أن لو كان كيف يكون[3] كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وإن كان يعلم أنهم لا يُردون، ولكن أخبر أنهم لو ردوا لعادوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

---

(١) انظر المراد بهذا القياس في مبحث الأسماء والصفات.

(٢) راجع في الأدلة العقلية على إثبات العلم في الفتح (١٣/٣٦٢، ٣٦٣).

(٣) فالعلم له عموم التعلق، يتعلق بالخالق والمخلوق، والموجود والمعدوم، وأما القدرة فإنما تتعلق بالممكنات، وكذلك الملك إنما يكون ملكاً على المخلوقات. انظر مجموع الفتاوى (٦/٢٦٧).

وفي ذلك ردٌّ على الرافضةِ والقدريَّةِ، والذينَ قالوا: إنَّهُ لا يعلمُ الشيءَ قبلَ أنْ يَخْلُقَهُ ويوجِدَهُ وهي من فروعِ مسألةِ القدرِ، وسيأتي لها زيادةُ بيانٍ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ.

قوله: وَأَمَرهُم بِطَاعَتِه، ونَهَاهُم عَنْ مَعْصِيَتِه.

ذَكَرَ الشيخُ الأمرَ والنَّهيَ، بعد ذِكرِه الخَلْقَ والقَدرَ، إشارةً إلىٰ أن اللهَ تعالى خلقَ الخلقَ لعبادتِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال: (ص٢٧٤، ٢٧٥)

قوله: وقَدْ عَلِمَ الله فِيمَا لَمْ يَزَلْ عَدَدَ مَنْ يَدخُلُ الجنَّة، وَعَدَد مَنْ يَدخُلُ النَّار، جُمْلةً وَاحِدةً فَلا يُزَادُ في ذَلكَ العَدَدِ ولا يُنْقَصُ مِنْه. وكَذلِكَ أَفْعَالَهُم فِيمَا عَلِمَ مِنْهُم أن يَفْعَلُوه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧٥﴾ [الأنفال: ٧٥]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠]. فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلاً وأبداً، لم يتقدم علمَه بالأشياء جهالةٌ. وما كان ربك نسياً.

وعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ، قال: كنّا في جنازةٍ في بَقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعدَ وقعدْنا حولَهُ، ومعه مخصرة، فنكسَ رأسه فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة**» فقال رجل: يارسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: «**من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. ثم قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل**

الشقاوة، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥-١٠] خرجاه في الصحيحين[1].

قال: (ص٣٠٢، ٣٠٣)

قوله: وعَلَى العَبْد أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله قَدْ سَبَق عِلْمُه فِي كُلِّ كَائِن مِنْ خَلْقه، فَقَدَّر ذٰلكَ تَقْديراً مُحْكَماً مُبْرَماً، لَيْسَ فِيه نَاقِضٌ، ولا مُعَقِّبٌ وَلاَ مُزِيلٌ وَلاَ مُغَيِّرٌ ولا محول ولا نَاقِص ولا زَائِد مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ وأَرْضِه.

هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات وأنه قدر مقاديرها قبل خلقها، كما قال ﷺ: «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء». فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها، على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم. فإن حصول المخلوقات على مافيها من غرائب الحكم لا يُتصور إيجادها إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها. قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل، وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: ناظروا القدرية بالعلم، فان أقروا به خُصموا، وإن انكروا كفروا[2]. فالله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه، فإنما يعذبه

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها في الجنائز باب موعظة المحدث عند القبر (٣/ ٢٢٥ ـ ح١٣٦٢)، وأخرجه مسلم في القدر باب كيف الخلق الآدمي(٤/ ٢٠٣٩ ـ ح٢٦٤٧).

(٢) يعني يقال له: أيجوز أن يقع في الوجود خلاف ما تضمنه العلم؟ فإن منع وافق أهل السنة، وإن أجاز لزمه نسبة الجهل، تعالىٰ الله عن ذلك. وأيضاً فإن أراد الله أن لا يقع فعل من هذا العبد لما خلقه أصلاً وانظر الفتح (١/ ١٤٥).

لأنه لا يفعل مع القدرة، وقد علم الله ذلك منه، ومن لا يستطيع لا يأمر ولا يعذبه على ما لم يستطعه.

وإذا قيل: فيلزم أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله، لأن الله علم أنه لا يفعل، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله؟

قيل: هذه مغلطة، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لاعدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه، بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع. ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر، وعلم الله مطابق للواقع، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم، والعبدالذي لم يفعل لم يأت بما يغير العلم، بل هو قادر على فعل لم يقع، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع، لا أنه لا يقع.

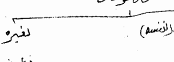
وإذا قيل: فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لايقع، فلو قَدِرَ العبدُ على وقوعه قدر على تغيير العلم؟ قيل: ليس الأمر كذلك، بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه! وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه وهو فرض محال. وذلك بمنزلة من يقول: افرض وقوعه مع عدم وقوعه! وهو جمع بين النقيضين.

فإن قيل: فإذا كان وقوعه مع علم الرب بعدم وقوعه محالاً لم يكن مقدوراً؟ قيل: لفظ المحال مجمل، وهذا ليس محالاً لعدم إستطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه في نفسه[1]، بل هو ممكن مقدور مستطاع،

---

(١) الممتنع في نفسه كالجمع بين النقيضين.

ولكن إذا وقع كان الله عالماً بأنه سيقع، وإذا لم يقع كان عالماً بأنه لا يقع، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالاً من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال! مما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادرا على شيء[1]، لا الرب، ولا الخلق، فإن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه، وكذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدره من أفعال عباده. والله تعالى أعلم[2].



---

(1) هذا بلفظه من مجموع الفتاوى (١٤/ ١٠٤، ١٠٥).

(2) ومما ينبغي التنبيه عليه أن العلم المذكور في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف: ١٢]، ونحو ذلك، فهو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده، وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم والثواب والعقاب. أما العلم الأول (بأنه سيكون)، فلا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب، فإن هذا إنما يكون بعد وجود الأفعال، وقد روي عن ابن عباس أنه قال في نحو هذا: لنعلم: لنرى، وكذلك قال المفسرون، لنعلمه موجوداً بعد أن كنا نعلم أنه سيكون. وانظر مجموع الفتاوى (٨/ ٤٩٦)، وبهذا تندفع شبهة الفلاسفة في أن الله لا يعلم الجزئيات لأنها زمانية تتغير بتغير الزمان والأحوال، والعلم تابع للمعلومات في الثبات والتغير فيلزم تغير علمه . . . إلخ أقوالهم. وهذا الجواب أفضل مما حاول به المتكلمون الرد عليهم، بأن التغير إنما وقع في الأحوال الإضافية وأن علمه في جميع الأحوال على حد واحد كما قرره الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٦٣).

المبحث الثالث

الإيمان باللــوح والقلم (الكتابة)

وهو الإيمان بأن الله سبحانه كتب كل ما يكون من لدن خلق القلم حتى قيام الساعة وأنه لا يخرج أحد عن القدر الذي كتبه الله، كل هذا هو المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر الأربعة.

أولاً: اللوح والقلم

وقد أوضح الشارح ذلك فقال: (ص٢٩٢ ـ ٢٩٤)

قوله: ونُؤْمِنُ باللَّوحِ والقَلَمِ، وبِجَمِيعِ مَا فِيه قَدْ رُقِم.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله خلق لوحا محفوظا، من درة بيضاء صفحاتها ياقوتة حمراء، قلمه نورٌ وكتابه نور، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائه نظرة، يخلق ويرزق ويميت ويحيي، ويعز ويذل ويفعل ما يشاؤه**»[1].

اللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (ح١٢٥١١) وفيه ضعف، ورواه موقوفاً عن ابن عباس (ح١٠٦٠٥)، وقال الألباني عن الموقوف (ص٢٩٣): وسنده يحتمل التحسين، وحسنه الأرناؤوط (ص٣٤٤).

كما في «سنن أبي داود»، عن عبادة بن الصامت، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب ، وما أكتبُ؟ قال: اكتب مقاديرَ كل شيء حتى تقوم الساعة»[1].

ثم ذكر الشارح هذا القلم فذكر أنه مخلوق بعد العرش وتقدم ذلك[2] ثم قال: (ص٢٩٦)

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾[3] [القلم: ١] .

والقلم الثاني: قلم الوحي: وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكّام على العالم. والأقلام كلها خدم لأقلامهم. وقد رفُع النبي ﷺ لله ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام[4]، فهذه الأقلام هي التي تكتُبُ ما يوحيه الله تباركَ وتعالى

(١) أخرجه أبوداود في السنة باب في القدر (٤/ ٢٢٥ ـ ح٤٧٠٠)، وأخرجه الترمذي في القدر بعد باب ما جاء في الرضا بالقضاء (٤/ ٣٩٨ ـ ح٢١٥٥) وقال غريب من هذا الوجه، وأخرجه في التفسير باب من سورة (نٓ) (٥/ ٣٩٤، ٣٩٥ ـ ح٣٣١٩) وقال حسن غريب، وفيه عن ابن عباس. وأخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣١٧)، وقد أخرج ابن جرير في تفسير سورة القلم (١٢/ ١٧٨ ـ ث٣٤٥٤٦) عن ابن عباس قال: (إن الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً، فكان أول ما خلق الله القلم). وإسناده كالشمس، وانظر الفتح (١٣/ ١٤٠٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر تفسير ابن جرير الطبري (١٢/ ١٧٦ ـ ١٧٨).

(٤) وهو في حديث أنس في الإسراء، أخرجه البخاري في الصلاة باب كيف فرض الصلوات في الإسراء (١/ ٥٤٧ ـ ح٣٤٩)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب الإسراء (١/ ١٤٨ ـ ح١٦٣)، والصريف: صوت القلم حال الكتابة، وهو صوت ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالىٰ ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ كما بالفتح (١/ ٥٥١).

من الأمور التي يدبر بها، أمر العالم العلوي والسفلي.

قوله: **فَلَو اجْتَمَعَ الخَلْق كُلُّهُم عَلَىٰ شَيءٍ كَتَبَه اللهُ تَعالىٰ أنَّه كائِنٌ لِيَجعَلُوه غَيْر كَائن ـ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيه. وَلو اجْتَمعُوا كُلهم عَلَىٰ شَيء كَتبه الله تَعالىٰ فيه، أنَّه غَير كَائن لِيَجعَلُوه كَائنا ـ لَمْ يَقْدِروا عَليه. جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُو كَائِن إِلى يَوْمِ القِيَامةِ.**

تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ، قال جاء سراقة بن مالك بن جُعشم، فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال: **«لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير»**(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: **«ياغلام ألا أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»** رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح(٢).

وفي رواية غير الترمذي: **«احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكَرْب، وأن مع العسر يسراً»**(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في القدر باب كيفية الخلق الآدمي (٤/ ٢٠٤٠ ـ ح٢٦٤٨).
(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٤/ ٥٧٥ ـ ح٢٥١٦) وقال حسن صحيح.
(٣) أخرجه بلفظ أتم منه الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وأما اللفظ المذكور هنا =

وقد جاءت «الأقلام» في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً غير القلم الأول، الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ .

والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره:

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح.

القلم الثاني: حين خَلَقَ آدم، وهو قلم عام أيضا، لكن لبني آدم، ورد في هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم.

القلم الثالث: حينَ يُرْسلَ الملك إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة[1].

= فأورده النووي في الأربعين عقب الرواية الأولىٰ وأشار ابنَ رجب في (جامعُ العلوم والحكم) (ص١٧٤) إلى أنها في مسند عبد بن حميد بإسناد ضعيف، وراجع ما كتبه الأرناؤوط مع هذا الحديث (ص٣٤٧).

(١) انظر ذلك في مبحث أصناف الملائكة من فصل الإيمان بالملائكة (ص٨، ٩) من هذا الجزء.

قال: (ص ٣٠١، ٣٠٢)

قوله: وَمَا أَخْطَأَ العَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَه، ومَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَه.

هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا محالة، ولقد أحسن القائل حيث يقول:

ما قضى الله كائن لا محالة والشقي الجهول من لام حاله

والقائل الآخر:

اقنع بما ترزق ياذا الفتى فليس ينسى ربنا نَمْلَةْ
إن أقبل الدهر فقم قائماً وإن تولى مدبراً نَمْ لَهْ[1]

(١) هذا جناس تام مستوفي بين قوله (نملة، نم له)، وبين قوله في البيت الأول (لا محالة، لام حاله) كما هو معروف في علم البديع انظر شرح التلخيص (ص٣٨٨ وما بعدها) نشر دار الفكر العربي، ضبط عبدالرحمن البرقوقي.

ثانياً: أقدار الخلق وآجالهم

سبق أن الله سبحانه قدر أقدار الخلق كلهم وجعل لكل واحد أجلا لا يتقدم عليه ولا يتأخر.

وقد يستشكل بعض الناس في ذلك دليلين:

الدليل الأول: ما ورد من أن صلة الرحم تزيد في العمر.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] وهل يطرد ذلك في الدعاء بطول العمر.

وبين الشارح رحمه الله ذلك كله، فبيّن أن هذه الأسباب المشروعة مثل صلة الرحم أيضاً من المقدر فالله خلق الرزق وخلق سببه.

وأيضا أن المحو والإثبات في الآية: إما من الصحف التي بأيدي الملائكة (لا من اللوح المحفوظ)، أو يكون من الشرائع واستظهره.

قال رحمه الله: (ص١٤٨ـ١٥٢)

قوله: وَقَدَّرَ لَهُم أَقْدَاراً.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ـ٣].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»(١).

قوله: وَضَرَبَ لَهُم آجَالاً.

يعني: أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم

---

(١) أخرجه مسلم في القدر باب حجاج آدم وموسى (٤/ ٢٠٤٤ ـ ح٢٦٥٣).

لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها: اللهم متعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: «قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حَلِّه، أو يؤخر شيئاً عن حَلِّه، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار وعذاب في القبر: كان خيراً وأفضل»(١).

فالمقتول ميت بأجله(٢)، فعلم الله تعالى وقدر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، وهذا بسبب الحرق، وهذا بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب. والله سبحانه خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة

وعند المعتزلة: المقتول مقطوع عليه أجله ولو لم يقتل لعاش إلى أجله فكان له أجلان وهذا باطل، لأنه لا يليق أن يُنسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه ألبتة، أو يجعل أجله أحد الأمرين، كفعل الجاهل بالعواقب، ووجوب القصاص والضمان على القاتل، لارتكابه المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور [يمنع ذلك](٣).

وعلى هذا يخرج قوله ﷺ: «صلة الرحم تزيد في العمر»(٤) أي: سبب

---

(١) أخرجه مسلم في القدر باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر (٤/ ٢٠٥٠ ـ ح٢٦٦٣/ ٣٢، ٣٣).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٦ ـ ٥١٨).

(٣) زيادة لفهم السياق.

(٤) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده (ح١٠٠) من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وأخرجه أبويعلى في مسنده من حديث أنس بن مالك، قال في مجمع الزوائد

طول العمر. وقد قدر الله أن هذا يَصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما قلنا في القتل وعدمه.

فإن قيل: هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك أم لا؟

فالجواب: أنّ ذلك غير لازم، لقوله ﷺ لأم حبيبة رضي الله عنها: «قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة» الحديث، كما تقدم. فعلم أن الأعمار مقدرة، لم يشرع الدعاء بتغييرها[1]، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة. فإن الدعاء مشروع له نافع فيه، ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لَمَّا تضمن النفع الأخروي - شُرع كما في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»، إلى آخر الدعاء[2].

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه

= (٨/ ١٥١) وفيه صالح المري وهو ضعيف. ويشهد له حديث أنس في الصحيحيين «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه». أخرجه البخاري في البيوع باب من أحب البسط في الرزق (٤/ ٣٠١ - ح٢٠٦٧)، ومسلم في البر والصلة باب صلة الرحم (٤/ ١٩٨٢ - ح٢٥٥٧).

(١) أما قوله ﷺ لأم خالد «أبلي وأخلقي» أخرجه البخاري في اللباس باب الخميصة السوداء (١٠/ ٢٩١ - ح٥٨٢٣)، فإنه يلزم منه الدعاء أن تطول حياتها حتى يبلى الثوب ويخلق وهو دعاء بزيادة العمر، وفيه فضل أم خالد، فيوجه على ما أطلع الله نبيه عليه، وفي آخر الحديث «فبقي حتى ذُكِر» كما في رواية البخاري له في الأدب (ح٥٩٩٣) وفي نسخة للبخاري في كتاب الجهاد وقال أبو عبدالله لم تعش امرأة مثل ما عاشت هذه يعني أم خالد. انظر الفتح (٦/ ١٨٤).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب السهو في أنواع الدعاء (٣/ ٥٤، ٥٥ - ح١٣٠٥).

عن النبي ﷺ: «لايرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه»[1].

وفي الحديث رد على من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: أنه نهى عن النذر، وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»[2].

واعلم أن الدعاء يكون مشروعاً نافعاً في بعض الأشياء دون بعض، وكذلك هو. ولهذا لا يحب الله المعتدين في الدعاء. وكان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر، ويقول: هذا أمر قد فرغ منه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى: «من عمره» أنه بمنزلة قولهم عندي درهم ونصفه أي ونصف درهم آخر فيكون المعنى ولا ينقص من عمر معمر آخر.

وقيل الزيادة والنقصان في الصحف التي بأيدي الملائكة وحمل قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٨-٣٩] على أن المحو والإثبات من الصحف التي في أيدي الملائكة، وأن قوله: (وعنده أم الكتاب). اللوح المحفوظ. ويدل على هذا الوجه سياق الآية، وهو قوله: (لكل أجل كتاب)، ثم قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، أي: من ذلك

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٤٩٣) وقال صحيح ووافقه الذهبي، وحسنه بشاهده الألباني (ص١٥١)، وذكر الشيخ الألباني في هذا الموضع أن إطلاق لفظة الصحيح على المستدرك فيه تساهل ظاهر، لكثرة الأحاديث الضعيفة والمنكرة الواقعة فيه وتابعه على ذلك الأرناؤوط (ص١٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في القدر باب إلقاء العبد النذر إلى القدر (١١/٤٩٩ ـ ح٦٦٠٨)، ومسلم بلفظه في النذر باب النهي عن النذر (٣/١٣٦٠ ـ ح١٦٣٩/٤).

الكتاب، (وعنده أم الكتاب)، أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ[1].

وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخها ويثبت ما يشاء فلا ينسخها والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله، ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٨، ٣٩]. أي: أن الشرائع لها أجلٌ وغاية تنتهي إليها، ثم تنسخ بالشريعة الأخرى فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء. وفي الآية أقوال أخرى، والله أعلم بالصواب[2].

---

(١) قال شيخ الإسلام كما بمجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٠ وما بعدها): هو الجواب المحقق أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص، نقص من ذلك المكتوب. اهـ. وقال ابن حجر في الفتح في شرح حديث «يجمع خلق أحدكم...» الحديث (١١/ ٤٩٤): «قال ابن العربي: الحكمة في كون الملك يكتب ذلك: كونه قابلاً للنسخ والمحو والإثبات، بخلاف ما كتبه الله تعالىٰ فإنه لا يتغير». اهـ.

(٢) سئل شيخ الإسلام عن الرزق هل يزيد أو ينقص؟ وهل هو ما أكل العبد أو ما ملكه العبد؟ فأجاب: الرزق نوعان: أحدهما: ما علمه الله أنه يُرزقه، فهذا لا يتغير، والثاني: ماكتبه وأعلم به الملائكة، فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب، فإن العبد؛ يأمر الله الملائكة أن تكتب له رزقاً وإن وصل رحمه زاده الله على ذلك، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»، وكذلك عمر داود زاد ستين سنة، فجعله الله مائة، بعد أن كان أربعين ومن هذا الباب قول عمر: «اللهم إن كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت»، ومن هذا الباب قوله تعالىٰ عن نوح (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى)، وشواهده كثيرة. والأسباب التي يحصل بها الرزق هي من جملة ما قدره الله وكتبه. ثم تكلم على أن الرزق هل هو ما ينتفع به العبد أو ما يملكه؟ فالأول يدخل فيه الحرام والحلال، والثاني هو الحلال. انظر مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤٠).

المبحث الرابع

الإيمان بعموم مشيئة الرب تعالى

هذه هي المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر، والمخالفون لأهل السنة في ذلك أيضاً فريقان: القدرية وهم الذين ينازعون في عموم المشيئة وإن أقروا بالأمر والنهي في الجملة.

والجبرية، وهم وإن آمنوا بعموم مشيئة الله، إلا أنهم أنكروا شرعه وأمره.

وأما أهل السنة فإنهم أقروا بالأمرين بعموم المشيئة وبالشرع والقدر.

والبحث في هذا الموضوع يتضمن عدة مطالب

أولاً: مذهب أهل السنة وأدلتهم على عموم مشيئة الرب سبحانه.

ثانياً: الرد على شبهة القدرية.

ثالثاً: الرد على شبهة الجبرية.

رابعاً: منشأ الضلال.

وفيما يلي عرضٌ لهذه المطالب:

أولاً: مذهبُ أهل السنةِ وأدلتُهم على عموم مشيئةِ الربِّ سبحانه

قال: (ص١٥٣)

قوله: وكُل شَيءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِه وَمَشِيئَتِه، ومَشِيئَتُهُ تَنفُذُ، لاَ مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إلاَّ مَا شَاءَ لَهُم، فَمَا شَاءَ لَهُم كَان، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الدهر: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا

﴿فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] . وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]. وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وقال في معرض الاستدلال على عموم مشيئة الرب تعالى: (ص٢٧٩)

وأما الأدلة من الكتاب والسنة:

فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣] . وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩] . وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الدهر: ٣٠] . وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩] . وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال أيضاً: (ص٢٧٧)

والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢].

وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً، ولا يرضاه ديناً.

وقال: (ص١١٦-١١٧)

أما أهل السنة فيقولون: إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً - فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها. وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله - لم يحنث[1] - إذا لم يفعله وإن كان واجباً أو مستحباً. ولو قال: إن أحب الله - حنث إذا كان واجباً أو مستحباً.

والمحققون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية أمرية شرعية، فالإرادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضى، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات[2].

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية، فكقوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ

---

(١) انظر ما شرح به الحافظ باب الاستثناء في الإيمان فقد لخص جملة من الفوائد حول هذا الأمر (١١/٦٠١ وما بعدها)، وفي حديث أبي هريرة في قصة سليمان قال أبوهريرة: «لو قال: إن شاء الله لم يحنث» أخرجه البخاري في الإيمان في باب الاستثناء (١١/٦٠٢ - ح٦٧٢).

(٢) انظر في ذلك: مجموع الفتاوى (٦/١١٥)، (٨/١٨٨)، (١٧/١٠١)، (١٨/١٣٢)، ومنهاج السنة (١/٣٦٠)، (٧/٧١، ٧٢).

﴿ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١) [الأحزاب: ٣٣].

فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لايريده الله، أي: لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

وأما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان ولم يشأ لم يكن.

ويبين الشارح أن التقسيم إلى كوني وشرعي ليس خاصاً بصفة الإرادة بل يدخل في ذلك أيضاً الكتاب والحكم والقضاء والتحريم... إلخ.

قال: (ص٥٠٥-٥٠٧)

وقوله: وكُل شَيءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللهِ وعِلْمِهِ وقَضَائِهِ وقَدَرِهِ.

يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي، فإن القضاء يكون كونياً وشرعياً، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات، ونحو ذلك(٢). **أما القضاء الكوني**، ففي قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]. **والقضاء الديني الشرعي**، في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

---

(١) والإرادة في هذه الآية شرعية لا كونية، وفيه رد على الشيعة القائلين بعصمة الأئمة، ولو كانوا معصومين لما صح سياق الآية. انظر منهاج السنة (٧/٦٨ - ٨٩).
(٢) انظر الجواب الصحيح (١/١٤٩ - ١٥٤) الطبعة المحققة.

وأما الإرادة الكونية والدينية، فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ: ولا يكون إلا ما يريد[1].

وأما الأمر الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، في أحد الأقوال، وهو أقواها[2].

والأمر الشرعي، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، الآية. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وأما الإذن الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والإذن الشرعي، في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3] [الحشر: ٥].

وأما الكتاب الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

---

(١) وهو المتقدم قريباً حسب ترتيب هذا الكتاب.

(٢) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٤ ـ ٢٦)، والجواب الصحيح (١/ ١٩٠)، والقرطبي (١٠/ ٢٣٢)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٢)، وفتح القدير (٣/ ٢١٤)، وفي قراءة: (أمَّرنا) بالتشديد، كما بالغاية في القراءات العشر (ص١٩٠)، والقول الثاني: أي أمرناهم بالشرع، فلم يأتمروا بل خالفوا، فحق عليهم القول بمخالفة الشرع، وقد يكون هذا أوضح والله أعلم.

(٣) وقد يكون الإذن في هذه الآية هو الإذن الكوني، حيث لم يتقدم لهم شرع بذلك فلا يؤاخذون شرعاً، وأما مثال الإذن الشرعي فقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩].

والكتاب الشرعي الديني، في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥] . وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وأما الحكم الكوني، ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠]. وقوله تعالى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

والحكم الشرعي، في قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ ﴾ [المائدة: ١] . وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وأما التحريم الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٢٦] . وقوله تعالى: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥ ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

والتحريم الشرعي، في قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣] . وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] ، الآية.

وأما الكلمات الكونية، ففي قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وفي قوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[1].

والكلمات الشرعية الدينية، في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤١٩)، وتقدم تخريجه في مبحث القرآن، وصححه الألباني (ص٥٠٧)، وصحح إسناده الأرناؤوط (ص٦٥٨).

ثانياً: الرد على شبه القدرية

قال رحمه الله: (ص١١٥)
قوله: وَلاَ يَكُونُ إلاَّ مَا يُرِيد.

هذا رد لقول القدرية والمعتزلة، فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان م الناس كلهم والكافر أراد الكفر. وقولهم فاسد مردود، لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح، وهي مسألة القدر المشهورة، وسيأتي له زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

وسُموا قدرية لإنكارهم القدر[١]، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضا. والتسمية على الطائفة الأولى أغلب.

وقال في بيان أدلة المشيئة الكونية، وذَكَرَ جملة منها كما تقدم ثم قال: (ص١٥٣)

وقال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٩ ﴾ [الأنعام: ٣٩] . إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يش لم يكن. وكيف يكون في ملكه ما لا يشاؤه ومن أضل سبيلا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله!! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وقال بعد أن بين اعتقاد أهل السنة كما تقدم: (ص٢٧٧-٢٧٩)

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فروا إلى هذا لئلا يقولوا شاء الكفر من

---

(١) والعرب تسمى بالنفي، كقولهم (يتحنث) أي ينفي الحنث بمعنى يتعبد وكتسمية محمد ابن الفضل السدوسي بعارم لبعده عن العرامة وهي الفساد وهذا كثير.

الكافر وعذبه عليه! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار! فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه! فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فان الله قد شاء الإيمان منه ـ على قولهم ـ والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى!! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالكائي، من حديث بقية عن الأوزاعي، حدثنا العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكي: عن ابن عباس قال: قيل لابن عباس إن رجلاً قدم علينا يكذِّب بالقدر، فقال: دلوني عليه، وهو يومئذ قد عمي، فقالوا له: ما تصنع به؟ فقال: والذي نفسي بيده، لئن استمكنت منه لأعضَنَّ أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدي لأدقنَّها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كأني بنساء بني فهم يطفن بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات**»، هذا أول شرك في الإسلام، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدّر الخير، كما أخرجوه من أن يقدّر الشر[1].

قوله: وهذا أول شرك في الإسلام. إلى آخره، من كلام ابن عباس. وهذا يوافق قوله: القدر نظام التوحيد، فمن وحَّد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه[2].

وروى عمرو بن الهيثَم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم، قال المجوسي: حتى يريد الله، فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد! قال المجوسي:

---

(١) أخرجه اللالكائي (٤/ ٦٢٥)، وضعفه الألباني (ص١٧٨)، وضعفه الأرناؤوط (٣٢٢).
(٢) تقدم بيان ذلك وتخريجه في أوائل مباحث القدر.

أراد الله وأراد الشيطان فكان ما أراد الشيطان! هذا شيطان قوي!! وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما!!

ووقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد، فقال: ياهؤلاء إن ناقتي سُرقت فادعوا الله أن يردّها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم تُرد أن تُسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه! فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك! قال: ولم؟ قال: أخافُ ـ كما أراد أن لا تُسرق فسرقت، ـ أن يريد ردّها فلا تُرد!!

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: أرأيت إن منعني الهدي وأوردني الضلال ثم عذبني، أيكون منصفاً؟ فقال له أبوعصام إن يكن الهدى شيئاً هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء[1].

* مسألة الهدى والضلال:

قال الشارح رحمه الله: (ص١٥٥)

قوله: **يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، ويَعْصِمُ ويُعَافِي، فَضْلاً. ويُضِلُّ مَن يَشَاءُ، ويَخْذُلُ ويَبْتَلِي، عَدْلاً.**

هذا رد على المعتزلة في قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله،

---

(١) ذكر السبكي في طبقاته مناظرة عبدالجبار الهمذاني وأبي إسحاق الاسفرائيني، وقد ذكرها الشيخ الألباني في تعليقه (ص٢٧٨)، وهي قريبة مما قاله أبوعصام القسطلاني، ومضمونها: أنه دخل عبدالجبار الهمذاني ـ القاضي المعتزلي ـ على الصاحب ابن عباد وعنده الاستاذ أبو إسحاق الاسفرائيني ـ الإمام الشافعي المشهور ـ فلما رأى الأستاذ قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء، فقال الأستاذ فوراً: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال القاضي: أيشاء ربنا أن يعصى؟ قال الأستاذ: أيعصى ربنا قهراً؟ فقال القاضي: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عليّ بالردى أحسن إليّ أم أساء؟ فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء، فبُهت القاضي.

وهي مسألة الهدى والضلال. قالت المعتزلة: الهدي من الله: بيان طريق الصواب، والإضلال: تسمية العبد ضالاً، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه[1]. وهذا مبني على أصلهم الفاسد: أن أفعال العباد مخلوقة لهم: والدليل على ما قلناه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]. ولو كان الهدى بيان الطريق ـ لما صح هذا النفي عن نبيه، لأنه ﷺ بين الطريق لمن أحب وأبغض. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[السجدة: ١٣] ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [المدثر: ٣١]. ولو كان الهدى من الله البيان، وهو عام في كل نفس ـ لما صح التقييد بالمشيئة. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات: ٥٧]. وقوله: ﴿ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٩].

قوله: وكُلُّهُم يَتَقَلَّبون فِي مَشِيئَتِه، بَيْنَ فَضْلِه وعَدْلِه.

فإنهم كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢]. فمن هداه إلى الإيمان فبفضله، وله الحمد، ومن أضله فبعدله، وله الحمد. وسيأتي لهذا المعنى زيادة إيضاح، إن شاء الله تعالى، فإن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد، بل فرقه، فأتيت به على ترتيبه[2].

قوله: وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنْ الأَضْدَادِ والأَنْدَاد.

الضد: المخالف، والند: المثل. فهو سبحانه لا معارض له، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا مثل له، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ

---

(١) انظر في فساد ذلك: مدارج السالكين (٤١٧/١).
(٢) وهو في آخر هذا الفصل على ترتيب هذا الكتاب.

﴿كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]. ويشير الشيخ رحمه الله ـ بنفي الضد والند ـ إلى الرد على المعتزلة، في زعمهم أن العبد يخلق فعله.

قوله: لا رَادَّ لِقَضَائِه، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه، ولا غَالِبَ لأمْرِه.

أي: لا يَرُدُّ قَضاء الله رادٌّ، ولا يعقب، أي لا يُؤخر حكمه، مُؤخر، ولا يغلب أمره غالب، بل هو الله الواحد القهار.

قوله: آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّه، وأيْقَنَّا أنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِه.

أما الإيمان فسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى[1]. والإيقان: الاستقرار، من يقن الماء في الحوض إذا استقر. والتنوين في «كلًّا» بدل الإضافة، أي: كل كائن محدث من عند الله، أي: بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وتكوينه. وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه، إن شاء الله تعالى.

وقد احتجت القدرية على ما ذهبوا إليه من إنكار عموم مشيئة الرب بأن الله سبحانه ذم المشركين وذم إبليس لما جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله، كذا زعموا، وغفلوا عن أن الذم الواقع إنما هو على معارضة الأمر والنهي، لا على الإيمان بعموم المشيئة.

قال الشارح بعد أن ذكر الآيات الدالة على ثبوت المشيئة :(ص١٥٣، ١٥٤)

فان قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، الآية. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، الآية. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]

(١) وسبق على ترتيب هذا الكتاب في أوله.

فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائناً منهم بمشيئة الله، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله تعالى، اذ قال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحجر: ٣٩].

قيل: قد أجيب على هذه بأجوبة، من أحسنها: أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد الله عليهم ذلك. أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به. أو أنه أنكر عليهم معارضته شرعه وأمره الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره، دافعين بها لشرعه، كفعل الزنادقة والجهال، إذا أُمروا أو نُهوا احتجوا بالقدر. وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر، فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره. يشهد لذلك قوله تعالى في الآية: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨]. فعلم أن مرادهم التكذيب، فهو من قبل الفعل، من أين له أن الله لم يقدره؟ أطلع الغيب؟

وقال أيضاً: (ص١٥٥)

وأما قول إبليس : (رب بما أغويتني)، إنما ذُم على احتجاجه بالقدر، لا على اعترافه بالمقدر وإثباته له[1]، ألم تسمع قول نوح عليه السلام: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [هود: ٣٤].

(١) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٦/٢٣٨ ـ ٢٤٠).

ثالثاً: الرد على شبه الجبرية

احتجت الجبرية على ما ذهبوا إليه من الجبر بأن مشيئه الله عامة بحيث يكون للعبد مشيئة ولا فعل بدليل حديث احتجاج آدم وموسى، فبي الشارح أن وجه الحديث هو الاحتجاج بالقدر على المصيبة لا عل الذنب، فإن تقدير الخروج إنما هو قضاء لله، وإلا فقد يعاقب الله بغي ذلك.

قال رحمه الله: (ص١٥٤، ١٥٥)

فان قيل: فما يقولون في احتجاج آدم على موسى عليهما السلا بالقدر[1]، إذ قال له: «أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاما؟» وشهد النبي ﷺ أن آدم حج موسى[2]، أي: غلبه بالحجة؟

قيل: نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة، لصحته عن رسول الله ﷺ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه، كما فعلت القدرية، ولا بالتأويلات البادرة[3]. بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنه باطل. وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة،

---

(١) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٢/١٠٨، ٣٢٥)، (١٠/١٦٠، ٥٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في مواضع منها أحاديث الأنبياء باب وفاة موسى (٦/٤٤١ ـ ح٣٤٠٩)، ومسلم في القدر باب حجاج آدم وموسى (٤/٢٠٤٢ ـ ح٢٦٥٢).

(٣) كقولهم، إنما غلبه بالحجة لأن آدم أبوه ولا يليق الإنكار على الأب ونحو ذلك وانظر في هذه التأويلات البداية والنهاية لابن كثير (١/٧٥).

لا على الخطيئة، فان القدر يحتج به عند المصائب، لا عند المعائب[1].

وهذا المعنى أحسن ما قيل في الحديث[2].

فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضى بالله ربا، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، واذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب. فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب[3]. قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [المؤمن: ٥٥]. وقال تعالى: وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[4] [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) ونحو ذلك كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي فافتقر أولاده لذلك، فعليهم أن يصبروا لما أصابهم وإذا لاموا الأب لحظوظهم، ذكر لهم القدر. انظر مجموع الفتاوى (١١/٢٥٩).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٨/١٠٨، ١٧٨ ـ ١٧٩)، وانظر في اللوازم الباطلة في الاحتجاج بالقدر على المعاصي مجموع الفتاوى (٨/٢٦٢ ـ ٢٦٦، ٣٠٢ وما بعدها، ٣١٩ وما بعدها).

(٣) قال شيخ الإسلام: «فالمؤمن إذا آذاه الناس نظر إلى القدر فصبر واحتسب، وإذا أساء هو تاب واستغفر كما قال تعالىٰ: (فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك) [المؤمن: ٥٥]، فالمؤمن يصبر على المصائب، ويستغفر من الذنوب والمعايب، والمنافق بالعكس، لا يستغفر من ذنبه، بل يحتج بالقدر، ولا يصبر على ما أصابه، فلهذا يكون شقياً في الدنيا والآخرة، والمؤمن سعيداً في الدنيا والآخرة». اهـ. من مجموع الفتاوى (٨/٢٤١)، وانظر في شهود القدر في الطاعات (٨/٣٣١)، وقد قيل (أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري)، وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٨/١٠٧، ٢٤١).

(٤) كما أن لكل من الجبرية والقدرية شبه أخرى محل تفصيلها في المطلب الرابع.

رابعاً: منشأ الضلال: وهل الأمر يستلزم الإرادة؟

قال رحمه الله: (ص١١٧ـ ١١٩)

والفرقُ ثابتٌ بينَ إرادةِ المريدِ(١) أنْ يفعلَ، وبينَ إرادتِه مِنْ غيرِه(٢) أنْ يَفعلَ. فإذا أرادَ الفاعلُ أنْ يفعلَ فِعْلاً فهذِهِ الإرادةُ مُعلَّقةٌ بِفعلِه، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلا فهذه الإرادة لفعل الغير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمَرَ به وقد لا يريد ذلك، وإن كان مريداً منه فعله.

وتحقيق هذا مما يبين فصل النزاع في أمر الله تعالى: هل هو مستلزم لإرادته أم لا(١)؟ فهو سبحانه أمر الخلق على ألسن رسله عليهم السلام بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله، فأراد سبحانه أن يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلا له ومنهم من لم يرد أن يخلق فعله، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها من المخلوقات، غير جهة أمره للعبد على وجه البيان لما هو مصلحة للعبد أو مفسدة، وهو سبحانه ـ إذ أمر فرعون وأبالهب وغيرهما بالإيمان ـ كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصلحهم إذا فعلوه، ولا يلزم إذا أمرهم أن يعينهم، بل قد يكون في خلقه لهم ذلك الفعل وإعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هو فِعْلٌ له، فإنه خلق ما يخلق لحكمة، ولا يلزم إذا كانَ الفعلُ المأمورُ به مصلحةً للمأمور إذا فَعلَهُ ـ أن يكون مصلحةً للآمر إذا فعله هو أو جعلَ المأمورَ فاعلاً له.

(١) انظر مجموع الفتاوى (٨/١٧٦).

فأين جهة الخلق من جهة الأمر؟ فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه مريداً النصيحة ومبيناً لما ينفعه، وإن كان مع ذلك لا يريد أن يعينه على ذلك الفعل، إذ ليس كل ما كان مصلحتي في أن آمر به غيري وأنصحه ـ يكون مصلحتي في أن أعاونه أنا عليه، بل قد تكون مصلحتي إرادة ما يضاده. فجهة أمره لغيره نصحاً غير جهة فعله لنفسه، وإذا أمكن الفرق في حق المخلوقين فهو في حق الله أولى بالإمكان.

والقدرية تضرب مثلاً بمن أمر غيره بأمره فإنه لابد أن يفعل مايكون المأمور أقرب إلى فعله، كالبِشْر والطلاقة وتهيئة المساند والمقاعد ونحو ذلك.

فيقال لهم: هذا يكون على وجهين:

أَحَدَهُما: أنْ تكون مصلحة الأمر تعود إلى الآمر، كأمر الملك جنده بما يؤيد ملكه، وأَمَرَ السيد عبده بما يصلح ملكه، وأمر الانسان شريكه بما يصلح الأمر المشترك بينهما، ونحو ذلك.

الثاني: أن يكونَ الآمر يرى الإعانة للمأمور مصلحة له، كالأمر بالمعروف، وإذا أعان المأمور على البر والتقوى فإنه قد علم أن الله يثيبه على إعانته على الطاعة، وأنه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

فأما إذا قدر أن الآمر إنما أمر المأمور لمصلحة المأمور، لا لنفع يعود على الآمر من فعل المأمور، كالناصح المشير، وقدر أنه إذا أعانه لم يكن ذلك مصلحة للآمر، وأنّ في حصول مصلحة المأمور مضرة على الآمر، مثل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: ٢٠]. فهذا مصلحته في أن يأمر موسى عليه السلام بالخروج، لا في أن يعينه على

ذلك، إذ لو أعانه لَضَرَّهُ قَوْمُهُ. ومثل هذا كثير.

وإذا قيل: إن الله أمر العباد بما يصلحهم، لم يلزم من ذلك أن يعينهم على ما أمرهم به، لاسيما وعند القدرية لا يقدر أن يعين أحداً على ما به يصير فاعلاً. وإذا عُللت أفعاله بالحكمة، فهي ثابتة في نفس الأمر، وإن كنا نحن لا نعلمها. فلا يلزم إذا كان في نفس الآمر له حكمة في الأمر أن يكون له في الإعانة على فعل المأمور به حكمة، بل قد تك الحكمة تقتضي أن لا يعينه على ذلك، فإنه إذا أمكن في المخلوق أن يكون مقتضى الحكمة والمصلحة أن يأمر بأمر لمصلحة المأمور، وأن تكون الحكمة والمصلحة للآمر أن لا يعينه على ذلك فإمكان ذلك في حق الرب أولىٰ وأحرى.

والمقصود: أنه يمكن في حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيره بأمر ولا يعينه عليه، فالخالق أولى بإمكان ذلك في حقه مع حكمته. فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمره نشأة وخلقاً ومحبة، فكان مراداً بجهة الخلق ومراداً بجهة الأمر. ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق به أمره ولم يتعلق به خلقه، لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده. وَخَلْقُ أَحَدِ الضِّدين ينافي خَلْقَ الضد الآخر، فإن خلق المرض ـ الذي يحصل به ذل العبد لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة والعدوان ـ يضاد خلق الصحة التي لا تحصل معها هذه المصالح ولذلك خلق ظلم الظالم ـ الذي يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض ـ يضاد خلق عدله الذي لا يحصل به هذه المصالح، وإن كانت مصلحته هو في أن يعدل.

وتفصيل حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره، يعجز عن معرفته عقول

البشر، والقدرية دخلوا في التعليل[1] على طريقة فاسدة: مثلوا الله فيها

(١) مسألة الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالىٰ: اضطربت فيها أقوال الناس، وحاصل ما قالوه يرجع إلى قولين:
القول الأول: نفي الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالىٰ، وهو مذهب الجهمية والأشعرية ومن وافقهم في ذلك كابن حزم سامحه الله. واستدلوا على ذلك بأدلة أشهرها دليلان: (الأول): لو ثبتت الحكمة في أفعال الله للزم التسلسل، لأنه إن كان فعل الرب لعلة باعثة فهي حادثة، ويحتاج إلى علة قبلها وهكذا... (الثاني): لو كان خلق الله الخلق لعلة لكان ناقصاً بدونها، مستكملاً بها وهو ممتنع فيجب نفيها.
وأجيب على (الأول) بأن هذا مثل (الفعل)، فهو إن ثبت أنه قديم النوع، فالحكمة كذلك، ثم إن الحكمة إن كانت حاصلة بعد الفعل فالإلزام بالتسلسل إنما يكون في حوادث المستقبل لا الماضي، والتسلسل في المستقبل قال به الجمهور في حوادث الجنة.
وأجيب على الثاني بأنه منتقض بالـ (المفعول)، فلا يقال: إن الكمال به وبدونه نقص، وما يجاب به عنه يجاب به عن الحكمة ثم إن هذا حصل بقدرة الله، فالكمال بفعله هو لا بغيره، كما يقال كمل بصفاته وبذاته. وما من محذور يلزم بتجويز أن يفعل لحكمة، إلا والمحاذير التي تلزم بكونه يفعل لا لحكمة أعظم وأعظم. وينظر في ذلك مجموع الفتاوى (١٤٦/٨ ـ ١٤٧، ١٥١، ١٨٣ ـ ١٨٤)، منهاج السنة (٢٩٧/١ ـ ٢٩٨)، درء التعارض (٢٠٣/٤).
القول الثاني: قول من أثبت الحكمة والتعليل:
وهؤلاء طوائف: فمنهم من جعلها مخلوقة منفصلة عن الرب، وهذا قول المعتزلة، وقد دخلوا في هذا الباب بنوع من التشبيه والتمثيل ـ كما ذكر الشارح هنا ـ فقاسوا أفعال الخالق على المخلوق، وخرجوا بأن أوجبوا على الرب سبحانه ما أوجبته عقولهم، وهي قضية (الصلاح والأصلح)، ولذا فهم مشبهة الأفعال، وقولهم مبني على أن العباد يخلقون أفعالهم، وسيأتي بيان فساد ذلك في المبحث الخامس.
وأما أهل السنة: فأثبتوا لله حكمة في كل ما خلق، والحكمة تتضمن شيئين:
أحدهما: حكمة تعود إليه سبحانه، يحبها ويرضاها، وهي التي أنكرها المعتزلة.
والثاني: حكمة تعود إلى عباده، هي نعمة يفرحون بها، ويلتذون بها، وهذه تكون في المخلوقات والمأمورات. وانظر في ذلك مجموع الفتاوى (٣٥/٨ ـ ٣٦)، =

بخلقه، ولم يثبتوا حكمة تعود إليه.

الفرق بين المشيئة والمحبة

قال الشارح: (ص٢٧٩ـ٢٧٨)

ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضى[1].

فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا: فقالت الجبرية الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوبا مرضيا. وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة. أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب، فقد تقدم ذكر بعضها[2].

= شفاء العليل (ص٤٠٠ وما بعدها) ط. دار التراث، ومما يلاحظ أن أقوال الناس في الحكمة في أفعال الله تعالىٰ، تعود إلى أقوالهم في كلام الله، فمنهم من قال: لا تعلل أفعاله وأحكامه، ومنهم من يعللها بحكم منفصلة، ومنهم من يقول بأنها تعلل بعلل قديمة، ومنهم من يجعلها معللة بعلل حادثة النوع، وأهل السنة يقولون بتعليل ذلك بأمور متعلقة بمشيئته وقدرته. وكذلك الكلام: منهم من قال لا يتعلق كلامه بمشيئته وقدرته (الأشعرية)، ومنهم من قال يتكلم بكلام منفصل عنه (المعتزلة)، ومنهم من قال إن التكوين قديم (الماتريدية)، ومنهم من قال بحدوث النوع (الكرامية)، وأهل السنة يقولون لم يزل متكلماً إذا شاء، فإنه لما قام به تعالىٰ كلام أو فعل متعلق بمشيئته، وأنه لم يزل كذلك، كانت الحكمة كذلك، فيكون النوع قديماً وإن كانت آحاده حادثة. وانظر مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥ ـ ٥٧، ٨٣، ١٥٣ وما بعدها).

(١) انظر في ذلك مدارج السالكين (١/ ١٦٥) وما بعدها.

(٢) في المطلب الأول من هذا المبحث.

وأما نصوص المحبة والرضى، فقال: تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥]. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى عقيب مانهي عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر. ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ: **«إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**(١).

وفي المسند: **«إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»**(٢).

وكان من دعائه ﷺ: **«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»**(٣).

فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضى من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، **فالأول الصفة، والثاني لأثرها المرتب عليها**، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتي مما أكره ومنعه أن يحل بي، هي بمشيئتك أيضا، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فإيعاذي بك منك،

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها في كتاب الزكاة باب قول الله تعالى (لا يسألون الناس إلحافا) (٣/ ٣٤٠ ـ ح١٤٧٧)، ومسلم في الأقضية باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٣/ ١٣٤١ ـ ح٢٥٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٠٨)، وصححه الألباني (ص٢٨٠)، وذكر الأرناؤوط شواهده (ص٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٢ ـ ح٤٨٦).

وعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل هو منك. فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته[1].

فإن قيل: كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته؟ قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت طرقهم وأقوالهم[2].

فاعلم أن المرادَ نوعان: **مرادٌ لِنفْسِه، ومرادٌ لغيرِه.**

فالمراد لنفسهِ، مطلوبٌ محبوبٌ لذاتِهِ وما فيه من الخيرِ، فهو مرادٌ إرادةَ الغاياتِ والمقاصدِ.

والمراد لغيره، قد لايكون مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصودِهِ ومرادِهِ، فهوَ مكروهٌ لهُ مِنْ حَيْثُ نفسِهِ وذاتِهِ، مرادٌ له من حيث افضاؤه وإيصاله إلى مراده. فَيَجْتَمِعُ فيهِ الأمرانِ: بُغْضُهُ وإرادَتُهُ، ولا يتنافيانِ، لاختلافِ متعلقهما. وهذا كالدواءِ الكريهِ، إذا عَلِم المتناولُ لهُ أن فيهِ شفاءَهُ، وقطعُ العضوِ المتآكلِ إذا علم أن في قطعِهِ بقاءَ جَسَدِهِ، وقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف بمن لا يخفى عليه خافية.

فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه

---

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ٢٦٧، ٢٦٨)، وشفاء العليل (ص٢٧٢ ـ ٢٧٣).
(٢) هذا البحث منقول بلفظه من مدارج السالكين (٢/ ١٩٠ ـ ١٩١).

سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوته.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه. ومع هذا فهو وسيلة إلى محابّ كثيرة للربّ تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها:

ومنها: أنهُ تَظهرَ للعبادِ قدرة الرّب تعالىٰ على خلقِ المتضادات والمتقابلات، فخَلَقَ هذهِ الذاتِ، التي هي أخبثُ الذواتِ وشرّها، وهي سببُ كُلِّ شرٍّ، في مقابَلَةِ ذاتِ جبرائيلَ، التي هي من أشرفِ الذواتِ وأطهرَها وأزكاها، وهي مادّةُ كلّ خير، فتباركَ خالقُ هذا وهذا. كما ظهرتْ قُدرَتُهُ في خلقِ الليلِ والنّهارِ، والدواءِ والداءِ، والحياةِ والموتِ، والحَسَنِ والقبيحِ، والخيرِ والشر. وذلكَ منْ أدلّ دليلٍ على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابلها بعضها ببعض، وجعلها محَالّ تصرفه وتدبيره فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل حكمته وكمال تصرفه وتدبير ملكه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع العقاب[1] وذي البطش الشديد، والخافض والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لابد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره

(١) في المدارج: السريع الحساب.

وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه ، الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم**»[1].

٤ ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته. فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك. فلو قُدِّرَ عَدَمُ الأسباب المكروهة، لتعطلت حكم كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر، لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب ، وهذا كالشمس والمطر والرياح، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه . ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه. إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها[2].

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة باب سقوط الذنوب بالإستغفار والتوبة (٤/١٠٦ ـ ح٢٧٤٩).

(٢) وانظر في بعض حكم المخلوقات: مختصر الصواعق (١/٣٠٣ ـ ٣١٠).

فإن قيل: **فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب**[1]؟.

فهذا سؤال فاسد! وهو فرضٌ وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: **فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضي إليه من الحكم، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟**

قيل: هذا السؤال يرد على وجهين:

أحدهما: من جهة الرب تعالى، وهل يكون محباً لها من جهة افضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها؟

والثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يَسُوغ له الرضى بها من تلك الجهة أيضاً؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم[2]، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه، مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة، فإن أُعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه. وحركتها من حيث هي حركة: خير، وإنما تكون شراً بالإضافة، لا من حيث هي حركة، والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير محله، فلو وضع في موضعه لم يكن شراً، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية.

---

(١) هذا البحث أيضاً منقول بنصه من منزلة [الرضى] من المدارج (٢/١٩٣ ـ ١٩٧)، وانظر أيضاً الجواب الكافي (ص٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) انظر في هذا أيضاً مجموع الفتاوى (١٤/١٨ ـ ٢٧، ٣١٦ وما بعدها).

ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالها خيراً في نفسها، وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذي حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستبعدة له، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه في موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبىٰ ذلك. فلا يكون في جناب الحق تعالى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه، لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه الخير كله بيده، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة بالنسبة إليه فلو كان إليه لم يكن شراً، فتأمله. فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شراً.

فإن قيل: لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيئة؟

قيل: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد، والإعداد والإمداد. فإيجاد هذا خير، وهو إلى الله، وكذلك إعداده وإمداده، فإذا لم يَحْدث فيه إعدادٌ ولا إمدادٌ حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قيل: هلا أمده إذ أوجده؟

قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده(١)، فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

---

(١) في المدارج: (ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده، فإنه سبحانه يوجده ويمده، وما =

فإن قيل: فهلا أمد الموجودات كلها؟

فهذا سؤال فاسد، يظن مَوردُهُ أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة! وهذا عين الجهل! بل الحكمة كل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الذي بين الأشياء، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت. فإن اعتاص عليك هذا ولم تفهمه حق الفهم، فراجع قول القائل[1]:

إذا لم تَسْتَطِع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟

قيل: لأنّ إعانَتَهُ عليه قدْ تَستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة. وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ .. ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧] ـ الآيتين . فأخبرَ سبحانَه أنهُ كره انبعاثهم إلى الغزوِ مع رسولِهِ، وهو طاعة، فلما كَرِهَهُ منهم ثَبطَهُم عنهُ، ثم ذكرَ سبحانَهُ بعضَ المفاسدِ التي تترتبُ على خروجِهم مع رسولِهِ، فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: فساداً وشراً، ﴿ وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: سَعَوا بينكم بالفسادِ والشَر، ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي قابلون منهم

= اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده، أوجده بحكمته، ولم يمده بحكمته) (٢/ ١٩٥).

(١) انظر المدارج (٢/ ١٩٥)، وهذا البيت للشاعر عمرو بن معديكرب الصحابي الفارس رضي الله عنه من قصيدة له وهي في ديوان شعره (ص١٣٥، ١٣٦).

مستجيبون لهم، فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلاً، وقس عليه.

وأما الوجه الثاني: وهو الذي من جهة العبد فهو أيضاً ممكن، بل واقع. فإن العبد يسخط الفسوق والمعاصي ويكرهها، من حيث هي فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيئته وإرادته وأمره الكوني، فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان. وطائفة أخرى كرهتها مطلقاً، وقولهم يرجع إلى هذا القول، لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابته ومشيئته[1].

وسر المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه، والذي إلى العبد مكروه.

٨ **فإن قيل: ليس إلى العبد شيء منها.**

قيل هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق، والقدري المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبري، وأهل السنة، المتوسطون بين القدرية والجبرية أسعد بالتخلص من الفريقين.

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟.

قيل: هذا هو الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على غير ما هو عليه، فرأى تلك الأفعال طاعات، لموافقته فيها المشيئة والقدر،

(١) انظر بنحوه في مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢).

وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته[1] ! وفي ذلك قيل:

أصبحتُ منفعلاً لما تختارُهُ منـي، ففعلـي كلـه طـاعـاتُ[2] !

وهؤلاءِ أعمى الخلقِ بصائر، وأجهلُهم بالله وأحكامِهِ الدينيةِ والكونية، فإن الطاعةَ هي موافقةُ الأمرِ الديني الشرعي، لا موافقةُ القدرِ والمشيئة ولو كان موافقةُ القدرِ طاعةً لكانَ إبليسُ من أعظمِ المطيعين لهُ، ولكان قومُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وقومُ فرعونَ ـ كلهم مطيعين! وهذا غاية الجهل، لكن إذا شهد العبد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه، وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين: كان بالله في هذه الحال لابنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال ألبتة، فإن عليه حصناً حصيناً، من فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، فلا يتصور منه الذنب في هذه الحالة، فإذا حجب عن هذا المشهد وبقي بنفسه، استولى عليه حكم النفسُ، فهنالك نصبت عليه الشباك والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انقشع عنه ضباب ذلك الوجود الطبعي، فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة فإنه كان في المعصية محجوباً بنفسه عن ربه، فلما فارق ذلك الوجودَ صار في وجود آخر، فبقي بربه لا بنفسه.

فإن قيل: إذا كان الكفرُ بقضاءِ الله وقدرِه، ونحن مأمورونَ أنْ نرضى بقضاءِ الله فكيفَ ننكرُهُ ونكرهُه[3] ؟!

---

(١) انظر المدارج (١/ ٤٤٣، ٢٤٤).

(٢) أورده ابن القيم في المدارج (١/ ٢٠٨، ٢٤٤)، وأورده شيخ الإسلام ونسبه لابن إسرائيل (ت٦٧٧هـ). انظر مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٧)، (١١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥).

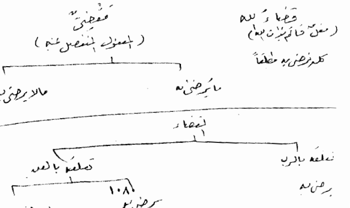
(٣) انظر مدارج السالكين (٢/ ١٨٦).

فالجواب: أن يقال أولا: نحن غير مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضي ما يُرضَى به، ومنه ما يُسخط ويمقت، كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

ويقال ثانياً: هنا أمرانِ: قضاءُ اللهِ، وهو فعلٌ قائمٌ بذاتِ اللهِ تعالى، ومقضي، وهو المفعولُ المنفصلُ عنهُ. فالقضاءُ كلّهُ خيرٌ وعدلٌ وحِكمَةٌ، نرضى بهِ كلّهِ، والمقضي قسمان: منه ما يرضى به، ومنه ما لا يرضى به.

ويقال ثالثاً: القضاء له وجهان: أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يُرضى به. والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به.

مثال ذلك: قتل النفس ، له اعتباران: فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره ـ نرضى به، ومن حيث صدَر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولانرضى به.



المبحث الخامس

الإيمانُ بقدرةِ الرّبِّ وشمولِها لِكلِّ المخلوقاتِ والمُمْكِنات

هذه هي المرتبةُ الرابعةُ من مراتبِ الإيمانِ بالقدرِ، والإيمانُ بقدرتِهِ تعالى على كل شيءٍ هوالإيمانُ بقدرتِهِ الشامِلَةِ لِكُلِّ مُمْكِنٍ منَ المخلوقاتِ، وأيضاً المعدومُ المُمْكِنُ، أما الممتنعُ فليسَ بشيءٍ باتّفاقٍ، وكذلك المعدومُ الممكنُ ليسَ بشيءٍ في الخارجِ، وإن كانتِ القُدْرَةُ تشملُهُ إن شاءَ اللهُ إيجادَهُ، والمخالفُ لأهلِ السنةَ في هذا همَ المعتزلةِ فإنهم سلبوا قدرَةَ اللهِ تعالى على أفعالِ العبادِ ثم تنازعوا هل يقدرُ على مثلِها أوْ لا، وبالتالي وَقَعُوا في تناقضاتٍ وضلالاتٍ كثيرةٍ.

وقابلهم الأشعرية في بعض المسائل، فظنوا أن الحق هو المقابل لقول المعتزلة، فالتزموا لأجل ذلك لوازم باطلة أيضاً.

وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن هذهِ المسائلِ التي تنازعَ فيها الطوائفُ:

١ـ مسألة الاستطاعة.

٢ـ مسألة تكليف ما لايطاق.

٣ـ أفعال العباد بين الجبرية والقدرية.

٤ـ تنزيه الرب تعالى عن الظلم.

٥ـ خلق أفعال العباد ليس بظلم.

وقد اخترت هذا الترتيب لهذه المسائل، لأن مسألة الاستطاعة تتعلق بقدرة الرب والعبد والعلاقة بينهما، وعليها انبنت مسألة تكليف مالايطاق، ثم بعد إيضاح الحق في أن قدرة العبد ليست مستقلة وليست منتفية تأتي مسألة خلق أفعال العباد وما يتبعها من تنزيه الرب عن الظلم، وبهذا تتسلسل المطالب حتى تؤدي إلى بيان مذهب أهل السنة والجماعة والرد على المخالف.

وفيما يلي عرض لهذه المطالب بالتفصيل من كلام الشارح رحمه الله.

أولاً: إثبات عموم القدرة من الإيمان بربوبية الرب تعالى

قال رحمه الله: (ص١٤٢، ١٤٣)

قوله: ذلكَ بأنّه على كُلّ شيءٍ قديرٌ، وكُل شَيء إليهِ فَقِير، وكُلُّ أَمْرٍ عَلَيه يَسِير، لا يَحْتَاجُ إلى شَيءٍ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ.

ذلك إشارةٌ إلى ثبوتِ صفاتِهِ في الأزلِ قبلَ خلقِهِ. والكلامُ على كلِّ وشمولِها وشمولِ كلِّ في كلِّ مقامٍ بحسبِ ما يحتفُّ بهِ من القرائنِ ـ يأتي في مسألة الكلام إن شاء الله تعالى[1].

وقد حرفتِ المعتزلةُ المعنىٰ المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فقالوا: إنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا: هل يقدر على مثلها أم لا؟! ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقال: هو عالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها. فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء.

وأما أهل السنة، فعندهم أن الله على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا. وأما المحال لذاته، مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما في حال واحدة، فهذا لا حقيقة له[2]، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئا، باتفاق العقلاء. ومن هذا الباب: خلق مثل نفسه، وإعدام نفسه وأمثال ذلك من المحال[3].

---

(١) سبق ذلك في مبحث الإيمان بالكتب على ترتيب هذا الكتاب.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٢/ ١٥٥).

(٣) فقدرة الرب تعالىٰ شاملة لكل شيء، والمعدوم ليس بشيء في الخارج، وأما أفعال العباد فهي داخلة في ذلك، ويدخل في ذلك أفعال نفسه تعالىٰ اللازمة كالاستواء =

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير. وإنما تنازعوا في المعدوم الممكن: هل هو شيء أم لا[1]؟

والتحقيق: أن المعدوم ليس بشيء في الخارج، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون، ويكتبه، وقد يذكره ويخبر به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج: ١]، فيكون شيئا في العلم والذكر والكتاب، لا في الخارج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ [مريم: ٩] أي: لم تكنْ شيئا في الخارج وإن كان شيئا في علمه تعالى، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الدهر: ١].

وقال في إثبات شمول ملك الرب سبحانه: (ص٥٢٤)

قوله: ويَمْلِكُ كُلَّ شَيءٍ، ولا يَمْلِكُهُ شَيءٌ. ولاَ غِنىٰ عَن الله تَعالىٰ طَرْفَةَ عَيْن، ومَن اسْتَغْنىٰ عَن الله طَرْفَةَ عَيْن، فَقَد كفَر وصَارَ مِنْ أَهْلِ الحَيْنِ.

كلام حق ظاهر لا خفاء فيه. والحَيْن، بالفتح: الهلاك.

= والمتعدية كالخلق والرزق، قال تعالىٰ: (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) [يس: ٨١]، فهو سبحانه لا يزال قادراً على ما يشاء. انظر مجموع الفتاوى (٨/٨ ـ ١٢).

(١) انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٢/ ١٥٤، ١٥٦)، (١٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

ثانياً: الاستطاعة

* مذاهب الناس في ذلك:

قال الشارح: (ص٤٨٨)

قوله: والاستِطاعَة التي يَجِبُ بها الفِعْل، مِنْ نَحوِ التَّوفِيق الذي لايَجُوزُ أنْ يُوصَفَ المَخْلوقُ به؛ تَكُون مَعَ الفِعْلِ. وأمَّا الاستِطاعَةُ مِنْ جِهةِ الصِّحَة والوُسْعِ، والتمكُّن وسَلامَةِ الآلاتِ؛ فَهِيَ قَبْلَ الفِعلِ، وبِها يَتَعلَّقُ الخِطَابُ، وهُوَ كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع، ألفاظ متقاربة. وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين[1]، كما ذكره الشيخ رحمه الله، وهو قول عامة أهل السنة، وهو الوسط. وقالت القدرية والمعتزلة: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل. وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا لا تكون إلا مع الفعل[2].

أولاً: مذهب الجبرية والرد عليه:

ذهبت الجبرية إلى أن القدرة لا تكون إلا مع الفعل، ولا يتصور وجود قدرة قبل الفعل، قال الشارح: (ص٤٩١)

لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين[3]: حزب قالوا: لاتكون القدرة إلا

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٨/ ٣٧١ ـ ٣٧٦)، العقل والنقل (١/ ٦٠ ـ ٦٣).

(٢) منهم أبوإسماعيل الأنصاري الهروي، والظاهر أن هذا القول كان على سبيل المقابلة كما قال الشارح، وإلا فهذا أيضاً مذهب الجبرية، ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم كما تاتي الإشارة إلى ذلك عند مناقشة الشارح قول الأشعرية في جواز تكليف ما لا يطاق.

(٣) أي أهل إثبات القدر المخالفين للقدرية والمعتزلة، والحزب الأول الذي ذكره الشارح هم الأشعرية والجبرية، وكلامهم مبني على أن القدرة لزوماً مع الفعل، وهي نوع =

معه، ظناً منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين، وظنا من بعضهم أن القدرة عرض، فلا تبقى زمانين، فيمتنع وجودها قبل الفعل. اهـ.

واحتجوا على مذهبهم بأنه لا يقع إلا ما علم الله وقوعه والعكس كذلك، فلو كان للعبد قدرة قبل الفعل تصلح للضدين (للفعل والترك)، لكان له قدرة على تغيير علم الله، فإن علم الله وقوع الفعل فالقدرة على الترك قدرة على المحال، وإن علم الله عدم وقوع الفعل فالقدرة على الفعل قدرة على المحال.

وقد أجاب الشارح بأن هذا من المغالطات وألزمهم في نهاية الأمر إلزاماً لا مفر لهم منه من جنس مطلبهم، وهو إن علم الله بأنه لا يفعل كذا لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله فكذلك ما قدّره من أفعال العباد.

قال رحمه الله[1]: (ص٣٠٢،٣٠٣)

وإذا قيل: فيلزم أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله، لأن الله علم أنه لا يفعل، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله؟ قيل: هذه مغلطة، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لاعدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه، بل إن وقع كان قد علم أنه يقع، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع. ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر وعلم الله مطابق للواقع، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم، بل أي شيء وقع كان هو

= واحد لا يصلح للضدين للدليل الذي ذكرته، وبينت رد الشارح عليه، أما مسألة بقاء العرض زمانين فسبق الإشارة للرد عليها في مبحث الصفات ص ، وينبغي التنبيه على أن الحزب الثاني من أهل الإثبات هم أهل السنة، ويأتي كلامهم بأدلته قريباً.

(١) وسبق ذلك أيضاً في مبحث (علم الله) من هذا الفصل، ولأنه شديد التعلق بما نحن فيه كررته هنا والحمد لله.

المعلوم، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بما يغير العلم، بل هو قادر على فعل لم يقع، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع، لا أنه لايقع.

وإذا قيل: فمن عدم وقوعه يعلم الله أنه لايقع، فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم؟ قيل: ليس الأمر كذلك، بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه، ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه، وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه! وهو فرض محال. وذلك بمنزلة من يقول: أفرض وقوعه مع عدم وقوعه! وهو جمع بين النقيضين.

فإن قيل: فإذا كان وقوعه مع علم الرب عدم وقوعه محالا لم يكن مقدورا؟ قيل: لفظ المحال مجمل، وهذا ليس محالا لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه في نفسه، بل هو ممكن مقدور مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالما بأنه سيقع، وإذا لم يقع كان عالما بأنه لايقع، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال! مما يلزم هؤلاء أن لايبقى أحد قادراً على شيء[1]، لا الرب، ولا الخلق، فإن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه، وكذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدره من أفعال عباده. والله تعالى أعلم[2].

---

(١) وانظر هذا الإلزام في مجموع الفتاوى (١٤/ ١٠٤، ١٠٥)، والعقل والنقل (١/ ٦٢).

(٢) ينبغي التنبه إلى أن الجبرية عندما نفوا قدرة العبد التي قبل الفعل، لم يثبتوا له قدرة مع الفعل أصلاً، بل هو عندهم مجبور على ما يفعل، وإنما القدرة التي مع الفعل هي قدرة الرب التي هي أيضاً (عندهم) منفصلة عنه لا تقوم بذاته كما هو مذهبهم في نفي الصفات. أما الأشعرية فهم وإن أثبتوا للعبد قدرة في الجملة، وجعلوها مقارنة للفعل =

ثانياً: مذهب القدرية والمعتزلة:

ذهبت القدرية والمعتزلة إلى أن القدرة لا تكون إلا مع الفعل، لأن الإنسان مكلف، والقدرة التي تصلح للضدين هي التي قبل الفعل لا القدرة المقارنة، لأن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح للترك وهكذا.

ولما ثبت التكليف، لزم أن تكون القدرة تصلح للضدين لظهور معنى التكليف وهذا فيه حق وفيه باطل، لأن المعتزلة وإن عظموا أمر الله وشرعه؛ إلا أنهم أغفلوا إعانة الله وإقداره للمطيع دون العاصي، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد بين الشارح أنه لو كانت القدرة قبل الفعل فقط للزم أن يقع الفعل بلا قدرة وهذا ممتنع، لأن وقوع الفعل يشترط له شروط وجودية من الإرادة التامة والقدرة التامة، ووقوع الفعل مع عدم الشروط ممتنع.

قال رحمه الله: (ص٤٩٠ـ٤٩١)

ومن قال: إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل ـ يقولون: إن القدرة لا تصلح للضدين، فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل، وهي مستلزمة له، لا توجد بدونه.

وما قالته القدرية ـ بناء على أصلهم الفاسد، وهو إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء[1]، فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان، بل هذا بنفسه رجح الطاعة، وهذا بنفسه رجح المعصية! كالوالد الذي أعطى كل واحد من بنيه سيفا، فهذا جاهد به في سبيل الله، وهذا قطع به الطريق.

= لا متقدمة عليه، إلا أنهم أيضاً جعلوها قدرة غير مؤثرة في الفعل، كما تأتي الإشارة إليه في مسألة أفعال العباد.

(١) وهي مسألة أفعال العباد، ويأتي بحثها في هذا البحث، كما سبق الإشارة إلى ذلك في مسألة الهدى والضلال.

وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر، فإنهم متفقون على أن الله على عبده المطيع نعمة دينية، خصه بها دون الكافر، وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر. كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝﴾ [الحجرات: ٧] فالقدرية يقولون: هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق، والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[الحجرات:٧] والكفار ليسوا راشدين. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٢٥].
وأمثال هذه الآية في القرآن كثير، يبين أنه سبحانه هدى هذا وأضل هذا.
قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝﴾ [الكهف: ١٧]. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

وأيضا فقول القائل: يرجح بلا مرجح[1] - إن كان لقوله: يرجح، معنى زائد على الفعل، فذاك هو السبب المرجح، وان لم يكن له معنى زائد كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل، ثم الفعل حصل في إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح! وهذا مكابرة للعقل!! فلما كان أصل قول القدرية أن فاعل الطاعات وتاركها كلاهما في الإعانة والإقدار

(١) أي قول القدري: إن القدرة هي التي قبل الفعل فقط، وهي تصلح للضدين وتستمر حتى زمان الفعل، ثم يرجح الفعل على الترك بغير مرجح، لأنه لو كانت ثمة قدرة مرجحة لكانت من الله إعانة على الفعل، وهم لا يثبتون ذلك، وهو لازم لهم كما بينه الشارح. وانظر في الرد عليهم: درء التعارض (١/ ٣٧١ - ٣٧٤)، الصفدية (١/ ٥٠ وما بعدها).

سواء ـ امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه، لأن القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك وإنما تكون للفاعل ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى وهم لما رأوا أن القدرة لابُدَّ أن تكون قبل الفعل، قالوا: لا تكون مع الفعل، لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك، فلهذا قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل وهذا باطل مطلقا، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع، بل لابد أن يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الأمور الوجودية موجودا عند الفعل. فنقيض قولهم حق، وهو: أن الفعل لابد أن يكون معه قدرة.

ثالثاً: قول: أهل السنة والجماعة:

عرض الشارح قول أهل السنة الذي ذكره الطحاوي، وهو أن القدرة نوعان: مصحح للفعل، ومرجح له، واستدل لهذا القول نقلاً وعقلاً.
إلا أنه لم يغفل ربط القدرة بالنصوص موضحاً أن الاستطاعة والقدرة والوُسع في نصوص الشرع ليس هو الذي يذهبون، إليه بل لها معنى أدق وأخص كما سيأتي بيانه.

قال رحمه الله: (ص٤٨٨)

والذي قاله عامة أهل السنة: أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي، وهذه قد تكون قبله، لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي بها الفعل لابد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

النوع الأول: القدرة قبل الفعل (مصحح الفعل)

قال رحمه الله: (ص٤٩١)

والصواب: أن القدرة نوعان كما تقدم: نوع مصحح للفعل، يمكن معه الفعل والترك، وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي، وهذه تحصل للمطيع والعاصي، وتكون قبل الفعل، وهذه تبقى إلى حين الفعل، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول إن

الأعراض لا تبقى زمانين[1]، وهذه قد تصلح للضدين، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة، فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة، وضد هذه العجز، كما تقدم[2].

وقال: (ص٤٨٨، ٤٨٩) مبيناً ومستدلاً لهذا النوع.

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات - فقد تتقدم الأفعال. وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يعاقب أحدا على ترك الحج! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الاسلام. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب من لم يتق وهذا معلوم الفساد. وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]. والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات. وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]. وكذبهم في ذلك القول، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل - ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كذبهم دل على أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقدَ المال، على ما بين تعالى بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١]، إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا

---

(١) وهذا قول باطل، وسبقت الإشارة إلى الرد عليه في مطلب الانحراف في توحيد الأسماء والصفات.

(٢) انظر في ذلك: مجموع الفتاوى (٨/١٢٩ - ١٣٠، ٢٩٠ - ٢٩١)، (١٨/١٧٢، ١٧٣)، ودرء التعارض (١/٨٢، ٨٣).

ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ [التوبة: ٩٣]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء: ٢٥]. والمراد: استطاعة الآلات والأسباب. ومن ذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين: «**صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جَنب**»[1]. وإنما نفي استطاعة الفعل معها.

*** الاستطاعة الشرعية المتقدمة على الفعل هي دون حد القدرة المتقدمة:**

قال: (ص٤٩٢)

وأيضاً: فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصوز الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه. فالشارع ييسر على عباده، ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ما جعل عليكم في الدين من حرج، والمريض قد يستطع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع، لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعاً. فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإذا كان الفعل ممكنا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائما مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته، ونحو ذلك. فإذا كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة، فكيف يكلف مع العجز؟

---

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب (٢/ ٥٨٧ ـ ح١١١٧)، وأبوداود في الصلاة باب في صلاة القاعد (١/ ٢٥٠ ـ ح٩٥٢).

النوع الثاني: القدرة المقارنة للفعل (مرجح الفعل)

قالَ رحمَهُ اللهُ: (ص٤٩٢) بعدَ أنْ ذكرَ النوعَ الأولَ (الاستطاعةُ قَبْلَ الفِعلِ)

ولكنَّ هذهِ الاستطاعةَ - معَ بقائِها إلى حين الفِعلِ[1] - لا تكفي في وجودِ الفعلِ، ولو كانتْ كافيةً لكانَ التاركُ كالفاعلِ، بل لابدَّ من إحداثِ إعانةٍ أخرىٰ تقارَن، مثل جعل الفاعلِ مُريداً، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، والاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة، بخلاف المشروطة في التكليفِ، فإنه لا يشترط فيها الإرادة. فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، لكن لايأمر من لو أراده لعجز عنه. وهكذا أمْرُ الناسِ بعضهم لبعض، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد، لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة، لزم وجود الفعل[2].

وقال مُبيِّناً لهذا النوع مناقشاً لأدلّتِه: (ص٤٨٩)

وأما دليلُ ثبوتِ الاستطاعَةِ التي هي حقيقةُ القدرةِ، فقد ذكروا فيها قولَه تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود: ٢٠]. والمرادُ نفيُ حقيقةِ القدرةِ، لا نفي الأسباب والآلات، لأنها كانت ثابتة[3].

وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله: ولا يطيقون إلا ما كلفهم، إن شاء الله تعالى[4].

وكذا قول صاحب موسى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧].

---

(١) قوله: (مع بقائها إلى حين الفعل) إشارة إلى أن مذهب الشارح أن العرض لا يبقى زمانين وهذا هو الحق، وخلاف هذا دعوى ليس عليها دليل كما تقدم.

(٢) وهذه القدرة مقارنة لابد منها ضرورة، لذا عدّها الرازي من العلم الضروري كما يأتي في أفعال العباد.

(٣) انظر في مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩١)، (١٠/ ٣٢).

(٤) وهو المطلب التالي لهذا مباشرة على ترتيب هذا الكتاب.

وقوله: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ ﴾ [الكهف: ٧٥]. والمراد منه حقيقةُ قدرةِ الصبر، لا أسبابُ الصبر وآلاته، فإنَّ تلكَ كانت ثابتة له، ألا ترى أنه عاتبه على ذلك؟ ولا يلام منْ عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل، وإنما يلامُ من امتنع منَ الفعلِ لتضييع قدرةِ الفعل، لاشتغالِه بغير ما أُمرَ به، أو شغْلِه إياها بفعلِ ما أمر به.

ثم ناقش ما سبق من أدلة فقال: (ص٥٠٤، ٥٠٥)

وأما ما لايكون إلا مقارنا للفعل، فذاك ليس شرطاً في التكليف، مع أنه في الحقيقة إنما هناك إرادة الفعل. وقد يحتجون بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ [هود: ٢٠] وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥].

وليسَ في ذلك إرادة ما سموه استطاعة، وهو مالا يكون إلا مع الفعل، فإن الله ذمَ هؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع، ولو أراد بذلك المقارن لكان جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع! فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى، ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم، إما حسداً لصاحبه، وإما اتباعا للهوى ـ لا يستطيعون السمع وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر، لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع، وليس عنده منه علم.

وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقال: إنه لا يستطيع الإحسان إليه، ومن يحبه يقال: إنه لا يستطيع عقوبته، لشدة محبته له، لا لعجزه عن عقوبته، فيقال ذلك للمبالغة، كما تقول: لأضربنه حتى يموت، والمراد الضرب الشديد. وليس هذا عذراً، فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ

لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾[1] [المؤمنون: ٧١].

---

(١) ويمكن تلخيص الأقوال فيما يلي.
١ـ قول من قال: إن الاستطاعة قبل الفعل ولا تكون معه، وهم المعتزلة واستدلوا لكونها قبل الفعل بحكمة الأمر والنهي والتكليف. واستدلوا لكونها لا يجوز أن تكون مع الفعل، بأن العرض لا يبقى زمانين، أو بأن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين، وقد ثبت كونها قبل الفعل لحكمة التكليف فلا تكون معه.
٢ـ قول من قال: إن الاستطاعة مع الفعل ولا تكون قبله، وهم الجبرية ومن وافقهم واستدلوا على أنها مع الفعل مقارنة له، بأنه لا يقع الفعل بغير قدرة. واستدلوا على أنها لا يجوز أن تكون قبل الفعل لأن ذلك يستلزم القدرة على تغيير علم الله إن صلحت للضدين، ثم هي عرض لا يبقى زمانين.
٣ـ وأما أهل السنة فلا تلزمهم لوازم هؤلاء لأنهم جعلوا الاستطاعة التي مع الفعل ليست هي من جنس الاستطاعة التي قبل الفعل كما تقدم تقريره والله أعلم. انظر في هذه المسألة: مجموع الفتاوى (٨/١٢٩ ـ ١٣٠، ٣٧١ ـ ٣٧٦)،(١٠/٣٢)، (١٧/١٩٨)، (١٨/١٧٢ ـ ١٧٣)، درء التعارض (٩/٢٤١).

ثالثاً: تكليف مالايطاق

دلت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على رفع الحرج عن هذه الأمة المرحومة، ولم يدع أحد أن الله كلف الناس مالا يطيقون، حتى خرج الجهم ببدعة الجبر، وصار الجبرية يصرحون بأن الله كلف الناس مالا يطيقون، ولذا فالمخالف في هذا المسألة لأهل السنة والجماعة هم الجبرية ومن وافقهم من الأشعرية ونحوهم.

وهذه المسألة متعلقة بمسألة الاستطاعة، لأنه إن كانت القدرة مع الفعل فقط وليس هناك قدرة قبل الفعل، فالقدرة التي مع الفعل لا تصلح للترك كما تقدم تقريره، وعليه فكل من فعل شيئاً فلا يقدر على أن لا يفعله وهذا هو الجبر المحض الذي يلزم منه سقوط حكمة التكاليف وقد صرح الشارح بارتباط هذه المسألة مع مسألة الاستطاعة.

فقال: (ص٤٩٣)

وعلى هذا[1] ينبني تكليف ما لايطاق، فإن من قال: القدرة لا تكون إلا مع الفعل ـ يقول: كل كافر وفاسق قد كلف مالايطيق.

وأما مذهب أهل السنة فقد قرره الشارح فقال: (ص٥٠٢،٥٠٣)

قوله: ولَمْ يُكَلِّفْهم اللهُ تَعالىٰ إلاَّ مايُطِيقونَ، ولا يُطِيقُون إلاَّ مَا كَلَّفَهُم. وهُوَ تَفْسِيرُ «لاَ حَوْلَ ولا قُوةَ إلاَّ بِاللهِ»، نَقُول: لاَ حِيلةَ لأحَدٍ، ولا تَحَوُّلَ لأحَدٍ، ولا حَرَكةَ لأحَدٍ عَن مَعْصيَةِ اللهِ، إلاَّ بِمَعُونَةِ اللهِ، ولاَ قُوةَ لأحَدٍ عَلىٰ إقَامَةِ طَاعَةِ اللهِ والثَّبَاتِ عَلَيْهَا إلاَّ بِتَوْفِيقِ اللهِ[2]، وكُلُّ شَيءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللهِ

---

(١) أي على الخلاف في الاستطاعة هل هي قبل الفعل أو مقارنة له. وانظر مجموع الفتاوى (٨/ ١٣٠).

(٢) تفسير (لا حول ولا قوة إلا بالله) بهذا فيه وجه صحيح، إلا أنه قاصر فإن الحول لا يختص بالحول عن المعصية، وكذلك القوة لا تختص بالقوة على الطاعة فلفظ (الحول): يعم كل تحول، ولفظ القوة قد يعم القوة التي في الجمادات بخلاف لفظ القدرة. ولذلك كان الصواب الذي عليه الجمهور أن المعنى: «ليس للعالم العلوي =

تَعالىٰ وَعِلْمِهِ وقَضَائِهِ وقَدَرِه. غَلَبَتْ مَشيئَتُه المَشيئَاتِ كُلَّها، وعَكَسَتْ إرادتُه الإرادات كُلَّها، وغَلَبَ قَضاؤه الحِيلَ كُلَّها. يَفعلُ مَا يَشاءُ، وهُوَ غَيرُ ظَالمٍ أبَدًا. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فقوله: لم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ـ قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢، والأعراف: ٤١ والمؤمنون: ٦٢].

وقال: (ص٤٩٣)

وما لا يطاق يفسر بشيئين:

بما لا يطاق للعجز عنه: فهذا لم يكلفه الله أحداً.

ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده: فهذا هو الذي وقع فيه التكليف(١)، كما في أمر العباد بعضهم بعضا، فإنهم يفرقون بين هذا وهذا فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف! ويأمره إذا كان قاعداً أن يقومَ، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة(٢).

مذهب الأشعرية ورده

قال الشارح: (ص٥٠٣ـ٥٠٤)

وعند أبي الحسن الأشعري أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً(٣)، ثم تردد أصحابه أنه: هل ورد به الشرع أم لا ؟واحتج من قال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان، فانه تعالى أخبر بأنه لا يؤمن، وأنه سيصلي نارا ذات لهب،

= والسفلي حركة وتحوّل من حال إلى حال ولا قوة على ذلك التحول إلا بالله». انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٥/ ٥٧٤، ٥٧٥).

(١) انظر درء التعارض (١/ ٦٣).

(٢) ويلاحظ هنا أنه وإن جاز أن يفسّر (مالا يطاق) بمعنى صحيح، إلا أن أئمة السنة أنكروا أن يسمى هذا المعنى (بتكليف مالا يطاق) كما يأتي تقريره قريباً.

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٣/ ٣١٨ ـ ٣٢٦).

فكان مأمورا بأن يؤمن بأنه لايؤمن. وهذا تكليف بالجمع بين الضدين، وهو محال.

والجواب عن هذا بالمنع: فلا نسلم بأنه مأمور بأن يؤمن بأنه لايؤمن، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة، فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان، فما كلف إلا ما يطيقه كماتقدم في تفسير الاستطاعة[1].

ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾ [البقرة: ٣١]. مع عدم علمهم بذلك، ولا للمصورين يوم القيامة: «أحيوا ما خلقتم»[2]، وأمثال ذلك[3] - لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه، بل هو خطاب تعجيز وكذا لايلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لأن تحميل ما لايطاق ليس تكليفا، بل يجوز أن يحمله جبلاً لا يطيقه فيموت.

وقال ابن الأنباري: أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه، قال: فخاطب العرب علي حسب ما تعقل،

---

(١) ولم يثبت أن النبي ﷺ أمره بعد نزول هذه الآية بالإيمان، بل هذ من جنس من عاين الملائكة وقت الموت، ومن جنس قوم نوح حينما أخبر الله نبيه نوح بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فهؤلاء وأمثالهم انْقَطَعَ تكليفهم، ولم ينفع إيمانهم حينئذ كإيمان من يؤمن بعد معاينة العذاب، قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]. انظر مجموع الفتاوى (٨/٣٠٢، ٤٣٨، ٤٧٣ - ٤٧٤)، ودرء التعارض (١/٦٣ - ٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب عذاب المصورين يوم القيامة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (١٠/٣٩٦ - ح٥٩٥١).

(٣) ومن ذلك قوله: (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون). انظر مجموع الفتاوى (٨/٣٠٢).

فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليك، وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه(١).

ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب ولو امتنع يعاقب، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها.

ومنهم من يقول: يجوز تكليف الممتنع عادة، دون الممتنع لذاته، لأن ذلك(٢) لا يتصور وجوده، فلا يعقل الأمر به، بخلاف هذا(٣). ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه، بخلاف ما لايطاق للاشتغال بضده، فإنه يجوز تكليفه.

وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة في المعنى، لكن كونهم جعلوا ما يتركه العبد لا يطاق لكونه تاركا له مشتغلا بضده ـ بدعة في الشرع واللغة. فإن مضمونه أن فعل ما لايفعله العبد لا يطيقه! وهم التزموا هذا، لقولهم: إن الطاقة ـ التي هي الاستطاعة وهي القدرة ـ لاتكون إلا مع الفعل! فقالوا: كل من لم يفعل فعلاً فإنه لا يطيقه! وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، وخلاف ما عليه عامة العقلاء، كما تقدمت الإشارة إليه عند ذكر الاستطاعة(٤).

---

(١) من مجموع الفتاوى بلفظه (١٤/١٠٢ ـ ١٠٣).

(٢) أي الممتنع لذاته كالجمع بين النقيضين.

(٣) أي الممتنع عادة كحمل جبل.

(٤) ووجه ذلك أنهم لما جعلوا الاستطاعة مقارنة للفعل، ونفوا أن تكون هناك استطاعة قبل الفعل، جعلوا المشتغل بالشيء مستطيعاً له وغير مستطيع لغيره، فإذا كلف بغيره في وقت انشغاله بالشيء، فقد كلف مالا استطاعة له عليه، فيكون من باب مالا يطاق، أما عند أهل السنة: فهو في حالة إنشغاله بالشيء له استطاعة مقارنة له، وفي نفس الوقت يملك آلات وأسباب الفعل الآخر، والتكليف إنما يقع على الاستطاعة التي قبل الفعل لا التي هي مقارنة للفعل، فإذا كلف بغير ما هو مشتغل به كان تكليفه بما يطاق، وبما في وسعه وضمن حدود قدرته. فهؤلاء جعلوا التكليف على القدرة =

واستدرك الشارح على الطحاوي رحمه الله قوله: (ولا يطيقون إلا ما كلفهم) بأنه إذا أراد بالتكليف: التكليف الشرعي، فهم يطيقون فوق ذلك ولكن من رحمة الله بهم أن جعل التكاليف أقل من الطاقة البشرية.
وإن أراد بالتكليف: (الإقدار)، أي: فلا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه فهو صحيح في المعنى، ولكن لا يرد في اللغة كذلك، ثم إن عطفه الجملتين يدل على أنه أراد التكليف الشرعي فإنه قال: (لا يكلفهم إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم).

قال الشارح: (ص٥٠٥)
وقوله: ولا يُطيقون إلاَّ مَا كَلفَهُم بِه، إلى آخر كلامه.

أي: ولايطيقون إلا ما أقدرهم عليه. وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات، و«لاحول ولا قوة إلا بالله» ـ دليل على إثبات القدر. وقد فسرها الشيخ بعدها.

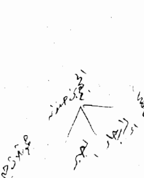
ولكن في كلام الشيخ إشكال: فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار، وإنما يستعمل بمعنى الأمر، والنهي، وهو قد قال: (لا يكلفهم إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم) وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد، ولا يصح ذلك، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف، كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه،

= المقارنة، مع أنها ليست شرطاً في التكليف، ثم كلامهم فيه غفلة عن الإرادة الجازمة، والتكليف لا يتعلق بالاستطاعة التي تقارنها الإرادة كما تقدم بيانه والله أعلم.

ولكنه تفضل علينا ورحمنا، وخفف عنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم: أن المراد الطاقة التي من نحو التوفيق، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، ففي العبارة قلق، فتأمله(١).

مذهب الأشاعرة
في تكليف ما لا يطاق

١- جائز عقلاً غير واقع شرعاً.
٢- " " واقع شرعاً.
٣-
-



(١) راجع في مذهب وأقوال الأشاعرة في مسألة (تكليف مالا يطاق): الإرشاد للجويني (ص٢٢٦)، ومعالم أصول الدين للرازي (ص٨٥ ـ ٨٦)، شرح المواقف (ص٣٣١)، وانظر في الرد على هذا المذهب سوى ما تقدم: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧، ٤٣٨، ٤٦٩ ـ ٤٧٤).

رابعاً: أفعال العبـاد بين الجبرية والقدرية

قال الشارح: (ص٤٩٣ـ٤٩٦)
قوله: وأَفْعَالُ العِبَادِ خَلْقُ اللهِ وكَسْبٌ مِن العِبَادِ.

اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية[1] فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي: أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز! وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله[2]!

وقابلتهم المعتزلة، فقالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها، لا تعلق لها بخلق الله تعالى. واختلفوا فيما بينهم: أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا ؟!

وقال أهل الحق: أفعالُ العبادِ بها صاروا مطيعينَ وعصاةً، وهي مخلوقةٌ لله تعالىٰ، والحقّ سبحانهُ وتعالى منفردٌ بخلقِ المخلوقات، لا خالقَ لها سواه. فالجبريةُ غلوا في إثبات القدر، فنفوا صُنْعَ العبدِ أصلاً، كما غَلَت المشبهةُ في إثباتِ الصفاتِ، فشبهوا. والقدريةُ نفاةُ القدرِ جعلوا العبادَ خالقينَ مع اللهِ تعالىٰ. ولهذا كانوا «مجوسَ هذه الأمةِ»، بلْ أردأُ من المجوسِ، من حيثُ إن المجوسَ أثبتت خالقَين وهم أثبتوا خالقِين!!

---

(١) انظر شفاء العليل (ص٤٩ ـ ٥٤).
(٢) أي كما يقال: قطعت الفأس، وكتب القلم، مع أن القاطع والكاتب ليس هو الفأس أو القلم، وإنما الفأس والقلم وسيلة، فكذلك فالفاعل عندهم ليس هو العبد، بل العبد هو الوسيلة، وليس له من فعله إلا إضافة مجازية.

وهدى الله المؤمنين أهلَ السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . فكل دليل صحيح يقيمه الجبري، فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار.

وكل دليل صحيح يقيمه القدرَي فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقةً، وأنه مريد له مختارٌ له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى ـ فإنما يدل ذلك على مادل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقةً وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم[1].

وهذا هو الواقع في نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض، والحق يصدّق بعضه بعضا. ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين، ولكنها

---

(١) ويتفرع من ذلك عند المتكلمين مسألة (التولد)، وهل هناك مفعول متولد عنه غير فعله. ويُمثل لذلك بمن أطلق سهماً ثم مات قبل أن يقتل السهم رجلاً، فليس قتله للرجل فعلاً له لأن وقت قتله كان القاتل ميتاً وإنما هو متولد عن فعله. ومثلوا لذلك أيضاً بالأصوات المتولدة عن حركات العبد الاختيارية، فمن قال: إن المتولد ليس من فعل العبد وكسبه يقول: إن أصوات العباد ليست مقدورة لهم ولا مفعولة ولا كسباً وعلى هذا الأشعرية، وإن كان كثير منهم متناقضون في هذا الباب. انظر في ذلك الصفدية (١/١٥٣، ١٥٤).

تتكافأ وتتساقط، ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخر. ولكن أذكر شيئا مما استدل به كل من الفريقين، ثم أبيّن أنه لايدل على ما استدل عليه من الباطل:

فمما استدلت به الجبرية، قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. فنفي الله عن نبيه الرمي، وأثبته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لاصنع للعبد. قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال، بدليل قوله ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(1).

ومما استدل به القدرية، قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]. قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض، كما قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾ [ألم السجدة: ١٧ والاحقاف: ١٤ والواقعة: ٢٤]. ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢]. ونحو ذلك.

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ـ فهو دليل عليهم، لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رميًا، بقوله: إذْ رميت، فعلم أن المثبت غيرُ المنفي، وذلك أن الرمي له ابتداءٌ وانهاء: فابتداؤه الحذف، وانتهاؤه الإصابه، وكل منهما يسمى رميًا، فالمعنى حينئذ ـ والله تعالى أعلم: وما أصبتَ إذْ حذفتَ ولكنَّ الله أصاب.

---

(1) أخرجه البخاري في المرض باب تمني المريض الموت (١٠/ ١٣٢ ـ ح٥٦٧٣) ط. الريان، وأخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (٤/ ٢١٦٩ ـ ح٢٨١٦)، واللفظ الذي أورده المصنف لأحمد (٢/ ٢٥٦) إلا أن أوله «لا يدخل» وفي آخره «ووضع يده على رأسه».

وإلا فطرْدُ قولهم: وما صليتَ إذ صليت ولكن الله صلى! وما صمت إذ صمت! وما زنيت إذ زنيت! وما سرقت إذ سرقت!! وفساد هذا ظاهر[1].

وأما ترتُّب الجزاء على الأعمال، فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية وهدَى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة. فإن الباء التي في النفي غيرُ الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله ﷺ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله» ـ باء العِوَض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء التي في قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [الم السجدة: ١٧] وغيرها، ـ باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته[2].

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤] ـ فمعنى الآية: أحسن المصوِّرين المقدِّرين. و«الخلق» يذكر ويراد به التقدير[3]، وهو المراد هنا، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦ والزمر: ٦٢]، أي الله خالق كل شيء مخلوق، فدخلت أفعال العباد في عموم: كل. وما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم: كل. الذي هو صفة من صفاته يستحيل عليه أن يكون مخلوقاً! وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم: كل!! وهل يدخل في عموم: كل إلا ما هو مخلوق؟! فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم،

---

(١) انظر في ذلك: مجموع الفتاوى (٢/٣٣١، ٣٧٢)، (١٥/٤٠)، ومدارج السالكين (٣/٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) انظر مدارج السالكين (١/١١٦).

(٣) ومن ذلك قوله تعالىٰ عن عيسى أنه قال: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ودخل سائر المخلوقات في عمومها. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات: ٩٦]. ولا نقول إن: «ما» مصدرية، أي خلقكم وعملكم - إذ سياق الآية يأباه، لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت، لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتا إلا بفعلهم، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له، بل الخشب أو الحجر لا غير(١).

* بين المعتزلة والجبرية

وذكر أبو الحسين البصري إمام المتأخرين من المعتزلة: أن العلم بأن العبد يحُدث فعله - ضروري.

وذكر الرازي أن افتقار الفعل المحدَث الممكن إلى مرجِّح [يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه] ضروري، وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري، ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة - غير مسلّم، بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضروري، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق. فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثا لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٧ - ٨]. فقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس ٨] - إثباتٌ للقدَر بقوله (فألهمها)، وإثباتٌ لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية. وقوله بعد ذلك: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن

(١) وفي وجه تكون (ما): مصدرية، ويكون الخليل عليه السلام أنكر الفعل، وأنكر المفعول لأن الفعل وسيلة، والله أعلم. وانظر مجموع الفتاوى (٨/ ١٢١ - ١٢٢).

زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٩-١٠] إثباتٌ أيضا لفعل العبد. ونظائر ذلك كثيرة[1].

(١) ومما ينبغي التفطن له في هذا الباب: أن فعل العبد واقع بقدرته حقيقة، وهو مخلوق لله حقيقة، ولا تتعارض الحقيقتان، وذلك لأن العبد يؤثر في الفعل عن طريق قدرته، والرب يخلق، فالتأثير: قد يراد به الانفراد بالخلق والابداع، وهذا لله تعالىٰ، وقد يراد به أن الفعل خرج من العدم إلى الوجود بتوسط قدرة العبد، فإضافة التأثير للعبد بهذا الاعتبار صحيح، وأما على الوجه الأول وهو الخلق والإبداع فلا يضاف إلا إلى الله. فالله تعالىٰ خلق أفعال العباد بتوسط قدرتهم وإرادتهم، كما خلق النبات بالماء، وخلق الغيث بالسحاب، وكذا الشأن في جميع الأسباب والمسببات. انظر في ذلك: مجموع الفتاوى (١١٣/٨، ١٣٤ ـ ١٣٥، ٤٨٧ ـ ٤٤٨، ٣٨٩ ـ ٣٩٠).

خامساً: نفي الظلم عن الرب تعالى

اختلف الناس في معنى الظلم، وأداهم ذلك إلى الخلاف في قدرة الرب عليه.

فالقول الأول قول الجبرية والأشعرية أن الظلم: هو التصرف في ملك الغير، والعدلَ هو تصرفُ المالكُ في ملكِهِ بما يشاءُ، فالربُّ يملكُ كلَّ شيءٍ فلا يَتصورُ أصلاً أن يكونَ الظلمُ ممكناً لهُ، بل هوَ ممتنعٌ لذاته.

أو أن الظلمَ: هو مخالفَةُ الآمرِ الذي تجبُ طاعَتهُ فلا يكونُ الظلمُ إلا من مأمورٍ منْ غيرِهِ منهيٍّ، وأيضاً ـ مع هذا التعريف ـ يكونُ الظلمُ ممتنعاً على الربِّ لذاتِه غيرَ مقدورٍ كالجمع بينَ النقيضينِ.

القولُ الثاني به قالت المعتزلةُ والقدريةُ: أن الظلمَ مقدورٌ ممكنٌ، وهو منزهٌ عنه وهذا حق، إلا أنهم ظنوا أن اثبات القدر ظلم فنزهوا الله عنه، ودخلوا في هذا الباب بطريقة مثّلوا الله بخلقه، فجعلوا كل ما تظنه عقولهم أنه ظلم من العباد فالرب يجب أن ينزه عنه، وعليه التزموا أن الله لا يقدر أن يهدي ضالاً ولا أن يضل مهتدياً، وأنه إن أعان أحداً إحساناً منه على طاعة، ولم يعن الآخر فقد ظلَم، وأنه لو عذّب من كان فِعْلُه مقدراً لكان ظالماً ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم.

القولُ الثالثُ: وهو قولُ أهل السنة:

أن اللهَ سبحانَهُ له الملكُ ولهُ الحمد، فالجبريةُ يؤمنون بأن الله تعالى لهُ الملكُ بما أثبتوهُ من عمومِ خلقِهِ ومشيئتِهِ، لكنْ يلزمُ من قولهم بالجبر نفيُ الحمد عنهُ بما نفوهُ من شرعِهِ وحكمتِهِ، والقدريةُ والمعتزلةُ يؤمنونَ بأنَّ لهُ الحمدَ بإقرارهم بشرعِهِ وحكمتِهِ، ويلزمُ من قولهم بنفي القدر، نفيُ المُلْك عنهُ لإخراجهم أفعالَ العباد عن عموم خلقِهِ ومشيئتِهِ.

وهدى اللهُ أهلَ السنّة إلى الحق فهمْ يثبتونَ لهُ المُلكَ والحمْد(١).

---

(١) انظر في ذلك: العقل والنقل (٨/ ٢٣).

فالله سبحانه لا يظْلمُ، والظلم هو: وضعُ الشيءِ في غير موضعه وهذا معناهُ في اللغةِ يقال: «من شابه أباهُ فما ظلمَ» ومن استرعى الذئب الغنم فقد ظلم»، وعليه فالربّ سبحانه لا يضعُ شيئاً في غير موضعه ولا يفرّقَ بينَ متماثلين، ولا يسوي بين مختلفين، ولو عذّبَ أهلَ سمواته وأرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لأنه سبحانه أنعم عليهم بالنعم العظيمة ولم يشكروه حق شكره، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم مما يعملون[1].

وقد بين الشارح أقوال الطوائف في الظلم عند شرح قول الطحاوي رحمه الله (يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً)

فقال: (ص٥٠٧-٥١١)

وقوله: يَفْعَل مَا يَشَاءُ، وهُوَ غَيرُ ظَالِم أبداً.

الذي دل عليه القرآن من تنزيهِ اللهِ نَفْسَهُ عن ظلم العباد، يقتضي قولاً وسطاً بين قولي القدريةِ والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقبيحاً يكون منه ظلماً وقبيحاً، كما تقولهُ القدريةُ والمعتزلةُ ونحوهُم! فإن ذلك تمثيلٌ للهِ بخلقِهِ! وقياسٌ لهُ عليهم! هو الربُّ الغنيُّ القادِرُ، وهم العبادُ الفقراءُ المقهورون. وليس الظلم عبارةً عن الممتنع الذي لايدخلُ تحتَ القدرة، كما يقولُهُ من يقولُه من المتكلمين وغيرِهم، يقولون: إنه يمتنعُ أن يكونَ في الممكنِ المقدور ظُلْمٌ! بل كلُّ ما كان ممكناً فهو منهُ-لو فعلَهُ-عَدْلٌ، إذِالظلمُ لا يكونُ إلا من مأمورٍ من غيره منهيٍّ.

---

(١) وهذه المسألة مرتبطة بمسألة: التحسين والتقبيح، وخلاصة القول فيها أن المعتزلة جعلوا ذلك للعقل، والأشعرية جعلوه للشرع، والصواب: أن التحسين والتقبيح إن أريد به كون الفعل ملائماً نافعاً، أو ضاراً منافياً للفاعل، فهذا قد يعلم بالعقل، وعليه اتفاق الجميع، وإما أن يراد به أن الفعل سبب للذم والعقاب، فهذا قد يعلم بالعقل (خلافاً للأشعرية)، لكن العقوبة لا تستحق بمجرد علم العقل به وإنما بعد بلاغ الرسول (خلافاً للمعتزلة). وانظر في هذه المسألة: مجموع الفتاوى (٨/ ٩٠، ٤٢٨، ٦٧٧ ـ ٦٨٦)، (١١/ ٦٧٦، ٦٧٧)، منهاج السنة (١/ ٣٦٤)، ومدارج السالكين (١/ ٢٤٤ ـ ٢٥٧)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٣٧) وما بعدها ط. دار الكتب العلمية.

واللهُ ليسَ كذلك. فإن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧]. يدل على نقيضِ هذا القول.

ومنهُ قولُه الذي رواهُ عنه رسولُه: «ياعبادِي، إنّي حرمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكمْ مُحَرَماً، فلا تظالموا»(١). فهذا دل على شيئين:

أحدهما: أنّهُ حرّمَ على نفسِهِ الظلمَ، والممتنعُ لا يوصَفُ بذلك(٢).

الثاني: أنه أخبرَ أنهُ حرَّمهُ على نفسِهِ، كما أخبرَ أنهُ كتبَ على نفسِهِ الرحمةَ، وهذا يُبطِلُ احتجاجَهُم بأنَّ الظلمَ لا يكونُ إلا من مأمورٍ مَنهيٍ، واللهُ ليسَ كذلكَ. فيقالُ لهم: هو سبحانَهُ كتبَ على نفسِهِ الرحمةَ، وحرَّمَ على نفسِهِ الظُلْمَ، وإنما كتَبَ على نفسِهِ وحرّمَ على نفسِهِ ما هو قادرٌ عليهِ، لا ما هو ممتنعٌ عليهِ.

وأيضاً: فإنَّ قولَهُ: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢] - قَدْ فَسَّرَهُ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب باب تحريم الظلم من حديث أبي ذر (٤/١٩٩٤ - ح٢٥٧٧)، ولشيخ الإسلام رسالة في شرح هذا الحديث ضمن مجموع الفتاوى (١٨/١٣٦ - ٢١٩)، وطبعت أيضاً ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (٣/٢٠٦).
(٢) انظر مجموع الفتاوى (٦/١٢٧)، منهاج السنة (٢/٣٠٩).

السلف(١)، بأن الظلم: أن توضع عليه سيئاتُ غيره، والهضم: أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

وأيضاً: فإن الإنسانَ لا يخافُ الممتنعَ الذي لايدخلُ تحتَ القدرةِ حتى يأمنَ من ذلك، وإنما يأمنُ مما يمكنُ، فلما آمنَه مِنَ الظلمِ بقولِه: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ [طه: ١١٢] ـ عُلم أنه ممكنٌ مقدورٌ عليه. وكذا قولُه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨]، إلى قولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ [ق: ٢٩] ـ لم يعنِ بها نفيَ ما لايقدرُ عليه ولا يمكنُ منه، وإنما نفيُ ما هو مقدورٌ عليه ممكنٌ، وهو أنْ يُجزَوْا بغير أعمالهم. فعلى قولِ هؤلاء ليسَ اللهُ منزهاً عن شيءٍ مِنَ الأفعالِ أصلاً ولا مقدساً عَنْ أنْ يَفعلَه، بل كلُّ ممكنٍ فإنهُ لا ينزهُ عن فعلِه، بل فعلُه حَسَنٌ، ولا حقيقةَ للفعلِ السُّوءِ، بل ذلك ممتنعٌ، والممتنع لا حقيقه له!!

والقرآنُ يدلُّ على نقيضِ هذا القول، في مواضع، نزه اللهُ نفسَه فيها عن فعلِ ما لا يَصلحُ لهُ ولا ينبغي لهُ، فَعلِمَ أنه منزهٌ مقدَّسٌ عن فعلِ السوءِ والفعلِ المعيبِ المذموم، كما أنه منزهٌ مقدَّسٌ عن وصفِ السوءِ والوصفِ المعيبِ المذموم. وذلك كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فإنه نزَّه نفسَهُ عن خلقِ الخلقِ عبثاً، وأنكر على من حَسِبَ ذلكَ، وهذا فعلٌ. وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص: ٢٨] ـ إنكار منه على من جَوَّز أن يسوّي الله بين هذا وهذا. وكذا قولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

---

(١) بل هذا تفسير المفسرين من السلف والخلف قاطبة كما ذكر ذلك في مختصر الصواعق (١/٣١٥).

﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] - إنكارٌ على من حَسِبَ أنه يفعلُ هذا، وإخبارٌ أنَّ هذا حكمٌ سيءٌ قبيحٌ، وهو مما يُنَزَّه الربُّ عنه.

وروى أبوداودُ، والحاكم في «المستدرك» من حديث ابن عباس، وعُبادةَ بن الصامتِ، وزيد بن ثابت، عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّ اللهَ عذَّبَ أهلَ سمواتِه وأرضِه، لعذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رَحِمَهُم كانتْ رحمتُه خيراً لَهُم من أعمالِهم»(١).

وهذا الحديثُ مما يَحْتَجَّ بهِ الجبرية، وأما القدريةُ فلا يتأتى على أصولِهم الفاسدةِ! ولهذا قابلوه إما بالتكذيبِ أو التأويلِ!!

وأسعد الناس به أهل السنة، الذين قابلوه بالتصديق(٢)، وعلموا من عظمة الله وجلاله، قدْرَ نِعَم الله على خلقه، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزاً، وإما جهلاً، وإما تفريطاً واضاعةً، وإما تقصيراً في المقدورِ من الشكرِ، ولو من بعضِ الوجوه(٣). فإنَّ حقَّهُ على أهل

---

(١) أخرجه أبوداود في السنة باب في القدر (٤/ ٢٥٥ ـ ح٤٦٩٩) من حديث ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهب من قلبي، قال: لو أن الله عذب. . .فذكر الحديث، قال: ثم أتيت عبدالله بن مسعود فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيت حذيفة، فقال مثل ذلك، قال ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك. وأخرجه ابن ماجه في المقدمة باب في القدر (١/ ٢٩، ٣٠ ـ ح٧٧)، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٦١٢ ـ ح١٠٩٣)، والحديث صححه الألباني (ص٥٠٩)، وحسنه الأرناؤوط (ص٦٦١).

(٢) انظر الكلام على هذا الحديث في مختصر الصواعق (١/ ٣٣١ ـ ٣٣٦) حيث اختصر لفظه الشارح هنا.

(٣) الأشعرية والجبرية نظروا للحديث من باب الإرادة فقط، وأهل السنة جعلوا الحديث من باب الرحمة والإحسان.

السموات والأرض أن يطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويشكر فلا يُكفر، وتكون قوةُ الحب والإنابة، والتوكّل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهةً إليه، ومتعلقةً به، بحيث يكون القلب عاكفاً على محبته وتأليهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوساً على ذكره، والجوارح وقفاً على طاعته.

ولا ريبَ أن هذا مقدورٌ في الجملة، ولكن النفوسَ تشحّ به، وهي في الشحّ على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى. وأكثر المطيعين تشحّ به نفسه من وجه، وإن أتى به من وجه آخر. فأين الذي لا تقعُ منه إرادة تزاحم مرادَ الله وما يُحبّه منه؟ ومن ذا الذي لم يصدرْ منه خلافُ ما خُلِق له، ولو في وقتٍ من الأوقات[1]؟ فلو وضع الربُ سبحانه عدلَه على أهل سمواته وأرضه، لعذّبهم بعدله، ولم يكن ظالماً لهم.

وغايةُ ما يُقدَر، توبةُ العبدِ من ذلك واعترافُه، وقَبولُ التوبة مَحْض فَضْلِه وإحسانِه، وإلا فلو عَذّبَ عبدَه على جنايته لم يكن ظالماً، ولو قدّر أنه تابَ منها. لكن أوجبَ على نفسه ـ بمقتضى فضلِه ورحمته ـ أنه لا يعذبُ من تاب، وقد كتبَ على نفسه الرحمةَ، فلا يسعُ الخلائقَ إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عملُ أحدٍ منهم أن ينجو به من النار، أو يدخلَ به الجنةَ، كما قال أطوعُ الناسِ لربه، وأفضلُهم عملاً، وأشدُّهم تعظيماً لربه وإجلالاً: «**لن يُنْجِي أحداً منكم عملُه**»، قالوا: ولا أنت يارسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل**»[2].

وسأله الصديق دعاءً يدعو به في صلاته، فقال: «**قل: اللهم إني ظلمت**

---

(١) وورد أن أهل السماء من الملائكة يقولون يوم القيامة (ما عبدناك حق عبادتك).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

نفسي ظلما كثيراً، ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ، فاغفرْ لي مغفرة من عندك وارحمني، إنكَ الغفور الرحيم»[1].

فإذا كان هذا حالَ الصديق، الذي هو أفضل الناس بعدَ الأنبياء والمرسلين ـ فما الظنَّ بسواه؟ بل إنما صار صديقاً بتوفيته هذا المقام حقه، الذي يتضمن معرفة ربه، وحقه وعظمته، وما ينبغي له، وما يستحقه على عبده، ومعرفة تقصيره. فسحقا وبُعدا لمن زعم أن المخلوق يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها! وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية!! فإن لم يَتّسع فهمُك لهذا، فانزل إلى وطأةِ النِّعم، وما عليها من الحقوق، ووازن بين شُكرِها وكُفرِها، فحينئذ تعلمُ أنه سبحانَهُ لو عَذّبَ أهلَ سمواتِهِ وأرضِه، لعذبهم وهو غيرُ ظالم لهُم[2].

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها ما في كتاب الأذان باب الدعاء قبل السلام (٢/٣١٧ ـ ح٨٣٤)، وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤/٢٠٧٨ ـ ح٢٧٠٥) كلاهما من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.
(٢) انظر في مسألة الظلم: جامع الرسائل (١/٢٧)، والجواب الصحيح (١/٢١٩)، والنبوات (ص١٤٣)، ومجموع الفتاوى (٨/٥٠٥ ـ ٥١٠)، (١١/٦٧٥ ـ ٦٧٦).

سادساً: خَلْقُ أفعال العباد ومجازاتهم عليها ليس ظلماً لهم

بعد أن تقرر نفي الظلم عن الرب سبحانه ناسب أن يتقرر أن أفعال العباد وإن كانت هي خلق الله تعالى ويجازيهم عليها إلا أن ذلك ليس بظلم.

قال الشارح: (ص٤٩٧)

وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التي فرقتهم، بل مزقتهم كل ممزق، وهي: أنهم قالوا: كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم[1]؟

وهذا السؤالُ لم يزلْ مطروقاً في العالمِ على ألسنةِ الناس، وكلٌّ منهم يتكلمُ في جوابهِ بحسَبِ علمِهِ ومعرفتهِ، وعنهُ تفرقت بهم الطرق.

---

(١) وهذا البحث كله منقول بلفظه من مختصر الصواعق (١/٣٢٥ ـ ٣٣٠)، والعجب أن هذه الدعوى مبنية على قياس الرب على العبد، وعلى فساد القياس إلا أنه لا يقبح هذا الباب من الإنسان مطلقاً، بل إذا كان للإنسان مصلحة في تعذيب بعض الحيوان، وأن يفعل به ما فيه تعذيب له حسُن ذلك منه، كالذي يسعى في أن يتوالد له ماشية، وتبيض له دجاج، ثم يذبح ذلك لينتفع به، فقد تسبب في وجود ذلك الحيوان تسبباً أفضى إلى عذابه لمصلحة له في ذلك. ففي الجملة الإنسان يحسن منه إيلام الحيوان لمصلحة راجحة في ذلك، فليس جنس هذا مذموماً ولا قبيحاً ولا ظلماً، وإن كان من ذلك ما هو ظلم، فلِمَ يعذر العبد نفسه ثم يذهب ويقيس فعل ربه على فعله، ويتكلم فيما لا يعنيه. انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٦/١٢٦ ـ ١٢٨)، إذ كان من المستحسن شرعاً وعقلاً أن يتقرب الإنسان إلى الله تعالىٰ بالأضاحي فليعلم أن الكفار قرابين أهل الإيمان كما ورد في صحيح مسلم في كتاب التوبة (٤/٢١١٩ ـ ح٢٧٦٧) عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله عز وجل إلى كل مسلم، يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فكاك من النار».

فطائفةٌ أخرجت أفعالَهُم عن قدرةِ الله تعالى[1]، وطائفة أنكرتَ الحكمَ والتعليلَ، وسدّت بابَ السؤال[2]. وطائفةٌ أثبتت كسباً لا يُعقل! جعلت الثوابَ والعقابَ عليه[3]. وطائفة التزمت لأجله وقوعَ مقدور بين قادرين، ومفعولٍ بينَ فاعلين[4] ! وطائفة التزمت الجبر، وأن الله يعذبهم على ما

---

(١) وهم المعتزلة والقدرية، وسبق الرد عليهم.

(٢) وهم الجهمية والأشعرية، وهو قول ابن حزم وأمثاله، كما في الإرشاد للجويني (ص٢٦٨)، ونهاية الإقدام للشهرستاني (ص٢٩٧)، والفصل لابن حزم (٣/١٧٤)، والإحكام له (٨/١١١٠).

(٣) وهؤلاء هم عامة الأشعرية، والكسب: اختلفوا في تحديد المراد منه مع أقوال كلها تدور على أنه ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به، بل يقع في محل قدرته، كما بجوهرة التوحيد (ص٢١٩). وحاصله يرجع إلى إثبات قدرة للعبد غير مؤثرة في الفعل، وذهب الباقلاني إلى أن القدرة تؤثر في صفته لا في أصله، ومراده بالصفة كونه معصية أو طاعة. (انظر شرح المواقف ص٢٣٩ ـ الانصاف للباقلاني ٤٣،٤٤). وجمهور العقلاء يقولون: إن كانت القدرة ليس لها تأثير على الفعل، فوجودها وعدمها سواء وهذا الجبر المحض، ولم يفرق الأشعرية بين الكسب والفعل بفرق محقق، فلزمهم الجبر. ولعل السبب في ذلك أن الأشعرية التزموا قاعدة الجهمية بأنه لا فرق بين الفعل والمفعول، ولا بين الخلق والمخلوق، فلم يثبتوا لله أفعالاً تقوم به.

والتحقيق: أن الفعل غير المفعول، فأفعال العباد مخلوقة مفعولة لله، وليست هي نفس فعله وخلقه، وهي فعل العبد القائم به، ليست قائمة بالله، فإن الله لا يتصف بمخلوقاته ولا مفعولاته، وإنما يتصف بخلقه وفعله. انظر في ذلك مجموع الفتاوى (٢/١١٩ ـ ١٢٩)، (٨/١١٨، ٣٨٧ ـ ٤٠٥، ٤٦٧،٤٦٨)، ومنهاج السنة (١/٣٢٢ ـ ٣٢٦)، الصفدية (١/١٤٩، ١٥٣)، النبوات (ص١٩٩)، والعقل والنقل (١/٨٢ ـ ٨٤)، (٧/٢٤٧ ـ ٢٤٨)، (١٠/١١٤ ـ ١١٥)، وللدكتور عبدالرحمن المحمود بحث طيب في رسالة (موقف ابن تيمية من الأشاعرة) (٣/١٣٣٨ وما بعدها) فليراجع.

(٤) وهو قول الغزالي، فالمؤثر عنده مجموع القدرتين، قدرة الله وقدرة العباد، انظر الاقتصاد في الاعتقاد له (ص٥٨، ٥٩).

لايقدرون عليه[1]! وهذا السؤال هو الذي أوجب هذا التفرق والاختلاف.

والجوابُ الصحيحُ عنه، أن يقال: إن ما يُبتلى بهِ العبدُ من الذنوبِ الوجودية، وإن كانت خلقاً لله تعالى، فهي عقوبةٌ لهُ على ذنوبٍ قبلَها، فالذنبُ يكسِبُ الذنبَ، ومن عقابِ السيئةِ السيئةُ بعدَها. فالذنوبُ كالأمراضِ التي يورثُ بعضُها بعضاً.

يبقى أن يقال: فالكلامُ في الذنبِ الأولِ الجالبُ لما بعدهُ من الذنوب؟ يقال: هو عقوبةٌ أيضاً على عدمِ فِعْلِ ما خلق لهُ وفطرَ عليه، فإن الله سبحانَهُ خلقَهُ لعبادتِهِ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وفطرَهُ على محبتِهِ وتأليهِهِ والإنابةِ إليهِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. فلما لم يفعل ما خُلق لهُ وفُطرَ عليهِ، من محبةِ اللهِ وعبوديتهِ، والإنابةِ إليه ـ عوقبَ على ذلكَ بأن زُيِّنَ له الشيطانُ ما يفعلهُ من الشركِ والمعاصي[2]، فإنه صادفَ قلباً خالياً قابلاً للخيرِ والشر، ولو كانَ فيه الخيرُ الذي يمنعُ ضِدَّه لم يتمكن منهُ الشرُ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. وقال الله عز وجل: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤١-٤٢]. والإخلاص: خلوصُ القلبِ من تأليهِ ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبتهِ، فَخَلُصَ لله، فلم يتمكن منهُ الشيطانُ. وأما إذا صادفهُ فارغاً من ذلك، تمكن منه بحسَبِ فراغِهِ، فيكونُ جَعْلُه مذنباً مسيئاً في هذهِ الحالِ عقوبةً لهُ على عدم

---

(١) وهم الجبرية وسبق الرد عليهم.
(٢) بلفظه في مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٣١).

هذا الإخلاص. وهي محضُ العدل.

فإن قلت: فذلكَ العدمُ مَنْ خلقهُ فيه؟.

قيل: هذا سؤالٌ فاسدٌ، فإن العدم كاسمه، لايفتقر إلى تَعلّق التكوين والإحداث به، فإن عدم الفعلِ ليسَ أمراً وجودياً حتى يضاف إلى الفاعل، بل هو شرٌ محضٌ، والشر ليس إلى الله سبحانه، كما قال ﷺ في حديث الاستفتاح: «لبيكَ وسعديكَ، والخيرُ كلُّه بيديكَ، والشرّ ليسَ إليكَ»[1]. وكذا في حديثِ الشفاعةِ يومَ القيامةِ، حينَ يقولُ له اللهُ: يامحمد، فيقولُ: «لبيكَ وسعديكَ، والخيرَ في يديكَ، والشرّ ليسَ إليكَ»[2].

وقد أخبرَ اللهُ تعالى أن تسليطَ الشيطانَ إنما هو على الذين يتولونهُ والذينَ هم به مشركون، فلما تولوهُ دونَ اللهِ وأشركوا به معهُ ـ عوقبوا على ذلك بتسليطِه عليهِم، وكانت هذهِ الولايةُ والإشراكُ عقوبةً خلوّ القلب وفراغِه من الإخلاصِ. فإلهامهُ البرَّ والتقوى ثمرةُ هذه الإخلاصِ ونتيجتِه، وإلهامُ الفجورَ عقوبةً على خلوِه من الإخلاص.

فإن قلتَ: إن كانَ هذا الترك أمراً وجوديا عادَ السؤالُ جَذعاً، وإن كان أمراً عدمياً فكيفَ يعاقَبُ على العَدمِ المحض؟.

قيل: ليسَ هنا تركٌ هو كفُّ النفسِ ومَنعِها عما تريدُه وتُحبُّه، فهذا قد يقالَ: إنه أمرٌ وجودي، وإنما هنا عدمٌ وخلو من أسباب الخير،

(١) تقدم تخريجه في مباحث النبوات.

(٢) أخرجه البزار في كشف الأستار (١٦٨/٤ ـ ح٣٤٦٢) عن حذيفة موقوفاً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٧/١٠): رواه البزار عن حذيفة موقوفاً ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرك مرفوعاً (٥٧٣/٤): من طريق ليث بن أبي سليم، ثم قال قد استشهد مسلم بليث بن أبي سليم، وليث صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك كما بالتقريب (١٣٨/٢).

وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها، والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات، لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله فيه عقوبتان:

إحداهما: جعله مذنبا خاطئا، وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله، وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتها، لموافقتها شهوته وارادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات. وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]. فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، فهذه العقوبة الثانية.

فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبه له وحده، من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين إليه محبين له وحده؟ أم ذلك محض جَعْلِه في قلوبهم وإلقائه فيها؟.

قيل: لا ، بل هو محض، منته وفضله، وهو من أعظم الخير الذي هو بيده، والخير كله في يديه، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قيل: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم اليه بأنفسهم، عاد السؤال؟ وكان منعهم منه ظلماً، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء[1]، لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون؟.

---

(١) وهو قول الجبرية فإنهم عرفوا الظلم بأنه التصرف في ملك الغير، والعدل تصرف المالك في ملكه، وعليه فالظلم يكون ممتنعاً في ذاته على الله، وهذا خلاف ظاهر النصوص التي منعت الظلم لكمال عدل الله ورحمته لا لكونه ممتنعاً في ذاته، وانظر =

قيل: لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالماً، وإنما يكون المانع ظالما إذا منع غيره حقا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه، وأوجب على نفسه خلافه. وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له، بل هو محض فضله ومنته عليه ـ لم يكن ظالما بمنعه فمنع الحق ظلم، ومنع الفضل والإحسان عدل. وهو سبحانه العدل في منعه، كما هو المحسن المنان بعطائه.

فإن قيل: فإذا كان العطاء والتوفيق إحسانا ورحمة، فهلا كان العمل له والغلبة، كما أن رحمته تغلب غضبه؟.

قيل: المقصود في هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة ـ ليس بظلم، بل هو محض العدل.

وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال؟ وهلا سوى بين العباد في الفضل؟ وهذاالسؤال حاصله: لم تفضل على هذا ولم يتفضل على الآخر؟ وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١]. وقوله ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الحديد: ٢٩]. ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين وإعطائهم هم أجرا أجرا، قال: «**هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟** قالوا: لا، قال: «**فذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[1] وليس في الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد الناس على

= في تعريف الظلم: مختصر الصواعق (١/ ٣١١ ـ ٣١٥).

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها في كتاب مواقيت الصلاة باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (٢/ ٣٨ ـ ح٥٥٧) من حديث ابن عمر.

كمال حكمته في عطائه ومنعه[1]، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد، حتى أبصر طرفا يسيرا من حكمته في خلقه، وأمره وثوابه وعقابه، وتخصيصه وحرمانه، وتأمل أحوال محال ذلك، استدل بما علمه على ما لم يعلمه.

ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص، قالوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ قال تعالى مجيبا لهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فتأمل هذا الجواب، تر في ضمنه أنه سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر، من المحل الذي لا يصلح لغرسها، فلو غرست فيه لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعاً لا يليق بالحكمة كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فإن قيل: إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد، فإذاً لا فعل للعبد أصلا؟.

قيل: العبد فاعل لفعله حقيقة، وله قدرة حقيقة. قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، وأمثال ذلك.

وإذا ثبت كون العبد فاعلا، فأفعاله نوعان:

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، فيكون صفة له ولا يكون فعلا، كحركات المرتعش.

ونوع يكون منه مقارنا لإيجاد قدرته واختياره، فيوصف بكونه صفة

---

(١) بل وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) [البقرة: ٣٠]. فعلم أن من الحكمة في خلق هذا ما لم تعلمه الملائكة، فكيف يعلمه آحاد الناس. وانظر مجموع الفتاوى (٨/ ٢١٣).

وفعلا وكسبا للعبد، كالحركات الاختيارية.

والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلاً مختاراً، وهو الذي يقدر على ذلك وحده لا شريك له. لهذا أنكر السلف الجبر، فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز، فلا يكون إلا مع الإكراه، يقال: للأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح، وليس له إجبار الثيب البالغ، أي ليس له أن يزوجها مكرهة[1].

والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار، لأنه سبحانه خالق الإرادة والمراد، قادر على أن يجعله مختاراً، بخلاف غيره[2]، ولهذا جاء في ألفاظ الشارع الجبل دون الجبر كما قال ﷺ: لأشج عبدالقيس: **«إن فيك لخلتين يحبهما الله: الحلم والآناة» فقال: أخُلقين تخلقت بهما؟ أم خُلقين جُبلت عليهما؟ فقال: «بل خُلقان جُبلت عليهما» فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله تعالى**[3].

---

(١) انظر المسألة في المغني (٦/٤٨٧ ـ ٤٨٩).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٨/١٠٣ ـ ١٠٥، ٤٦٢ ـ ٤٦٣، ٤٧٨ ـ ٤٧٩، ٤٠١)، (٣/٣٢٣ ـ ٣٢٦)، (٥/٤٣٠ ـ ٤٣٢)، (١٦/١٤١ ـ ١٤٢)، والعقل والنقل (١/٦٧، ٢٥٦).

(٣) أخرجه بلفظه أبوداود في الأدب باب في قبلة الجسد (٤/٣٥٧ ـ ح٥٢٢٥)، وصححه الأرناؤوط (ص٦٥١) من حديث زارع بن عامر العبيدي رضي الله عنه، وأصل الحديث في مسلم كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالىٰ ورسوله ﷺ (١/٤٨ ـ ح١٧/٢٥)، ولفظه (وقال رسول الله ﷺ لأشج بن عبدالقيس: إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة). ولا يصح إطلاق الجبر على الله تعالىٰ نفياً ولا إثباتاً كما منع من ذلك الأوزاعي رحمه الله، فإثباته فيه من المحذور ما ذكره الشارح، وأما النفي، فيمنع أيضاً لأن اللفظ قد يحتمل معنى صحيحاً كما ورد عن محمد بن كعب قال: (إنما سمي الجبار لأنه يجبر الخلق على ما أراد)، فإذا امتنع من إطلاق اللفظ المجمل المحتمل المشتبه زال المحذور. انظر العقل والنقل (١/٦٧ ـ ٦٩).

والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختياري. والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفطر والعقول.

وإذا قيل: خلقُ الفعل مع العقوبة عليه ظلم؟!

كان بمنزلة أن يقال: خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم!! فكما أن هذا سبب للموت، فهذا سبب العقوبة، ولا ظلم فيهما.

فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله تعالى، ومفعول الله تعالى، ليس هو نفس فعل الله. ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق[1]. وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد ـ أثبت للعباد فعلاً وكسباً، وأضاف الخلق لله تعالى. والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر[2]، كما قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

---

(١) انظر في مسألة الفعل والمفعول: مجموع الفتاوى (٥/٧٨، ٥٢٩)، (٦/٢٢٩ ـ ٣٣٠، ٢٩٨)، (١٦/٣٧٣).

(٢) هذا هو الصحيح من معنى الكسب، فلا فرق بين كسَبَ، وفعَلَ وأوجد وأحدث وصنع وعمل، فإن هذه كلها مقدورة بالقُدرة الحادثة، وهي قائمة في محل القدرة الحادثة، لذا فكسب الأشعري المتقدم ذكره لا يعقل كما تقدم في كلام الشارح. وانظر مجموع الفتاوى (٨/١١٩، ١٢٨).

المبحث السادس

وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله

هذا المبحث في حقيقته يدخل فيما سبق من المباحث المتقدمة، إلا أني أردت أن أفرده في آخر مباحث القدر موافقة لنص حديث جبريل في سؤاله النبي ﷺ، ولا سيما وقد نبه الشارح رحمه الله في آخر هذا المبحث على نكتة لطيفة في ثمرة الإيمان بالقدر، والحذر من النفس البشرية التي فيها كوامن الشر ونسأل الله الإعانة على الخير.

* **الحسنة والسيئة**

قال: (ص٤١٠-٤١٣)

وقوله: والقَدَر خَيْرِه وشَرِّه وحُلْوِه ومُرِّه منَ اللهِ تَعالىٰ.

تقدم قوله ﷺ في حديث جبرائيل: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩] الآية.

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله: (كل من عند الله) وبين قوله: (فمن نفسك)؟

قيل: قوله (كل من عند الله): الخصب والجدب، والنصر والهزيمة، كلها من عند الله، وقوله: (فمن نفسك): أي ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا

كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]. يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك)، (وأنا كتبتها عليك)[1].

والمراد بالحسنة هنا النعمة وبالسيئة البلية في أصح الأقوال، وقد قيل المراد بالحسنة الطاعة، والسيئة المعصية[2]. وقيل الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أحد. والقول الأول شامل لمعنى القول الثالث. والمعنى الثاني ليس مراداً دون الأول قطعاً[3]، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه، مع أن الجميع مُقدّر، فإن المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى، فتكون من سيئات الجزاء، مع أنها من سيئات العمل، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى: (فمن نفسك)، فإنهم يقولون: إن فعل العبد ـ حسنة كان أو سيئة ـ فهو منه لا من الله! والقرآن قد فرق بينهما، وهم لا يفرقون، ولأنه قال تعالى: (كل من عند الله)، فجعل الحسنات من عند الله، كما جعل السيئات من عند الله، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال، بل في الجزاء.

---

(١) أخرجه ابن المنذر كما بالدر المنثور (٢/ ١٨٥).

(٢) انظر رسالة (الحسنة والسيئة) لشيخ الإسلام (ص١٧ ـ ٣٠)، وهذا مبحث مختصر منها.

(٣) قال شيخ الإسلام كما بمجموع الفتاوى (٨/ ٢٣٩): «وبعض الناس يظن أن المراد هنا بالحسنات والسيئات: الطاعات المعاصي، فيتنازعون، هذا يقول: «قل كل من عند الله»، وهذا يقول: «الحسنة من الله والسيئة من نفسك» وكلاهما أخطأ في فهم الآية، فإن المراد هنا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب». اهـ. وانظر أيضاً مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٧٥)، وأيضاً قال: «والمصيبة الثانية قد تكون عقوبة على الأولى»، وانظر مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٠٤، ٢٠٩).

وقوله بعد هذا: (ما أصابك من حسنة) و (من سيئة)، مثل قوله: (وإن تصبهم حسنة) و (إن تصبهم سيئة). وفرق سبحانه وتعالى بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب، فجعل هذه من الله، وهذه من نفس الإنسان، لأن الحسنة مضافةٌ إلى الله، إذ هو أحسنَ بها من كل وجه، فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه، وأما السيئة، فهو إنما يخلقها لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وخير.

* والشر ليس إليك.

قال: (ص٤١٢-٤١٣)

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح: «والخير بيديك، والشر ليس إليك»[1].

أي: فإنك لاتخلق شراً محضاً، بل كل ما تخلقه ففيه حكمةٌ، هو باعتبارها خيرٌ، ولكن قد يكون فيه شرٌ لبعض الناس، فهذا شر جزئي إضافي، فأما شر كلي، أو شر مطلق فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه. وهذا هو الشر الذي ليس إليه.

ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط[2]، بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨﴾ [النساء: ٧٨]، وإما أن يضاف إلى السبب، كقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه من حديث علي بن أبي طالب (١/ ٥٣٤ ـ ح٧٧١).

(٢) فالشر يرجع للعدم كما تقدم في مبحث الإرادة قريباً.

خَلَقَ ﴿٢﴾ [الفلق: ٢]، وإما أن يحذف فاعله، كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾(١) [الجن: ١٠].

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل لله من الرحمة والحكمة لا يَقدِّر قدْرَه إلا الله تعالى، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة(٢) - يكون شرًّا كلياً عاماً، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً أو مصلحة للعباد، كالمطر العام، وكإرسال رسول عام.

وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التي أيَّد بها الصادقين، فإن هذا شرٌّ عام للناس، يضلهم، فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم. وليس هذا كالملك الظالم والعدو، فإن الملك الظالم لابد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه(٣)، وقد قيل ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام، وإذا قُدّر كثرة ظلمه، فذاك خير في الدين، كالمصائب، تكون كفارة لذنوبهم، ويثابون على الصبر عليه، ويرجعون فيه إلى الله، ويستغفرونه ويتوبون إليه، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو. ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة، وأما المتنبئون الكذابون فلا يطل تمكينهم، بل لابد أن يهلكهم، لأن فسادهم عامّ في الدين والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾(٤) [الحاقة: ٤٤-٤٦].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٨/٥١١)، (١٤/٢٦٦).
(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٤/٢٩٩).
(٣) ولذا لم يخلق الله شراً محضاً من كل الوجوه، انظر مختصر الصواعق (١/٣٤٩).
(٤) انظر فصل النبوات.

* من ثمرات الإيمان بالقدر

قال: (ص٤١٣)

وفي قوله: (فمن نفسك) من الفوائد: أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها، فإن الشرَّ كامنٌ فيها، لا يجيءَ إلا منها، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساؤوا إليه، فإن ذلك من السيئات التي أصابته، وهي إنما أصابته بذنوبه، فيرجع إلى الذنوب، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته. فبذلك يحصل له كل خير، ويندفع عنه كل شر[1].

(١) انظر مجموع الفتاوى (٨/٢١٥، ٢١٦).

وبهذا ينتهي ترتيب هذا الكتاب المبارك والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وقد تم الفراغ من تصحيحه في يوم الخميس الموافق الرابع من ذي القعدة الحرام عام ١٤١٧هـ والحمد لله على كل حال ونعوذ بالله من حال أهل النار.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية(1)

سورة الفاتحة

سورة البقرة

سورة آل عمران

---

(١) ملاحظة: الرقم الأول الذي هو بين قوسين للآية، والرقم الثاني هو للصفحة الموجودة فيها، ولم أدخل الآيات التي بالمقدمة في هذا الفهرس.

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة الحجر

(١)/ ٣١١ ـ (٢٩)/ ٩١٤،٩١٥ ـ (٣٦)/ ١٥٨،٢٣٣ ـ (٣٩)/ ١٥٨،١٠٦٣ ـ (٤١)/ ١١١٦ ـ (٤٢)/ ١١١٦ ـ (٤٨)/ ١٠٠٩،١٠١٤ ـ (٧٠)/ ٦٦٩(٧٥)/ ٣٩٥ ـ (٩١)/ ٤٦٢.

سورة النحل

(٥)/ ٤٠٧ ـ (١٧)/ ٣٣٥،٥٥٥ ـ (٣٥)/ ٧٣٩،٧٩٧،١٠٦٢ ـ (٣٦)/ ٢١ ـ (٣٨)/ ٩٦١ ـ (٣٩)/ ٩٦١ ـ (٤٣)/ ٣٢٥ ـ (٤٤)/ ٣١١،٣٢٥ ـ (٥٠)/ ٦١٥،٦٥٣ ـ (٥١)/ ٣٥١ ـ (٦٠)/ ٤٣١،٤٤٥ ـ (٧٨)/ ٤٩٤ ـ (٨٢)/ ٧٣٩ ـ (٨٩)/ ٧٩٧ ـ (٩٠)/ ٦٥٧ ـ (٩١)/ ٧٠٣ ـ (٩٨)/ ٧٢٧ ـ (٢٠١)/ ٦١٦،٦٣٧،٦٨٩ ـ (١٠٦)/ ١٦٤ ـ (١٢٥)/ ٢٥١.

سورة الإسراء

(١)/ ٧٧٢،٨٠٠ ـ (١٥)/ ١١١٠ ـ (١٦)/ ١٠٥٦ ـ (٢٣)/ ٣٥١،١٠٥٥ ـ (٢٩)/ ٧٠٣ ـ (٣٢)/ ٧١٣ ـ (٣٦)/ ١٣٢،٢٥٤،٧٩٩ ـ (٣٨)/ ١٠٧١ ـ (٣٩)/ ٧٠٣ ـ (٤٢)/ ٣٣٥ ـ (٤٩)/ ٩٦١،٩٦٢ ـ (٥٠)/ ٩٦١ ـ (٥١)/ ٩٦١،٩٦٢ ـ (٥٢)/ ٩٦١ ـ (٥٥)/ ٦٦٤،٧٨٥ ـ (٥٧)/ ٢٢٥ ـ (٦٢)/ ٦٦٥،٦٦٦ ـ (٧٨)/ ٧٢٦ ـ (٨٢)/ ٨٥٤ ـ (٨٥)/ ٩١٤،٩١٥،٩٨٥ ـ (٨٦)/ ١٠٠٩ ـ (٨٨)/ ٧١٥،٧٢٢ ـ (٩٠)/ ٣٨٨ ـ (٩٧)/ ٩٦١ ـ (٩٨)/ ٩٦١ ـ (٩٩)/ ٩٦١ ـ ((١٠٢)/ ١٥٨،٣٢٢،٧٠٧ ـ (١٠٦)/ ٦٣٧،٧٠٧ ـ (١١١)/ ٣٨٤.

سورة الكهف

(١٧)/ ١٠٨٨ ـ (٢١)/ ٩٦٥ ـ (٢٢)/ ٨٠٣ ـ (٢٦)/ ٨٠٣ ـ (٤٥)/ ٤٤٦ ـ (٤٨)/ ٩٧٧ ـ (٤٩)/ ٤٤٦،٩٧٧،١١٠٩ ـ (٦٧)/ ١٠٩٢ ـ (٧٥)/ ١٠٩٣ ـ (٧٨)/ ٥٠١ ـ (٧٩)/ ٤٨٨ ـ (٨٢)/ ٥٠٢ ـ (٩٧)/ ٦١٣ ـ (١٠٥)/ ٩٨٢ ـ (١٠٩)/ ٥٦٣،٧٢٥.

سورة مريم

(٩)/ ٣٣٥،٩١٥،١٠٨٣ ـ (٦٠)/ ٢٢٧ ـ (٦٤)/ ٦٦٣،٤١١ ـ (٧١)/ ٩٨٧ ـ (٧٢)/ ٩٨٧ ـ (٧٦)/ ١٩٩ ـ (٩٦)/ ٧٧٥.

سورة طه

(٥)/ ١٣٩،٦٠٦،٦٢٠،٨٢٧ - (١٥)/ ٥٩٠ - (٤١)/ ٥١٥ - (٥٠)١٠١٥ - (٦٦)/ ٤١٤ - (٦٩)/ ٦٣٦ - (٨٩)/ ٦٨٠ - (١١٠)/ ٤٥١،٥٩٦،٢٤٤ - (١١١)/ ٤٣٨ - (١١٢)/ ١٠١٥،١١٠٩،١١١٠ - (١٢٣-١٢٦)/ ١٢١.

سورة الأنبياء

(١)/ ٩٦١ - (١٩)/ ٦١٦،٦٥٤ - (٢٢)/ ٣٤٠،٣٤١ - (٢٣)/ ١٠٢٨،١٠٩٦ - (٢٥)/ ٣٤٥ - (٢٦)/ ٦٥٥،٨٠٠ - (٢٧)/ ٦٥٣،٤١٨ - (٢٨)/ ٦٥٣ - (٣٠)/ ٧٠٢ - (٣١)/ ٧٠٣ - (٣٢)/ ٧٠٣ - (٤٧)/ ٩٨١ - (٧٨)/ ٨٢٢ - (٧٩)/ ٨٢٢ - (٨٧)/ ٧٨٨ - (٩٥)/ ١٠٥٧ - (١٠٥)/ ٥٦٩،١٠٥٦ - (١٠٧)/ ٧٣٨ - (١١٢)/ ١٠٥٧.

سورة الحج

(١)/ ١٠٨٣ - (٣)/ ١٣٢،٨٠٣ - (٤)/ ١٣٢،٨٠٣ - (٥)/ ٩٦٥ - (٧)/ ٩٦٥ - (٨)/ ١٣٣ - (٩)/ ١٣٣ - (١٩)/ ٨٢٣ - (٣١)/ ٩٥٢ - (٥٥)/ ١٠١٣ - (٧٨)/ ١٠٩٩.

سورة المؤمنون

(١٢)/ ٩٦٥ - (١٤)/ ١١٠٢،١١٠٤ - (١٦)/ ٩٦٥ - (٥٧)/ ٢٢٥ - (٥٩)/ ٤٤٨ - (٦٠)/ ٤٤٨،٤٤٩ - (٦١)/ ٢٢٥ - (٦٢)/ ٦٥٣ - (٧١)/ ١٠٩٤ - (٨٤)/ ٢٣٣،٣٤١،٥٢٨ - (٨٥)/ ٢٣٣،٣٤١،٥٢٨ - (٩١)/ ٣٣٩ - (١٠٢)/ ٩٨١ - (١٠٣)/ ٩٨١ - (١٠٨)/ ٦٨٠ - (١١٥)/ ٩٦٤،١١١٠ - (١١٦)/ ٦٠٦.

سورة النور

(٢٥)/ ٩٧٦ - (٣٩)/ ٨٢٩ - (٤٠)/ ٨٢٩ - (٥٢)/ ٣٧١ - (٥٤)/ ٧٣٩،٧٩٧،٨٠٥ - (٦١)/ ٩١٩ - (٦٢)/ ١٧٣.

سورة الفرقان

(١)/ ٦٦٩،٧٦٣ - (٢)/ ١٠٢٥،١٠٢٧،١٠٤٧،١٠٥٣ - (٧)/ ٣٧٨،٣٨٨،٦٧١ - (٣٣)/ ٣١٣ - (٤٣)/ ٢٣٥ - (٤٨)/ ٧٠٧ - (٥٨)/ ٤٣٨ - (٦٥)/ ٧٧٥،١٠١٤ - (٧٠)/ ٢٢٧.

سورة الشعراء

(٢٤)/ ٣٢٢ - (٢٨)/ ٣٢٢ - (٦١)/ ٥٩٥ - (٦٢)/ ٥٩٥ - (٦٧)/ ٥١ - (٦٨)/ ١٥١ - (٧٥)/ ٤٦٧ - (٧٦)/ ٧٧ - (٨٢)/ ٩٥٩ - (١٦٥)/ ٦٦٩ - (١٧٤_١٧٥)/ ٧٥٦ - (١٩٣)/ ٦٣٧، ٧٠٦، ٧٠٧، ٩١٩ - (١٩٤)/ ٦٣٧، ٧٠٦، ٧٠٧ - (١٩٥)/ ٦٣٧، ٧٠٦، ٧٠٧ - (١٩٦)/ ٧٢٠ - (٢٢١)/ ٤٢٤، ٧٤٦ - (٢٢٢)/ ٤٢٤، ٧٤٦ - (٢٢٣)/ ٧٤٦ - (٢٢٤)/ ٧٤٦ - (٢٢٥)/ ٧٤٦ - (٢٢٦)/ ٧٤٧.

سورة النمل

(١٤)/ ٣٢٢، ٤٦٠ - (٢٣)/ ٦٠٨، ٧٠٢ - (٢٦)/ ٦٠٦ - (٤٨)/ ٩٠٠ - (٥٩)/ ٣٣٧، ٦٣٦ - (٦٠)/ ٣٣٧ - (٦١)/ ٣٣٧ - (٦٦)/ ٩٦١ - (٨٢)/ ٩٣٣ - (٨٩)/ ٩٧٦ - (٩٠)/ ٩٧٦.

سورة القصص

(٣)/ ١٨٣ - (١٦)/ ٧٨٨ - (٢٠)/ ١٠٦٧ - (٣٠)/ ٧٠٣، ٧٠٤ - (٤٩)/ ٦٣٦ - (٥٠)/ ١٣٣، ٨٠٣ - (٥٦)/ ١٠٦١ - (٨٤)/ ٩٧٦ - (٨٨)/ ٣٥٢، ٥١٤، ٩٢٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦.

سورة العنكبوت

(١)/ ٧٥٣ - (٢)/ ٧٥٣ - (٢٦)/ ١٦٥ - (٤٩)/ ٧١٧ - (٥١)/ ٢٩٤.

سورة الرّوم

(١٩)/ ٥٨ - (٢٦)/ ٤٣٣ - (٢٧)/ ٤٣١، ٤٩٨، ٥٦٣ - (٣٠)/ ٢٩٦، ١١١٦ - (٣١_٣٦)/ ٢٩٦ - (٤٧)/ ٣٩٧ - (٥٤)/ ٤٩٠.

سورة لقمان

(٢٥)/ ٢٣٣، ٣٠٧، ٣٤١ - (٢٧)/ ٧٢٥، ١٩٠ - (٣٤)/ ١٠٣٣.

سورة السجدة

(٥)/ ٣٦٠ - (١١)/ ٦٦٠ - (١٣)/ ٦٨٩، ١٠٥٣، ١٠٦١ - (١٥)/ ٥٨ - (١٦)/ ٣٦٩ - (١٧)/ ٩٧٦، ١١٠٤ - (١٨)/ ٤٨٨ - (٣٦)/ ٥٠٠ - (٤٢)/ ١٩٦.

سورة الأحزاب

(٧)/ ١٧٨،٧٤٠ ـ (٣٢)/ ٢٥٨ ـ (٣٣)/ ٨٠ ـ (٣٥)/ ١٨٦،١٨٧ ـ (٣٦)/ ٨٣٠ ـ
(٣٨)/ ١٠٢٥،١٠٤٧ ـ (٤٠)/ ٧٦٥،١٠٣٨ ـ (٤٣)/ ٦٥٥ ـ (٤٤)/ ٥٨٩.

سورة سبأ

((٣)/ ٤٤٦،٩٦٠ ـ (٦)/ ٦٧٨ ـ (٢٣)/ ٦١٦ ـ (٢٨)/ ٧٦٣،٧٦٤ ـ (٤٠ـ٤١)/ ٤١٧.

سورة فاطر

(١٠)/ ٦١٦،٨٢٧ ـ (١١)/ ٤٨٩،١٠٥٦،٦٥٧ ـ (١٥)/ ٤٣٧،٦٣٠ ـ (٣٢)/ ١٨٢ ـ
(٣٦)/ ١٠١٤ ـ (٤٤)/ ٤٤٦،٤٤٧.

سورة يسٓ

(٣٩)/ ٤٦٧ ـ (٥٤)/ ٩٤٣،٩٤٥ ـ (٥٨)/ ٦١٣،٦٢٠،٦٧٩ ـ (٦٥)/ ٦٩٣ ـ (٧١)/ ٥١٥ ـ
(٧٨)/ ٩٦٢ ـ (٧٩)/ ٩٦٢،٩٦٣ ـ (٨٠)/ ٩٦٣ ـ (٨١)/ ٩٦٣،٩٦٤ ـ
(٨٢)/ ٣٨٨،٩٦٤،١٠٥٦،١٠٨٣ ـ (٨٣)/ ٩٦٤.

سورة الصافات

(١ـ٣)/ ٤٠٧ ـ (٨)/ ٦٥٦ ـ (٨٨ـ٨٩)/ ٤١٣ ـ (٩٦)/ ١١٠٥ ـ (١٠١)/ ٤٨٨ ـ
(١٥١ـ١٥٤)/ ٣٥٢ ـ (١٨٠)،(١٨٢)/ ١٢٢.

سورة ص

(٥)/ ٣٣٧ ـ (٢٨)/ ١١١٠ ـ (٥٤)/ ١٠٠٩ ـ (٧٥)/ ٥١٤،٥١٥،٨٢٧ ـ (٧٩ـ٨١)/ ٩٥٩ ـ
(٨٢)/ ١٥٨،٢٣٣،١١١٦ ـ (٨٣)/ ٢٣٣،١١١٦.

سورة الزمر

(١)/ ٦١٦،٦٣٧،٦٨٩،٧٠٧ ـ (٣)/ ٣٢٤،٣٣٦ ـ (٦)/ ٦٣٨،٧٠٨ ـ (٧)/ ١٠٧١ ـ
(٩)/ ٣٦٩ ـ (٢٣)/ ٤٢٥ ـ (٤٢)/ ٦٦٠،٩١٧ ـ (٥٣)/ ٢٢٨،٢٣٤ ـ (٥٤)/ ٢٢٨ ـ
(٥٦)/ ٥١٧ ـ (٦١)/ ٥١٧ ـ (٦٢)/ ٧٠١،٩١٤،١١٠٤ ـ (٦٥)/ ٧٨٩ ـ (٦٧)/ ٥١٤.
ـ(٦٩)/ ٥٢٤ ـ (٧١)/ ٩٦٠ ـ (٧٥)/ ٦٠٦،٦٦٧.

سورة غافر

(١)/ ٢٤٧، ٦٣٧، ٧٠٧ - (٢)/ ٢٤٧، ٦١٦، ٦٣٧، ٧٠٧ - (٣)/ ١٧٨، ٢٤٧ - (٧)/ ٦٠٦، ٦٥٥، ١٠١٣ - (١١)/ ٩٢٤ - (١٥)/ ١٢٠، ٦٠٦، ٩٧٧ - (١٦)/ ٦٠١ - (١٧)/ ٩٧٧، ١١٠٩ - (٣٢-٣٣)/ ٩٦٠ - (٣٥)/ ٤٨٨، ٨٠٣ - (٣٦)/ ٦١٩ - (٣٧)/ ٦١٩ - (٣٩)/ ٩٦٠ - (٤٥)/ ٩٥٠ - (٤٦)/ ٧٨٣، ٩٥٠، ٩٥٧، ٩٦٠ - (٥٥)/ ١٠٦٥ - (٥٦)/ ٧٩٣ - (٥٧)/ ٩٦٤ - (٥٩)/ ٩٦١ - (٦٠)/ ٣٥٦، ٣٦٢ - (٧٨)/ ٧٣٩.

سورة فصلت

(٢)/ ٦١٦، ٦٣٦، ٧٠٧ - (٥)/ ٦٨٠ - (١٢)/ ١٠٥٥ - (١٥)/ ٤٨٩ - (١٧)/ ٦٤٢ - (٢١)/ ٦٩٣، ١٧٩ - (٢٤)/ ٧ - (٣٨)/ ٦٥٥ - (٤١)٦٧٨ - (٤٢)/ ٦١٦، ٦٣٦، ٦٧٨، ٧٠٧ - (٤٤)/ ١٢٠، ٦٧٨، ٨٥٤ - (٤٩)/ ٧٠٧ - (٥٢)/ ٢٩٣ - (٥٣)/ ٢٩٣ - (٥٤)/ ٦٣٤.

سورة الشورى

(١١)/ ١٣٩، ٤٤٩، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٩٩، ٦٣٨، ٧٠٨، ٧٢٣، ٨٣٣، ٨٤٤ - (١٣)/ ٧٤٠ - (١٧)/ ٣٢٥ - (١٨)/ ٩٦١ - (٢٤)/ ٧٥٧، ١٠٠٩ - (٣٠)/ ٢٧٨، ١٠١٦، ١١٢٤ - (٥١)/ ٦١٦ - (٥٢)/ ١٢٠، ٩١٩ - (٥٣)/ ١٢٠.

سورة الزخرف

(١-٢)/ ٧٩٧ - (٣)/ ٧٠٢ - (١٩)/ ٣٥٠، ٧٠٣ - (٢٠)/ ١٠٦٢ - (٥٨)/ ٢٣٤ - (٧٢)/ ١١٠٣ - (٧٥)/ ١٠١٤ - (٧٦)/ ١١٠٩ - (٧٧)/ ٥٩٣ - (٨٠)/ ٦٥٦ - (٨٦)/ ٣٥٠.

سورة الدخان

(١)/ ٦١٦، ٧٩٧ - (٢)/ ٦١٦، ٣٨٢ - (٣)/ ٦١٦، ٦٣٦، ٧٠٧ - (٤)/ ٦١٦، ٦٣٦ - (٥)/ ٦١٦، ٦٣٦، ٧٠٧ - (٣٢)/ ٦٦٩ - (٥٦)/ ٩٢٣، ١٠١٠.

سورة الجاثية

(١٧)/ ٨٦٣ - (٢١)/ ١١١٤ - (٢٣)/ ١٣٣ - (٢٩)/ ٦٥٦ - (٥٩)/ ٥٥٧.

سورة الأحقاف

(١١)/ ٤٦٧ - (١٤)/ ٩٧٦، ٦٤٢ - (٢٥)/ ٧٠١ - (٣٠)/ ٧٦٢ - (٣١)/ ٧٦٢ - (٣٣)/ ٥٩٥ - (٣٥)/ ٧٨٩.

سورة محمد

(١١)/ ٣٨١ - (١٩)/ ٢٦٢ - (٣٠)/ ٧٤٨، ١٤٤ - (٣٨)/ ٤٣٧.

سورة الفتح

(٤)/ ١٩٩ - (١٨)/ ٥٤٦، ٨٥٨، ٨٩٩ - (٢٧)/ ٢٠٦، ٢٠٧ - (٢٩)/ ٨٥٨.

سورة الحجرات

(٧)/ ١٠٨٨ - (٩)/ ٢٢١، ٨١٤ - (١٠)/ ٢٢١ - (١١)/ ٥٣٩ - (١٢)/ ٥٣٩ - (١٣)/ ٣٨٤ - (١٤)/ ١٨٥، ٢١٠، ٥٠٧ - (١٥)/ ١٧٣، ١٧٧، ١٨٥، ٢٠٨ - (٣١)/ ٢٥٤.

سورة ق

(١٧ـ١٨)/ ٥٥٧ - (٢٨)/ ٦٦٠ - (٢٩)/ ١١٠٩، ١١١٠ - (٣٥)/ ٥٨١ - (٣٨)/ ٤٤٦.

سورة الذاريات

(٤)/ ٤٠٥ - (٢٨)/ ٤٨٨ - (٣٥ـ٣٦)/ ١٨٧ - (٥٦)/ ٤٣٧، ١٠٣٨ - (٥٧)/ ٤٣٧ - (٥٨)/ ٤٣٧، ٤٨٩.

سورة الطور

(٣)/ ٧٢٠ - (٢١)/ ٤٢٤ - (٣٠ـ٣١)/ ٧٥٧ - (٣٥)/ ٣١٧ - (٤٥ـ٤٧)/ ٩٥.

سورة النجم

(٥ـ٨)/ ٦١٧، ٦١٨ - (١٠)/ ٨٠٠ - (١١)/ ٥٨٨ - (١٣)/ ١٠٠١، ٦١٥ - (١٤)/ ١٠٠١ - (١٥)/ ١٠٠١ - (٢٣)/ ١٣٣، ١٤٣ - (٣٨)/ ٩٥٤ - (٣٩)/ ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥.

سورة القمر

(١)/ ٩٦١ ـ (٣٤)/ ٧٨٣ ـ (٤٩)/ ١٠٤٧، ١٠٥٣.

سورة الرحمن

(١٠)/ ٤٨٥ ـ (٢٢)/ ١٦٨ ـ (٢٦)/ ٤٣٤، ٩٢٣، ١٠٠٥ ـ (٢٧)/ ٤٣٤، ٩٢٣ ـ (٢٩)/ ٥٤٤.

سورة الواقعة

(٢٤)/ ٩٧٦، ٦٤٢ ـ (٧٨)/ ٧٢٠.

سورة الحديد

(٣)/ ٣١٦، ٦١٣ ـ (١٠)/ ٨٥٩ ـ (١٣)/ ٥٨٠ ـ (٢١)/ ١٨٣، ١٠٠١، ١١١٩ ـ (٢٥)/ ٣٢٥ ـ (٢٩)/ ١١١٩.

سورة المجادلة

(١)/ ٦١٥، ١٠٩٠ ـ (٤)/ ٢٢٨ ـ (٢٢)/ ٩١٩، ٦٨٤.

سورة الحشر

(٥)/ ٨٢٢، ١٠٥٦، ٨٥٩ ـ (٨)/ ٨٥٩ ـ (٩)/ ٨٥٩ ـ (١٠)/ ٨٥٩، ٨٩٠، ٩٠٩، ٩٣٩ ـ (٢٢)/ ٥٣، ٨٤ ـ (٢٣)/ ٢٩٤، ٤٥١ ـ (٢٤)/ ٤٥١.

سورة الممتحنة

(١٠)/ ١٠٥٧.

سورة الصف

(٤)/ ٣٨٠ ـ (٥)/ ٦٢٨.

سورة الجمعة

(٥)/ ٨٢٦.

سورة المنافقون

(١)/ ٤٩١.

سورة التغابن

(٢)/ ١٠٦١ ـ (٧)/ ٩٦١ ـ (٨)/ ٦٧٨ ـ (١٢)/ ٣١١، ٧٣٩ ـ (١٦)/ ١٠٩٠.

سورة الطلاق

(٢ـ٣)/ ٣٧٣، ٣٨٣، ٣٩٤.

سورة التحريم

(١١)/ ١٠٠٥.

سورة الملك

(٢)/ ٩٣٦، ١٠٣٨ ـ (١٤)/ ١٠٣٥، ١٠٣٩.

سورة القلم

(١)/ ١٠٤٣ ـ (٣٥)/ ٣٥٢، ١١١٠ ـ (٣٦)/ ٣٥٢ ـ (٤٨)/ ٧٨٨.

سورة الحاقة

(١٥)/ ٩٧٦ ـ (١٦)/ ٩٧٦ ـ (١٧)/ ٦٠٦، ٦١٠، ٩٧٦ ـ (٤٠)/ ٧٠٤، ٧٠٦ ـ (٤١)/ ٧٠٦ ـ (٤٤ـ٤٧)/ ٢٩٤، ٧٥٨، ١١٢٦.

المعارج

(١ـ٢)/ ٩٦١ ـ (٦ـ٧)/ ٩٦١ ـ (٤)/ ٦١٥.

سورة نوح

(١٧ـ١٨)/ ٩٥٩ ـ (٢٣)/ ٣٤٢.

***

---

(١)

فهرس الأحاديث النبوية والآثار

***

****

فهرس الأشعار

تهوي بساكنها طورًا وترفعهم	إذا رجوا مخرجًا من غمّها قُمِعُوا	٩٨٠
طال البكاء فلم يُرحم تضرُّعُهم	فيها ولا رقة تغني ولا جزع	
لينفع العلم قبل الموت عالمه	قدسأل قومٌ بها الرجعى فما رجعوا	
ألا كل شيء ما خلا الله باطل	وكل نعيم لا محالة زائل	٧٢٦
نهاية إقدام العقول عقال	وغاية سعي العالمين ضلال	١٣٩
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال	
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا	
فكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا	
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال، فزالوا والجبال جبال	
هم معشر حلّوا النظام وخرقوا الـ	ـسياج فلا فرض لديهم ولا نفل	٤٢٣
مجانين إلا أنَّ سر جنونهم	عزيز على أبوابه يسجد العقل	
ليس كمثل الفتى زهير	خلق يوازيه في الفضائل	٤٨٥
شهدت بإذن الله أن محمدًا	رسول الذي فوق السماوات من عل	٦١٢
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما	كلاهما له عمل من ربه متقبل	
وأن الذي عادى اليهود ابن مريم	رسول أتى من عندذي العرش مرسل	
وإن أخا الأحقاف إذ قام فيهم	يجاهد في ذات الإله ويعدل	
إن البيان لفي الفؤاد وإنما	جعل اللسان على الفؤاد دليلا	٧١٨
ـد تخللت مسلك الروح مني	ولذا سمّي الخليل خليلا	٧٧٨
ـفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل		
....	....	
	فأصبحت مثل كعصف مأكول	٧٠٥
ـها المغتدي ليطلب علما	كل علم عبد لعلم الرسول	٤٨٦
ـلب الفرع كي تصحح أصلا	كيف أغفلت علم أصل الأصول؟	١٢٨-١٢٩
ـبلة لا يغدرون بذمة	ولا يظلمون الناس حبة خردل	
ـمري لقد طفت المعاهد كلها	وسيرت طرفي بين تلك المعالم	٤٤٧
ـم أر إلا واضعاً كفَّ حائرٍ	على ذقن أو قارعًا سن نادم	١٤٠
....	....	
	ما لجرح بميت إيلام	٨٥٣
ـم من عائب قولاً صحيحاً	وآفته من الفهم السقيم	٥١٠
ـساليات ككما يؤثفين		
....	....	
	فأنى قولها كذباً ومَيْنَا	٤٨٦
ـدت بأن وعد الله حق	وأن النار مثوى الكافرينا	١٧٨
العرش فوق الماء طاف	وفوق العرش ربُّ العالمينا	٦٠٩
ـمله ملائكة شدادٌ	ملائكة الإله مسومينا	

***

فهرس الأعلام

(أ)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ع)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ه)

(و)

(ي)

***

فهرس الملل والنحل

فهرس الأماكن

فهرس الكتب الواردة في كلام الشارح والتعريف بها[1]

* **إحياء علوم الدين** ١٣٤

لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) وهو من أجل كتب المواعظ على شيء فيه، وقد قسمه على أربعة أقسام ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات في كل منها عشرة كتب، وقد صنف بعض المغاربة الرد عليه في أغلاط فيه وجمع أبو الفرج ابن الجوزي كتاباً في ذلك سماه(إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء)، وقال سبط ابن الجوزي أبو المظفر: وضعه على مذاهب الصوفية وترك فيه قانون الفقه فأنكروا عليه ما فيه من الأحاديث التي لم تصح اهـ.
وللعراقي تخريج عليه مطبوع بهامشه، واختصره كثيرون. انظر كشف الظنون (١/ ٢٣، ٢٤).

* **الاختيار شرح المختار** ٩٤٦

هو كتاب في الفقه الحنفي تأليف مجد الدين عبدالله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي (ت٦٨٣هـ) شرح به كتابه (المختار)، ويعد الأخير هذا أحد المتون المعتمدة عند متأخري الحنفية، مع متن (القدوري) ومختصر الطحاوي وموجز الفرغاني.
وقد طبع الاختيار في خمسة أجزاء. انظر الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ص١٠٦)، وكشف الظنون لحاجي خليفة (٢/ ١٦٢٢، ١٦٢٣).

* **الإرشاد في علم الكلام** ٥٦٥

لأبي المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني الشهير بإمام الحرمين (ت٤٧٨هـ)،

---

(١) لم أدخل في ذلك كتب الحديث المشهورة كالبخاري ومسلم والسنن وسنن البيهقي والدار قطني وصحيحي ابن حبان والحاكم ومسندي أحمد وأبي يعلى ومعجم الطبراني والموطأ فهي لشهرتها تستغني عن التعريف.

وقد صنفه على مذهب الأشعرية ويميل فيه في بعض مباحثه إلى مذهب المعتزلة. انظر كشف الظنون (١/٦٨).

* الإشارة في البشارة في تفضيل البشر على الملك ٦٦٤

لتاج الدين عبدالرحمن بن إبراهيم بن ضياء بن سباع الفزاري الشافعي المعروف بالفركاح (ت٦٩٠هـ)، له ترجمة في طبقات ابن السبكي (٨/١٦٣)، والبداية والنهاية (١٣/٣٢٥)، وهدية العارفين (٥/٥٢٥، ٥٢٦).

* الإنجيـل ٥٠٠، ٦٧٧، ٧٢٥

هو كتاب الله تعالى المنزل على نبي الله عيسىٰ، وكان يقرؤه عيسى بالعبرانية، وفي البخاري في قصة ورقة بن نوفل ما يدل على أنه كذلك، والذي بأيدي النصارى الآن إنما هو سيرة المسيح جمعها أربعة من أصحابه وهم متى ولوقا ومرقس ويوحنا وقيل هؤلاء الذين أفسدوا دين عيسى عليه السلام وزادوا ونقصوا وليسوا من الحواريين الذين أثنى الله تعالى عليهم في القرآن، ومنهم من لم ير عيسى ألبتة. انظر كشف الظنون (١/١٧٥ ـ ١٧٧).

* البداية والنهاية ٩٧٢

لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، وهو كتاب كبير حافل في الوقائع اعتمد في نقله على الكتاب والسنة وميز بين الصحيح والسقيم والإسرائيليات وغيره ورتبه على السنوات حتى عصره. انظر كشف الظنون (١/٢٢٨).

* تبصرة الأدلة في الكلام ١٥٩، ٥١٠

لأبي المعين النسفي ميمون بن محمد (ت٥٠٨هـ)، وهو مجلد ضخم جمع فيه مؤلفه من الدلائل في المسائل الاعتقادية، وطريقته التوسط في العبارة بين الإطناب والإشارة. انظر كشف الظنون (١/٣٣٧).

* التذكرة ٩٩٥،٩٧١،٩٧٠

للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي صاحب التفسير المشهور بتفسير القرطبي (ت٦٧١هـ)، وكتابه التذكرة مطبوع مشهور في مجلد ضخم جمع فيه من كتب الأخبار والآثار ما يتعلق بذكر الموت والموتى والحشر والجنة والنار والفتن والأشراط، ويذيل كل باب لفصل لشرح الغريب وإيضاح المشكل. انظر كشف الظنون (١/ ٣٩٠).

* تفسير البغوى المسمى (معالم التنزيل) ٣٠٤

لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت٥١٦هـ)، وهو كتاب متوسط نقل فيه البغوي التفسير بالمأثور عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو مختصر من تفسير الثعلبي إلا أنه صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة. انظر كشف الظنون (٢/٧٢٦)، وانظر مجموع الفتاوى (٣/٣٨٦)، ومقدمة تفسير البغوي التي وضعتها لجنة التحقيق بإشراف الشيخ عثمان جمعة ضميرية ص٨ ط. دار طيبة.

* تفسير الثعلبي (الثعالبي) المسمى الكشف والبيان ٣٠٤

للإمام الحافظ المفسر أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، قال شيخ الإسلام عن تفسيره:

«والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع» اهـ.

* تفسير عبد بن حميد ١٠١٢

هو تفسير عظيم كبير القدر على منهج السلف والمحدثين إلا أنه مفقود، وينقل عنه كثيراً في الدر المنثور وتفسير ابن كثير

* تفسير الرازيّ (التفسير الكبير) المسمى بمفاتيح الغيب ٣٠٤

لفخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، جمع فيه كل غريب ولم يكلمه وأكمله القمولي ولم يتمه وأتمه الخويي وفيه كثير من الفوائد إلا أنه يورد الأسئلة

والشكوك وقد لا يجيب عنها، وتوسع في غير التفسير. انظر كشف الظنون (١٧٥٦/٢).

* **تفسير الزمخشري المسمى الكشاف عن حقائق التنزيل** ٣٠٤

لجار الله محمد بن عمر إلي القاسم الزمخشري المعتزلي (ت٥٣٨هـ)، وهو كتاب قوي في الأدب والبيان لولا ما حشاه من بدعة الاعتزال وقد توالت يد العلماء عليه بالرد والتفنيد والاختصار والتخريج لأحاديثه. انظر كشف الظنون (٢/ ١٤٧٥).

* **تفسير الطبري المسمى جامع البيان** ٣٠١، ٣٣٦، ٥٨١، ٥٨٢، ٦١٠، ٧٣٣

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، وهو أجل التفاسير وأعظمها وشهرته تغني عن التعريف به. انظر كشف الظنون (١/ ٤٣٧).

* **تفسير ابن عطية المسمى (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)** ٣٠٧

للإمام أبي محمد عبدالحق بن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية الغرناطي المحاربي (ت٥٤١هـ)، قال شيخ الإسلام عن تفسيره (هو خير من تفسير الزمخشري وأصح منه نقلاً وبحثاً وأبعد من البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير) انظر مجموع الفتاوى (٢/ ١٩٤).

* **تفسير القرطبي المسمى (جامع أحكام القرآن المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان** ٣٠٤، ٣٠٥

لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي المالكي (ت٦٦٨هـ)، وهو كتاب كبير مشهور بتفسير القرطبي، وقد جمع فيه جملاً طيبة من الفقه والأحكام. انظر كشف الظنون (١/ ٥٣٤).

* **تفسير أبي الليث السمرقندي** ٢٠٠

لأبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي المشهور بإمام الهدى (ت٣٧٥هـ)، وقد خرج إحاديث الشيخ زيد الدين قاسم بن قطلوبغا، ولم يطبع بعد.

انظر كشف الظنون (١/٤٤١).

* تفسير الواحدي ٣٠٤

وله البسيط والوسيط والوجيز وتسمى الثلاث: الحاوي لجميع المعاني وقد طبع الوسيط مؤخراً، وهو مختصر وفيه فوائد غزيرة. وانظر كشف الظنون (١/٤٦٠)، (١/٦٢٩).

* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ١٠٢٤

للحافظ أبي عمر يوسف بن عبدالله القرطبي ابن عبدالبر (٤٦٣هـ). قال فيه ابن حزم: هو كتاب في الفقه والحديث ولا أعلم نظيره اهـ. تم طباعته بالمغرب سنة١٤١١هـ. وهو أشهر من أن يعرف به. انظر كشف الظنون (٢/١٩٠٧).

* تهافت التهافت ١٣٨

لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي (ت٥٩٥هـ)، وقد رد به على كتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة) فأخطأ في عنوان كتابه ومضمونه. انظر كشف الظنون (١/٥١٢).

* التوراة ٥٠٠، ٦٧٧، ٧٢٥

كلام الله تعالىٰ المنزل على موسى عليه السلام، وكان بالعبرانية لكن اليهود بدلوه وحرفوه ومنها توراة السبعين التي اتفق عليها ٧٢ من أحبارهم وهي خمسة أسفار في بدء الخليقة والتاريخ ثم التكوين والرؤيا وغير ذلك. انظر كشف الظنون (١/٥٠٤).

* الحوادث والبدع ٨٠٨

لشهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي أبو القاسم المقدسي الدمشقي الشافعي المشهور بأبي شامة لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، وكتابه يسمى بالبدع والحوادث ويسمى الباعث على إنكار البدع والحوادث وهو مطبوع متداول. انظر كشف الظنون (٥/٥٢٤، ٥٢٥).

* **الحيدة والإعذار في الرد على من قال بخلق القرآن** ٦٩٨، ١٠٣٥

المنسوب لعبدالعزيز بن يحي بن عبدالعزيز الكناني أبي الحسن المكي صاحب الشافعي (ت٢٤٠هـ)، وهذا الكتاب تفرد بروايته محمد بن الحسن بن ازهر الدعاء، وقد اتهمه الخطيب أنه يضع الحديث، وذكر الذهبي في الميزان أنه هو الذي وضع هذا الكتاب (٣/ ٤٤)، وبالكتاب مواضع بها ملحظ كإنكار صفة السمع والبصر مع إثبات أسماء (السميع والبصير)، وانظر تعليق الشيخ الألباني (ص١٨٤-١٨٥) على شرح الطحاوية. انظر كشف الظنون (١/ ٦٩٤).

* **الرسالة للقشيري** ٤٦١

لأبي القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القُشيري الخراساني الشافعي الصوفي الأشعري. والرسالة كتاب في أعمال القلوب وطريقة أهل التصوف. انظر كشف الظنون (١/ ٨٨٢).

* **ري الظمآن** ٣٥٤

للإمام شرف الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد أبي الفضل السلمي المرسي السلمي (ت٦٥٥هـ)، وكتابه ري الظمآن في التفسير، كتاب كبير بحث فيه علم المناسبات، وارتباط الآي بعضها ببعض.

* **الزبـور** ٦٧٧، ٧٢٥

كتاب الله المنزل على داود عليه السلام قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝﴾ [الإسراء:٥٥]. انظر كشف الظنون (٢/ ٩٥٤).

* **شرح التأويلات** ٣٠٨

وهو تفسر كبير لأبي المنصور الماتريدي.

* **شرح معاني الآثار** ٧٨٥

لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي (ت٣٢١هـ) ألفه في الآثار

المأثورة عن النبي ﷺ في الأحكام، وقد توالت عليه أيدي العلماء بالشرح والتهذيب والاشتغال به، وللبيهقي كلام عليه لا يعتمد عليه. انظر كشف الظنون (٢/١٧٢٨).

* الشفا ٥٨٦

للإمام الحافظ العلامة أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي عالم المغرب (ت٥٠٤هـ). وكتابه على أربعة أقسام: القسم الأول في تعظيم الله للنبي ﷺ، والقسم الثاني فيما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ، والقسم الثالث فيما يستحيل في حقه وما يجوز وما يمتنع ويصح، والقسم الرابع في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سبه. انظر كشف الظنون (٢/١٠٥٢).

* الصحاح ٤٥١، ٦٧٠

لإسماعيل بن حماد أبي نصر الجوهري (ت٣٩٣هـ) ولم يتم تبييضه، فبيضه تلميذه من بعد حرف الضاد فوقع فيه بعض الأغلاط تتبعها عليه العلماء، وهو فرد في بابه له مختصرات وقد شبهه السيوطي في اللغة بصحيح البخاري في الحديث.

* صفة العرش ٦١٠

للإمام أبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الحافظ الكوفي صاحب المصنف (ت٢٣٥هـ)

* العُمَد ١٣٧

لعبدالجبار بن أحمد الهمذاني شيخ المعتزلة القاضي (ت٤١٥هـ).

وكتابه في الأصول وعلم الكلام وهو أصل كتاب المعتمد فقد شرحه أبو الحسين محمد بن علي البصري المعتزلي واستقصى القول فيه، ثم اختصر مسائل لأصول الفقه وزاد زيادات، وسماه (المعتمد في أصول الفقه) وهو من أعمدة كتب الأصول على طريقة المتكلمين المطبوعة.

* عوارف المعارف ٣٩٢

لشهاب الدين عمر بن محمد بن عبدالله السُّهْرَوَرْدِي الصوفي البغدادي (ت٦٣٢هـ)

فيه (٦٣) باباً في السيرة الصوفية واحوال سلوكهم وأعمالهم كما ذكر وعلق عليه الجرجاني (ت٨١٦هـ). انظر كشف الظنون (٢/ ١١٧٧هـ).

* الفاروق في الفرق بن المثبتة والمعطلة ٢٣٤، ٦٢٠
لأبي إسماعيل الأنصاري الهروي صاحب منازل السائرين (ت٤٨١).
وهو من اسمه يبحث في التوحيد ويرد على المعطلة ويذكره شيخ الإسلام وغيره، وذكره ابن رجب في ذيله على طبقات الحنابلة (ص٥١)، وانظر هامش رقم ٢ ص٣٥٨ من تحقيق الجزء الخامس من منهاج السنة ط. الإمام.

* الفتاوى الظهيرية ١٢٨
لظهير الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن عمر البخاري القاضي (ت٦١٩هـ).
فتاوى في الواقعات والنوازل مما يشتد الافتقار إليه وفوائد غير هذه كما في مقدمته، وانتخب منه البدر العيني (ت٨٥٥هـ) ما يكثر الاحتياج إليه وحذف ماكثر الاطلاع عليه. انظر كشف الظنون (٢/ ١٢٢٦)، والفوائد البهية (ص١٥٦ ـ ١٥٧).

* فصوص الحِكَم ٧٩٣
لشيخ الاتحادية محي الدين أبي عبدالله محمد بن على ابن عربي الطائي الحاتمي الأندلسي (ت٦٣٨هـ)، وهو (٢٧) فصاً أوائلها:
١ـ فص حكمة إلهية في كلمة آدمية ٢ـ نفثية في شيثية ٣ـ سبوحيه في نوحيه. . إلخ، وزعم في أوله أن النبي ﷺ أعطاه إياه مناماً وأمره أن يخرج به إلى الناس . انظر كشف الظنون (٢/ ١٢٦٢)، وهو كتاب فاسد مشتمل على جملة من عقائد الاتحادية التي هي أخبث أنواع الاعتقاد وإن صدق في دعواه الرؤيا فلعله رأى شيطاناً ولم ير نبياً

* الفقه الأكبر ٤٨٣
المنسوب الإمام النعمان بن ثابت أبي حنيفة الإمام الفقيه المشهور (ت١٥٠هـ) رواه عنه أبو مطيع البلخي وقد شرحه أبو منصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ) وشرحه العلامة على القاري (ت١٠١٤هـ)، وفي شرح القاري نقول من شرح ابن أبي العز

دون أن يشير له. انظر ترجمته في كشف الظنون (٢/١٢٨٧).

* قنية المنية لتتميم الغنية ٩٤٦

لمختار بن محمود بن محمد أبي رجاء الزاهدي الغزميني الحنفي (ت٦٥٨هـ)
وكتابه هذا هو مختصر من (منية الفقهاء) لفخر الدين بديع بن أبي منصور الحنفي شيخه في المذهب، وهو كتاب حافل كما يدل عليه نقول ابن عابدين عنه في (رد المحتار على الدر المختار). انظر الفوائد البهية (ص٢١٢، ٢١٣)، وكشف الظنون (ص٣٥٧، ١٨٨٦).

* كتاب السنة ٦٦٨

للإمام عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٩٠هـ)
وكتابه هذا جمع فيه أبواب من اعتقاد السلف وأسندها كلها، وجملة ما فيه من الأحاديث والآثار (١٤٨١) حديثاً وأثراً وهو مفيد في بابه. انظر ط.دار الكتب العلمية بتحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول سنة١٤٠٥هـ.

* كشف علم الآخرة ٩٧٠

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ)

* مآل الفتاوى ٦٦٢

لأبي القاسم محمد بن يوسف العلوي السمرقندي الحنفي (ت٥٥٦هـ). انظر الفوائد البهية (٢١٩ ـ ١٢٠)، وكشف الظنون (٢/ ١٥٧٤، ١٨١٣).

* المطالب العالية ٦٨٣

لفخر الدين محمد بن عمر الرازي الأصولي المفسر (ت٦٠٦هـ). انظر كشف الظنون (٢/ ١٧١٤).

فهرس المراجع[1]

١ـ الإبانة ـ لابن بطة ـ تحقيق رضا نعسان معطي ـ المكتبة الفيصلية ـ مكة المكرمة.

٢ـ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ـ للسيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ ١٤٠٩هـ.

٣ـ الإحكام ـ لابن حزم ـ تحقيق محمد أحمد عبدالعزيز ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة عاطف ـ القاهرة ـ ١٣٩٨هـ.

٤ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ـ نشر مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٣٦٩هـ.

٥ـ الأسماء والصفات ـ للبيهقي ـ تعليق محمد زاهد الكوثري ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٦ـ الإصابة ـ لابن حجر ـ تحقيق محمد على محمد البجاوي ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة.

٧ـ إغاثة اللهفان ـ لابن القيم ـ ط. الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٨١هـ.

٨ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ـ للباقلاني ـ تحقيق الكوثري ـ مؤسسة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٦٣م.

٩ـ الباعث على إنكار البدع والحوادث ـ لأبي شامة ـ ط. الأصفهاني ـ جدة ـ السعودية.

١٠ـ بدائع الفوائد ـ لابن القيم ـ تعليق محمود غانم غيث ـ ط. ٢ ـ مكتبة القاهرة ـ ١٣٩٢هـ.

---

(١) المراد مراجع التقريب والترتيب لا مراجع شرح ابن أبي العز، وهذه المراجع رجعت إليها كلها إلا نذر يسير نقلت عنه بواسطة رجاء أن أرجع إلى نفس الطبعة ولم يتيسر لي ذلك فالحمد لله على كل حال، ورأيت أن أثبت نفس الطبعة التي أثبتها المرجع الذي استفدت منه زيادة في الإفادة.

١١ـ البداية والنهاية ـ للحافظ ابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) ـ تحقيق جمع من الأساتذة ـ نشر دار الريان للتراث ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٨هـ.

١٢ـ التحفة المهدية شرح التدمرية ـ لفالح بن مهدي آل مهدي ـ نشر مكتبة الحرمين ـ الرياض ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٥هـ.

١٣ـ تخريج السنة لابن أبي عاصم ـ تحقيق الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

١٤ـ التذكرة ـ للقرطبي ـ ط. العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٢م.

١٥ـ التسعينية ـ لابن تيمية ـ مطبعة كردستان العلمية ـ القاهرة ـ ١٣٢٩هـ.

١٦ـ تعليق الألباني على شرح الطحاوية ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٨هـ ـ بيروت.

١٧ـ تفسير البحر المحيط ـ لأبي حيان ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٩٨هـ.

١٨ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل) ـ للبغوي ـ تحقيق عثمان جمعة ضميرية وآخرين ـ دار طيبة ـ الرياض ـ ١٤٠٩ه.

١٩ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ـ لابن كثير ـ مكتبة دار التراث ـ القاهرة.

٢٠ـ تفسير النسفي ـ للنسفي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢١ـ تقريب التهذيب ـ لابن حجر ـ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ـ المكتبة العلمية ـ المدينة المنورة.

٢٢ـ جامع بيان العلم وفضله ـ لابن عبدالبر ـ تحقيق أبي الأشبال الزهيري ـ ط. دار ابن الجوزي.

٢٣ـ جامع الرسائل ـ لابن تيمية ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٩هـ.

٢٤ـ جامع العلوم والحكم ـ لابن رجب ـ ط. ٤ ـ ط. مصطفى البابي الحلبي ـ ١٣٩٣هـ.

٢٥ـ جلاء الأفهام ـ لابن القيم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

٢٦ـ الجواب الصحيح ـ لابن تيمية ـ تحقيق د. علي بن حسين بن ناصر و د. أحمد الحمدان ـ ط. دار العاصمة.

٢٧ـ الجواب الصحيح ـ لابن تيمية ـ تحقيق العسكر وآخرين.
٢٨ـ الجواب الكافي ـ لابن القيم ـ دار الندوة الجديدة ـ بيروت ـ ١٤٠٠هـ.
٢٩ـ جوهرة التوحيد.للقاني
٣٠ـ حاشية السنن ـ لابن القيم ـ مطبوع مع مختصر سنن ابي داود للمنذري ـ المكتبة الأثرية ـ باكستان.
٣١ـ حادي الأرواح ـ لابن القيم ـ تحقيق بشير عيون ـ ط.مكتبة المؤيد ـ الرياض.
٣٢ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ لأبي نعيم ـ مطبعة السعادات ـ مصر ـ ١٣٩٤هـ.
٣٣ـ الحيدة ـ لعبدالعزيز الكناني ـ تحقيق جميل صليبا ـ مطبوعات المجمع العلمي العربي ـ دمشق.
٣٤ـ خلق أفعال العباد ـ للبخاري ـ تحقيق محمد السعيد بسيوني ـ ط.مكتبة التراث ـ مصر.
٣٥ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ـ للسيوطي ـ مطبعة دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣هـ.
٣٦ـ دلائل النبوة ـ للبيهقي ـ تحقيق قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط.١٤٠٥هـ.
٣٧ـ ديوان شعر ـ عمرو بن معديكرب (بواسطة طبعة مؤسسة الرسالة لشرح الطحاوية)
٣٨ـ ديوان شعر ـ لبيد (بواسطة طبعة مؤسسة الرسالة لشرح الطحاوية)
٣٩ـ ديوان المتنبي ـ شرح العكبري
٤٠ـ الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك ـ لابن تيمية ـ تحقيق د. محمد عبدالله السمهري ـ دار بلنسية ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٥هـ.
٤١ـ رسالة الحسنة والسيئة ـ لابن تيمية ـ ضمن مجموع الفتاوى (جزء ١٤) ـ وطبع منفرداً بالدار المصرية للنشر والتوزيع ـ ١٤٠٩هـ.
٤٢ـ الرسالة القبرصية لابن تيمية
٤٣ـ الروح ـ لابن القيم ـ دار الكتاب العربي ـ تحقيق السيد الجميلي ط.٢.

٤٤ـ الروض الأنف في شرح السيرة لابن هشام ـ للسهيلي ـ تحقيق عبدالرحمن الوكيل ـ ط.١ ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة١٣٨٧هـ.
٤٥ـ روضة المحبين ـ لابن القيم ـ تحقيق السيد الجميلي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ.
٤٦ـ زاد المسير في علم التفسير ـ لابن الجوزي ـ الطبعة الأولى ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ دمشق ـ ١٩٦٤م.
٤٧ـ زاد المعاد ـ لابن القيم ـ تحقيق الأرناؤوطيين ـ ط.مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثالثة عشر ـ ١٤٠٦هـ.
٤٨ـ السنة ـ لعبدالله بن أحمد ـ تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول ـ نشر الباز ـ مكة.
٤٩ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ دار الكتب الغلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ.
٥٠ـ سنن الدار قطني ـ ط.دار المحاسن ـ القاهرة ـ ١٣٨٦هـ.
٥١ـ سنن أبي داود ـ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ـ دار إحياء التراث الإسلامي ـ بيروت.
٥٢ـ السنن الكبرى ـ للبيهقي ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٥٣ـ سنن ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ المكتبة الفيصلية ـ مكة المكرمة ـ مصور من مطبعة دار إحياء التراث الإسلامي.
٥٤ـ سنن النسائي ـ بترقيم عبدالفتاح أبوغدة ـ ط.٢ ـ دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.
٥٥ـ سير أعلام النبلاء ـ للذهبي ـ بإشراف شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٥٦ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ط. مصطفى الحلبي ـ القاهرة.
٥٧ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة ـ للالكائي ـ تحقيق أحمد سعد حمدان ـ دار طيبة ـ الرياض.
٥٨ـ شرح التلخيص ـ دار الفكر العربي ـ ضبط: عبدالرحمن البرقوني.
٥٩ـ شرح السنة ـ للبغوي ـ بتحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش ط. المكتب الإسلامي.

٦٠ـ شرح صحيح مسلم ـ للنووي ـ المطبعة المصرية ومكتبتها .
٦١ـ شرح الطحاوية ـ تحقيق وتعليق الأرناؤوط و التركي ـ ط . مؤسسة الرسالة .
٦٢ـ شرح العقيدة الواسطية ـ للهراس ـ تخريج : خالد فوزي عبدالحميد ـ ط . دار الثقافة ـ مكة .
٦٣ـ شرح الفقه الأكبر ـ لعلي القاري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ .
٦٤ـ شرح القاموس المسمى تاج العروس ـ للزبيدي ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ مصورعن الطبعة الأولى ـ ١٣٩٠هـ .
٦٥ـ شرح كتاب التوحيد ـ للشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان ـ ط . مكتبة لينة للنشر والتوزيع ـ دمنهور ـ مصر ـ ١٤٠٩هـ .
٦٦ـ شرح معاني الآثار ـ للطحاوي ـ مطبعة الأنوار المحمدية ـ مصر ـ ١٣٨٧هـ .
٦٧ـ شرح المواقف ـ للإيجي ـ شرحه الشريف الجرجاني ـ تحقيق د . أحمد المهدي (بواسطة رسالة الدكتور المحمود ـ موقف ابن تيمية من الأشاعرة)
٦٨ـ شرح نونية ابن القيم ـ لأحمد بن إبراهيم بن عيسى ـ ط . الثالثة ـ المكتب الإسلامي ـ ١٤٠٦هـ .
٦٩ـ شرح الهداية ـ للعيني (بواسطة طبعة مؤسسة الرسالة لشرح الطحاوية)
٧٠ـ الشريعة ـ للآجري ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ نشر حديث آكادمي ـ فيصل آباد ـ باكستان .
٧١ـ شفاء العليل ـ لابن القيم ـ ط . دار التراث ـ القاهرة .
٧٢ـ صحيح البخاري ـ مطبوع مع فتح الباري شرح صحيح البخاري .
٧٣ـ صحيح ابن حبان ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٧٤ـ صحيح مسلم ـ ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي .
٧٥ـ الضعفاء الكبير ـ للعقيلي ـ تحقيق عبدالمعطي أمين قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٤هـ .
٧٦ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ لابن السبكي ـ تحقيق محمود الطناحي و عبدالفتاح الحلو ـ ط . عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .
٧٧ـ العقل والنقل ـ لابن تيمية ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ ط . جامعة الإمام ـ ١٩٨٠م .

٧٨ـ علامات يوم القيامة ـ تحقيق وتعليق عبداللطيف عاشور ـ نشر مكتبة القرآن.
٧٩ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ لابن حجر العسقلاني ـ دار المعرفة ـ بيروت. وكذلك طبعة دار الريان للتراث.
٨٠ـ فتح القدير ـ للشوكاني ـ ط. الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٤٩هـ.
٨١ـ الفتوحات المكية ـ لابن عربي الطائي (بواسطة طبعة مؤسسة الرسالة لشرح الطحاوية)
٨٢ـ الفِصَل ـ لابن حزم ـ تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبدالرحمن عميرة ـ الطبعة الأولى ـ نشر شركة مكتبات عكاظ ـ السعودية ـ ١٤٠٢هـ.
٨٣ـ الفصوص ـ لابن عربي ـ تحقيق وتعليق أبي العلاء عفيفي. (بواسطة طبعة مؤسسة الرسالة لشرح الطحاوية)
٨٤ـ فضائل القرآن ـ لأبي عبيد ـ تحقيق وهب بن سليمان غاوجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١١هـ.
٨٥ـ الكامل في الضعفاء ـ لابن عدي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٠٤هـ.
٨٦ـ الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ت. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت.
٨٧ـ كبرى اليقينيات ـ للدكتور البوطي ـ
٨٨ـ الكتاب ـ سيبويه ـ (بواسطة طبعة مؤسسة الرسالة لشرح الطحاوية)
٨٩ـ كتاب البعث والنشور ـ للبيهقي ـ نشر مركز الخدمات والأبحاث الثقافية ـ لبنان ـ ط. ١ ـ ١٤٠٦هـ.
٩٠ـ كتاب التوحيد ـ لابن خزيمة ـ راجعه وعلق عليه د. محمد خليل هراس ـ ط. دار الفكر.
٩١ـ كتاب قتال أهل البغي «من الحاوي» ـ تحقيق د. إبراهيم صندقجي.
٩٢ـ كشف الأستار عن زوائد البزار ـ للهيثمي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٣٩٩هـ.
٩٣ـ الماتريدية دراسة وتقويماً ـ لأحمد بن عوض اللهيبي الحربي ـ دار العاصمة للنشر والتوزيع ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٣هـ.
٩٤ـ مجمع البحرين في زوائد المعجمين للهيثمي.
٩٥ـ مجمع الزوائد ـ للهيثمي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٢هـ.
٩٦ـ مجموع الفتاوى ـ لابن تيمية ـ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد القاسم ـ ط. الأولى ـ الرياض ـ ١٣٨١هـ.

٩٧ـ مجموعة الرسائل المنيرية
٩٨ـ مختار الصحاح ـ نشر مكتبة لبنان ـ ١٩٨٩م .
٩٩ـ مختصر الصواعق المرسلة ـ لابن القيم ـ اختصره محمد بن الموصلي ـ تصحيح محمد عبدالرزاق حمزة ـ توزيع رئاسة البحوث العلمية والافتاء ـ الرياض .
١٠٠ـ مدارج السالكين ـ لابن القيم ـ تحقيق وتعليق : محمد المعتصم بالله البغدادي ـ نشر دار الكتاب العربي ـ ط . الأولى ـ ١٤١٠هـ .
١٠١ـ المستدرك على الصحيحين ـ للحاكم ـ وبذيله التلخيص للذهبي ـ توزيع دار الباز ـ مكة المكرمة .
١٠٢ـ المسند ـ للإمام أحمد ـ بترقيم محمد بن عبدالسلام بن عبدالشافي ـ توزيع مكتبة دار الباز ـ مكة ـ والصفحات المتوافقة مع المطبعة الميمنية .
١٠٣ـ مسند الفردوس ـ للشهاب القضاعي ـ (بواسطة طبعة مؤسسة الرسالة لشرح الطحاوية)
١٠٤ـ مشارق الأنوار ـ للقاضي عياض ـ ط . المكتبة العتيقة ـ دار التراث .
١٠٥ـ مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ـ للبوصيري ـ تحقيق موسى محمد علي و عزت على عطية ـ نشر دار الكتب الحديثة ـ القاهرة .
١٠٦ـ المصنف ـ لابن أبي شيبة ـ الدار السلفية ـ الهند .
١٠٧ـ معالم أصول الدين ـ للرازي ـ تصحيح طه عبدالرؤوف سعد ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ مصر ـ ودار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٤٠٤هـ .
١٠٨ـ معاني القرآن ـ للفراء (بواسطة طبعة مؤسسة الرسالة لشرح الطحاوية)
١٠٩ـ المعجم الكبير ـ للطبراني ـ ت : حمدي عبدالمجيد السلفي ـ ط . ١٣٩٩هـ .
١١٠ـ المغني ـ لابن قدامة ـ تحقيق : د . عبدالله بن عبدالمحسن التركي و الدكتور عبدالفتاح الحلو ـ ط . هجر للطباعة والنشر ـ مصر الطبعة الأولى ـ ١٤٠٦هـ .
١١١ـ مفتاح دار السعادة ـ لابن القيم ـ ط . دار الكتب العلمية .
١١٢ـ الملل والنحل ـ للشهرستاني ـ ت : محمد سيد كيلاني ـ ط . مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٣٨٧هـ .
١١٣ـ مناقب الشافعي ـ للبيهقي ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار التراث ـ القاهرة .
١١٤ـ منهاج السنة النبوية ـ لابن تيمية ـ تحقيق محمد رشاد سالم ـ ط . جامعة الإمام محمد

بن مسعود الإسلامية .
١١٥ـ موقف ابن تيمية من الأشاعرة ـ للدكتور عبدالرحمن المحمود ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٥هـ .
١١٦ـ المواقف في علم الكلام ـ لقصد الدين الإربي ـ ط . عالم الكتب ـ بيروت ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة (بواسطة رسالة الدكتور المحمود ـ موقف ابن تيمية من الأشاعرة) .
١١٧ـ ميزان الاعتدال ـ للذهبي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ ١٣٨٢هـ .
١١٨ـ النبوات ـ لابن تيمية ـ ط . دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٢هـ .
١١٩ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ لابن الأثير ـ ت . طاهر الزواوي و محمود الطناحي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي ـ ١٣٨٣هـ .
١٢٠ـ نهاية الإقدام ـ للشهرستاني ـ حرره وصححه الفريد جيوم من ط . ليدن . (بواسطة رسالة الدكتور المحمود ـ موقف ابن تيمية من الأشاعرة) .
١٢١ـ الوافي شرح الشاطبية ـ لعبدالفتاح القاضي ـ توزيع مكتبة السوادي ـ جدة ـ ١٤١١هـ .
١٢٢ـ الوحي المحمدي ـ لمحمد رشيد رضا ـ الطبعة العاشرة ـ المكتب الإسلامي ـ ١٩٨٥م .

فهرس الفوائد(1)

(١) وتشمل الفوائد التي إنتخبتها وضمنتها حواشي الكتاب، كما تشمل المسائل التي رد فيها الشارح على صاحب المتن، والمسائل التي أشار إليها الشارح ولم يتوسع فيها كما سبق وأن أشرت في المقدمة، وقد رتبت الفوائد على حسب ورودها في الكتاب.
ملاحظة: رمز (هـ) بجوار رقم الصفحة يشير أن الفائدة في الهامش.

فهرس الموضوعات